

# فتح البصائر في مقام القرآن

تفسير سلفي أثري خال من الإسراءيليات والجذليات المذهبية والكلامية  
يفني عن جميع التفاسير ولا تقني جميعها عنه

تأليف

السيد إمام العدالة الملك المؤيد مهدي الآبي  
أبي الطيب "صدمه بن حسن بن علي الحسين القنوجي البهازي  
"١٢٤٨-١١٣٠ هـ"

عني بطبعه وقدم له وراجعه

خادم العلم

عبدالله بن إبراهيم الأنصاري

الجزء السادس

المكتبة العصرية  
بيروت

# جميع الحقوق محفوظة

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م



شركة البناء شريف الانصاري  
للطباعة والنشر والتوزيع

المكاتب العامة للطباعة والنشر

الدار البيضاء - المغرب  
المطبعة العامة للنشر

بغروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تليكس ٥٥٢٤٠٠٤٤  
صيدا - ص.ب ٢٤١ - تليكس ٤٩١٩٨٤٤

فتح البصائر  
في مقام القرآن



الجزء السادس

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أوله تفسير سورة يونس من قوله تعالى:

الرَّتْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْعَكْبَرِ ﴿١﴾

- سورة هود -

- سورة يوسف - الك آخر السورة



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## سورة يونس عليه السلام

وهي مائة وتسع آيات وهي مكية . قال الحسن وعطاء وعكرمة وجابر: إلا ثلاث آيات ﴿ فان كنت فدا شك ﴾ الحد آخرهم قاله ابن عباس وبه قال قتادة . وقال مقاتل إلا آيتين ﴿ فان كنت فدا شك ﴾ الحد آخرهما أو ثلاث . وقال الكلبي إلا قوله ﴿ ومنهم من يؤمن به ﴾ الآية فانها نزلت بالمدينة .

وقالت فرقة من أولها نحو من أربعين آية مكية وباقها مدنية . قاله القرطبي . وقال ابن سيرين : كانت هذه السورة بعد السابعة . وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : إن الله أعطاكم الروايات أحد الطواسين مكان الإنجيل .

وعن الأحنف قال : طليت خلف عمر غداة فقرأ يونس وهود وغيرها : قال الطواحي : سميت السورة بذلك لذكر اسمه فيها وقصته . وقد جرت عادة الله بتسمية السورة ببعض أجزائها .





## الرَّتِّكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾

﴿الر﴾ قال الجلال: الله اعلم بمراده بذلك، قال الصاوي: هذا أحد الأقوال: وهو أتمها واسلمها. اهـ.

وقد تقدم الكلام مستوفى على هذه الحروف الواقعة في أوائل السور في أول سورة البقرة فلا نعيده ففيه ما يغني عن الاعادة.

وقد قيل إن معنى ﴿الر﴾ أنا الله أرى. قال النحاس: ورأيت أبا إسحاق يميل الى هذا القول لأن سيبويه قد حكى مثله عن العرب، وقال الحسن وعكرمة ﴿الر﴾ قسم، وقال قتادة ﴿الر﴾ اسم للسورة، وقيل غير ذلك مما فيه تكلف لعلم ما استأثر الله بعلمه.

وقد اتفق القراء على أن ﴿الر﴾ ليس بآية وعلى أن ﴿طه﴾ آية، وفي مقنع أبي عمرو والداني أن العاديين لـ «طه» آية هم الكوفيون فقط، ولعل الفرق أن ﴿الر﴾ لا تشاكل مقاطع الأبي التي بعدها.

﴿تلك﴾ أي ما تضمنته السورة من الآيات والتباعد للتعظيم، وقيل الآيات المتقدمة على هذه السورة، وقال مجاهد وقاتدة: أراد التوراة والانجيل وسائر الكتب المتقدمة فإن تلك اشارة الى غائب مؤنث، وقيل تلك بمعنى هذه أي هذه ﴿آيات الكتاب الحكيم﴾ وهو القرآن، ويؤيد كون اشارة الى القرآن انه لم يجر للكتب المتقدمة ذكر وان الحكيم من صفات القرآن لا من صفات غيره، والاضافة بمعنى من لأن هذه السورة بعض القرآن، والحكيم المحكم بالجلال والحرام والحدود والاحكام، قاله أبو عبيدة وغيره.

وقيل الحكيم معناه الحاكم فهو فعيل بمعنى فاعل، كقوله ﴿وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس﴾ وقيل بمعنى المحكوم، أي حكم الله فيه بالعدل والاحسان قال الحسن وغيره. وقيل الحكيم ذو الحكمة لاشتماله عليها، وقيل الحكيم المنظوم نظماً متقناً لا يعتربه خلل بوجه من الوجوه، وقيل الممتنع من الفساد، فيكون المعنى لا تغيره الدهور والمراد براءته من الكذب والتناقض.

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأُمُورَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

والاستفهام في قوله ﴿أكان الناس عجباً أن أوحينا أن أنذر الناس﴾ لانكار العجب مع ما يفيد من التقريع والتوبيخ، أي أكان يحاونا عجباً للناس، والعجب حالة تعتري الانسان من رؤية شيء على خلاف العادة، وقيل العجب ما لا يعرف سببه والمراد بالناس هنا أهل مكة، يعني قريشاً .

﴿إلى رجل منهم﴾ أي من جنسهم، وليس في هذا ما يقتضي العجب فإنه لا يلبس الجنس ويرشده ويخبره عن الله سبحانه إلا من كان من جنسه، ولو كان من غير جنسهم لكان من الملائكة أو من الجن ويتعذر المقصود حيثلذ من الارسال لانهم لا يأنسون اليه ولا يشاهدونه، ولو فرضنا تشككه لهم وظهوره فإما أن يظهر في غير شكل النوع الانساني وذلك أوحش لقلوبهم وأبعد من انسهم أو في الشكل الانساني فلا بد من انكارهم لكونه في الاصل غير انسان .

هذا ان كان العجب منهم لكونه من جنسهم، وان كان لكونه يتيماً او فقيراً فذلك لا يمنع من ان يكون من كان كذلك جامعاً من خصال الخير والشرف مالا يجمعه غيره وبالعأ في كمال الصفات الى حد يقصر عنه من كان غنياً او غير يتيم، وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يصطفيه الله بالرسالة من خصال الكمال عند قريش ما هو أشهر من الشمس وأظهر من النهار حتى كانوا يسمونه الأمين ﴿أن أنذر الناس﴾ أي خوفهم . قيل: أن هي المفسرة لأن في الایحاء معنى القول، وقيل مصدرية والانداز إخبار مع تخويف كما أن البشارة إخبار مع سرور.

﴿وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة كمسجد الجامع وصلاة الأولى وحب الحصيد، وفائدة هذه الإضافة التنبيه على زيادة الفضل ومدح القدم لأن كل شيء أضيف إلى الصدق فهو ممدوح ومثله مقعد صدق ومدخل صدق.

واختلفت عبارات المفسرين وأهل اللغة في معنى قدم صدق، فقيل منزل صدق، وقال الزجاج: درجة عالية، وقال ابن الأعرابي: القدم المتقدم في الشرف وقال أبو عبيدة والكسائي: كل سابق من خير أو شر فهو عند العرب قدم، يقال لفلان قدم في الإسلام وله عندي قدم صدق وقدم خير وقدم شر.

وقال ثعلب: القدم كل ما قدمت من خير. وقال ابن الأنباري: القدم كناية عن العمل الذي لا يقع فيه تأخير ولا إبطاء، وقال قتادة: سلفاً صدق، وقال الربيع والضحاك: ثواب صدق، وقال الحسن: هو محمد صلى الله عليه وسلم يشفع لهم، ونحوه عن زيد بن أسلم وهو قول قتادة.

وقال الحكيم الترمذي: قدمه صلى الله عليه وسلم في المقام المحمود، وقال مجاهد: الأعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقهم وتسيحهم، وقيل عمل صالح أسلفوه يقدمون عليه. قاله الحسن.

وقال الليث وأبو الهيثم: القدم السابقة أي سبق لهم عند الله خير، وقال مقاتل: أعمالاً قدموها واختاره ابن جرير. قال ابن عباس: ما سبق لهم من السعادة في الذكر الأول يعني اللوح المحفوظ. وقال أيضاً: أجراً حسناً بما قدموا من أعمالهم.

وعن ابن مسعود قال: القدم هو العمل الذي قدموه، قال الله سبحانه ﴿سنكتب ما قدموا وآثارهم﴾ والآثار ممثاهم، قال: مشى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين اسطوانتين من مسجده ثم قال: هذا أثر مكتوب، وقيل غير ما تقدم مما لا حاجة إلى التطويل بإيراده والروايات من التابعين وغيرهم في هذا كثيرة وقد قدمنا أكثرها، والسبب في إطلاق لفظ القدم على هذه المعاني أن

السعي والسبق لا يحصل إلا بالقدم، فسمى المسبب باسم السبب كما سميت  
النعمة بدأ لأنها تعطي باليد.

﴿قال الكافرون ان هذا لسحر مبين﴾ قرىء لساحر على أنهم أرادوا رسول  
الله صلى الله عليه وآله وسلم باسم الاشارة وقرىء لساحر على أنهم أرادوا  
القرآن، وقد تقدم معنى السحر في البقرة، والجملة مستأنفة كأنه قيل ماذا صنعوا  
بعد التعجب؛ وقال القفال: فيه اضممار والتقدير فلما أنذرهم قال الكافرون  
ذلك.

ثم إن الله سبحانه جاء بكلام يبطل به العجب الذي حصل للكفار من  
الايحاء إلى رجل منهم فقال ﴿ان ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة  
أيام﴾ من أيام الدنيا أي في قدرها لأنه لم يكن ثم شمس ولا قمر، ولو شاء  
لخلقهن في لحظة والعدول عنه لتعليم خلقه التأني والتمهل في الأمور، وتخصيص  
السته بالذكر مع أن الثبوت يتأتى بأقل منها وبأزيد عليها قد استأثر الله بعلمه.

والمعنى ان من كان له هذا الاقتدار العظيم الذي تضيق العقول عن  
تصوره كيف يكون ارساله لرسوله الى الناس من جنسهم عملاً للتعجب مع كون  
الكفار يعترفون بذلك فكيف لا يعترفون بصحة هذه الرسالة لهذا الرسول.

﴿ثم استوى على العرش﴾ استواء يليق به وهذه طريقة السلف المفوضين  
وقد تقدم تفسير هذه الآية في الاعراف بما فيه كفاية فلا نعيده هنا، قال  
الكرخي: ان الاستواء على العرش صفة له سبحانه بلا كيف. انتهى فهذه  
الصفة يجب الإيمان بها وإمرارها على ظاهرها من غير تأويل ولا تكيف ولا  
تعطيل ولا تمثيل ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وطريقة الخلف المؤولين محجوجة بنصوص الكتاب والسنة وأقوال سلف  
الامة وأئمتها، وظاهر الآية يدل على أنه تعالى انما استوى على العرش بعد خلق  
السموات والأرض لأن كلمة ثم للتراخي وذلك يدل على أنه تعالى كان قبل  
العرش غنياً عنه، فلما خلقه امتنع أن تنقلب حقيقته وذاته عن الاستغناء إلى

الحاجة فوجب أن يبقى بعد خلق العرش غنياً عنه، ولكن لما قال هو سبحانه وتعالى باستوائه عليه وجب الايمان به على ما يليق لجلاله .

ثم ذكر ما يدل على مزيد قدرته وعظيم شأنه مع ما مر من خلق هاتيك الأجرام العظام فقال ﴿يدبر الأمر﴾ وترك العاطف لأن جملة يدبر كالتفسير والتفصيل لما قبلها، وأصل التدبير النظر في أدبار الأمور وعواقبها لتقع على الوجه المقبول والشكل المحمود، وقال مجاهد: يقضيه ويقدره وحده على الوجه الأتم الأكمل، وقيل يبعث الأمر، وقيل ينزل الأمر، وقيل يأمر به ويمضيه، والمعنى متقارب؛ واشتقاقه من الدبر، والأمر الشأن وهو أحوال ملكوت السموات والأرض والعرش وسائر الخلق من الجزئيات الحادثة شيئاً فشيئاً على أطوار شتى لا تكاد تحصى .

﴿ما من شفيع﴾ يشفع عنده يوم القيامة ﴿إلا من بعد اذنه﴾ له في الشفاعة لأنه عالم بمصالح عباده في تدبيرهم فلا يجوز لأحد أن يسأله ما ليس له به علم، قال الزجاج: ان الكفار الذين خوطبوا بهذه الآية كانوا يقولون ان الأصنام شفعاؤنا عند الله، فرد الله عليهم بأنه ليس لأحد أن يشفع اليه في شيء إلا بعد اذنه لأنه أعلم بموضع الحكمة والصواب، وله التصرف المطلق في العالم، وقد تقدم معنى الشفاعة في البقرة، وفي هذا بيان لاستبداده بالأمور في كل شيء سبحانه وتعالى .

﴿ذلكم﴾ أي فاعل هذه الأشياء العظيمة من الخلق والتدبير ﴿الله ربكم﴾ أي سيدكم لا رب لكم سواه، وفي هذه الجملة زيادة تأكيد لقوله ﴿ان ربكم الله الذي خلق السموات والأرض﴾ ﴿فاعبدوه﴾ أمرهم بعبادته بعد أن بين لهم أنه الحقيق بها دون غيره لبديع صنعه وعظيم اقتداره فكيف تعبدون الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تنفع ولا تضر .

والاستفهام في قوله ﴿أفلا تذكرون﴾ للانكار والتوبيخ والتقريع لأن من له ادنى تذكروا أقل اعتبار يعلم بهذا ولا يخفى عليه .

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

ثم بين لهم ما يكون آخر أمرهم بعد الحياة الدنيا فقال ﴿إليه مرجعكم جميعاً﴾ وفي هذا من التهديد والتخويف ما لا يخفى ، والمراد بالمرجع الرجوع إليه سبحانه إما بالموت أو بالبعث أو بكل واحد منهما، وانتصاب ﴿وعد الله﴾ على المصدر أو هو منصوب بفعل مقدر.

ثم أكد ذلك الوعد بقوله ﴿حقاً﴾ فهو تأكيد للتأكيد، فيكون في الكلام من التوكيدة ما هو الغاية في ذلك وقرئ وعد الله حق على الاستئناف.

ثم علل سبحانه ما تقدم بقوله ﴿أنه﴾ بالكسر استئنافاً ﴿يبدأ الخلق﴾ أي ان هذا شأنه يبتدىء خلقه من التراب ﴿ثم يعيده﴾ إليه والخلق بمعنى المخلوق والمضارع بمعنى الماضي ، وعبر به استحضاراً للصورة الغريبة أو معنى الاعادة الجزاء يوم القيامة، قال مجاهد ينشئه ثم يميتة ثم يحييه للبعث، وقيل ينشئه من الماء ثم يعيده من حال إلى حال .

وقرئ أنه بالفتح وهي شاذة أي وعدكم الله انه يبدأ الخلق ثم يعيده أو التقدير لأنه يبدأ الخلق ، قال أحمد بن يحيى : التقدير حقاً ابدأؤه الخلق، وفي الآية دليل على امكان الحشر والنشر والمعاد وصحة وقوعه، ورد على منكري البعث.

ثم ذكر غاية ما يترتب على الإعادة فقال ﴿ليجزى الذين آمنوا وعملوا

الصالحات بالقسط ﴿ أي بالعدل الذي لا جور فيه أي يجزيهم متلبساً بالقسط أو متلبسين به أو بسبب قسطهم ، والمراد به هنا الايمان بدليل المقابلة في قوله بما كانوا يكفرون .

﴿والذين كفروا﴾ يحتمل وجهين أحدهما أن يكون مرفوعاً بالابتداء وجملة ﴿لهم شراب من حميم وعذاب أليم﴾ خبره والثاني أن يكون منصوباً عطفاً على الموصول قبله وتكون الجملة بعده مبينة لجزائهم، وقيل الجملة في محل نصب على الحال أي حال كونهم لهم هذا الشراب وهذا العذاب المؤلم .

ولكن يشكل على ذلك ان هذا الشراب وهذا العذاب الأليم هما من الجزاء والحميم الماء الحار الذي قد انتهى حره، وكل مسخن عند العرب فهو حميم، وتغيير الأسلوب للمبالغة في استحقاقهم للعقاب والتنبيه على ان المقصود بالذات من الابداء والاعادة هو الاثابة والعذاب وقع بالعرض وأنه تعالى يتولى اثابة المؤمنين بما يليق بلطفه وكرمه، ولذلك لم يعينه، وأما عقاب الكفرة فكأنه داء ساقه اليهم سوء اعتقادهم وسوء أفعالهم ﴿بما كانوا يكفرون﴾ أي بسبب كفرهم .

﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً﴾ ذكر ههنا بعض نعمه على المكلفين وهو مما يستدل به على وجوده ووحدته وقدرته وعلمه وحكمته باتقان صنعه في هذين النيرين المتعاقبين على الدوام بعد ما ذكر قبل هذا ابداعه للسموات والأرض واستواءه على العرش وغير ذلك .

والضياء قيل جمع ضوء كالسياط والسوط والحياض والحوض والأولى أن يكون ضياء مصدراً لا جمعاً ولا بد من تقدير مضاف أي جعل الشمس ذات ضياء والقمر ذا نور إلا أن يحمل على المبالغة كأنها جعلت نفس الضياء والنور قيل الضياء أقوى من النور، وقيل هو ما كان بالذات والنور ما كان بالعرض، فما قام

بالشمس يقال له ضياء وما قام بالقمر يقال له نور .

ومن هنا قال الحكماء ان نور القمر مستفاد من ضوء الشمس ، والشعاع الفائض من الشمس قيل جوهر ، وقيل عرض ، قال الصاوي : والحق انه عرض لقيامه بالأجرام ، وضياء مفعول ثان ان جعل الجعل بمعنى التصيير ، وحال ان جعل بمعنى الخلق ، قال السدي : لم يجعل الشمس كهيئة القمر لكي يعرف الليل من النهار وهو قوله ﴿فمحونا آية الليل﴾ الآية ، قال ابن عباس : وجوهها الى السموات وأقفيتهما الى الأرض ، وعن ابن عمرو مثله .

﴿وقدره﴾ أي قدر مسير القمر في ﴿منازل﴾ أو قدره ذا منازل وبه يعرف انقضاء الشهور والسنين وذلك ان الشهور المعتبرة في الشرع مبنية على رؤية الالهة والسنة المعتبرة في الشرع هي القمرية لا الشمسية ، ومنازله هي المسافة التي يقطعها في يوم وليلة بحركته الخاصة به وجملتها ثمانية وعشرون وهي معروفة منقسمة على اثني عشر برجاً لكل برج منزلان وثلاث منزل ينزل القمر في كل ليلة منزلاً منها إلى انقضاء ثمانية وعشرين لا يتخطاه ، فيبدو صغيراً في أول منازل ثم يكبر قليلاً قليلاً حتى يبدو كاملاً ، واذا كان في آخر منازل رق واستقوس ثم يستتر ليلتين لا يبصر ولا يرى إذا كان الشهر كاملاً أو ليلة إذا كان الشهر ناقصاً .

والكلام في هذا يطول وقد جمع الشوكاني فيه رسالة مستقلة جواباً عن سؤال أورده عليه بعض الأعلام ، وقيل ان الضمير راجع الى كل واحد من الشمس والقمر كما قيل في قوله تعالى ﴿واذا رأوا تجارة أو هواً انفضوا إليها﴾ وقوله ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ وقد قدمنا تحقيق هذا فيما سبق من هذا التفسير والأولى رجوع الضمير الى القمر وحده كما في قوله تعالى ﴿والقمر قدرناه منازل﴾ .

ثم ذكر بعض المنافع المتعلقة بهذا التقدير فقال ﴿لتعلموا﴾ بذلك التقدير



﴿عدد السنين والحساب﴾ أي حساب الشهور والأيام والساعات ونقصانها وزيادتها ووقت دخولها وانقضائها، فإن في العلم بعدد السنين من المصالح الدينية والدينية ما لا يحصى ، وفي العلم بحساب الأشهر والأيام والليالي من ذلك ما لا يخفى . ولولا هذا التقدير الذي قدره الله سبحانه لم يعلم الناس بذلك ولا عرفوا ما يتعلق به كثير من مصالحهم، والسنة تتحصل من اثني عشر شهراً، والشهر يتحصل من ثلاثين يوماً إن كان كاملاً، ومن تسع وعشرين يوماً إن كان ناقصاً واليوم يتحصل من ساعات معلومة هي أربع وعشرون ساعة لليل والنهار، وقد يكون لكل واحد منها اثنتا عشرة ساعة في أيام الاستواء، ويزيد أحدهما على الآخر في أيام الزيادة وأيام النقصان، والاختلاف بين السنة الشمسية والقمرية معروف ذكرناه في لقطة العجلان وحجج الكرامة.

﴿ما خلق الله ذلك﴾ بين سبحانه انه ما خلق الشمس والقمر واختلاف تلك الأحوال ﴿إلا بالحق﴾ والصواب دون الباطل والعبث ، والاشارة بقوله ﴿ذلك﴾ الى المذكور قبله من جعل الشمس ضياء والقمر نوراً أو تقديره منازل والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال.

﴿يفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ معنى التفصيل تبينها والمراد بالآيات التكوينية او التنزيلية أو مجموعها ، ويدخل هذه الآيات التكوينية المذكورة هنا دخولاً أولياً في ذلك، قرىء يفصل بالياء والنون وهما سبعيتان ، وعلى الثانية فيه التفات .

إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ  
يَسْتَفْتُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا  
وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾

ثم ذكر سبحانه المنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في  
السموات والأرض من تلك المخلوقات فقال ﴿ان في اختلاف الليل والنهار﴾ أي  
في تعاقبها وكون كل منها خلفه للآخر بحسب طلوع الشمس وغروبها أو في  
تفاوتها في أنفسها بازدياد كل منها وانتقاص الآخر باختلاف حال الشمس  
بالنسبة إلينا قرباً وبعداً بحسب الأزمنة أو في اختلافها وتفاوتها بحسب الأمكنة  
أما في الطول والقصر فإن البلاد القريبة من القطب الشمالي أيامها الصيفية أطول  
وليلاتها الصيفية أقصر من أيام البلاد البعيدة منه ولياليها، وأما في أنفسها فإن  
كروية الأرض تقتضي أن يكون بعض الأوقات في بعض الأماكن ليلاً وفي مقابله  
نهاراً.

﴿وما خلق الله في السموات﴾ من ملائكة وشمس وقمر ونجوم وغير ذلك  
﴿والأرض﴾ من حيوان وجبال وبحار وأنهار وأشجار وغيرها ﴿آيات﴾ دلالات  
على قدرته تعالى ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الله سبحانه ويحسبونه معاصيه، خصهم بهذه  
الآيات لأنهم الذين يمعنون النظر والتفكير في مخلوقات الله سبحانه حذراً منهم عن  
الوقوع في شيء مما يخالف مراد الله سبحانه، ونظراً لعاقبة أمرهم وما يصلحهم في  
معادهم.

قال القفال: من تدبر في هذه الأحوال علم أن الدنيا مخلوقة لبقاء الناس  
فيها وإن خالقها وخالقهم ما أهملهم بل جعلها لهم دار عمل، وإذا كان كذلك  
فلا بد من أمر ونهي.

عن خليفة العبدى قال: لو أن الله تبارك وتعالى لم يعبد الا عن رؤية ما عبده أحد، ولكن المؤمنين تفكروا في مجيء هذا الليل اذا جاء فملاً كل شيء وغطى كل شيء وفي مجيء سلطان النهار اذا جاء فمحا سلطان الليل، وفي السحاب المسخر بين السماء والأرض، وفي النجوم وفي الشتاء والصيف، فوالله ما زال المؤمنون يتفكرون فيما خلق ربهم حتى أيقنت قلوبهم بربهم، وقد تقدم تفسير هذه الآية في نظائرها.

﴿ان الذين لا يرجون لقاءنا﴾ شرع الله سبحانه في شرح أحوال من لا يؤمن بالمعاد ومن يؤمن به، وقدم الطائفة التي لم تؤمن لأن الكلام في هذه السورة مع الكفار الذين يعجبون مما لا عجب فيه، ويهملون النظر والتفكر فيما لا ينبغي اهماله مما هو مساعد لكل حي طول حياته فيتسبب عن اهمال النظر والتفكر الصادق عدم الايمان بالمعاد.

ومعنى الرجاء هنا الخوف وقيل الطمع، فالمعنى على الأول لا يخافون عقاباً وعلى الثاني لا يطمعون في ثواب إذا لم يكن المراد باللقاء حقيقته، فإن كان المراد به حقيقته كان المعنى لا يخافون رؤيتنا أو لا يطمعون في رؤيتنا، وقيل المراد بالرجاء هنا التوقع فيدخل تحته الخوف والطمع فيكون المعنى لا يتوقعون لقاءنا فهم لا يخافونه ولا يطمعون فيه.

﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾ عوضاً عن الآخرة فعملوا لها ﴿واطمأنوا بها﴾ أي وقد سكنت نفوسهم اليها وفرحوا بها ﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ العطف انما هو لتغاير الصفات أي غفلوا عن آياتنا الكونية والشرعية لا يعتبرون بها ولا يتفكرون فيها قيل المراد بالآيات أدلة التوحيد وقيل عمدهم والقرآن.

أُولَئِكَ مَاؤُهُمُ النَّارُ مِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾

﴿أولئك﴾ أي المتصفون بالصفات السابقة من عدم الرجاء وحصول الرضا والاطمئنان والغفلة ﴿ماؤهم النار﴾ أي مثواهم ومكان إقامتهم ﴿بما كانوا﴾ أي بسبب ما كانوا ﴿يكسبون﴾ من الكفر والتكذيب بالمعاد، فهذا حال الذين لا يؤمنون بالمعاد.

وأما حال الذين يؤمنون به فقد بينه سبحانه بقوله ﴿إن الذين آمنوا﴾ أي فعلوا الإيمان الذي طلبه الله منهم بسبب ما وقع منهم من التفكير والاعتبار فيما تقدم ذكره من الآيات ﴿وعملوا الصالحات﴾ التي يقتضيها الإيمان وهي ما شرعه الله لعباده المؤمنين ﴿يهديهم ربهم بإيمانهم﴾ أي يرزقهم الهداية بسبب هذا الإيمان المضموم إليه العمل الصالح فيصلون بذلك إلى الجنة.

وعبارة أبي السعود يهديهم بسبب إيمانهم إلى ماؤهم ومقصدهم وهي الجنة وإنما لم تذكر تعويلاً على ظهورها وانسياق النفس إليها. قال القاضي: ومفهوم الترتيب وان دل على أن سبب الهداية هو الإيمان والعمل الصالح، لكن دل منطوق قوله بإيمانهم على استقلال الإيمان بالسببية وأن العمل الصالح كاللتمة والرديف له: انتهى.

وهذا رد لما في الكشف من أن الآية دلت على أن الاعتبار في الهداية إلى الجنة هو المقيد بالعمل الصالح لا المطلق، قال الخفاجي: وقد رد هذا بأن الجمع بين العمل الصالح والإيمان ظاهر في أنها السبب والتصريح بسببية الإيمان المضاف إلى الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالتنصيص على أنه ذلك الإيمان المقرون بما معه لا المطلق، لكنه ذكر لأصالته وزيادة شرفه فلا استدراك ولا دلالة على استقلاله ثم إن النزاع إنما هو في سبب الهداية إلى طريق الجنة لا إلى

الاستقامة على سلوك السبيل المؤدي الى الثواب وأن من لا يكون مهتدياً الى الجنة لا يدخل الجنة مطلقاً ومنعه مكابرة فتدبر . اهـ

وعبارة أبي السعود: وفي النظم الكريم اشعار بأن مجرد الايمان والعمل الصالح لا يكفي في الوصول الى الجنة، بل لا بد بعد ذلك من الهداية الربانية وأن الكفر والمعاصي كافية في دخول النار، ثم انه لا نزاع في أن المراد بالايمان الذي جعل سبباً لتلك الهداية هو ايمانهم الخاص المشفوع بالأعمال الصالحة لا الايمان المجرد عنها ولا ما هو أعم منها ، الا ان ذلك بمعزل عن الدلالة ، على خلاف ما عليه أهل السنة والجماعة من أن الايمان الخالي عن العمل الصالح يفضي الى الجنة في الجملة ولا يخلد صاحبه في النار، فإن منطوق الآية الكريمة أن الايمان المقرون بالعمل الصالح سبب للهداية الى الجنة، وأما ان كل ما هو سبب لها يجب أن يكون كذلك فلا دلالة لها ولا لغيرها عليه قطعاً، كيف لا وقوله عز وجل ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ مناد بخلافه فإن المراد بالظلم هو الشرك كما أطبق عليه المفسرون، والمعنى لم يخلطوا ايمانهم بشرك .

ولئن حمل على ظاهره أيضاً يدخل في الاهتداء من آمن ولم يعمل صالحاً ثم مات قبل أن يظلم بفعل حرام أو بترك واجب . اهـ  
وقال النفي في المدارك: وهذا دليل على أن الايمان المجرد منج حيث قال: بإيمانهم ولم يضم اليه العمل الصالح .

ولفظ الخازن والمهايمي بإيمانهم وبأعمالهم ، وقال الصاوي: أي وبسبب أعمالهم أيضاً، فالايان والأعمال الصالحة سببان موصلان لدار السعادة ، أو المراد بالايمان الكامل ليشمل الأعمال، والمسألة من المعارك ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات .

﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ متأنفة أو خبر ثان لأن أو في محل نصب على الحال والمعنى من تحت بساتينهم أو من بين أيديهم لأنهم على سرر مرفوعة ﴿في جنات النعيم﴾ خبر آخر أو حال أخرى منه أو من الأنهار أو متعلق بتجري .

دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجُ دَعْوَتَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ  
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾

﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾ أي دعاؤهم ونداؤهم وطلبهم لما يشتهونه في الجنة هذا اللفظ وهو من باب الاسناد اللفظي ، وقيل هذا من باب الاسناد المعنوي فلا يلزم ان يقولوا هذا اللفظ فقط، بل يقولونه أو ما يؤدي معناه من جميع صفات التنزيه والتقديس .

قيل الدعاء العبادة كقوله ﴿وأعترلكم وما تدعون من دون الله﴾ وقيل معنى دعواهم هنا الادعاء الكائن بين المتخاصمين ، والمعنى ان أهل الجنة يدعون في الدنيا والآخرة تنزيه الله سبحانه من المعائب والاقرار له بالالهية ، وقيل قولهم وكلامهم .

قال القفال : أصله من الدعاء لأن الخصم يدعوا خصمه إلى من يحكم بينهما ، وقيل معناه طريقتهم وسيرتهم وذلك ان المدعي للشيء مواظب عليه فيمكن أن يجعل الدعوى كناية عن الملازمة وإن لم يكن في قوله سبحانك اللهم دعوى ولا دعاء وقيل معناه تمنيمهم كقوله ﴿ولهم ما يدعون﴾ وكان تمنيمهم في الجنة ليس إلا تسبيح الله وتقديسه .

وأخرج ابن مردويه عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قالوا سبحانك اللهم أتاهم ما اشتهاوا من الجنة من ربهم ، وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين .

فهذه الكلمة علامة بين أهل الجنة والخدم في احضار الطعام ، فإذا أرادوه قالوا سبحانك اللهم فيأتوهم به في الوقت على حسب ما يشتهون واضعين له على

الموائد في كل صحيفة لُبون من الطعام لا يشبه بعضه بعضاً فإذا فرغوا من الطعام حمدوا الله على ما أعطاهم كما يأتي فترفع الموائد عند ذلك..

قال الزجاج: أعلم الله ان أهل الجنة يبتدئون بتعظيم الله وتنزيهه ويختمون بشكر الله والثناء عليه وقيل انهم يلهمون ذلك كما ذكر في الحديث والمعنى نسبحك يا الله تسيحاً.

﴿وتحيتهم فيها سلام﴾ أي تحية بعضهم لبعض فيكون المصدر مضافاً الى الفاعل أو تحية الله أو الملائكة لهم فيكون من اضافة المصدر إلى المفعول، والتحية التكرمة بالحالة الجليلة أصلها أحياءك الله حياة طيبة، والسلام السلامة من كل مكروه وقد مضى تفسير هذا في سورة النساء.

﴿وآخر دعواهم﴾ أي وخاتمة دعائهم الذي هو التسيح في كل مجلس ﴿أن﴾ يقولوا ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ وليس معناه انقطاع الحمد فإن اقوال أهل الجنة واحوالها لا آخر لها والدعوى مشهورة في الادعاء لكنها وردت بمعنى الدعاء ايضاً وهو المراد هنا بقريظة ما بعده لأنه من جنس الدعاء، وتكون ايضاً بمعنى العبادة، وقد جوز ارادته هنا وان كانت الجنة ليست دار تكليف أي لا عبادة لهم غير هذا القول، والأول أظهر، والثاني أدق او المراد انه عبادة لهم تلذذاً لا تكليفاً ذكره الخفاجي؛ قال ابو السعود ولا يساعده تعيين الخاتمة اهـ.

قال النحاس: مذهب الخليل ان ﴿أن﴾ هذه مخففة من الثقيلة والمعنى انه الحمد لله، وقال المبرد يجوز ان تعملها خفيفة عملها ثقيلة والرفع أقيس، ولم يحك ابو عبيد إلا التخفيف، قال ابو الهذيل: الحمد أول الكلام وآخر الكلام ثم تلا هذه الآية.

﴿ وَلَوْ يَعِجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (١١) وَإِذْ آمَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضْرَهُ مَرَّكَانَ لَتَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾

ولما ذكر الله سبحانه الوعيد على عدم الايمان بالمعاد، ذكر ان هذا العذاب من حقه ان يتأخر عن هذه الحياة الدنيا فقال ﴿ولو يعجل الله للناس الشر﴾ أي اجابة دعائهم بالشر مما لهم فيه مضرة ومكروه في نفس او مال، والتعجيل تقديم الشيء قبل وقته، وقال القفال: لما وصفهم بالغفلة أكد ذلك بأن من غاية غفلتهم ان الرسول متى اندرهم استعجلوا العذاب، فيين الله سبحانه انه لا مصلحة في ايصال الشر اليهم فلعلهم يتوبون او يخرج من اصلاحهم من يؤمن.

قيل ومعناه لو عجل الله للناس العقوبة ﴿استعجالهم بالخير﴾ اي كما يستعجلون بالثواب والخير أي استعجالاً مثل استعجالهم قال مكي: وهذا مذهب سيويه أو تعجيلاً مثل استعجالهم، وهذا تقدير أبي البقاء وهو الطاهر، وقال الزمخشري: أصله تعجيله لهم بالخير وهو ضعيف جداً، وقيل منصوب على إسقاط كاف التشبيه أي كاستعجالهم، والاستعجال طلب العجلة.

﴿لفضي اليهم أجلهم﴾ أي لأهلكهم، وقيل معناه لأميتوا، قال ابن قتيبة: ان الناس عند الغضب والضجر قد يدعون على أنفسهم واهلهم وأولادهم بالموت وتعجيل البلاء كما يدعون بالرزق والرحمة واعطاء المسؤول،



يقول لو أجابهم الله اذا دعوه بالشئ الذي يستعجلون به استعجالهم بالخير لفرغ من اهلاكهم، ولكن الله عز وجل بفضله وكرمه يستجيب للداعي في الخير ولا يستجيب له في الشر، وقال مجاهد: في الآية هو قول الانسان لولده واهله عند الغضب لعنكم الله لا بارك الله فيكم، وقال سعيد بن جبير: هو قول الرجل للرجل اللهم العنه اللهم اخزه وهو يجب ان يستجاب له، وقال قتادة: هو دعاء الرجل على نفسه واهله وماله بما يكره ان يستجاب له فيه.

وقيل الآية خاصة بالكفار الذين انكروا البعث وما يترتب عليه، وقيل نزلت في النضر بن الحرث حين قال: اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء الآية.

وقرىء لقضي على البناء للفاعل وهي قراءة حسنة لمناسبة ذلك لقوله ﴿ولو يعجل الله﴾ وصورة القياس هكذا لو يعجل الله الشر للناس لاهلكهم لكنه لم يهلكهم بل امهلهم فلم يعجل لهم الشر، ويدل على هذا القول قوله ﴿فندر الذين لا يرجون لقاءنا﴾ اي لا يتوقعونه فالقاء للعطف على مقدر، يدل عليه الكلام فكأنه قيل لكن لا يعجل لهم الشر، ولا يقضي اليهم أجلهم فيذرهم اي فيتركهم ويمهلهم ﴿في طغيانهم﴾ اي الذي هو عدم رجاء اللقاء وانكار البعث والجزاء وما يتفرع على اعمالهم السيئة ومقاتلتهم الشنيعة، والطغيان التطاول وهو العلو والارتفاع ﴿يعمهمون﴾ يعني يتركهم بتحيرون في تطاولهم وتكبرهم وعدم قبولهم للحق استدراجاً لهم منه سبحانه وخذلاناً.

ثم بين سبحانه انهم كاذبون في استعجال الشر ولو اصابهم ماطلبوه لآظروا العجز والجزع فقال ﴿واذا مس الانسان الضر﴾ اي هذا الجنس الصادق على كل ما يحصل الضرر به كالمرض والفقر ﴿دعانا لجنبه﴾ اللام للوقت او بمعنى على اي دعانا مضطجماً ﴿او قاعداً او قائماً﴾ كأنه قال دعانا في جميع الاحوال المذكورة وغيرها، وخص المذكورة بالذكر لانها الغالب على

الانسان ولا يخلو عنها عادة وما عداها نادر كالركوع والسجود.

ويجوز ان يراد انه يدعو الله حال كونه مضطجعاً غير قادر على القعود، وقاعداً غير قادر على القيام وقائماً غير قادر على المشي والاول اولى، قال الزجاج: ان تعديد أحوال الدعاء أبلغ من تعديد أحوال المضرة لأنه اذا كان داعياً على الدوام ثم نسي في وقت الرخاء كان أعجب.

وعن أبي الدرداء قال: ادع الله يوم سرائك يستجاب لك يوم ضرائك.

واقول أنا أكثر من شكر الله على السراء ليدفع عني الضراء فإن وعده للشاكرين بزيادة النعم مؤذن بدفعه عنهم النقم لذهاب حلاوة النعمة عند وجود مرارة النقمة، اللهم اجمع لنا بين جلب النعم وسلب النقم فإننا نشكرك عدد ما شكرك الشاكرون ونحمدك عدد ما حمدك الحامدون بكل لسان في كل زمان ومكان.

﴿فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضره﴾ اي مضى على طريقته التي كان عليها قبل ان يمسه الضر. ونسي حالة الجهد والبلاء والضيق والفقر، وأهل جانب الله او مضى عن موقف الدعاء والتضرع لا يرجع إليه كأنه لا عهد له به كأنه لم يدعنا عند أن يمسه الضر الى كشف ذلك الضر الذي مسه.

وقيل معنى مر، استمر على كفره مشبهاً بمن لم يدعنا ولم يشكر ولم يتعظ، وهذه الحالة التي ذكرها الله سبحانه للداعي لا تختص بأهل الكفر بل تتفق لكثير من المسلمين تلين ألسنتهم بالدعاء وقلوبهم بالخشوع والتذلل عند نزول ما يكرهون بهم، فاذا كشفه الله عنهم غفلوا عن التضرع والدعاء وذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة التي أنعم الله بها عليهم من إجابة دعائهم ورفع ما نزل بهم من الضر ودفع ما أصابهم من المكروه.

وهذا مما يدل على ان الآية تعم المسلم والكافر كما يشعر به لفظ الناس ولفظ الانسان. اللهم اوزعنا شكر نعمك وأذكرنا الاحوال التي مننت علينا فيها بإجابة الدعاء حتى نستكثر من الشكر الذي لا نطبق سواه ولا نقدر على غيره، وما اغناك عنه واحوجنا اليه ولئن شكرتم لأزيدنكم.

﴿كذلك﴾ اي مثل ذلك التزيين العجيب اي كما زين له الدعاء عند الضرر والإعراض عند الرخاء ﴿زين للمصرفين ما كانوا يعملون﴾ أي عملهم، والمصرف في اللغة هو الذي ينفق المال الكثير لأجل الغرض الخسيس، والتزيين هو إما من جهة الله تعالى على طريق التخلية وعدم اللطف بهم او من طريق الشيطان بالوسوسة أو من طريق النفس الأمارة بالسوء؛ والمعنى إنه زين لهم الإعراض عن الدعاء والغفلة عن الشكر والاشتغال بالشهوات.

ثم ذكر سبحانه ما يجري مجرى الردع والزجر عما صنعه هؤلاء فقال ﴿ولقد اهلكنا القرون﴾ يعني الأمم الماضية ﴿من قبلكم﴾ أي قبل هؤلاء الكفار المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم يعني أهلكتناهم من قبل زمانكم، وقيل الخطاب لأهل مكة على طريق الالتفات للمبالغة في الزجر.

﴿لما ظلموا﴾ أي أهلكتناهم حين فعلوا الظلم بالتكذيب والتجارؤ على الرسل والتطاول في المعاصي من غير تأخير لاهلاكهم كما أخرنا إهلاككم. وقيل الظلم هنا الشرك أي لما أشركوا.

﴿وجاءتهم رسلكم﴾ الذين أرسلناهم اليهم ﴿بالبينات﴾ أي بالآيات الواضحات الدالة على صدق الرسل ﴿وما كانوا ليؤمنوا﴾ الجملة اعتراضية واللام لتأكيد النفي، أي وما صح لهذه الأمم وما استقام أن يؤمنوا برسلكم لعدم استعدادهم لذلك وسلب اللطاف عنهم.

﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾ أي مثل ذلك الجزاء وهو الاستئصال الكلي لكل مجرم، وهذا وعيد شديد لمن كان في عصره من الكفار او لكفار مكة على الخصوص.

ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتَ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾

ثم خاطب سبحانه الذين بعث اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ﴿ثم جعلناكم خلائف﴾ اي استخلفناكم ﴿في الأرض﴾ بعد تلك القرون التي تسمعون اخبارها وتنظرون آثارها، والخلائف جمع خليفة، وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة الانعام.

﴿لننظر كيف تعملون﴾ اللام لام كي اي لكي ننظر اي عمل تعملونه من اعمال الخير والشر، او على أي حالة تعملون الاعمال اللاتفة بالاستخلاف وقيل النظر هنا بمعنى العلم اي لنختبر اعمالكم كقوله تعالى ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ ذكره الواحدي والرازي، وقيل لنعامل معاملة من ينظر فهي استعارة تمثيلية والاول أولى.

عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واحذروا فتنة النساء»<sup>(١)</sup>. اخرجه مسلم. ثم حكى الله سبحانه نوعاً ثالثاً من تعنتهم وتلاعبهم بآياته فقال ﴿وإذا تلى عليهم﴾ فيه التفات عن الخطاب الى الغيبة إعراضاً عنهم ﴿آياتنا﴾ التي في الكتاب العزيز، اي واذا تلا التالي عليهم

آياتنا الدالة على إثبات التوحيد وإبطال الشرك حال كونها ﴿بينات﴾ أي واضحة الدلالة على المطلوب ﴿قال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ أي لا يخافون البعث وهم المنكرون للمعاد. وقال قتادة: هم مشركو مكة، وقد تقدم تفسيره قريباً، أي قالوا لمن يتلوها عليهم وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿أنت بقرآن غير هذا أو بدله﴾ طلبوا منه صلى الله عليه وسلم لما سمعوا ما غاظهم فيها تلاه عليهم من القرآن من ذم عبادة الاوثان والوعيد الشديد لمن عبدها أحد أمرين: إما الإتيان بقرآن غير هذا القرآن مع بقاء هذا القرآن على حاله؛ وإما تبديل هذا القرآن بنسخ بعض آياته أو كلها ووضع أخرى مكانها مما يطابق إرادتهم ويلائم غرضهم.

قال الرازي: إقدامهم على هذا الالتماس أما على سبيل السخرية والاستهزاء أو على سبيل التجربة والامتحان، حتى أنه لو فعل ذلك علموا أنه كاذب في قوله أن هذا القرآن ينزل عليه من عند الله تعالى.

فأمره الله أن يقول في جوابه ﴿قل ما يكون﴾ أي ما ينبغي ولا يحل ﴿لي﴾ أن أبدله من تلقاء نفسي ﴿فنفى عن نفسه أحد القسمين وهو التبديل لأنه الذي يمكنه لو كان ذلك جائزاً بخلاف القسم الآخر وهو الإتيان بقرآن آخر، فإن ذلك ليس بوسع ولا يقدر عليه.

وقيل أنه صلى الله عليه وسلم نفى عن نفسه أسهل القسمين ليكون دليلاً على نفي أصعبها بالطريق الأولى، وهذا منه صلى الله عليه وسلم من باب مجازاة السفهاء. إذ لا يصدر مثل هذا الاقتراح عن العقلاء بعد أن أمره الله سبحانه بذلك وهو أعلم بمصالح عباده وبما يدفع الكفار عن هذه الطلبات الساقطة والسؤالات الباردة.

قال الزجاج: سأله اسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور، وقيل سأله

ان يسقط ما فيه من عيب آهتهم وتسفيه احلامهم، وقيل سألوه ان يحول الوعد وعيداً والحرام حلالاً والحلال حراماً.

ثم أمره ان يؤكد ما أجاب به عليهم من انه ما صح له ولا استقام ان يبدله من تلقاء نفسه بقوله ﴿ان أتبع إلا ما يوحى الي﴾ من عند الله سبحانه من غير تبديل ولا تحويل ولا تحريف ولا تصحيف، فقصر حاله صلى الله عليه وسلم على اتباع ما يوحى اليه، وربما كان مقصد الكفار بهذا السؤال التعريض للنبي (ﷺ) بأن القرآن كلامه، وانه يقدر على الاتيان بغيره والتبديل له.

ثم امره الله سبحانه ان يقول لهم تكميلاً للجواب عليهم ﴿اني اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ فإن هذه الجملة كالتعليل لما قدمه من الجواب قبلها واليوم العظيم هو يوم القيامة، اي إني أخاف ان عصيت ربي بفعل ما تطلبون على تقدير إمكانه عذاب يوم القيامة.

ثم أكد سبحانه كون هذا القرآن من عند الله وانه صلى الله عليه وسلم انما يبلغ اليهم منه ما أمره الله بتبليغه لا يقدر على غير ذلك فقال ﴿قل لو شاء الله﴾ أي ان هذا القرآن المتلو عليكم هو بمشيئة الله وارادته ولو شاء الله ان لا أتلوه عليكم ولا أبلغكم إياه ﴿ما تلوته عليكم﴾ فالأمر كله منوط بمشيئة الله ليس لي في ذلك شيء ﴿ولا ادراكم به﴾ أي ولو شاء الله ما ادراكم بالقرآن أي ما اعلمكم به على لساني، يقال دريت الشيء وادراي الله به، هكذا قرأ الجمهور بالألف من أدراه يدره، أعلمه يعلمه، وقرأ ابن كثير: ولادراكم به بغير الف بين اللام والهمزة والمعنى لأعلمكم به على لسان غيري من غير ان أتلوه عليكم، فيكون اللام لام تأكيد دخلت على ألف أفعل.

وقد قرىء أدراكم بالهمزة فقليل هي منقلبة عن الألف لكونها من واد واحد، ويحتمل ان يكون من درأته اذا دفعته وأدرأته اذا جعلته دارياً، والمعنى لا اجعلكم بتلاوته خصماء تدرءوني بالجدال وتكذبوني، وقرأ ابن عباس

والحسن ولا أدراكم به قال أبو حاتم: أصله ولا أدريكم به فأبدل من الياء ألفاً، قال النحاس: وهذا غلط، والرواية عن الحسن ولا أدراكم به بالهمزة.

﴿فقد لبث فيكم عمراً من قبله﴾ تعليل لكون ذلك بمشيئة الله ولم يكن من النبي صلى الله عليه وسلم إلا التبليغ، أي أقمت فيها بينكم زماناً طويلاً من قبل القرآن وهو أربعون سنة تعرفوني بالصدق والأمانة لست ممن يقرأ ولا ممن يكتب ﴿أفلا تعقلون﴾ الهمزة للتقريع والتوبيخ أي أفلا تجرون على ما يقتضيه العقل من عدم تكذبي لما عرفتم من العادة المستمرة في المدة الطويلة بالصدق والأمانة وعدم قراءتي للكتب المنزلة على الرسل وتعلمي لما عند أهلها من العلم ولا طلبي لشيء من هذا الشأن ولا حرصي عليه.

ثم جئتكم بهذا الكتاب الذي عجزتم عن الاتيان بسورة منه وقصرتم عن معارضته وانتم العرب المشهود لهم بكمال الفصاحة، المعترف لهم بأنهم البالغون فيها إلى مبلغ لا يتعلق به غيركم.

أخرج ابن أبي شيبة والبخاري والترمذي عن ابن عباس قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لأربعين سنة فمكث بمكة ثلاث عشرة يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة<sup>(١)</sup> وعن السدي نحوه.

قال النووي: ورد في عمره صلى الله عليه وسلم ثلاث روايات: إحداهما أنه توفي وهو ابن ستين سنة والثانية خمس وستون سنة والثالثة ثلاث وستون سنة وهي أصحها وأشهرها، رواه مسلم من حديث أنس وعائشة وابن عباس، واتفق العلماء عليها؛ وتأولوا الباقي عليه، فرواية ستين سنة اقتصر فيها على العقود وترك الكسر، ورواية الخمس متأولة أيضاً بأنها حصل فيها اشتباه.

(١) البخاري كتاب مناقب الأنصار باب ٤٥.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ  
 الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ  
 وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْتَبِهُونَ اللَّهُ يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ  
 وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ، وَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

﴿فمن أظلم﴾ استفهام فيه معنى الجحد أي لا أحد أظلم ﴿ومن افتري﴾  
 على الله كذباً ﴿زيادة كذباً مع أن الافتراء لا يكون إلا كذباً لبيان أن هذا مع  
 كونه افتراء على الله هو كذب في نفسه فربما يكون الافتراء كذباً في الاسناد فقط  
 كما إذا اسند ذنب زيد الى عمرو، وذكر معنى هذا ابو السعود في تفسيره.

قيل وهذا من جملة رده صلى الله عليه وسلم على المشركين لما طلبوا منه  
 ان يأتي بقرآن غير هذا القرآن او يبدله، فبين لهم انه لو فعل ذلك لكان من  
 الافتراء على الله ولا ظلم مماثل ذلك، وقيل المفتري على الله الكذب هم  
 المشركون.

﴿أو كذب بآياته﴾ وهم أهل الكتاب ﴿إنه﴾ أي أن الشأن ﴿لا يفلح﴾  
 المجرمون ﴿تعليلاً لما قبله، أي لا يظفرون بمطلوب ولا يفوزون بخير، قال  
 عكرمة: قال النضر: اذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى، فأنزل الله  
 هذه الآية.

ثم نعى الله سبحانه عليهم عبادة الاصنام وبين انها لا تنفع من عبدها  
 ولا تضر من لم يعبدها فقال ﴿ويعبدون من دون الله﴾ أي متجاوزين الله  
 سبحانه الى عبادة غيره لا بمعنى ترك عبادته بالكلية بل بمعنى عدم الاكتفاء بها  
 وضم عبادة الغير اليها للتقرب والشفاعة.



﴿ما لا يضرهم ولا ينفعهم﴾ اي ما ليس من شأنه الضرر ولا النفع، ومن حق المعبود ان يكون مثيباً لمن اطاعه، معاقباً لمن عصاه، ونفي الضر والنفع هنا عن الاصنام باعتبار الذات واثباتها لها في الحجج في قوله ﴿يدعو لمن ضره اقرب من نفعه﴾ باعتبار السبب فلا منافاة بينهما.

﴿ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ اي زعموا انهم يشفعون في الآخرة فلا يعذبهم الله بذنوبهم؛ قاله ابن جريج، وهذا غاية الجهالة منهم حيث ينتظرون الشفاعة في المال ممن لا يوجد منه نفع ولا ضرر في الحال، وقيل ارادوا بهذه الشفاعة اصلاح احوال دنياهم، قاله الحسن، أي لإنكارهم البعث وما يترتب عليه. ثم أمر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يجيب عنهم فقال ﴿قل﴾ لهم تبيكياً ﴿اتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض﴾ والمعنى اتخبرون الله ان له شركاء في ملكه يعبدون كما يعبد، او اتخبرونه ان لكم شفعاء بغير اذنه والله سبحانه لا يعلم لنفسه شريكاً ولا شفيعاً بغير اذنه من جميع مخلوقاته الذين هم في سماواته وفي ارضه، وهذا الكلام حاصله عدم وجود من هو كذلك أصلاً وفي هذا من التهكم بالكفار ما لا يخفى.

﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ بالياء والتاء سبعيتان، تزه الله سبحانه نفسه عن إشراكهم، وهو يحتمل ان يكون ابتداء كلام غير داخل في الكلام الذي أمر الله سبحانه رسوله بأن يجيب به عليهم ويحتمل ان يكون من تمام ما أمر النبي صلى الله عليه وسلم ان يقوله لهم جواباً عليهم.

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

﴿وما كان الناس﴾ قد تقدم تفسيره في البقرة والمعنى أن الناس جميعاً ما كانوا ﴿الآمة واحدة﴾ موحدة لله سبحانه مؤمنة به من لدن آدم إلى نوح، وقيل من عهد إبراهيم إلى عمرو بن لحي لأن التوحيد والاسلام ملة قديمة اجتمعت عليه الناس قاطبة فطرة وتشريعاً، وأن الشرك وفروعه جهالات ابتدعتها الغواة.

﴿فاختلفوا﴾ أي فصار البعض كافراً، وبقي البعض الآخر مؤمناً فخالف بعضهم بعضاً، وقال الزجاج: هم العرب كانوا على الشرك وقال: كل مولود يولد على الفطرة فاختلّفوا عند البلوغ والأول أظهر؛ وليس المراد أن كل طائفة أحدثت ملة من ملل الكفر مخالفة للآخرى بل المراد كفر البعض وبقي البعض على التوحيد كما قدمنا، وقال ابن مسعود: كانوا على هدى، وروي أنه قرأ هكذا.

وعن مجاهد قال: آدم وحده فاختلّفوا حين قتل أحد ابني آدم أخاه، وعن السدي قال: أهل دين واحد على دين آدم فكفروا وقيل ليس في الآية ما يدل على أي دين كانوا من إيمان أو كفر فهو موقوف على دليل من خارج، وقيل كانوا في الكفر وهو منقول عن جماعة من المفسرين والأول أولى.

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ وهي أنه سبحانه لا يقضي بينهم فيما اختلفوا فيه إلا يوم القيامة ﴿لقضي بينهم﴾ في الدنيا بتزول العذاب وتعجيل

العقوبة للمكذبين وكان ذلك فصلاً بينهم ﴿فيما فيه يختلفون﴾ لكنه قد امتنع ذلك بالكلمة التي لا تتخلف، وقيل المعنى لقضى بينهم باقامة الساعة عليهم، وقيل لفرغ من هلاكهم، وقيل: الكلمة أن الله أمهل هذه الأمة فلا يهلكهم بالعذاب في الدنيا قاله الكلبي.

وقيل الكلمة أنه لا يأخذ أحداً إلا بحجة وهي إرسال الرسل كما قال تعالى: ﴿وما كنا معذيين حتى نبعث رسولاً﴾ وقيل الكلمة قوله سبقت رحمتي غضبي وعبر بالمضارع عن الماضي حكاية للحال الماضية.

﴿ويقولون﴾ ذكر سبحانه ههنا نوعاً رابعاً من مخازيم وجاء بالمضارع لاستحضار صورة ما قالوه، قيل والقائلون هم أهل مكة كأنهم لم يعتدوا بما قد نزل على رسوله ﷺ من الآيات الباهرة والمعجزات القاهرة التي لو لم يكن منها إلا القرآن لكفى به دليلاً بيناً ومصداقاً قاطعاً.

﴿لولا﴾ أي هلا ﴿أنزل عليه آية﴾ من الآيات التي نقترحها عليه ونطلبها منه كإحياء الأموات وجعل الجبال ذهباً ونحو ذلك ﴿من ربه﴾ كما كان للأنبياء من الناقة والعصا واليد؛ ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم فقال: ﴿فقل انما الغيب لله﴾ أي أن نزول الآية غيب والله هو المحيط بعلمه المستأثر به لا علم لي ولا لكم ولا لسائر مخلوقاته وانما علي التبليغ.

﴿فانتظروا﴾ نزول ما اقترحتموه من الآيات ﴿إني معكم من المنتظرين﴾ لنزولها وقيل المعنى انتظروا قضاء الله بيني وبينكم باظهار الحق على الباطل، وقال الربيع: خوفهم عذابه وعقوبته إن لم يؤمنوا.

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ  
 مَكْرًا إِنْ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا  
 كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَكُمْ بِمِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحْتُمْ بِهَا جَاءَ تَهَارِيبُ عَاصِفٍ وَجَاءَهُمْ  
 الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا  
 مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ لما  
 بين سبحانه في الآية المتقدمة أنهم طلبوا آية عناداً ومكراً ولجأوا أكد ذلك بما  
 ذكره هنا من أنه سبحانه إذا أذاقهم رحمة منه من بعد ان مستهم الضراء فعلوا  
 مقابل هذه النعمة العظيمة المكر منهم في آيات الله.

والمراد بإذاقتهم رحمته سبحانه أنه وسع عليهم في الأرزاق وأدرّ عليهم  
 النعم بالمطر والخصب وصلاح الثمار بعد أن مسهم الضر بالجدب وضيق  
 المعاش، فما شكروا نعمته ولا قدروها حتى قدرها. بل أضافوها الى أصنامهم  
 التي لا تنفع ولا تضر وطعنوا في آيات الله واحتالوا في دفعها بكل حيلة وهو  
 معنى المكر فيها وإذا الأولى شرطية وجوابها إذا لهم مكر، وهي فجائية ذكر  
 معنى ذلك الخليل وسيبويه، ويستفاد منه السرعة لأن المعنى أنهم فاجؤوا المكر  
 أي أوقعوه على جهة الفجاءة والسرعة، وقال مجاهد: في الآية استهزاء  
 وتكذيب. وهذا تفسير مراد، وإلا فأصل المكر إخفاء الحيل والمكايد، وقال  
 مقاتل: لا يقولون هذا رزق الله انما يقولون سقينا بنوء كذا وكذا.

ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجيب عنهم فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾  
 أي أعجل عقوبة وأشد أخذاً وأقدر على الجزاء من سرعة مكرهم، وقد دل  
 أفعل التفضيل على ان مكرهم كان سريعاً ولكن مكر الله أسرع منه، وتسمية

عقوبة الله سبحانه مكرماً من باب المشاكلة كما قرر في مواطن من عبارات الكتاب العزيز.

﴿ان رسلنا﴾ أي الملائكة ﴿يكتبون ما تمكرون﴾ قرىء بالتاء والياء، والأولى سبعة والثانية عشرية أي لا يخفى ذلك على الملائكة الذين هم الحفظة فكيف يخفى على العليم الخبير؛ وفي هذا وعيد لهم شديد وتحقيق للانتقام منهم.

وهذه الجملة تعليل للتي قبلها فإن مكرهم إذا كان ظاهراً لا يخفى فعقوبة الله كائنة لا محالة ومعنى هذه الآية قريب من معنى الآية المتقدمة وهي إذا مس الإنسان الضر، وفي هذه الآية زيادة وهي انهم لا يقتصرون على مجرد الاعراض بل يطلبون الغوائل لآيات الله بما يدبرونه من المكر.

﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر﴾ ضرب سبحانه لهؤلاء مثلاً حتى ينكشف المراد انكشافاً تاماً، وهو كلام مستأنف ومعنى تسييرهم في البر أنهم يمشون على أقدامهم التي خلقها ليتفعلوا بها ويركبون على ما خلقه الله لركوبهم من الدواب ومعنى تسييرهم في البحر أنه ألهمهم لعمل السفائن التي يركبون فيها في لجج البحر، ويسر ذلك لهم ودفع عنهم أسباب الهلاك.

وقد قرأ ابن عامر وهو الذي يشركم في البر والبحر بالتون من النشر كما في قوله تعالى: ﴿فانتشروا في الأرض﴾ أي ينشرهم سبحانه في البحر فينجي من يشاء ويفرق من يشاء.

﴿حتى﴾ غاية للسير في البحر والغاية مضمون الجملة الشرطية بكماها ﴿إذا كنتم في الفلك﴾ يقع على الواحد والجمع ويذكر ويؤنث والحركات فيه بينها تغاير اعتباري ﴿وجرين﴾ أي السفن ﴿بهم﴾ أي بالراكبين عليها والفائدة

في صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة المبالغة كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم مزيد الإنكار والتقيح، قاله الزمخشري.

وقيل إن مخاطبة الله لعباده على لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بمنزلة الخبر عن الغائب وكل من أقام الغائب مقام المخاطب حسن منه إن يرد إلى الغائب، وقيل هذا الالتفات فيه امتنان وإظهار نعمة المخاطبين، والمسирون في البحر مؤمنون وكفار والخطاب شامل فحسن خطابهم بذلك ليستديم الصالح الشكر، ولعل الطالح يتذكر هذه النعمة.

ولما كان في آخر الآية ما يقتضي أنهم إذا نجوا بغوا في الأرض عدل عن خطابهم بذلك إلى الغيبة لئلا يخاطب المؤمن بما لا يليق صدوره منهم وهو البغي بغير الحق، قاله السمين، وقيل إن الالتفات في الكلام من الغيبة إلى الحضور وبالعكس من فصيح كلام العرب.

وقال الرازي: الانتقال من مقام الخطاب إلى مقام الغيبة في هذا المقام دليل المقت والتباعد كما أن عكس ذلك في قوله إياك نعبد دليل الرضا والتقريب.

﴿بريح طيبة﴾ أي ساكنة لينة الهبوب إلى جهة المقصد، والباء للسببية أو للحال ﴿وفرحوا بها﴾ أي ربح السفينة فالقيود المعتبرة في الشرط ثلاثة أولها الكون في الفلك والثاني جريها بهم بالريح الطيبة التي ليست بعاصفة وثالثها فرحهم والقيود المعتبرة في الجزاء ثلاثة.

الأول ﴿جاءتها﴾ أي جاءت الفلك وعارضته وقابلته أو جاءت الريح الطيبة أي تلتقتها ﴿ريح عاصف﴾ أي ذات عصف وهو من باب النسب كلابن وتامر وهو مما يستوى فيه المذكر والمؤنث كما صرحوا به والعصوف شدة هبوب

الريح وهي الهواء بين السماء والأرض، والجمع أرواح ورياح، وقيل أرياح على لفظ الواحد، وغلظه أبو حاتم وهي مؤنثة على الأكثر، وقد تذكر على معنى الهواء نقله أبو زيد، وقال ابن الأنباري: الريح مؤنثة لا علامة فيها وكذلك سائر أسمائها إلا الإعصار فإنه مذكر، وراح اليوم يروح روحاً من باب قال، وفي لغة من باب خاف إذا اشتدت ريجه فهو رائح.

والثاني ﴿وجاءهم﴾ أي ركبان السفينة ﴿الموج من كل مكان﴾ أي من جميع الجوانب للقلك، والموج ما ارتفع من غوارب الماء وعلا فوق البحر، وقيل هو شدة حركة الماء واختلاطه.

﴿و﴾ الثالث ﴿ظنوا أنهم أحيط بهم﴾ أي غلب على ظنونهم الهلاك، وأصله من إحاطة العدو بقوم أو ببلد، فجعل هذه الإحاطة مثلاً في الهلاك وإن كان بغير العدو، كما هنا وهو استعارة تبعية، وقيل الظن هنا اليقين أي أيقنوا أنه الهلاك، وقيل بل المراد المقاربة من الهلاك والذنوب منه والاشراف عليه.

وقوله ﴿دعوا الله﴾ بدل من ظنوا لكون هذا الدعاء الواقع منهم إنما كان عند ظن الهلاك وهو الباعث عليه فكان بدلاً منه بدل اشتمال لاشتماله عليه، ويمكن أن يكون جملة مستأنفة كأنه قيل ماذا صنعوا فقيل دعوا الله.

﴿مخلصين له الدين﴾ أي لم يشوبوا دعاءهم بشيء من الشوائب كما جرت عادتهم في غير هذا الموطن أنهم يشركون أصنامهم في الدعاء، وليس هذا لأجل الايمان بالله وحده بل لأجل أن ينجيهم مما شارقوه من الهلاك لعلمهم أنه لا ينجيهم إلا الله سبحانه.

وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع الى الله في الشدائد وإن المضطر يجاب دعاؤه وأن كان كافراً، وفي هذه الآية بيان أن هؤلاء المشركين كانوا لا يلتفتون إلى أصنامهم في هذه الحالة وما شابهها.

فيا عجباً لما حدث في الاسلام من طوائف يعتقدون في الاموات فاذا عرضت لهم في البحر مثل هذه الحالة دعوا الاموات ولم يخلصوا الدعاء لله كما فعله المشركون كما تواتر ذلك الينا تواتراً يحصل به القطع.

فانظر هداك الله ما فعلت هذه الاعتقادات الشيطانية واين وصل بها أهلها وإلى أين رمى بهم الشيطان، وكيف اقتادهم وتسلط عليهم حتى انتقادوا له انقياداً ما كان يطمع في مثله ولا في بعضه من عباد الاصنام، فإننا لله وإنا اليه راجعون.

واللام في ﴿لكن أنجيتنا﴾ هي الموطئة للقسم المحذوف على إرادة القول أي دعوا قائلين ذلك، ويجوز أن مجري دعوا الله مجرى قالوا لان الدعاء بمعنى القول إذ هو نوع من أنواعه فتحكى به الجملة، وهو مذهب كوفي والأول هو الأولى لاستدعاء الثاني لاقتصار دعائهم على ذلك فقط.

﴿من هذه﴾ أي ما وقعوا فيه من مشاركة الهلاك في البحر من الريح العاصفة والامواج الشديدة ﴿لنكونن﴾ في كل حال ﴿من الشاكرين﴾ أي ممن يشكر نعمك التي أنعمت بها علينا منها هذه المحنة التي نحن بصدد سؤالك أن تفرجها عنا وتنجينا منها، وهذا جواب القسم وفيه من المبالغة في الدلالة على كونهم ثابتين في الشكر مثابرين عليه متظمين في سلك المنعوتين بالشكر الراسخين فيه ما ليس في أن يقال لنشكرون.



فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْبِكُمْ عَلَى  
 أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا رُجُوعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

﴿فلما أنجاهم﴾ الله من هذه المحنة التي وقعوا فيها وأجاب دعاءهم لم يقوا بما وعدوا من أنفسهم، بل فعلوا فعل الجاحدين لا فعل الشاكرين وجعلوا البغي في الأرض بغير الحق مكان الشكر ﴿إذا هم يبغون﴾ أي فاجأوا البغي والفساد وسارعوا إليه، والبغي هو الفساد من قولهم بغي الجرح إذا ترامى في الفساد، وقيل هو الشرك، وزيادة ﴿في الأرض﴾ للدلالة على أن فسادهم هذا شامل لاقطار الأرض، والبغي وإن كان ينافي أن يكون بحق بل لا يكون إلا بالباطل لكن زيادة.

﴿بغير الحق﴾ إشارة إلى أنهم فعلوا ذلك بغير شبهة عندهم بل تمرداً وعناداً لأنهم قد يفعلون ذلك لشبهة يعتقدونها مع كونها باطلة.

وقيل البغي: مجاوزة الحد وهو محمود ان كان من العدل الى الاحسان ومن الفرض الى التطوع، ومذموم إن كان من الحق الى الباطل أو إلى الشبهة، وقال الزمخشري: البغي قد يكون بحق وهو استيلاء المسلمين على أرض الكفرة وهدم دورهم واحراق زروعهم وقلع أشجارهم كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ببني قريظة، وهذا فائدة تقيده بغير الحق.

﴿يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا﴾ لما ذكر سبحانه أن هؤلاء المتقدم ذكرهم يبغون في الأرض بغير الحق، ذكر عاقبة البغي وسوء مغيبته، قرىء بنصب متاع على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر بطريق الاستثناف، أي بغيكم وبال على أنفسكم تمتعون متاع الحياة الدنيا؛ وقيل على انه ظرف زمان نحو مقدم الحاج أي زمن متاع الحياة الدنيا، وقيل على أنه

مفعول له، أي لأجل متاع الحياة الدنيا.

وقيل منصوب على نزع الخافض أي كمتاع، وقيل على الحال على أنه مصدر بمعنى المفعول أي ممتعين، وقيل على أنه مفعول لفعل دل عليه المصدر، أي تبغون متاع الحياة الدنيا.

وقد نوقش غالب هذه الأقوال في توجيه النصب، والحق الذي تقتضيه جزالة التنزيل إنما هو الوجه الأول، أما من قرأ برفع متاع فيجعله خبراً لمبتدأ، أي بفيكم متاع الحياة الدنيا ويكون على أنفسكم متعلقاً بالمصدر، والتقدير إنما بفيكم على أمثالكم والذين جنسهم جنسكم متاع الحياة الدنيا ومنفعتها التي لا بقاء لها، فيكون المراد بأنفسكم على هذا الوجه أبناء جنسهم، وعبر عنهم بالانفس استعارة لما يدركه الجنس على جنسه من الشفقة.

وقيل ارتفاع متاع على أنه خبر ثان وقيل على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي هو متاع كما في قوله تعالى: ﴿الاماعة من نهار بلاغ﴾ أي هذا بلاغ.

وقد نوقش أيضاً بعض هذه الوجوه في توجيه الرفع بما يطول به البحث في غير طائل، والحاصل أنه إذا جعل خبر المبتدأ على أنفسكم فالمعنى أن ما يقع من البغي على الغير هو بغي على نفس الباغي باعتبار ما يؤول إليه الأمر من الانتقام منه مجازة على بغيه، وإن جعل الخبر متاعاً فالمراد أن بغي هذا الجنس الانساني على بعضه بعضاً هو سريع الزوال قريب الاضمحلال كسائر أمتعة الحياة الدنيا فإنها ذاهبة عن قريب متلاشية بسرعة ليس لذلك كثير فائدة ولا عظيم جدوى.

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم والخطيب في تاريخه عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثلاث هن رواجع على أهلها: المكر والنكث والبغي، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما بفيكم على

أنفسكم ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه.

وعن مكحول: ثلاث من كن فيه كن عليه: المكر والبيغي والنكث.

أقول أنا: وينبغي أن يلحق بهذه الثلاث التي دل القرآن على أنها تعود على فاعلها «الخدع» فإن الله يقول: ﴿يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم﴾ وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو بغى جبل على جبل لاندك الباغي منها»<sup>(١)</sup>.

ثم ذكر سبحانه ما يكون على ذلك البيغي من المجازاة يوم القيامة مع وعيد شديد فقال: ﴿ثم ألينا مرجعكم﴾ تقديم الخبر للدلالة على الثبات والقصر، والمعنى انكم بعد هذه الحياة الدنيا ومتاعها ترجعون إلى الله سبحانه فيجازي السيء بإساءته والمحسن بإحسانه.

﴿فتنبئكم بما كنتم تعملون﴾ في الدنيا من خير وشر، والمراد بذلك المجازاة كما تقول لمن أساء سأخبرك بما صنعت وفيه أشد وعيد وأفظع تهديد.

ثم لما ذكر سبحانه ما تقدم من متاع الدنيا جاء بكلام مستأنف يتضمن بيان حالها وسرعة تقتضيها وقصر مدة التمتع بها وقرب زمان الرجوع الموعود به، بعد أن تملأ الأعين برونقها وتخلب النفوس بهجتها، وتحمل أهلها على أن يفسكوا دماء بعضهم بعضاً ويهتكوا حرمةهم، حباً لها وعشاقاً لجمالها الظاهري، وتكالباً على التمتع بها وتهافتاً على نيل ما تشتهي الأنفس منها بضرب من التشبيه المركب العجيب البديع المثل المنتظم في سلك الأمثال فقال.

(١) ضعيف الجامع الصغير ٤٨١٣.

إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ  
النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ  
قَدِرُوا عَلَيْهَا آتَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَمِ  
بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ  
وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء﴾ أي إن مثلها في سرعة  
الذهاب والانصاف بوصف يضاد ما كانت عليه وبيانه، مثل ما على الأرض  
من أنواع النبات في زوال رونقه وذهاب بهجته وسرعة تقضيه، بعد أن كان  
غضاً مخضراً طرياً قد تعانقت أغصانه المتمايلة، وزهت أوراقه المتصافحة،  
وتلألأت أنواع نوره وحاكت الزهر أنواع زهره، وإنما ليست للحصر لأنه تعالى  
ضرب للحياة الدنيا أمثالاً غير هذا، وليس المشبه به هو ما دخله الكاف في  
قوله كماء بل ما يفهم من الكلام.

﴿فاختلط به﴾ أي بسببه ﴿نبات الأرض﴾ بأن اشتبك بعضه ببعض  
لكثرته حتى بلغ إلى حد الكمال، ويحتمل أن يراد أن النبات كان في أول بروزه  
ومبدأ حدوثه غير مهتز، ولا مترعرع فإذا نزل الماء عليه اهتز، وربما حتى اختلط  
بعض الأنواع ببعض ﴿مما يأكل الناس والأنعام﴾ أي كائناً من الحبوب والثمار  
والكلأ والتين والعشب.

﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها﴾ قال في الصحاح: الزخرف الذهب  
ثم يشبه به كل مموه مزور. اهـ.

وفي القاموس الزخرف بالضم الذهب وكمال حسن الشيء، ومن القول

حسنة، ومن الأرض ألوان نباتها، والمعنى أن الأرض استوفت واستكملت لونها الحسن المشابه بعضه للون الذهب وبعضه للون القضة وبعضه للون الياقوت وبعضه للون الزمرد وحتى غاية لمحدوف، أي ما زال ينمو ويزهر حتى أخذت حسنها ونضارتها وبهجتها، وأظهرت ألوان زهرها من أبيض وأخضر وأحمر وأصفر وغير ذلك.

﴿وازينت﴾ أي تزينت به، وقرىء أزينت على وزن أفعلت أي ازينت بالزينة التي عليها، شبهها بالعروس التي تلبس الثياب الجيدة المتلونة ألواناً كثيرة ففي الكلام استعارة مكنية.

﴿وظن أهلها﴾ أي أهل تلك الأرض الآخذة زخرفها ﴿أنهم قادرون عليها﴾ أي غلب على ظنونهم أو تيقنوا أنهم قادرون على حصادها والانتفاع بها يحصلون لثمرتها رافعون لغلتها متمكنون على جدادها وقطافها، والضمير في عليها للأرض، والمراد النبات الذي هو عليها.

﴿أتاها﴾ أي جاءها ﴿أمرنا﴾ بإهلاكها واستئصالها وضربها ببعض العاهات ﴿ليلاً أو نهاراً﴾ أو للتنويع أي تارة يأتي قضاؤنا وعذابنا ليلاً، وتارة يأتي نهاراً ﴿فجعلناها حصيداً﴾ أي جعلنا زرعها شبيهاً بالمحسود في قطعه من أصوله، قال أبو عبيدة: الحصيد المستأصل وقيل المقطوع بالمناجل.

﴿كأن لم تغن بالامس﴾ أي كأن لم يكن زرعها موجوداً فيها بالامس مخضراً طرياً، من غني بالمكان بالكسر يعني بالفتح إذا أقام، قال البيضاوي: أي لم تلبث أي لم تقم ولم تمكث.

وقيل لم تكن ولم توجد، وفي القاموس ما يقتضي أن غني يأتي بمعنى كان ووحد كقوله غنيت دارنا بتهمة أي كانت بها.

والمراد بالامس الوقت القريب والزمن الماضي لا خصوص اليوم الذي قبل يومك، قاله الكرخي، والمغاني في اللغة المنازل، وقال قتادة: كان لم ينعم، وقرأ «لم يَغْن» بالتحية بإرجاع الضمير إلى الزخرف، قرأ من عده «تغن» بالفوقية بإرجاع الضمير إلى الأرض.

﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك التفصيل البديع ﴿نفصل الآيات﴾ القرآنية التي من جملتها هذه الآية المنبهة على أحوال الدنيا، ويجوز أن يراد الآيات التكوينية ﴿لقوم يتفكرون﴾ فيها اشتملت عليه، عن أبي مجلز قال: كان مكتوباً في سورة يونس الى جنب هذه الآية ﴿ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى ثالثاً ولا يشبع نفس ابن آدم الا التراب، ويتوب الله على من تاب﴾ فمحييت.

قال النسفي في الآية: هذا من التشبيه المركب، شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الاقبال بحال نبات الأرض في جفافه، وذهابه حطاماً بعد ما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرتها ورفيفه، والتشبيه على حكمة التشبيه أن الحياة صفوها شبيبتها وكدرها شبيتها، كما ان صفو الماء في أعلى الإناء:

ألم تر أن العمر كأس سلافة فأوله صفو وآخره كدر

وحقيقته تزيين جثة الطين بمصالح الدنيا والدين كاختلاط النبات على اختلاف التلوين، فالطينة الطيبة تنبت بساتين الأنس ورياحين الروح وزهرة الزهد وكروم الكرم، وحبوب الحب، وحدائق الحقيقة وشقائق الطريقة.

والخبيثة تخرج خلاف الخلف؛ وثمار الاثم وشوك الشرك، وشبح الشح وحطب العطب ولعاع اللعب.

ثم يدعوه معاده، كما يحين للحرث حصاده، فتزايله الحياة مغترأ كما يهبج

النبات مصفراً، فتغيب جثته في الرمس كأن لم تغن بالامس، إلى أن يعود ربيع البعث وموعد العرض والبعث.

وكذلك حال الدنيا كالماء ينفع قليله، ويهلك كثيره ولا بد من ترك ما زاد، كما لا بد من أخذ الزاد، وأخذ المال لا يخلو من زلة، كما أن خائض الماء لا ينجو من بلة، وجمعه وامساكه، تلف صاحبه واهلاكه، فما دون النصاب كضحضاح ماء؛ يجاوز بلا احتماء، والنصاب كنه حائل بين المجتاز والجواز إلى المفاز لا يمكن إلا بقنطرة وهي الزكاة وعمارتها بذل الصلاة، فمتى اختلت القنطرة غرقت أمواج القناطير المقنطرة.

وكذا المال يساعد الاوغاد، دون الامجاد، كما أن الماء يجتمع في الوهاد دون النجاد، وكذلك المال لا يجتمع إلا بكد البخيل، كما أن الماء لا يجتمع إلا بسد المسيل ثم يفنى ويتلف ولا يبقى كالماء في الكف انتهى.

﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ لما نفر عباده عن الميل إلى الدنيا بما ضربه لهم من المثل السابق، رغبتهم في الدار الآخرة بإخبارهم بهذه الدعوة منه عز وجل إلى دار السلام، قال الحسن وقتادة: السلام هو الله تعالى وداره الجنة، وقال الزجاج: والمعنى والله يدعو إلى دار السلامة، ومعنى السلام والسلامة واحد كالرضاع والرضاعة.

وقيل أراد دار السلام الذي هو التحية لأن أهلها ينالون من الله السلام بمعنى التحية كما في قوله: ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ وقيل السلام اسم لأحد الجنان السبع (أحدها) دار السلام (والثانية) دار الجلال (والثالثة) جنة عدن (والرابعة) جنة المأوى (والخامسة) جنة الخلد (والسادسة) جنة الفردوس (والسابعة) جنة النعيم.

وقيل المراد دار السلام الواقع من المؤمنين بعضهم على بعض في الجنة،

وقد اتفقوا على أن دار السلام هي الجنة، وإنما اختلفوا في سبب التسمية بدار السلام.

﴿ويهدي من يشاء﴾ هدايته، قال أبو العالية: يهديهم للمخرج من الشبهات والفتن والضلالات ﴿إلى صراط مستقيم﴾ دين الاسلام، جعل سبحانه الدعوة إلى دار السلام عامة والهداية خاصة بمن يشاء أن يهديه تكميلاً للحجة واظهاراً للاستغناء عن خلقه.

أخرج ابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن أبي جعفر محمد بن علي قال: حدثني جابر قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً فقال: «إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه اضرب له مثلاً، فقال اسمع سمعت أذنك واعقل عقل قلبك، إنما مثلك ومثل أمك مثل ملك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً ثم جعل فيها مادبة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فممنهم من أجاب الرسول، وممنهم من ترك فالله هو الملك والدار الاسلام والبيت الجنة وأنت يا محمد رسول، فمن أجابك دخل الاسلام ومن دخل الاسلام دخل الجنة ومن دخل الجنة أكل منها<sup>(١)</sup>» وقد روي معنى هذا من طرق.

(١) المستدرک کتاب تعبیر الرؤیا ٤/٣٩٣. وفي رواية: أكل منها مما فيها ثم تلا - يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ويهدي من يشاء﴾ إلى صراط مستقيم.



﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ  
الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

ثم قسم سبحانه أهل الدعوة الى قسمين وبين حال كل طائفة فقال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ بالقيام بما أوجبه الله عليهم من الايمان والأعمال والكيف عما نهاهم عنه من المعاصي، وقيل للذين شهدوا أن لا إله إلا الله ﴿الحسنى﴾ أي المثوبة الحسنى وان كان معه ذنوب، فعصاة المؤمنين داخلون في هذا، وقال ابن الانباري: الحسنى في اللغة تأنيث الأحسن، والعرب توقع هذه اللفظة على الخصلة المحبوبة المرغوب فيها ولذلك ترك موصوفها، وقيل المراد بالحسنى الجنة.

﴿وزيادة﴾ قيل المراد بها ما يزيد على المثوبة من التفضل كقوله: ﴿ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ وقيل الزيادة النظر إلى وجهه الكريم، وبه قال جماعة من الصحابة منهم أبو بكر الصديق وحذيفة وأبو موسى الأشعري وعبادة بن الصامت، وبه قال الحسن وعكرمة والضحاك ومقاتل والسدي.

وقيل الزيادة هي مضاعفة الحسنه الى عشر أمثالها إلى مبعمائه ضعف، وقيل الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب، قاله علي بن أبي طالب، وقيل الزيادة مغفرة من الله ورضوان قاله مجاهد، وقيل هي ما يعطيهم سبحانه في الدنيا من فضله لا يحاسبهم عليه يوم القيامة، قاله ابن زيد، وقيل غير ذلك مما لا فائدة في ذكره.

وأخرج أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه وابن خزيمة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وغيرهم عن صهيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية ثم قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه فيقولون وما هو؟ ألم ينقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار؟ قال

فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقر لأعينهم»<sup>(١)</sup>.

وفي لفظ من حديث أبي موسى مرفوعاً: الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الرحمن، أخرجه الدارقطني وابن جرير وغيرهما، وروي مثله عن جماعة من الصحابة مرفوعاً بطرق، وقد روي عن التابعين ومن بعدهم روايات في تفسير الزيادة غالبها أنها النظر إلى وجه الله سبحانه، وقد ثبت التفسير بذلك من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يبق حينئذ لقائل مقال ولا التفات إلى المجادلات الواقعة بين المت مذهبة الذين لا يعرفون من السنة المطهرة ما ينتفعون به، فإنهم لو عرفوا ذلك لكفوا عن كثير من هذيانهم والله المستعان.

﴿ولا يرهق﴾ الرهق الغشيان، وقيل أصله المقاربة، وقيل معناه يلحق ومنه قيل غلام مراهق إذا لحق بالرجال، وقيل يعلو والمعاني متقاربة والمعنى لا يغشى ﴿وجوههم قتر﴾ هو غبار معه سواد، وقيل سواد الوجه واحده قتره وقيل هو الدخان ومنه غبار القدر، وقيل التقليل ومنه ولم يقتروا، ومنه على المقتر قدره، وقيل الكآبة.

﴿ولا ذلة﴾ هي ما يظهر على الوجه من الخضوع والانكسار والهوان، يعني لا يعلو وجوههم غبرة ولا يظهر فيها هوان، وقال مجاهد في الآية: خزي، وعن صهيب عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: هذا بعد نظرهم إليه عز وجل، أخرجه أبو الشيخ، والجملة مستأنفة أو في محل نصب على الحال، قاله أبو البقاء.

وهذا ليس بجائز لأن المضارع متى وقع حالاً منفياً بلا امتنع دخول واو الحال عليه كالمثبت أو في محل الرفع نسقاً على الحسنى، والتقدير وان لا يرهق أي وعدم رهقهم.

﴿أولئك﴾ أي المتصفون بالصفات السابقة هم ﴿أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ أي المتعمون بأنواع نعمها لا يخرجون منها أبداً.

(١) الإمام أحمد، ٣٣٣/٤.

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ  
 كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا  
 خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ  
 فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَانًا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾

﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها﴾ أي يجازى سيئة واحدة  
 بسيئة واحدة لا يزداد عليها كما يزداد في الحسنة؛ وهذا أولى مما عداه وفيه سبعة  
 أوجه قررهما السمين لا تطول بذكرها، والمراد بالسيئة إما الشرك أو المعاصي  
 التي ليست بشرك وهي ما يتلبس به العصاة من المعاصي، قال ابن كيسان:  
 الباء زائدة والمعنى جزاء سيئة مثلها وقيل جزاء سيئة كائن بمثلها.

وقيل التقدير فلهم جزاء سيئة، وفيه التنبيه على الفرق بين الحسنات  
 والسيئات لأن الحسنات يضاعف ثوابها لعاملها من الواحدة إلى العشرة إلى  
 السبعمائة إلى اضعاف كثيرة تفضلاً منه سبحانه وتكرماً، وأما السيئات فانه  
 يجازى فاعلها عليها بمثلها عدلاً منه سبحانه.

﴿وترهقهم﴾ أي تغشاهم ﴿ذلة﴾ أي هوان وخزي، وقال ابن عباس:  
 ذلة وشدة ﴿ما لهم من الله من عاصم﴾ أي لا يعصمهم أحد كائناً من كان  
 من سخط الله وعذابه، أو ما لهم من جهة الله ومن عنده من يعصمهم كما  
 يكون للمؤمنين والأول أولى.

﴿كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً﴾ القطع بفتح الطاء جمع  
 قطعة وباسكانها جزء وهما قراءتان سبعيتان، قال ابن السكيت: القطع طائفة  
 من الليل وقيل ظلمة آخر الليل، وقال الأخفش: سواد الليل، والجملة حالية  
 أو مستأنفة أي أغشيت وألبست وجوههم قطعاً وسواداً من الليل في حال  
 ظلمته.

﴿أولئك﴾ أي الموصوفون بهذه الصفات الذميمة ﴿أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ اطلاق الخلود هنا مقيد بما تواتر في السنة من خروج عصاة الموحدين.

﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾ الحشر الجمع من كل جانب وناحية إلى موضع واحد وقال مجاهد: الحشر الموت، ويوم منصوب على المفعولية بمضمرة أي انذرهم يوم نحشرهم لموقف الحساب، والجملة مستأنفة لبيان بعض أحوالهم القبيحة، والمعنى ان الله سبحانه يحشر العابد والمعبود لسؤالهم يوم القيامة.

﴿ثم نقول﴾ في حالة الحشر ووقت الجمع ﴿للذين أشركوا﴾ تقريباً لهم على رؤوس الأشهاد وتوبيخاً لهم مع حضور من يشاركونهم في العبادة وحضور معبوداتهم ﴿مكانكم﴾ أي الزموا مكانكم واثبتوا فيه وقفوا في موضعكم، ولا تنفكوا منه ولا تبرحوا عنه حتى تسألوا وتنظروا ما يفعل بكم، ونصب مكانكم على أنه في الأصل ظرف لفعل أقيم مقامه لا على أنه اسم فعل وحركته حركة بناء كما هو رأي الفارسي، قاله أبو السعود.

قال الخفاجي: وهذا كله تكلف، قال الدماميني: لا أدري ما الداعي إلى جعل هذا الظرف اسم فعل إما لازماً وإما متعدياً، وهلا جعلوه ظرفاً على بابه ولم يخرجوه عن أصله أي اثبت مكانك انتهى وفيه بحث.

والضمير في قوله ﴿أنتم﴾ تأكيد للضمير الذي في مكانكم لسده مسد الزموا ﴿وشركاءكم﴾ عطف عليه وقرىء بالنصب على المفعول معه، وفي هذا وعيد وتهديد للعابدين والمعبودين، والمراد بالشركاء هنا الملائكة وقيل الشياطين وقيل الأصنام وان الله سبحانه ينطقها في هذا الوقت وقيل المسيح وعزير، والظاهر أنه كل معبود للمشركين كائناً ما كان.

﴿فزيلنا﴾ أي فرقنا وقطعنا ما كان ﴿بينهم﴾ من التواصل في الدنيا يقال زيلته فتزيل أي فرقته ففرق، والمزايلة المفارقة والتزاييل التباين، قال السيوطي: ميزنا بينهم وبين المؤمنين، كما في آية ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ انتهى. وفيه مسامحة.

قال القرطبي: هذا التفسير بعيد من سابقه ولاحقه إذ هما في الكلام على المشركين ومعبوداتهم فالأولى القول الآخر الذي جرى عليه غيره كالبيضاوي والخازن ونص الخطيب: بينهم، أي بين المشركين وشركائهم، وذلك حين يتبرأ كل معبود عن عبده، وهذا أنسب بقوله.

﴿وقال شركاؤهم﴾ الذين عبدوهم وجعلوهم شركاء لله سبحانه، وإنما أضاف الشركاء إليهم مع أنهم جعلوهم شركاء لله سبحانه لكونهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم، فهم شركاؤهم في أموالهم من هذه الحيثية، وقيل لكونهم شركاءهم في هذا الخطاب والإضافة لأذن ملابسة.

﴿ما كنتم آيانا تعبدون﴾ في الحقيقة ونفس الأمر، وإنما عبدتم هواكم وضلالكم وشياطينكم الذين أغووكم، لأنها الأمرة لكم بالإشراك على حد قوله ﴿قالوا سبحانه أنت ولينا من دونهم﴾ الآية. وهذا الجحد من الشركاء وإن كان مخالفاً لما قد وقع من المشركين من عبادتهم فمعناه انكار عبادتهم إياهم عن أمرهم لهم بالعبادة وتقديم المفعول للفاصلة.

فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلَوْنَ  
كُلَّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا  
يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

﴿فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم﴾ إن كنا أمرناكم بعبادتنا أو رضينا ذلك  
منكم ﴿ان كنا عن عبادتكم لغافلين﴾ القائل لهذا الكلام هم المعبودون قالوا  
لمن عبدهم من المشركين، والمراد بالغفلة هنا عدم الرضاء بما فعله المشركون من  
العبادة لهم، أو عدم علمهم بها، أو كل من الأمرين.

وفي هذا دليل على أن هؤلاء المعبودين غير الشياطين لأنهم يرضون بما  
فعله المشركون من عبادتهم، قال أبو السعود: هذا من كلام الاصنام كما  
علمت. انتهى.

قلت: ويمكن أن يكونوا من الشياطين ويحمل هذا الجحد منهم على أنهم لم  
يجيروهم على عبادتهم ولا أكرهوهم عليها.

﴿هنالك﴾ أي في ذلك المكان الدهش أو في ذلك الموقف الدحض أو في  
ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان ﴿تبلون﴾ أي تختبر وتذوق ﴿كل  
نفس﴾ مؤمنة كانت أو كافرة، سعيدة أو شقية جزاء ﴿ما أسلفت﴾ من العمل  
وتعابنه بكنهه متبعة لآثاره من نفع أو ضرر، وخير أو شر، فمعنى تبلو تذوق  
وتختبر، وقيل تعلم وقيل تتبع فهو من التلو، وهذا على القراءة بالفوقية بإسناد  
الفعل إلى كل نفس.

وأما على القراءة بالنون فالمعنى ان الله يتبلي كل نفس ويختبرها وانه  
يعاملها معاملة من يختبرها ويفقد أحوالها، ويجوز أن يراد يصيب بالبلاء أي

العذاب كل نفس عاصية بسبب ما أسلفت من الشر، والبلية والبلاء والبلوى واحد، والجمع البلايا ومعنى الكل الاختبار.

أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يمثل لهم يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دون الله فيتبعونهم حتى يؤدوهم النار ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿هنالك تبلو﴾ الآية. وعن ابن زيد قال: تعاین كل نفس ما عملت، وقرىء تلو من التلاوة، أي تقرأ كل نفس صحيفة عملها من خير أو شر.

﴿وردوا﴾ أي الذين أشركوا ﴿إلى الله﴾ أي إلى جزائه وما أعد لهم من عقابه والرد عبارة عن صرف الشيء إلى الموضع الذي جاء منه ﴿مولاهم﴾ ربهم ومالكهم ﴿الحق﴾ صفة له، أي الصادق الربوبية دون ما اتخذوه من المعبودات الباطلة، وقرىء بالنصب على المدح كقولهم الحمد لله أهل الحمد ﴿وضل عنهم﴾ أي ضاع وبطل وذهب في الموقف ﴿ما كانوا يفترون﴾ عليه من أن الألهة التي لهم حقيقة بالعبادة تشفع لهم إلى الله وتقربهم إليه.

والحاصل أن هؤلاء المشركين يرجعون في ذلك المقام إلى الحق ويعترفون به ويقرون ببطلان ما كانوا يعبدونه ويجعلونه إلهاً، ولكن حين لا ينفعهم ذلك. وعن السدي قال: نسخها قوله ﴿بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾.

ثم لما بين الله سبحانه فضائح المشركين أتبعها بإيراد الحجج الدامغة من أحوال الرزق والحواس والموت والحياة والابتداء والاعادة والارشاد والهدى، وبنى سبحانه الحجج على الاستفهام وتفويض الجواب إلى المسؤولين ليكون أبلغ في إلزام الحججة وأوقع في النفوس فقال:

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾  
 فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَإِنِّي تُصَرِّفُونَ ﴿٣٢﴾

﴿قل﴾ يا محمد للمشركين احتجاجاً لحقبة التوحيد وبطلان ما هم عليه من الشرك؛ وهذه أسئلة ثمانية، جواب الخمسة الأولى منها منهم، وجواب الاثنين بعدها منه صلى الله عليه وسلم بتعليم الله إياه لعدم قدرتهم عليه، وجواب الأخير لم يذكر لشهرته والعلم به .  
 ﴿من يرزقكم من السماء﴾ بالمطر ﴿والأرض﴾ بالنبات والمعادن فإن الأرزاق تحصل بأسباب سماوية ومواد أرضية أو من كل واحدة منها توسعة عليكم ، ومن لا ابتداء الغاية فإن اعترفوا حصل المطلوب وان لم يعترفوا بأن الله هو الذي خلقها فقل .

﴿أم من يملك السمع والابصار﴾ أم هي المنقطعة بمعنى بل وفي هذا إضراب انتقال، انتقال من سؤال الى سؤال على القاعدة المقررة في القرآن لا اضراب إبطال، اي من يستطيع خلقها وتسويتها او من يحفظها من الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالها من أدنى شيء وحقيقة الملك معروفة ويلزمها الاستطاعة لان المالك لشيء يستطيع التصرف فيه والحفظ له والحماية، لذلك تجوز به عن كل منها وخصهما بالذكر لما فيها من الصنعة العجيبة والخلفة الغريبة حتى ينتفعوا بها هذا الانتفاع العظيم ويحصلون بها من الفوائد ما لا يدخل تحت حصر الحاصرين، ثم انتقل الى حجة ثالثة فقال ﴿ومن يخرج الحي من الميت﴾ أي الانسان من النطفة والطيور من البيضة والنبات من الحبة او المؤمن من الكافر، والاول أقرب الى الحقيقة ﴿ويخرج الميت من الحي﴾ اي النطفة من الانسان او الكافر من المؤمن، او البيضة من الطائر الحي، والمراد



بهذا الاستفهام عن يحيى وميت، وهذه حجة رابعة ثم انتقل الى حجة خامسة فقال:

﴿ومن يدبر الامر﴾ بين الخلائق أي يقدره ويقضيه، وهذا من عطف العام على الخاص لانه قد عم ما تقدم وغيره ﴿فسيقولون الله﴾ أي سيكون قولهم في جواب هذه الاستفهامات الخمس ان الفاعل لهذه الامور هو الله سبحانه ان انصفوا وعملوا على ما يوجه الفكر الصحيح والعقل السليم، والمعنى الله يفعل ذلك.

﴿فقل﴾ أمره ان يقول لهم ذلك وعظماً وتذكيراً بعد ان يحيبوا بهذا الجواب ﴿أفلا تتقون﴾ الاستفهام للانكار والفاء للعطف على مقدر أي تعلمون ذلك أفلا تتقون وتفعلون ما يوجه هذا العلم من تقوى الله الذي يفعل هذه الافعال، وتعبدون هذه الاموات والاصنام التي لا تقدر على شيء من هذه الامور بل ولا تعلم به، وفي البيضاوي أفلا تتقون عقابه بإشراككم إياه ما لا يشاركه في شيء من ذلك.

﴿فذا لكم﴾ الذي يفعل هذه الافعال ﴿الله﴾ وهو ﴿ربكم﴾ المتصف بأنه ﴿الحق﴾ لا ما جعلتموهم شركاء له في الموت والاصنام، والاستفهام في قوله ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ للتقريع والتوبيخ ان كانت ما استفهامية لا ان كانت نافية كما يحتمله الكلام، والمعنى أي شيء بعد الحق إلا الضلال فان ثبوت ربوبية الرب سبحانه حق باقرارهم وكان غيره باطلاً لأن واجب الوجود يجب أن يكون واحداً في ذاته وصفاته.

﴿فأن تصرفون﴾ أي كيف تستجيزون العدول عن الحق الظاهر وتقعون في الضلال اذ لا واسطة بينهما فمن تحطى احدهما وقع في الآخر، والاستفهام للانكار والاستبعاد والتعجب.

كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۗ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۗ فَإِنِّي تَوَفَّكُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَن يَهْدِيَ ۗ فَمَا لَكُمُ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُعْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٥﴾

﴿كذلك﴾ أي كما ثبت ان الحق ليس بعده إلا الضلال او كما حق انهم مصروفون عن الحق كذلك ﴿حقت كلمة ربك﴾ أي حق حكمه وقضاؤه ﴿على الذين فسقوا﴾ خرجوا من الحق الى الباطل وتمردوا في كفرهم عناداً ومكابرة، قال الزمخشري: أي مثل ذلك الحق حقت، وقال الزجاج: أي حقت عليهم هذه الكلمة ووجبت وهي ﴿انهم لا يؤمنون﴾ أي عدم ايمانهم بدل كل من كل، او المعنى لانهم لا يؤمنون فيكون تعليلاً لحقيتها عليهم.

﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أورد سبحانه في هذا حجة سادسة على المشركين وامر نبيه صلى الله عليه وسلم ان يقولها لهم وهم وان كانوا لا يعترفون بالمعاد لكنه لما كان أمراً ظاهراً بيناً وقد أقام الأدلة عليه في هذه السورة على صورة لا يمكن دفعها عند من انصف ولم يكابر كان كالمسلم عندهم الذي لا جحد له ولا انكار فيه.

والمعنى هل من هذه الاصنام والاموات التي تزعمون انها آلهة من يقدر على ان ينشئ الخلق من العدم على غير مثال سبق ثم يعيده بعد الموت في القيامة كهيئته اول مرة للجزاء.

وهذا السؤال استفهام إنكار، وانما لم يعطف على ما قبله ايذاناً باستقلاله في اثبات المطلوب، وعبارة أبي السعود هذا احتجاج آخر على حقية التوحيد

ويطّلع الإشراك باظهار كون شركائهم بمعزل عن استحقاق الالهية ببيان اختصاص خواصها من بدء الخلق واعادته به تعالى . اهـ .

والحاصل انه لا يقال ان الكفار ينكرون الإعادة والبعث فكيف يحتاج عليهم بها لان إلزام الخصم كما يصح بما يعترف به يصح ايضاً بما تبينت وثبتت حقيقته لقوة برهانه، فلذا جعل الاعادة كالبدء في الالزام لظهور برهانها وان لم يعترفوا بها .

ولذلك امر الرسول ان ينوب عنهم في الجواب كما قال سبحانه ﴿قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أي هو الذي يفعل ذلك لا غيره، وهذا القول الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم عن أمر الله سبحانه له نيابة عن المشركين في الجواب كما تقدم، اما عن طريق التلقين لهم وتعريفهم كيف يجيبون وارشادهم الى ما يقولون، واما لكون هذا المعنى قد بلغ في الوضوح الى غاية لا يحتاج معها الى اقرار الخصم ومعرفة ما لديه، واما لكون المشركين لا ينطقون بما هو الصواب في هذا الجواب فراراً منهم عن ان تلزمهم الحجة او ان يسجل عليهم باللكابرة ان حادوا عن الحق .

﴿فأنى تؤفكون﴾ اي فكيف تصرفون عن الحق وتنقلبون منه الى غيره، والمراد التعجب من احوالهم .

ثم امره الله سبحانه ان يورد عليهم حجة سابعة فقال ﴿قل هل من شركائكم﴾ الاستفهام هنا كالاستفهامات السابقة ﴿من يهدي الى الحق﴾ الإستدلال بالهداية بعد الاستدلال بالخلق وقع كثيراً في القرآن كقوله ﴿الذي خلقني فهو يهدين﴾ وقوله ﴿الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ وقوله ﴿الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى﴾ وفعل الهداية يجيء متعدياً باللام والى وهما بمعنى واحد، روى ذلك عن الزجاج .

وقيل كما يعدى بالى لتضمنه معنى الانتهاء باللام للدلالة على ان المنتهى

غاية الهداية والمعنى متقارب، وقد يحذف الحرف تخفيفاً وقد جمع بين المتعديين هنا بحرف الجر، فعدى الاول والثالث بإلى والثاني باللام والتعدية بهذين الحرفين من باب التفضن في البلاغة، ولذلك قال الزمخشري هداه للحق وإلى الحق فجمع بين اللغتين: والمراد بالحق في المواضع الثلاثة ضد الباطل.

ولما كانوا جاهلين بالجواب الحق في ذلك أو معاندين أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب بقوله ﴿قل﴾ لهم ﴿الله﴾ الذي له الاحاطة الكاملة ﴿يهدي للحق﴾ من يشاء دون غيره ممن زعمتموهم شركاء، ودليل ذلك ما تقدم من الأدلة الدالة على اختصاصه سبحانه بهذا، وهداية الله سبحانه لعباده إلى الحق هي بما نصبه لهم من الآيات في المخلوقات وارساله للرسول وانزاله للكتب، وخلقه لما يتوصل به العباد إلى ذلك من العقول والافهام والاسماع والابصار.

والاستفهام في قوله ﴿أفمن﴾ للتقرير والزام الحجة والفاء لترتيبه على ما سبق وهو برهان ثامن لم يذكر جوابه في الآية، والمعنى أفمن ﴿يهدي﴾ الناس ﴿إلى الحق﴾ وهو الله سبحانه ﴿أحق أن يتبع﴾ ويقتدي ﴿أم من لا يهدي﴾ أي أم الأحق بأن يتبع ويقتدي به من لا يهتدي بنفسه ﴿إلا أن يهدي﴾ الاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أي لا يهتدي في حال من الأحوال إلا في حال هدى الغير إياه، وكان مقتضى المقابلة أن يقال أم من لا يهدي، وإنما خولف إشارة إلى أنه إذا لم يهتد بنفسه لا يهدي غيره.

وقال النحاس: الاستثناء منقطع كما تقول فلان لا يسمع غيره إلا أن يسمع أي لكنه يحتاج أن يسمع، فمعنى إلا أن يهدي أي لكنه يحتاج أن يهدي ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾ هذا تعجيب من حالهم باستفهامين متوالين أي شيء يثبت لكم في هذه الحالة؟ فهذه جملة مستقلة، وكيف تحكمون لي باتخاذ هؤلاء شركاء لله؟ وهي جملة أخرى مستقلة، وكلا الاستفهامين للتقريع والتوبيخ.

ثم بين سبحانه ما هؤلاء عليه في امر دينهم وعلى أي شيء بنوه وبأي شيء اتبعوا هذا الدين الباطل وهو الشرك فقال ﴿وما يتبع اكثرهم الا ظناً﴾ هذا كلام مبتدأ غير داخل في الاوامر السابقة، والمعنى ما يتبع هؤلاء المشركون في اشراكهم بالله وجعلهم له انداداً الا مجرد الظن والتخمين والتحدس، ولم يكن ذلك عن بصيرة والتفات الى فرد من افراد العلم، فضلاً عن ان يسلكوا مسالك الأدلة الصحيحة الهادية الى الحق المبنية على المقدمات اليقينية الصادقة فيفهموا مضمونها ويقفوا على مقتضاها ويطلان ما يخالفها، بل ظن من ظن من سلفهم ان هذه المعبودات تقربهم الى الله وانها تشفع لهم.

ولم يكن ظنه هذا لمستند قط بل مجرد خيال مختل وحدس باطل فقلدوا فيه آباءهم ولعل تنكير الظن هنا للتحقير، اي إلا ظناً ضعيفاً واهياً لا يستند الى ما تستند اليه سائر الظنون.

وقيل المراد بالآية انه ما يتبع اكثرهم في الايمان بالله والاقرار به إلا ظناً والاول اولى، وقيل المراد بالاكثر الكل لان جميعهم يتبعون الظن في دعواهم أن الأصنام تشفع لهم، قال الكرخي: وفيه دليل على ان تحصيل العلم في الأصول واجب والاكتفاء بالتقليد والظن غير جائز، وقيل المراد بالاكثر الرؤساء.

ثم اخبرنا الله سبحانه ﴿ان الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ لان امر الدين إنما ينبنى على العلم وبه يتضح الحق من الباطل، والظن لا يقوم مقام العلم ولا يدرك به الحق ولا يغني عن الحق في شيء من الاشياء، والجملة مستأنفة لبيان شأن الظن وبطلانه ومن بمعنى عن والحق بمعنى العلم ﴿ان الله عليم بما يفعلون﴾ من الافعال القيحة الصادرة لا عن برهان فيندرج تحتها ما حكى عنهم من الاعراض عن البراهين القاطعة والاتباع للظنون الفاسدة اندراجاً اولياً.

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ  
 الْكِتَابِ لَأَرْسَبَ فِيهِ مِنَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ  
 وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾

﴿وما كان هذا القرآن ان يفترى﴾ قيل ان بمعنى اللام اي ليفترى، وقيل  
 بمعنى لا أي لا يفترى.

لما فرغ سبحانه من دلائل التوحيد وحججه شرع في تثبيت امر النبوة أي  
 وما صحح وما استقام ان يكون هذا القرآن المشتمل على الحجج البينة والبراهين  
 الواضحة مفترى من الخلق ﴿من دون الله﴾ وانما هو من عند الله عز وجل،  
 وكيف يصح ان يكون مفترى على سبيل الافتعال والاختلاق وقد عجز عن  
 الاتيان بسورة منه القوم الذين هم افصح العرب لساناً وادقهم اذهاناً.

قال الفراء: ومعنى الآية وما ينبغي لهذا القرآن ان يفترى كقوله ﴿وما  
 كان لنبي أن يغفل وكقوله: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ يعني ليس وصف  
 القرآن وصف شيء يمكن أن يفترى به على الله لأن المفترى هو الذي يأتي به  
 البشر، وانه مبرأ عن الافتراء والكذب.

﴿ولكن﴾ كان هذا القرآن، ووقعت لكن هنا احسن موقع اذ هي بين  
 نقيضين وهما الكذب والصدق المضمن للتصديق، وفيه اوجه (احدها) العطف  
 على خبر كان (الثاني) انه خبر لكان مضمرة وتقدم تقديره واليه ذهب الكسائي  
 والفراء وابن سعدان والزجاج وهذا كالذي قبله في المعنى (الثالث) تقديره وما  
 كان هذا القرآن ان يفترى ولكن انزل للتصديق (الرابع) تقديره ولكن يصدق  
 الذي، قاله السمين.

﴿تصديق الذي بين يديه﴾ أي امامه من الكتب الإلهية المنزلة على

الانبياء قبله، اي انها قد بشرت به قبل نزوله فجاء مصداقاً لها، ونفس هذا التصديق معجزة مستقلة، لان اقاصيله موافقة لما في الكتب المتقدمة مع ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يطلع على ذلك ولا تعلمه ولا سأل عنه ولا اتصل بمن له علم بذلك، وقيل المعنى ولكن تصديق النبي الذي بين يدي القرآن وهو محمد (ﷺ) لانهم شاهدوه قبل ان يسمعوا منه القرآن.

﴿وتفصيل الكتاب﴾ التفصيل التبيين، أي بين ما في كتب الله المتقدمة، والالف واللام في الكتاب للجنس، وقيل اراد ما بين في القرآن من الاحكام فيكون المراد بالكتاب القرآن وقيل اللوح المحفوظ ﴿لا ريب فيه﴾ الضمير عائد الى القرآن وهو داخل في حكم الاستدراك وهو خبر ثالث او حال من الكتاب اي منتفياً عنه الريب او مستأنف او معترض بين تصديق وبين ﴿من رب العالمين﴾ أي كائن منه خبر رابع او حال ثانية او متعلق بتصديق او بتفصيل او التقدير انزل للتصديق من رب العالمين.

﴿أم يقولون افتراه﴾ الاستفهام للانكار عليهم مع تقرير ثبوت الحجة وام هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة اي بل أيقولون افتراه واختلقه. وقال ابو عبيدة: ام بمعنى الواو أي ويقولون، وقيل الميم زائدة اي أيقولون والاستفهام للتقريع والتوبيخ والانكار والاستبعاد، اي هذا القول منهم في غاية البعد والشناعة، وقيل التقدير أيقرون به ام يقولون.

ثم امره الله سبحانه ان يتحداهم حتى يظهر عجزهم ويتبين ضعفهم فقال ﴿قل﴾ تبكيتاً لهم واطهاراً لبطلان مقاتلهم الفاسدة ﴿فأتوا﴾ اي ان كان الامر كما تزعمون من ان محمداً افتراه فأتوا اتم على جهة الافتراء ﴿بسورة مثله﴾ في البلاغة وجودة الصناعة فأنتم مثله في معرفة لغة العرب وفصاحة اللسان، وحسن النظم وبلاغة الكلام، والمراد مثل هذه السورة لانها اقرب ما يمكن ان يشار اليه، هكذا قال الرازي وهي مكية والاولى التناول لجميع السور، فانهم

لا يقدرّون ان يأتوا بأقصر سورة .

﴿وادعوا﴾ بمظاهريكم ومعاونيكم ﴿من استطعتم﴾ دعاءه والاستعانة به من قبائل العرب ومن آهتكم التي تجعلونها شركاء لله ﴿من دون الله﴾ اي من سوى الله من خلقه ﴿ان كنتم صادقين﴾ في دعواكم ان هذا القرآن مفترى، فان ذلك مستلزم لإمكان الاتيان بمثله، وهو ايضا مستلزم لقدرتكم عليه .

وسبحان الله العظيم ما اقوى هذه الحجة واوضحها واطهرها للعقول، فانهم لما نسبوا الافتراء الى واحد منهم في البشرية والعربية قال: لهم هذا الذي نسبتموه اليّ وانا واحد منكم ليس عليكم الا ان تأتوا وانتم الجمع الجَمّ بسورة مماثلة لسورة من سوره، واستعينوا بمن شتم من اهل هذه اللسان العربية على كثرتهم وتباين مساكنهم، او من غيرهم من بني آدم ومن الجن او من الاصنام، فان فعلتم هذا بعد اللتيا والتي فأنتم صادقون فيما نسبتموه اليّ والصقتموه بي .

فلم يأتوا عند سماع هذا الكلام المنصف والتنزل البالغ بكلمة ولا نطقوا ببنت شفة، بل كاعوا عن الجواب وتشبثوا بأذيال العناد البارد والمكابرة المجردة عن الحجة، وذلك مما لا يعجز عنه مبطل .

ومراتب تحدي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن أربعة: أولها: انه تحداهم بكل القرآن كما قال تعالى ﴿قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن﴾

ثانيها: انه تحداهم بعشر سور. قال تعالى ﴿قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾ .

ثالثها: انه تحداهم بسورة واحدة كما قال تعالى ﴿فأتوا بسورة مثله﴾

رابعها: انه تحداهم بحديث مثله كما قال تعالى ﴿فليأتوا بحديث مثله﴾

فهذا مجموع الدلائل التي ذكرها الله في اثبات ان القرآن معجز .



بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ، وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ  
 كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ،  
 وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾

ثم ان الله تعالى ذكر السبب الذي لاجله كذبوا بالقرآن واتى به عقب  
 هذا التحدي البالغ فقال ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه﴾ فاضرب عن الكلام  
 الاول وانتقل الى بيان انهم سارعوا الى تكذيب القرآن قبل ان يتدبروه ويفهموا  
 معانيه وما اشتمل عليه، وهكذا صنع من تصلب في التقليد ولم يبال بما جاء به  
 من دعا الى الحق وتمسك بذيول الانصاف، بل يرده بمجرد كونه لم يوافق هواه،  
 ولا جاء على طبق دعواه قبل ان يعرف معناه ويعلم مبناه كما تراه عياناً،  
 وتعلمه وجداناً.

والحاصل ان من كذب بالحجة النيرة والبرهان الواضح قبل ان يحيط  
 بعلمه فهو لم يتمسك بشيء في هذا التكذيب الا مجرد كونه جاهلاً انما كذب به  
 غير عالم به، فكان بهذا التكذيب منادياً على نفسه بالجهل بأعلى صوته ومسجلاً  
 بقصوره عن تعقل الحجج بأبلغ تسجيل، وليس على الحجة ولا على من جاء  
 بها من تكذبه شيء.

ما يبلغ الاعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

﴿ولما يأتهم تأويله﴾ اي بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولم يأتهم تأويله،  
 اي كذبوا به حال كونهم لم يفهموا تأويل ما كذبوا به ولا بلغت عقولهم ولا  
 وصلت اذهانهم معانيه الرائقة المثبتة عن علو شأنه.

والمعنى ان التكذيب وقع منهم قبل الاحاطة بعلمه، وقبل ان يعرفوا ما

يؤول اليه من صدق ما اشتمل عليه من حكاية ما سلف من اخبار الرسل المتقدمين، والامم السابقين، ومن حكايات ما سيحدث من الامور المستقبلية التي اخبر عنها قبل كونها او قبل ان يفهموه حق الفهم وتتعلقه عقولهم، فانهم لو تدبروه كل التدبر لفهموه كما ينبغي، وعرفوا ما اشتمل عليه من الامور الدالة ابلغ دلالة على انه كلام الله.

وعلى هذا فمعنى تأويله ما يؤول اليه لمن تدبره من المعاني الرشيقة واللطائف الانيقة وكلمة التوقع اظهر في المعنى الاول، والمعنى ان القرآن معجز من جهة النظم ومن جهة المعنى من حيث الاخبار بالغيب.

﴿كذلك﴾ اي مثل ذلك التكذيب ﴿كذب الذين من قبلهم﴾ من الامم عند ان جاءتهم الرسل بحجج الله وبراهينه فانهم كذبوا به قبل ان يحيطوا بعلمه، وقبل ان يأتيهم تأويله ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ من الامم السالفة من سوء العاقبة بالخسف والمسح ونحو ذلك من العقوبات التي حلت بهم، كما حكى ذلك القرآن عنهم واشتملت عليه كتب الله المنزلة عليهم، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم او لكل فرد من الناس والجملة في قوة فأهلكناهم.

﴿ومنهم﴾ اي ومن هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن ﴿من يؤمن به﴾ في نفسه ويعلم انه صدق وحق ولكنه كذب مكابرة وعناداً، وقيل المراد ومنهم من يؤمن به في المستقبل وان كذب به في الحال ﴿ومنهم من لا يؤمن به﴾ ولا يصدقه في نفسه بل كذب به جهلاً وتقليداً، او لا يؤمن به في المستقبل بل يبقى على جحوده واصراره؛ وقيل الضمير في الموضعين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقد قيل ان هذا التقسيم خاص بأهل مكة، وقيل عام في جميع الكفار ﴿وربك أعلم بالمفسدين﴾ فيجازيهم بأعمالهم والمراد بهم المصرون المعاندون.

وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلِكُمْ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مَعًا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿١٣﴾

﴿وان كذبوك فقل﴾ امر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ان اصروا على تكذيبه واستمروا عليه ﴿لي﴾ جزء ﴿عملي ولكم عملكم﴾ اي جزاؤه فقد ابلفت اليكم ما امرت بابلاغه وليس علي غير ذلك، ثم اكد بقوله ﴿انتم بريثون مما اعمل وانا بريء مما تعملون﴾ اي لا تؤاخذون بعلمي ولا تؤخذ بعملكم، وفيه توكيد لما افادته لام الاختصاص من عدم تعدي اجر العمل الى غير عامله.

وقد قيل ان هذا منسوخ بآية السيف لما فيه من ايهام الاعراض عنهم وتحلية سبيلهم كما ذهب اليه جماعة من المفسرين منهم مقاتل والكلبي، وعن ابن زيد قال: امره الله بهذا ثم نسخه فأمره بجهادهم.

قال الرازي: وهو بعيد لان شرط النسخ ان يكون رافعاً لحكم المنسوخ، ومدلول الآية اختصاص كل واحد بأفعاله وبثمرات افعاله من الثواب والعقاب وآية القتال ما رفعت شيئاً من مدلولات هذه الآية، بل هو باق فكان القول بالنسخ باطلاً.

﴿ومنهم من يستمعون اليك﴾ بين الله سبحانه في هذا ان في اولئك الكفار من بلغت حاله، في النفرة والعداوة الى هذا الحد وهي انهم يستمعون الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا قرأ القرآن وعلم الشرائع في الظاهر ولكنهم لا يسمعون في الحقيقة لعدم حصول اثر السماع وهو حصول القبول والعمل بما يسمعون، وجمع الضمير في يستمعون حملاً على معنى من وافرده في ومنهم من ينظر حملاً على لفظه، قيل والنكته كثرة المستمعين بالنسبة الى الناظرين لان

الاستماع لا يتوقف على ما يتوقف عليه النظر من المقابلة وانتفاء الحائل وانفصال الشعاع والنور الموافق لنور البصر، والتقدير في قوله ومنهم من يستمعون ومنهم من ينظر ومنهم ناس يستمعون ومنهم بعض ينظر.

﴿أفأنت تسمع الصم﴾ الهمزة للانكار يعني ان هؤلاء وان استمعوا في الظاهر فهم صم والصمم مانع من سماعهم فكيف يطمع منهم في ذلك مع حصول المانع وهو الصمم، فكيف اذا انضم الى ذلك ﴿ولو كانوا لا يعقلون﴾ فإن من كان أصمَّ غير عاقل لا يفهم شيئاً ولا يسمع ما يقال له، والفاء عاطفة.

وفيه تنبيه على ان حقيقة استماع الكلام فهم المعنى المقصود منه، ولذلك لا توصف به البهائم، وهو لا يتأتى الا باستعمال العقل السليم في تدبره، وعقولهم لما كانت مريضة بمعارضة الوهم ومتابعة الإلف والتقليد، تعذر افهامهم الحكم والمعاني الدقيقة فلم يتفجعوا بسرد الالفاظ عليهم غير ما ينتفع به البهائم من كلام الناعق.

والكلام في ﴿ومنهم من ينظر اليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون﴾ كالكلام فيما تقدم لأن العمى مانع فكيف يطمع من صاحبه في النظر، وقد انضم الى فقد البصر فقد البصيرة، لأن الاعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يكون له من الحدس الصحيح ما يفهم به في بعض الاحوال فهماً يقوم مقام النظر، وكذلك الأصم العاقل قد يتحدثس تحديساً يفيد بعض فائدة بخلاف من جمع له بين عمى البصر والبصيرة فقد تعذر عليه الادراك، وكذا من جمع له بين الصمم وذهاب العقل فقد انسد عليه باب الهدى.

والمقصود من هذا الكلام تسلية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن الطبيب اذا رأى مريضاً لا يقبل العلاج اصلاً أعرض عنه واستراح من الاشتغال به والهمزة للانكار.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ  
 كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا  
 مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

﴿ان الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس انفسهم يظلمون﴾ ذكر هذا عقب ما تقدم من عدم الاهتداء بالاسماع والابصار لبيان ان ذلك لم يكن لاجل نقص فيما خلقه الله لهم من السمع والعقل والبصر والبصيرة بل لاجل ما صار في طبائعهم من التعصب والمكابرة للحق والمجادلة بالباطل، والاصرار على الكفر فهم الذين ظلموا انفسهم بذلك، ولم يظلمهم الله شيئاً من الاثياء، بل خلقهم وجعل لهم من المشاعر ما يدركون به اكمل ادراك، وركب فيهم من الحواس ما يصلون به الى ما يريدون، ووفر مصالحهم الدنيوية عليهم وخلق بينهم وبين مصالحهم الدينية \*فعل نفسها براقش تجني\*

قيل والنكته في وضع الظاهر موضع المضمرة زيادة اليقين والتقرير، وتقديم المفعول على الفعل لافادة القصر او لمجرد الاهتمام مع مراعاة الفاصلة.

﴿و﴾ اذكر ﴿يوم نحشرهم﴾ اي المشركين المنكرين للبعث لموقف الحساب، واصل الحشر اخراج الجماعة وازعاجهم من مكانهم اي احيائهم من القبور ﴿كان﴾ اي كانوا ﴿لم يلبثوا﴾ اي مشبهين بمن لم يلبث ﴿إلا ساعة من النهار﴾ اي شيئاً قليلاً.

والمراد باللبث هو اللبث في الدنيا وقيل في القبور، استقلوا المدة الطويلة اما لانهم ضيعوا اعمارهم في الدنيا فجعلوا وجودها كالعدم او استقصروها للدهش والحيرة او لطول وقوفهم في المحشر او لشدة ما هم فيه من العذاب، نسوا لذات الدنيا وكأنها لم تكن ومثل هذا قولهم ﴿لبثنا يوماً او بعض يوم﴾ او لان مقامهم في الدنيا في جنب مقامهم في الآخرة قليل جداً.

والمقصود من هذا التشبيه كما قاله ابو السعود بيان كمال سهولة الحشر بالنسبة اليه تعالى ولو بعد دهر طويل، واظهار بطلان استعبادهم وانكارهم له بقولهم ﴿أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون﴾ ونحو ذلك او بيان تمام الموافقة بين النشأتين في الاشكال والصور فان اللبث اليسير يلزمه عدم التبدل والتغير.

والمراد بالساعة الزمن القليل فانها مثل في غاية القلة وتخصيصها بالنهار لان ساعاته اعرف حالاً من ساعات الليل.

﴿يتعارفون بينهم﴾ اي يعرف بعضهم بعضاً كأنهم لم يتفارقوا الا قليلاً، بيان وتقرير لما سبق وذلك يقع في الحشر الذي هو الاجتماع اي في ابتدائه وينقطع في اثنائه وقيل عند خروجهم من القبور ثم ينقطع التعارف بينهم لما بين ايديهم من الامور المدهشة للعقول المذهلة للافهام، واما البعث فلا تعارف فيه لعدم الاجتماع الذي هو لازمه.

وهذا احد وجهين في المقام ذكره البيضاوي وابو البقاء، وغالب المفسرين على خلافه وهو تفسير الحشر بالبعث من القبور وجرى على هذا ابوالسعود والحازن والقرطبي، وقيل ان هذا التعارف هو تعارف التوبيخ والتقريع يقول بعضهم لبعض انت اضللتني واغويتني، لا تعارف شفقة ورأفة كما قال تعالى ﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾ وقوله تعالى ﴿فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ فيجمع بأن المراد بالتعارف هو تعارف التوبيخ، وعليه يحمل قوله ﴿ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول﴾ وقوله تعالى ﴿كلما دخلت امة﴾ الآية وقوله ﴿ربنا انا اطعنا سادتنا﴾ الآية، قال القرطبي: وهو الصحيح.

وقد جمع بين الآيات المختلفة في مثل هذا وغيره بأن المواقف يوم القيامة مختلفة فقد يكون في بعض المواقف ما لا يكون في الآخر.

﴿قد خسر الذين كذبوا بقاء الله﴾ هذا تسجيل من الله سبحانه عليهم

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّئَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَسْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾

بالخسران وتعجيب منه ولذا أتى بحرف التحقيق، والمراد باللقاء يوم القيامة عند الحساب والجزاء اي من باع آخرته الباقية بدينه الفانية قد خسر لانه أثر الفاني على الباقي، والجملة مستأنفة او في محل نصب باضمار قول اي قائلين قد خسر ﴿وما كانوا مهتدين﴾ نفى عنهم ان يكونوا من جنس المهتدين لجهلهم وعدم طلبهم لما ينجيهم وينفعهم ويصلحهم.

﴿وإما نرينك بعض الذي نعدهم﴾ اصله ان نرك وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط ولاجله زيدت نون التأكيد خلافاً لسيويه، والمعنى ان حصلت منا الاراءة لك بعض الذي وعدناهم من اظهار دينك في حياتك بقتلهم واسرهم، وجواب الشرط محذوف، والتقدير فتراه او فذاك.

وجملة ﴿أو نتوفئك﴾ معطوفة على ما قبلها، المعنى او لا نرينك ذلك في حياتك بل نتوفئك قبل ذلك ﴿فإلينا مرجعهم﴾ فعند ذلك نعذبهم في الآخرة فنريك عذابهم فيها، وجواب او نتوفئك محذوف ايضاً والتقدير او نتوفئك قبل الاراءة فنحن نريك ذلك في الآخرة، وقيل انه جواب للشرط وما عطف عليه اذ معناه صالح لذلك، والى هذا ذهب العوفي وابن عطية.

وقيل ان جواب او نتوفئك هو قوله فإلينا مرجعهم لدلالته على ما هو

المراد من اراءة النبي صلى الله عليه وسلم تعذيبهم في الآخرة وقيل العدول في الموضوعين الى صيغة المستقبل لاستحضار الصورة، والاصل اريناك او توفيناك وفيه نظر فان اراءة صلى الله عليه وسلم ببعض ما وعد المشركين من العذاب لم تكن قد وقعت كالوفاة.

وحاصل معنى هذه الآية: إن لم تنتقم منهم عاجلاً إنتقمنا منهم آجلاً، وقد اراد الله قتلهم واسرهم وذلمهم وذهاب عزهم وانكسار سورة كبرهم بما اصابهم به في يوم بدر وما بعده من المواطن فله الحمد.

﴿ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾ من تكذيبهم وكفرهم فيعذبهم اشد العذاب وجاء بثم الدالة على التباعد مع كون الله سبحانه شهيداً على ما يفعلونه في الدارين للدلالة على ان المراد بهذه الافعال ما يترتب عليها من الجزاء او ما يحصل من انطاق الجوارح بالشهادة عليهم يوم القيامة، فجعل ذلك بمنزلة شهادة الله عليهم كما ذكره النيسابوري.

وفي السمين ﴿ثم﴾ هنا ليست للترتيب الزمني بل هي لترتيب الاخبار لا لترتيب القصص في نفسها كقولك زيد عالم ثم هو كريم .

قال الزمخشري: ذكرت الشهادة والمراد مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب، كانه قيل ثم الله معاقب على ما يفعلون، وفيه وعيد لهم وتهديد شديد.

﴿ولكل أمة﴾ من الأمم الخالية في وقت من الاوقات ﴿رسول﴾ يرسله الله اليهم يبين لهم ما شرعه الله لهم من الاحكام على حسب ما تقتضيه المصلحة ﴿فاذا جاء رسولهم﴾ اليهم وبلغهم ما ارسله الله به فكذبوه جميعاً ﴿قضى بينهم﴾ اي بين الامة ورسولها ﴿بالقسط﴾ اي العدل فنجا الرسول وهلك المكذبون له، فيكون ما يعذبون به عدلاً لا ظلاً كما قال سبحانه ﴿وما



كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴿ وقوله تعالى ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾

ويجوز ان يراد بالضمير في ﴿بينهم﴾ الامة على تقدير انه كذبه بعضهم وصدقه البعض الآخر فيهلك المكذبون وينجو المصدقون، وفي وقت هذا القضاء قولان احدهما انه في الدنيا، والآخر انه في الآخرة، والاول أولى.

﴿وهم لا يظلمون﴾ في ذلك القضاء فلا يعذبون بغير ذنب ولا يؤخذون بغير حجة، ومنه قوله تعالى ﴿وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم﴾ وقوله ﴿فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد﴾ والمراد المبالغة في اظهار العدل والنصفة بين العباد.

ثم ذكر سبحانه شبهة اخرى من شبه الكفار ﴿و﴾ ذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم كان كلما هددهم بنزول العذاب كانوا (يقولون متى هذا الوعد) والاستفهام منهم للانكار والاستبعاد، والقدح في النبوة لا طلباً لتعيين وقت مجيئه على وجه الالتزام كما في سورة الملك فإن المطلوب هناك تعيين الوقت.

﴿ان كنتم صادقين﴾ خطاباً منهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وللمؤمنين، ويحتمل أن يراد بالقائلين هذه المقالة جميع الأمم الذين لم يسلموا لرسلهم الذين ارسلهم الله اليهم.

ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجيب عليهم بما يحسم مادة الشبهة ويقطع اللجاج فقال ﴿قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً﴾ اي لا أقدر على جلب نفع لها ولا دفع ضرر عنها، فكيف أقدر على أن أملك ذلك لغيري، وقدم الضر لان السياق لإظهار العجز عن ظهور الوعد الذي استعجلوه واستبعدوه.

والاستثناء في قوله ﴿إلا ما شاء الله﴾ منقطع كما ذكره ائمة التفسير، وبه قال الزمخشري أي ولكن ما شاء الله من ذلك كان فكيف اقدر على أن أملك لنفسي ضرراً أو نفعاً، وقيل متصل تقديره إلا ما شاء الله ان املكه واقدر عليه، والأول أولى.

وفي هذا اعظم واعظ وابلغ زاجر لمن صار ديدنه وهجيره المنادة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والاستغاثة به عند نزول النوازل التي لا يقدر على دفعها الا الله سبحانه، وذلك من صار يطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم ما لا يقدر على تحصيله إلا الله سبحانه، فان هذا مقام رب العالمين الذي خلق الانبياء والصالحين وجميع المخلوقين رزقهم واحياهم ويميتهم فكيف يطلب من نبي من الانبياء او ملك من الملائكة او صالح من الصالحين ما هو عاجز عنه غير قادر عليه، ويترك الطلب لرب الارباب القادر على كل شيء الخالق الرازق المعطي المانع.

وحسبك في هذه الآية موعظة فإن هذا سيد ولد آدم وخاتم الرسل يأمره الله بأن يقول لعباده لا أملك لنفسي ضرراً ولا نفعاً فكيف يملكه لغيره، وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته، ومنزله لا تبلغ الى منزلته لنفسه، فضلاً عن ان يملكه لغيره.

فياعجباً لقوم يعكفون على قبور الاموات الذين قد صاروا تحت اطباق الثرى، ويطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه الا الله عز وجل، كيف لا يتيقظون لما وقعوا به من الشرك ولا يتبهون لما حل بهم من المخالفة لمعنى لا إله الا الله، ومدلول قل هو الله احد.

واعجب من هذا اطلاع اهل العلم على ما يقع من هؤلاء ولا ينكرون عليهم ولا يحولون بينهم وبين الرجوع الى الجاهلية الاولى بل الى ما هو اشد

منها. فان اولئك يعترفون بان الله سبحانه هو الخالق الرازق المحيي المميت الضار النافع، وانما يجعلون اصنامهم شفعاء لهم عند الله ومقربين اليه، وهؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضر والنفع وينادونهم تارة على الاستقلال وتارة مع ذي الجلال وكفاك من شر سماعه، والله ناصر دينه ومظهر شريعته من اوضاع الشرك وادنامس الكفر.

ولقد توسل الشيطان اخزاه الله بهذه الذريعة الى ما تقر به عينه وينتليج به صدره من كفر كثير من هذه الأمة المباركة وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا، إنا لله وإنا اليه راجعون.

ثم بين سبحانه ان لكل طائفة حداً محدوداً لا يتجاوزونه فلا وجه لاستعمال العذاب فقال ﴿لكل أمة﴾ ممن قضى بينهم وبين رسولهم او بين بعضهم لبعض ﴿أجل﴾ اي وقت خاص ومدة مضروبة يحل بهم ما يريد الله سبحانه لهم عند حلوله والاجل يطلق على مدة العمر، وعلى آخر جزء منه، والمراد هنا الثاني كما يؤخذ من التفاسير.

﴿فإذا جاء أجلهم﴾ أي أجل كل أمة، قال ابو السعود: ان جعل الأجل عبارة عن حد معين من الزمان فمعنى مجيئه ظاهر، وان اريد به ما امتد من الزمان فمعنيته عبارة عن انقضائه اذ هناك يتحقق مجيئه بتمامه ﴿فلا يستأخرون﴾ عن ذلك الاجل المعين ﴿ساعة﴾ اي شيئاً قليلاً من الزمان ﴿ولا يستقدمون﴾ منه، ومثله قوله تعالى ﴿ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾ والسين زائدة فيها، والكلام على هذه الآية المذكورة هنا قد تقدم في تفسير الآية التي في اول الاعراف فلا نعيده.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ لِمَ أَنْتُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَرَأَيْتُمْ لِمَ أَنْتُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾

﴿قل أرايتم ان اتاكم عذابه﴾ هذا منه سبحانه تزييف لرأي الكفار في استعجال العذاب بعد التزييف الاول، اي اخبروني عن عذاب الله ان اتاكم اي شيء تستعجلون منه وليس شيء من العذاب يستعجله العاقل، اذ العذاب كله مر المذاق، موجب لنفار الطبع منه.

فتكون جملة الاستفهام جاءت على سبيل التلطف بهم، والتنبيه لهم على ان العذاب لا ينبغي ان يستعجل، او جاءت على سبيل التعجب والتهويل للعذاب، أي أي شيء شديد تستعجلون منه، أي ما أشد وما أهول ما تستعجلون من العذاب. قاله أبو حيان.

﴿بيئاتاً﴾ أي وقت بيات، والمراد به الوقت الذي يبيتون فيه وينامون ويغفلون عن التحرز، والبيات بمعنى التبييت اسم مصدر كالسلام بمعنى التسليم، وكذلك قوله ﴿او نهراً﴾ اي وقت الاشتغال بطلب المعاش والكسب، والاستفهام في قوله ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾ للانكار المتضمن للنهي كما في قوله ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾

ووجه الانكار عليهم في استعجالهم ان العذاب مكروه تنفر منه القلوب وتأباه الطبائع فما المقتضى لاستعجالهم له، وضمير منه راجع الى العذاب، وقيل الى الله، والجملة جواب الشرط بحذف الفاء وقيل ان الجواب محذوف.

والمعنى إن اتاكم عذابه تندموا على الاستعجال او تعرفوا الخطأ منكم فيه، وقيل ان الجواب قوله ﴿أنتم اذا ما وقع﴾ ويكون جملة ماذا يستعجل اعتراضاً، والمعنى ان اتاكم عذابه آتتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الايمان، والأول أولى.

قال الحفناوي: ولم يقل يستعجلون منه للدلالة على ما يوجب ترك الاستعجال وهو الاجرام لان من حق المجرم ان يخاف من العذاب على اجرامه وان يهلك فرعاً من مجيئه وان ابطاً فكيف يستعجله.

ودخول الهمزة الاستفهامية في ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ لانكار ايمانهم حيث لا ينفع الايمان وذلك بعد نزول العذاب، وهو يتضمن معنى التهويل عليهم وتفضيح ما فعلوه في غير وقته مع تركهم له في وقته الذي يحصل به النفع والدفع، وهذه الجملة داخلة تحت القول المأمور به، وجيء بكلمة ثم التي للتراخي دلالة على الاستبعاد، وجيء بإذا مع زيادة ما للتأكيد دلالة على تحقق وقوع الايمان منهم في غير وقته ليكون في ذلك استعجال لهم.

والمعنى ابعد ما وقع عذاب الله عليكم وحل بكم سخطه وانتقامه آمنت حين لا ينفعكم هذا الايمان شيئاً ولا يدفع عنكم ضرراً، وقيل ان هذه الجملة ليست داخلة تحت القول المأمور به وانها من قول الملائكة استهزاء بهم وازراء عليهم، والاول اولى، وقيل ثم هنا بفتح الثاء بمعنى هناك والاول اولى.

﴿الآن﴾ بهمزتين الاولى همزة الاستفهام والثانية همزة ال المعرفة اذا اجتمع هاتان الهمزتان وجب في الثانية احد امرين: تسهيلها من غير الف بينها وبين الاولى وابدالها مدأ بقدر ثلاث ألفات، وقد وقع في القرآن الكريم من هذا القبيل ستة مواضع اثنان في الانعام وهما ﴿الذكرين﴾ مرتين، وثلاثة في هذه السورة فقط الآن هنا وفيما سياتي ولفظ ﴿الله اذن لكم﴾ وواحد في النمل ﴿الله خير﴾ فلا يجوز في هذه المواضع الستة تحقيق الهمزتين، بل يجب احد الامرين اللذين قد عرفتهما، قيل هو استئناف بتقدير للقول غير داخل تحت القول الذي امر الله رسوله صلى الله عليه وسلم ان يقوله لهم، اي قيل لهم عند ايمانهم بعد وقوع العذاب الآن آمنتكم به ﴿و﴾ الحال انكم ﴿قد كتمتم به﴾ اي العذاب ﴿تستعجلون﴾ يعني تكذبون لان استعجالهم كان على جهة التكذيب والاستهزاء ويكون المقصود بأمره صلى الله عليه وسلم ان يقول لهم هذا القول على سبيل التوبيخ لهم والازراء عليهم.

ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾  
 ﴿٥٣﴾ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلُّ أَيْ وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ  
 لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ  
 وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾

﴿ثم قيل للذين ظلموا﴾ انفسهم بالكفر وعدم الايمان ﴿ذوقوا عذاب الخلد﴾ اي العذاب الدائم الذي لا ينقطع وهو عطف على ما قدر قبل الآن، والمراد منه التقريع والتوبيخ لهم يوم القيامة على سبيل الالهانة، اي قيل لهم ان هذا الذي تطلبونه ضرر محض عار عن النفع من كل وجه، والعاقلة لا يطلب ذلك، والقائل لهم هذه المقالة قيل هم خزنة جهنم، ولا يبعد ان يكون القائل لذلك هم الانبياء على الخصوص او المؤمنون على العموم.

﴿هل تجزون الا بما كنتم تكسبون﴾ في الحياة الدنيا من الكفر والمعاصي والاعمال والاستفهام للتقرير، والاستثناء مفرغ وكأنه يقال لهم هذا القول عند استغاثتهم من العذاب وحلول النقمة بهم.

ثم حكى الله سبحانه عنهم بعد هذا البيانات البالغة والجوابات عن اقوالهم الباطلة انهم استفهموا تارة اخرى عن تحقق العذاب فقال ﴿ويستنبئونك﴾ اي يستخبرونك على جهة الاستهزاء منهم والانكار ﴿أحق هو﴾ اي ما تعدنا به من العذاب في العاجل والأجل، وهذا السؤال منهم جهل محض وظلمات بعضها فوق بعض، فقد تقدم ذكره عنهم مع الجواب عليه، فصنيعهم في هذا التكرير صنيع من لا يعقل ما يقول ولا ما يقال له.

وقيل المراد بهذا الاستخبار منهم هو عن حقية القرآن.

﴿قل﴾ أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم في جواب استفهامهم الخارج مخرج الاستهزاء، أي قل لهم يا محمد غير ملتفت الى

ما هو مقصودهم من الاستهزاء ﴿إي﴾ أي نعم ﴿وربي انه﴾ أي أن ما أعدكم به من العذاب ﴿لحق﴾ ثابت كائن لا محالة .

وفي هذا الجواب تأكيد من وجوه (الاول) القسم مع دخول الحرف الخاص بالقسم الواقع موقع نعم (الثاني) دخول إن المؤكدة (الثالث) اللام في لحن (الرابع) اسمية الجملة وذلك يدل على انهم قد بلغوا في الانكار والتمرد الى الغاية التي ليس وراءها غاية .

ثم توعدهم بأشد توعدهم ورهبهم بأعظم ترهيب فقال ﴿وما انتم بمعجزين﴾ أي فائتين العذاب بالهرب والتحيل الذي لا ينفع والمكابرة التي لا تدفع من قضاء الله شيئاً بل هو مدرركم ولا بد، وهذه الجملة اما معطوفة على جملة جواب القسم او مستأنفة لبيان عدم خلوصهم عن عذاب الله بوجه من الوجوه .

ثم زاد في التأكيد فقال ﴿ولو﴾ امتناعية على ما هو الكثير فيها ﴿أن لكل نفس﴾ من الأنفس المتصفة بأنها ﴿ظلمت﴾ نفسها بالكفر بالله وعدم الايمان به ﴿ما في الارض﴾ من كل شيء من الاشياء التي تشتمل عليها من الاموال النفيسة والذخائر الفائقة ﴿لافتدت به﴾ اي جعلته فدية لها من العذاب يوم القيامة لا ينفعها الفداء ولا يقبل منها، ومثله قوله تعالى ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من احدهم ملء الارض ذهباً ولو افتدى به﴾

ويجوز ان يكون الافتداء متعبداً وان يكون قاصراً، فاذا كان مطاوعاً لمتعد كان قاصراً، تقول فديته فافتدى وان لم يكن مطاوعاً يكون بمعنى فدى فيتعدى لواحد، والفعل يحتمل الوجهين فان جعلناه متعبداً فمفعوله محذوف تقديره لافتدت به نفسها وهو من المجاز كقوله تعالى ﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾ .

﴿وأسروا الندامة﴾ الضمير راجع الى الكفار الذين سياق الكلام معهم،

وقيل راجع الى الانفس المدلول عليها بكل نفس وان كان المراد خصوص الرؤساء منهم .

ومعنى اسروا اخفوا، اي لم يظهروا الندامة على ترك الايمان بل اخفوها لما قد شاهدوه في ذلك الموطن مما سلب عقولهم وذهب بتجلدهم، ويمكن انه بقي فيهم وهم على تلك الحالة عرق ينزعهم الى العصبية التي كانوا عليها في الدنيا فأسروا الندامة لثلاث يشمت بهم المؤمنون .

وقيل أسرها الرؤساء فيما بينهم دون اتباعهم خوفاً من توبيخهم لهم لكونهم هم الذين اضلوهم وحالوا بينهم وبين الاسلام، وقيل معنى أسروا أظهروا لأن أسر من الاضداد ومعنى الاول هو المشهور في اللغة وهو في الآية يحتمل الوجهين؛ وقيل وجدوا ألم الحسرة في قلوبهم لان الندامة لا يمكن إظهارها .

وذكر المبرد في ذلك وجهين: الاول: انها بدت في وجوههم أسرة الندامة وهي الانكسار واحدا سرار وجمعها أسارير والثاني: ما تقدم وقيل معنى أسروا الندامة اخلصوها لان إخفاءها اخلاصها، قيل انه ماض على بابه قد وقع، وقيل بل هو بمعنى المستقبل .

﴿لما﴾ ظرف بمعنى حين أي حين ﴿رأوا العذاب﴾ اي وقوع هذا منهم كان عند رؤية العذاب ومعابته، واما بعد الدخول فيه فهم الذين قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا .

﴿وقضى بينهم بالقسط﴾ أي العدل مستأنفة وهو الظاهر او معطوفة على رأوا اي قضى الله بين المؤمنين وبين الكافرين او بين الرؤساء او بين الظالمين من الكفار والمظلومين بالعدل ، وقيل معنى القضاء بينهم انزال العقوبة عليهم ﴿وهم لا يظلمون﴾ اي لا يظلمهم الله فيما فعله بهم من العذاب الذي حل بهم فانه بسبب ما كسبوا .



أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْإِنَّ وَعَدَّ اللَّهُ حَتَّىٰ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾  
هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

وجملة ﴿ألا إن لله ما في السموات والارض﴾ مسوقة لتقرير كمال قدرته لأن من ملك ما في السموات والارض يتصرف به كيف يشاء، وغلب غير العقلاء لانهم اكثر المخلوقات، قيل لما ذكر سبحانه افتداء الكفار بما في الارض لو كان لهم ذلك بين ان الاشياء كلها لله وليس لهم شيء يتمكنون من الافتداء به.

وقيل لما أقسم على حقيقة ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، أراد ان يصحب من ذلك بدليل البرهان البين، بأن ما في العالم على اختلاف انواعه ملكه يتصرف به كيف يشاء وفي تصدير الجملة بحرف التنبيه انتباه للغافلين وايقاظ للذاهلين.

ثم أكد ما سبق بقوله ﴿ألا ان وعد الله حق﴾ أي كائن لا محالة وهو عام يندرج فيه ما استعجلوه من العذاب اندارجاً اولياً، وتصدير الجملة بحرف التنبيه كما قلنا في التي قبلها مع الدلالة على تحقق مضمون الجملتين وتقرير ما سلف من الآيات الكريمة والتنبيه على وجوب استحضار المحافظة عليه ﴿ولكن اكثرهم﴾ اي اكثر الناس يعني الكفار ﴿لا يعلمون﴾ ما فيه صلاحهم فيعملون به وما فيه فسادهم فيجتنبونه لقصور عقولهم واستيلاء الغفلة عليهم.

﴿هو يحيي ويميت﴾ أي يهب الحياة ويسلبها ﴿واليه ترجعون﴾ في الدار الآخرة فيجازي كلًا بما يستحقه ويفضل على من يشاء من عباده.

يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ  
 لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾  
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ أَللَّهُ  
 أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾

﴿يأتيها الناس﴾ قيل أراد قريشاً وقيل هو على العموم وهو الأولى واختاره الطبري وفيه التفات ورجوع الى استمالتهم عقب تحذيرهم من غوائل الضلال وشروع في بيان أدلة الرسالة بعد بيان أدلة التوحيد ﴿قد جاءتكم موعظة﴾ يعني القرآن فيه ما يتعظ به من قرأه وعرف معناه والوعظ في الاصل هو التذكير بالعواقب سواء كان بالترغيب او التهيب، والواعظ هو كالطبيب، ينهى المريض عما يضره وقيل الوعظ زجر مقترن بتخويف، وقال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب.

﴿من ربكم﴾ من لا ابتداء الغاية وهو مجاز، او للتبعيض اي موعظة كائنة من مواعظ ربكم ﴿وشفاء لما في الصدور﴾ من الشكوك التي تعترى بعض المرتابين لوجود ما يستفاد منه فيه من العقائد الحقة، واشتماله على تزييف العقائد الباطلة.

عن ابي سعيد الخدري قال: جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: اني اشتكي صدري، فقال: اقرأ القرآن، يقول الله: ﴿شفاء لما في الصدور﴾ اخرج ابن المنذر وابن مردويه.

واخرج البيهقي في شعب الايمان عن وائلة بن الاسقع ان رجلاً شكى الى النبي صلى الله عليه وسلم وجع حلقه قال: «عليك بقراءة القرآن والعسل فالقرآن شفاء لما في الصدور، والعسل شفاء من كل داء» والشفاء في الاصل مصدر جعل وصفاً مبالغة او هو اسم لما يشفى به اي يتداوى فهو كالدواء لما

يداوى به، وإنما خص الصدر بالذكر لأنه موضع القلب وغلافه وهو أعز موضع في بدن الإنسان لمكان القلب فيه، وداء الجهل أضر للقلب من داء المرض للبدن، والقرآن مزيل لأمراض القلب كلها.

﴿وهدى ورحمة للمؤمنين﴾ بانجائهم من الضلال، نزل بالعطف تغاير الصفات منزلة تغاير الذات، والهدى والارشاد لمن اتبع القرآن وتفكر فيه وتدبر معانيه الى الطريق الموصلة الى الجنة، والرحمة هي ما يوجد في الكتاب العزيز من الامور التي يرحم بها عباده فيطلبها من اراد ذلك حتى ينالها فالقرآن العظيم مشتمل على هذه الامور جامع لهذه الاشياء كلها.

قال الكرخي: والحاصل ان الموعظة اشارة الى تطهير ظواهر الخلق عما لا ينبغي وهو الشريعة، والشفاء اشارة الى تطهير الباطن عن العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة وهو الطريقة، والهدى اشارة الى ظهور نور الحق في قلوب الصديقين وهو الحقيقة، والرحمة اشارة الى كونها بالغة في الكمال والاشراق الى حيث تصير مكملة للناقصين، وهي النبوة فهذه درجات عقلية ومراتب برهانية مدلول عليها بهذه الالفاظ القرآنية لا يمكن تأخير ما تقدم ذكره لـ هـ.

ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم، وجعل الخطاب معه بعد خطابه للناس على العموم فقال ﴿قل بفضل الله وبرحمته﴾ المراد بالفضل من الله سبحانه تفضله على عباده في الأجل والعاجل بما لا يحيط به الحصر والرحمة رحمة لهم، وروي عن ابن عباس انه قال: فضل الله القرآن، ورحمته الاسلام؛ وعن الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة ان فضل الله الايمان ورحمته القرآن.

وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فضل الله القرآن ورحمته: أن جعلكم من أهله. رواه ابو الشيخ وابن مردويه، وقد روي عن جماعة من التابعين نحو هذه الروايات المتقدمة، والاولى حمل الفضل والرحمة على العموم، ويدخل في ذلك ما في القرآن منها دخولاً اولياً.

وتكرير الباء في برحمته للدلالة على أن كل واحد من الفضل والرحمة

سبب مستقل في الفرح، وأصل الكلام قل بفضل الله وبرحمته فيفرحوا ثم حذف هذا الفعل لدلالة الثاني عليه في قوله ﴿فبذلك فليفرحوا﴾ وقيل ان فرحوا بشيء فليخصوا فضل الله ورحمته بالفرح وهو اللذة في القلب بسبب ادراك المطلوب وتقديم الظرف على الفعل لإفادة الحصر والتكرير للتأكيد والتقريب وايجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداها من فوائد الدنيا وفي هاتين الفائين اوجه ذكرها في الجمل.

وقد ذم الله سبحانه الفرح في مواطن كقوله ﴿لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين﴾ وجوزّه في قوله ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ وكما في هذه الآية وقيل التقدير جاء تكم موعظة بفضل الله ورحمته فبذلك أي فبمجيئها فليفرحوا ﴿هو خير﴾ أي ان هذا خير لهم ﴿عما يجمعون﴾ من حطام الدنيا ولذاتها الفانية قرىء بالياء والتاء وهما سبعيتان.

ثم اشار سبحانه بقوله ﴿قل أرأيتم ما انزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً﴾ الى طريق اخرى غير ما تقدم في اثبات النبوة وتقدير ذلك ما حاصله انكم تحكمون بتحليل البعض وتحريم البعض، فإن كان بمجرد التشهي والهوى فهو مهجور باتفاق العقلاء مسلمهم وكافرهم، وان كان لاعتقادكم انه حكم الله فيكم وفيما رزقكم فلا تعرفون ذلك إلا بطريق موصلة الى الله ولا طريق يتبين بها الحلال من الحرام إلا من جهة الرسل الذين ارسلهم الله الى عباده.

والمعنى اخبروني الذي انزل الله اليكم من رزق اي زرع وضرع وغيرها فجعلتم بعضه حراماً كالبحيرة والسائبة وبعضه حلالاً كالميتة وذلك كما كانوا يفعلونه في الانعام والحراث حسبها سبق حكاية ذلك عنهم في سورة الانعام من الكتاب العزيز، وقيل ما استفهامية، واليه ذهب الحوفي والزنجشيري والظاهر انها موصولة كما تقدم لان فيه ابقاء رأيت على بابها، ومعنى انزال الرزق كون المطر ينزل من جهة العلو.

وقال الزجاج: انزل بمعنى خلق كما قال ﴿وانزل لكم من الانعام ثمانية أزواج وانزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ ﴿قل الله أذن لكم﴾ في هذا التحليل والتحريم والهمزة للانكار ﴿أم على الله تفترون﴾ ام منقطعة بمعنى بل كما في الكشاف، والظاهر انها متصلة كما قال السفاقي: أي الله اذن لكم ام تكذبون عليه في نسبة الاذن اليه.

قال الكرخي: وكفى به زاجراً لمن افتى بغير اتقان كبعض فقهاء هذا الزمان اهـ. واطهار الاسم الشريف وتقديمه على الفعل للدلالة على كمال قبح الافتراء. قلت وفي هذه الآية الشريفة ما يصك مسامح المصدرين للافتاء لعباد الله في شريعته بالتحليل والتحريم والجواز وعدمه، مع كونهم من المقلدين الذين لا يعقلون حجج الله ولا يفهمونها ولا يدرون ما هي، ومبلغهم من العلم الحكاية لقول قائل من هذه الأمة قد قلده في دينهم وجعلوه شارعاً مستقلاً، ما عمل به من الكتاب والسنة فهو المعمول به عندهم وما لم يبلغه او بلغه ولم يفهمه حق فهمه واخطأ الصواب في اجتهاده وترجيحه فهو في حكم المنسوخ عندهم، المرفوع حكمه عن العباد، مع كون سن قلده متعبداً بهذه الشريعة كما هم متعبدون بها ومحكوماً عليه بأحكامها كما هم محكوم عليهم بها، وقد اجتهد رأيه وأدى ما عليه وفاز بأجرين مع الاصابة وأجر مع الخطأ، انما الشأن في جعلهم لرأيه الذي اخطأ فيه شريعة مستقلة ودليلاً معمولاً به.

وقد اخطأوا في هذا خطأً بيناً وغلطوا غلطاً فاحشاً فان الترخيص للمجتهد في اجتهاد رأيه يخصه وحده، ولا قائل من أهل الاسلام المعتد بأقوالهم انه يجوز لغيره ان يعمل به تقليداً له واقتداء به، وما جاء به المقلدة في تقويم هذا الباطل فهو سن الجهل العاطل، اللهم كما رزقتنا من العلم ما نميز به الحق والباطل فارزقنا من الانصاف ما نظفر عنده بما هو الحق عندك ياواهب الخير.

قال النسفي: الآية زاجرة عن التجوز فيما يسئل من الاحكام وباعثة على وجوب الاحتياط فيه وان لا يقول احد في شيء جائز او غير جائز إلا بعد ايقان واتقان وإلا فهو مفتر على الديان.

وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾

ثم قال ﴿وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة﴾ أي أي شيء ظنهم في هذا اليوم وما يصنع بهم فيه، أي لا ينبغي هذا الحساب ولا صحة له بوجه من الوجوه، وهذه الجملة الاستفهامية المتضمنة لتعظيم الوعيد لهم غير داخلة تحت القول الذي أمر الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقوله لهم بل مبتدأة مسوقة لبيان ما سيحل بهم من عذاب الله، وذكر الكذب بعد الافتراء مع أن الافتراء لا يكون إلا كذباً لزيادة التأكيد .

﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ يتفضل عليهم بأنواع النعيم في الدنيا والآخرة ومنه بعثة الرسل وانزال الكتب لبيان الحلال والحرام وإبقاء الكتاب والسنة إلى آخر الدهر والزمان ﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ الله على نعمه الواصلة إليهم منه سبحانه في كل وقت من الأوقات وطرفة من الطرفات، ولا يصرفون مشاعرهم إلى ما خلقت له .

﴿وما تكون في شأن﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وما نافية والشأن الأمر بمعنى القصد وجمعه شئون، قال الاخفش: تقول العرب ما شأنت شأنه أي ما عملت عمله، وما قصدت قصده فهو مصدر بمعنى المفعول .

﴿وما تتلو منه من قرآن﴾ قال الفراء والزجاج: الضمير يعود على الشأن والجار والمجرور صفة لمصدر محذوف أي تلاوة كائنة منه، إذ التلاوة للقرآن من أعظم شؤونه صلى الله عليه وسلم، والمعنى أنه يتلو من أجل الشأن الذي حدث القرآن فيعلم كيف حكمه أو يتلو القرآن الذي ينزل في ذلك الشأن، وقال ابن

جرير الطبري: الضمير في منه عائد الى الكتاب اي ما يكون من كتاب الله من قرآن واعاده تفخياً له كقوله ﴿إني أنا الله﴾ وقيل ما تتلو من الله من قرآن نازل عليك، فمن الثانية زائدة والاولى إما تعليلية او ابتدائية بحسب الوجهين المتقدمين .

والخطاب في ﴿ولا تعملون من عمل﴾ لرسول الله وللأمة، وقيل الخطاب لكفار قريش ﴿إلا كنا عليكم شهوداً﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال للمخاطبين بالأفعال الثلاثة أي ما تلبسون بشيء منها في حال من الأحوال الا في حال كوننا رقباء مطلعين عليه حافظين له، يقال شهدت على الشيء اطلعت عليه فأنا شاهد وشهيد، والجمع اشهاد وشهود.

والضمير في ﴿اذ تفيضون فيه﴾ عائد الى العمل يقال أفاض فلان في الحديث والعمل اذا اندفع فيه، وقال الضحاك الضمير في ﴿فيه﴾ عائد الى القرآن والمعنى اذ تشيعون في القرآن الكذب، والافاضة الدخول في العمل على جهة الانتصاب اليه والانبساط فيه.

قال ابن الأنباري: اذ تدفعون فيه وتبسطون في ذكره، وقيل الافاضة الدفع بكثرة، وقال الزجاج: تنشرون فيه، وقيل تخوضون فيه، وقيل تأخذون اي تشرعون فيه والمعاني متقاربة .

﴿وما يعزب﴾ أي يغيب ويخفى، وقيل يبعد، وقال ابن كيسان: يذهب، وهذه المعاني متقاربة، قرىء بضم الزاي وبكسرهما سبعيتان وهما لغتان فصيحتان ﴿عن ربك﴾ أي عن علمه، ومن في ﴿من مثقال ذرة﴾ زائدة للتأكيد أي وزن ذرة أي غملة حمراء وهي خفيفة الوزن جداً ﴿في الأرض ولا في السماء﴾ أي في دائرة الوجود والامكان، وإنما عبر عنها بهما مع أنه سبحانه لا يغيب عنه شيء لا فيها ولا فيما هو خارج عنها لأن الناس لا يشاهدون سواهما وسوى ما فيها من المخلوقات؛ وقدم الأرض على السماء لأنها محل استقرار العالم، فهم يشاهدون ما فيها من قرب.

﴿ولا أصغر من ذلك﴾ أي من مثقال ذرة كلام برأسه مقرر لما قبله، ولا نافية للجنس ﴿ولا أكبر﴾ منها ﴿إلا﴾ وهو ﴿في كتاب مبین﴾ فكيف يغيب عنه وهو الكتاب الذي عند الله، يعني اللوح المحفوظ، قاله السدي. وقد أورد على توجيه النضب والرفع في أصغر وأكبر على العطف على لفظ مثقال وعمله أو على لفظ ذرة اشكال، وهو انه يصير تقدير الآية لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء إلا في كتاب، ويلزم منه أن يكون ذلك الشيء الذي في الكتاب خارجاً عن علم الله وهو محال.

وقد أجيب عن هذا الاشكال بأن الاشياء المخلوقة قسمان: قسم أوجده الله ابتداء من غير واسطة كخلق الملائكة والسموات والأرض، وقسم آخر أوجده بواسطة القسم الأول من حوادث عالم الكون والفساد، ولا شك أن هذا القسم الثاني متباعد في السلسلة العلية عن مرتبة الأول.

فالمراد من الآية أنه لا يبعد عن مرتبة وجوده سبحانه شيء في الأرض ولا في السماء إلا وهو في كتاب مبین أثبت فيه صورة تلك المعلومات، والغرض الرد على من يزعم أنه غير عالم بالجزئيات.

وأجيب أيضاً بأن الاستثناء منقطع أي لكن هو في كتاب مبین، وذكر أبو علي الجرجاني أن إلا بمعنى الواو أي وهو أيضاً في كتاب مبین، والعرب قد تضع إلا موضع الواو، ومنه قوله تعالى: ﴿إني لا يخاف لدى المرسلون إلا من ظلم﴾ يعني ومن ظلم، وقوله: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا﴾ أي والذين ظلموا، وقدر هو بعد الواو التي جاءت إلا بمعناها كما في قوله ﴿وقولوا حطة﴾ أي هي حطة.

قال الكرخي: وهذا الوجه فيه تعسف، ومثله قوله: ﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾ ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبین﴾.

وجوز الكواشي كونه متصلاً مستثنى من «يعزب» على أن معناه يبين



أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَأَخْوَفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا  
وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيلَ  
لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

ويصدر، والمعنى لا يصدر عن الله شيء بعد خلقه له الا وهو في كتاب؛ وقال الكلبي: قد حاول الرازي جعله متصلاً بعبارة طويلة محصلها أنه جعله استثناء مفرغاً وهو حال من أصغر وأكبر، وهو في قوة المتصل، ولا يقال فيه متصل ولا منقطع.

ثم لما بين سبحانه احاطته بجميع الاشياء وكان في ذلك تقوية لقلوب المطيعين وكسر لقلوب العاصين ذكر حال المطيعين فقال: ﴿ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم﴾ الولي في اللغة ضد العدو فهو المحب، ومحبة العباد لله طاعتهم له، ومحبة لهم اكرامه إياهم، وعلى الأول يكون فعيل بمعنى فاعل، وعلى الثاني بمعنى مفعول فهو مشترك بينهما، وتركيب الواو واللام والياء يدل على معنى القرب، فولي كل شيء هو الذي يكون قريباً منه.

والمراد بالأولياء خُصَّ المؤمنين كأنهم قربوا من الله سبحانه بطاعته واجتناب معصيته، والمراد بنفي الخوف عنهم أنهم لا يخافون أبداً كما يخاف غيرهم، لأنهم قد قاموا بما أوجب الله عليهم وانتهوا عن المعاصي التي نهاهم عنها، فهم على ثقة من أنفسهم وحن ظن بربهم.

وكذلك ﴿ولا هم يحزنون﴾ على فوت مطلب من المطالب لأنهم يعلمون أن ذلك بقضاء الله وقدره فيسلمون للقضاء والقدر، ويريجون قلوبهم عن الهم والكدر، فصدورهم منشرحة وجوارحهم نشطة وقلوبهم مسرورة.

وقد فسر سبحانه هؤلاء الأولياء بقوله: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ أي يؤمنون بما يجب الايمان به، ويتقون ما يجب عليهم اتقاؤه من معاصي الله سبحانه قال أبو السعود: والمراد بالتقوى المرتبة الثالثة منها الجامعة لما تحتها من مرتبة التقوي عن الشرك التي يفيدها الايمان أيضاً، ومرتبة التجنب عن كل ما يؤثم من فعل وترك، أعني تنزه الانسان عن كل ما يشغل سره عن الحق، والتبتل اليه بالكلية وهي التقوى الحقيقي المأمور به في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حتى تقاتوه﴾ وبه يحصل الشهود والحضور والقرب الذي عليه يدور إطلاق الاسم عليه فملاك أمر الولاية هو التقوى المذكور فأولياء الله هم المؤمنون التقون.

وعن سعيد بن جبير قال: هم الذين إذا رُؤوا ذكر الله. وعن ابن عباس قال: إذا رُؤوا يذكر الله لرؤيتهم. وقال أبو حنيفة والشافعي: اذا لم تكن العلماء أولياء الله فليس لله ولي، قال النووي: وذلك في العالم العامل بعلمه.

وقد أكثر أهل العلم من المتكلمين والصوفية وغيرهم في تعريف الولي ووصفه وأطالوا المقالات في ذلك بما لا حاجة اليه، وهذه الآية تغني عنها، فإنه اذا جاء نهر الله بطل نهر معقل.

والحاصل أن ولي الله من كان آتياً بالاعتقاد الصحيح المبني على الدليل، وبالأعمال الصالحة على وفق ما وردت به السنة المطهرة، لأن الايمان مبني على العقيدة والعمل، ومقام التقوى هو أن يتقي العبد كل ما نهى الله عنه.

وعن عمرو بن الجموح أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يحق العبد حق صريح الايمان حتى يحب لله ويبغض لله، فإذا أحب لله وأبغض

لله فقد استحق الولاية من الله وأن أوليائي من عبادي وأحبائي من خلقي الذين يذكرون بذكري واذكر بذكرهم»<sup>(١)</sup> أخرجه أحمد وغيره.

وأخرج أحمد عن عبد الرحمن بن غنم يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم «خيار عباد الله الذين إذا رؤوا ذكر الله، وشرار عباده المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون البراء العنت»<sup>(٢)</sup>.

وعن ابن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خياركم من ذكركم الله رؤيته وزاد في علمكم منطلقه ورجبكم في الآخرة عمله»<sup>(٣)</sup> أخرجه الحكيم الترمذي، وعن ابن عمر مرفوعاً: ان لله عبداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء يوم القيامة بقرهم ومجلسهم منه، فجئى اعرابي على ركبته فقال: يا رسول الله صفهم لنا، جلهم لنا، قال قوم من أفناء الناس من نزاع القبائل تصافوا في الله وتحابوا في الله، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم، يخاف الناس ولا يخافون، هم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»<sup>(٤)</sup> أخرجه الحاكم وصححه.

وأخرج أبو داود وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن عمر ابن الخطاب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر نحوه، قال ابن كثير: «<sup>(٥)</sup> واسناده جيد، وروي بطريق عن جماعة من الصحابة، وقد ورد في فضل المتحابين في الله أحاديث ليس فيها أنهم المرادون بالآية.

﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ تفسير لمعنى كونهم أولياء الله

(١) الإمام أحمد ٤٣٠/٣.

(٢) الإمام أحمد ٤٥٩/٦.

(٣) ضعيف الجامع الصغير ٢٨٧٣.

(٤) المستدرک کتاب البر والصلة ١٧٠/٤.

(٥) ابن كثير ٤٢٢/٢.

أي لهم البشرى من الله ما داموا في الحياة بما يوحىه الى أنبيائه وينزله في كتبه من كون حال المؤمنين عنده هو ادخالهم الجنة ورضوانه عنهم كما وقع كثير من البشارات للمؤمنين في القرآن الكريم.

وكذلك ما يحصل لهم من الرؤيا الصالحة وما يتفضل الله به عليهم من اجابة دعائهم، وما يشاهدونه من التبشير لهم عند حضور آجالهم بتنزل الملائكة عليهم قائلين لهم لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة. قاله الزهري وقتادة.

وأما البشرى في الآخرة فتلقى الملائكة لهم مبشرين بالفوز بالنعيم والسلامة من العذاب، والبشرى مصدر أريد به البشر به، والمراد حال كونهم في الدنيا وحال كونهم في الآخرة.

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن جرير والبيهقي وغيرهم عن رجل من أهل مصر قال: سألت أبا الدرداء عن معنى قوله: ﴿لهم البشرى﴾ فقال: ما سألتني عنها أحد منذ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما سألتني عنها أحد غيرك منذ أنزلت عليّ، هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له فهي يشراه في الحياة الدنيا ويشراه في الآخرة الجنة وفي اسناده هذا الرجل المجهول. وعن عبادة بن الصامت مرفوعاً مثله عند أحمد والدارمي والترمذي وابن ماجه. وأخرج أحمد والبيهقي عن ابن عمر مرفوعاً قال: الرؤيا الصالحة يبشر بها المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة فمن رأى ذلك فليخبر

بها<sup>(١)</sup> الحديث، وفي الباب أحاديث وقد وردت أحاديث صحيحة بأن الرؤيا الصالحة من المبشرات، وأنها جزء من أجزاء النبوة ولكنها لم تقيد بتفسير هذه الآية.

(١) الإمام أحمد ٢/٢١٩.

وقد روي عن ابن عباس أن المراد بالبشرى في الآية هي قوله: ﴿وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً﴾ وعنه أنها قوله: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ وقيل البشرى في الحياة الدنيا هي الثناء الحسن وفي الآخرة الجنة.

وعن أبي ذر قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه، قال: تلك عاجل بشرى المؤمن<sup>(١)</sup> أخرجه مسلم، قال أهل العلم وهي دليل للبشرى المؤخرة في الآخرة، وهذه البشرى المعجلة دليل على رضا الله عنه؛ وقيل غير ذلك واللفظ أوسع من ذلك.

﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ أي لا تغيير لأقواله ولا خلف لمواعيده على العموم فيدخل فيها ما وعد به عباده الصالحين دخولاً أولاً ﴿ذلك﴾ أي المذكور قبله من كونهم مبشرين بالبشارتين في الدارين ﴿هو الفوز العظيم﴾ الذي لا يقادر قدره ولا يماثله غيره، والجملتان اعتراض في آخر الكلام عند من يجوزه وفائدتهما تحقيق البشر به وتعظيم شأنه، والأولى اعتراضية والثانية تذييلية.

وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ الْآيَاتُ  
 لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ  
 دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾

﴿ولا يحزنك قولهم﴾ نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن الحزن من قول الكفار المتضمن للطعن عليه وتكذيبه والقدح في دينه، والمقصود تسلية له صلى الله عليه وسلم عما كان يلقاه من جهتهم من الأذية الناشئة عن مقالاتهم الموحشة، وتبشير له بأنه تعالى ينصره.

ثم استأنف سبحانه الكلام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم معللاً لما ذكره من النهي فقال: ﴿إن العزة لله جميعاً﴾ أي الغلبة والقدرة والقهر له في مملكته وسلطانه، ليست لأحد من عباده، وإذا كان ذلك كله له فكيف يقدرون عليك حتى تحزن لأقوالهم الكاذبة وهم لا يملكون من الغلبة شيئاً، ولا ينافي هذا ما في سورة المنافقين ﴿والله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ لأن كل عزة بالله فهي كلها لله حقيقة لكن قد يظهرها على يد رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى أيدي المؤمنين تكريماً وتعظيماً لهم؛ ومنه قوله: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إنا لننصر رسلنا﴾ ﴿هو السميع﴾ لما يقولون ﴿العليم﴾ بما يدبرون ويعزمون عليه وهو مكافئهم بذلك.

﴿ألا إن الله من في السموات ومن في الأرض﴾ ومن جملتهم هؤلاء المشركون المعاصرون للنبي صلى الله عليه وسلم، وإذا كانوا في ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء فكيف يستطيعون أن يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما لا يأذن الله به، و﴿ألا﴾ كلمة تنبيه معناه أنه لا ملك لأحد فيها إلا الله عز وجل فهو يملك ما فيها.

وقال في الآية الاولى ﴿ما﴾ وفي هذه ﴿من﴾ فمجموعهما دل على ان الله يملك جميع كل شيء فيها من العقلاء وغيرهم، أو غلب العقلاء على غيرهم لكونهم أشرف: وفي الآية نعي على عباد البشر والملائكة، والجمادات لأنهم عبدوا المملوك وتركوا المالك وذلك مخالف لما يوجهه العقل، ولهذا عقبه بقوله:

﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء﴾ ما نافية وشركاء مفعول يتبع وعلى هذا يكون مفعول يدعون محذوفاً، والاصل وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء، شركاء في الحقيقة إنما هي أسماء لا مسميات لها، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه، ويجوز أن يكون المذكور مفعول يدعون وحذف مفعول يتبع لدلالة المذكور عليه، يعني أنهم وان سموا معبوداتهم شركاء لله فليس شركاء له على الحقيقة لان ذلك محال ﴿لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدنا﴾.

وقيل ما استفهامية أي أي شيء يتبع الذين يدعون؛ وعلى هذا شركاء منصوب يدعون والكلام خارج مخرج التوبيخ لهم والازراء عليهم.

وقيل موصولة، والمعنى ان الله مالك لمعبوداتهم لكونها من جملة من في السموات ومن في الارض.

ثم زاد سبحانه في تأكيد الرد عليهم والدفع لاقوالهم فقال: ﴿ان يتبعون الا الظن﴾ أي ما يتبعون يقيناً إنما يتبعون ظناً ويظنون انهم آلهة تشفع لهم، وان الظن لا يغنى من الحق شيئاً ﴿وان هم إلا يخرسون﴾ أصل معنى الخرس الخزر بتقديم الزاي على الراء أي التخمين والتقدير، ويستعمل بمعنى الكذب لغلبته في مثله، والاسم الخرس بالكسر أي يقدرون انهم شركاء تقديراً باطلاً وكذباً بحثاً وقد تقدمت هذه الآية في الانعام.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ  
 لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ  
 مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ  
 عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ  
 لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

ثم ذكر سبحانه طرقاً من آثار قدرته مع الامتنان على عباده ببعض نعمه  
 فقال: ﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً﴾ الجعل ان كان  
 بمعنى الابداع والخلق فمبصراً حال، وان كان بمعنى التصيير فهو المفعول الثاني  
 أي جعل لعباده الزمان منقسماً إلى قسمين أحدهما مظلم وهو الليل لأجل أن  
 يسكن العباد فيه عن الحركة والتعب ويريمون أنفسهم عن الكد والكسب،  
 والآخر مبصر لأجل ان يسعوا فيه بما يعود على نفعهم وتوفير معاشهم  
 ويحصلون ما يحتاجون اليه في وقت مضيء منير لا يخفى عليهم كبير ولا حقير،  
 وجعله سبحانه للنهار مبصراً مجاز.

والمعنى أنه مبصر صاحبه كقولهم نهاره صائم وقال قطرب: تقول العرب  
 أظلم الليل وأبصر النهار بمعنى صار ذا ظلمة وذا ضياء، وفي الكلام شبه  
 احتباك حيث حذف من كل ما أثبت أو مقابله في الآخر فحذف مظلماً لدلالة  
 مبصراً عليه وحذف لتحركوا للدلالة لتسكنوا عليه، وهذا أفصح الكلام.

﴿ان في ذلك﴾ الجعل المذكور ﴿لآيات﴾ عجيبة كثيرة ﴿لقوم يسمعون﴾  
 ما يتلى عليهم من الآيات التنزيلية المنبهة على الآيات التكوينية مما ذكره الله  
 سبحانه ههنا منها ومن غيرها مما لم يذكره فعند السماع منهم لذلك يتفكرون  
 ويعتبرون ويعلمون ان الذي خلق هذه الأشياء كلها هو الله المتفرد بالوحدانية  
 في الوجود فيكون ذلك من أعظم أسباب الايمان.



﴿قالوا اتخذ الله ولداً﴾ هذا نوع آخر من أباطيل المشركين أو أهل الكتاب التي كانوا يتكلمون بها وهو زعمهم بأن الله سبحانه اتخذ وتبنى ولداً فرد ذلك عليهم بقوله: ﴿سبحانه﴾ فتنزهه جل وعلا عما نسبوه اليه من هذا الباطل البين وكلمتهم الحمقاء، وبين أنه ﴿هو الغني﴾ عن ذلك، وإن الولد إنما يطلب لأجل الحاجة، والغنى المطلق لا حاجة له حتى يكون له ولد يقضيها، وإذا انتفت الحاجة انتفى الولد، وأيضاً إنما يحتاج إلى الولد من يكون بصدد الانقراض ليقوم الولد مقامه، والازلي القديم لا يفتقر إلى ذلك، وقد تقدم تفسير الآية في البقرة.

ثم بالغ في الرد عليهم بما هو كالبرهان فقال: ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ وإذا كان الكل له وفي ملكه فلا يصح أن يكون شيء مما فيها ولداً له للمنافاة بين الملك والبنوة والأبوة.

ثم زيف دعواهم الباطلة وبين أنها بلا دليل فقال ﴿إن﴾ أي ما ﴿عندكم من سلطان﴾ حجة وبرهان ﴿بهذا﴾ القول الذي تقولونه ومن زائدة للتأكيد؛ ثم وبخهم على هذا القول العاطل عن الدليل الباطل عند العقلاء ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ استفهام توبيخ ويستفاد من هذا أن كل قول لا دليل عليه ليس هو من العلم في شيء بل من الجهل المحض.

ثم أمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لهم قولاً يدل على أن ما قالوه كذب، وإن من كذب على الله لا يفلح فقال: ﴿قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ أي كل مفتر هذا شأنه ويدخل فيه قائل هذا القول دخولاً أولياً؛ وذكر الكذب مع الافتراء للتأكيد كما سبق في مواضع من الكتاب العزيز والمعنى أن هؤلاء الذين يكذبون على ربهم لا يفوزون بمطلب من المطالب، ولا يسعدون وإن اغتروا بطول السلامة والبقاء في النعمة

مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيْقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٧﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بَعَايَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧٦﴾

ثم بين سبحانه ان هذا الافتراء وان فاز صاحبه بشيء من المطالب العاجلة فهو ﴿متاع﴾ قليل ﴿في الدنيا﴾ ثم يتعقبه الموت والرجوع إلى الله، فيعذب المفترى عذاباً مؤبداً، والجملة مستأنفة لبيان ان ما يحصل للمفترى بافتراءه وما يتراءى فيه بحسب الظاهر من نيل المطالب والحظوظ الدنيوية بمعزل أن يكون من جنس الفلاح وليس بفائدة يعتد بها، بل هو متاع يسير في الدنيا يتعقبه الموت والعذاب الشديد بسبب الكفر الحاصل بأسباب من جعلتها الكذب على الله، وليس بنافع في الآخرة، وقال الأخفش: ان التقدير لهم متاع في الدنيا، وقال الكسائي: ذلك متاع أو هو متاع.

﴿ثم إلينا مرجعهم﴾ بعد الموت ﴿ثم نذيقهم العذاب الشديد بما﴾ أي بسبب ما ﴿كانوا يكفرون﴾ أي يجحدون في الدنيا من نعمة الله عليهم ويصفونه بما لا يليق بجلاله.

ولما بالغ سبحانه في تقرير البراهين الواضحة ودفع الشبه المنهارة شرع في ذكر قصص الانبياء وما جرى لهم مع أمهم، لما في ذلك من التسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأسوة بمن سلف من الانبياء، ولما كان قوم نوح أول الأمم هلاكاً وأعظمهم كفراً وجحوداً ذكر الله قصتهم وأنه أهلكتهم بالفرق ليصير ذلك موعظة وعبرة لكفار قريش فقال:

﴿واتل عليهم﴾ أي على الكفار المعاصرين لك المعارضين لما جئت به بأقوالهم الباطلة ﴿نبأ نوح﴾ أي خبره، والنبأ هو الخبر الذي له خطر وشأن؛

والمراد بعض ما جرى له مع قومه الذين كفروا بما جاء به كما فعله كفار قريش وأمثالهم.

﴿اذ﴾ أي وقت ان ﴿قال لقومه﴾ اللام لام التبليغ ﴿يا قوم ان كان كبر﴾ أي عظم وثقل ﴿عليكم مقامي﴾ من باب الاسناد المجازي كقولهم ثقل عليّ ظله، والمقام بفتح الميم الموضع الذي يقام فيه، وبالضم مكان الإقامة أو الإقامة نفسها، وقد اتفق القراء هنا على الفتح.

وقرأ أبو رجاء وأبو مجلز وابن الجوزي بالضم، قال ابن عطية: ولم يقرأ هنا بالضم، وكأنه لم يطلع على قراءة هؤلاء، وكفى بالمقام عن نفسه كما يقال فعلته لمكان فلان أي لأجله، ومنه ﴿ولمن خاف مقام ربه﴾ أي خاف ربه، ويجوز أن يراد بالمقام المكث أي شق عليكم مكثي بين أظهركم لأنه مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ويجوز أن يراد بالمقام القيام لان الواعظ يقوم حال وعظه.

والمعنى إن كان كبر عليكم قيامي بالوعظ في مواطن اجتماعكم ﴿و﴾ كبر عليكم ﴿تذكيري﴾ لكم ﴿بآيات الله﴾ التكوينية والتنزيلية ﴿فعلى الله توكلت﴾ أي دمت على تخصيص التوكل به تعالى، وهذه الجملة جواب الشرط، والمعنى اني لا أقابل ذلك منكم الا بالتوكل على الله، فان ذلك دأبي الذي انا عليه قديماً وحديثاً، ويجوز أن يريد إحداث مرتبة مخصوصة من مراتب التوكل، ويجوز أن يكون جواب الشرط فأجمعوا كما يأتي، قاله الاكثرون، والجملة اعتراض كقولك ان كنت أنكرت عليّ شيئاً فالله حسبي وثقتي.

وقيل ﴿فأجمعوا أمركم﴾ عطف على الجواب، وجزم السفاقي بأن جوابه محذوف أي فافعلوا ما شئتم، والمعنى اعزموا عليه، من أجمع الأمر اذا نواه وعزم عليه قاله الفراء، وروي عنه أجمع الشيء أعده وقال مؤرج السدوسي: أجمع الامر أفصح من أجمع عليه، وقال أبو الهيثم: أجمع أمره جعله جميعاً بعدما كان متفرقاً، وتفرقه أن يقول مرة أفعل كذا ومرة أفعل كذا فلما عزم على أمر واحد فقد جمعه أي جعله جميعاً.

فهذا هو الأصل في الاجماع ثم صار بمعنى العزم والتصميم، يقال أجمع في المعاني وجمع في الأعيان وقد يستعمل كل واحد مكان الآخر، وفي التنزيل ﴿فجمع كيده﴾ قال ابن الأنباري: المراد من الأمر هنا وجوه كيدهم ومكرهم فالتقدير لا تدعو من أمركم شيئاً إلا أحضرتموه.

﴿وشركاءكم﴾ أي ادعوهم لنصرتكم، قاله الكسائي والفراء، وقال الزجاج والفارسي: والمعنى مع شركائكم، ولم يذكر الزمخشري غير هذا، وقيل أجمعوا شركاءكم، وفي مصحف أبي: وادعوا شركاءكم، قال النحاس وغيره: وقراءة الرفع بعيدة، وقال المهدوي: يجوز رفع الشركاء بالابتداء والخبر محذوف أي وشركاؤكم ليجمعوا أمرهم، ونسبة ذلك إلى الشركاء مع كون الاصنام لا تعقل لقصد التوبيخ والتفريع لمن عبدها.

﴿ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة﴾ أي خفياً، والغمّة التغطية من قولهم غم الهلال إذا استر أي ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً قاله الزجاج، وقال الهيثم: معناه لا يكن أمركم مبهاً، وقيل إن الغمّة ضيق الأمر، كذا روي عن أبي عبيدة.

والمعنى لا يكن أمركم عليكم بمصاحبتي والمجاملة لي ضيقاً شديداً بل ادفعوا هذا الضيق والشدة بما شئتم وقدرتم عليه، وعلى الوجهين الأولين يكون المراد بالأمر الثاني هو الأمر الأول، وعلى الثالث يكون المراد غيره، وإنما نسب عدم الستر الذي هو عدم الغمّة إلى الأمر مبالغة.

﴿ثم افضوا إلي﴾ ذلك الأمر الذي تريدونه بي؛ وأصل افضوا من القضاء وهو الأحكام، والمعنى احكموا ذلك الأمر.

قال الأخفش والكسائي: هو مثل «وقضينا إليه ذلك الأمر» أي أنهينا به وأبلغناه إياه. وقيل معناه ثم امضوا إلي، قال النحاس: هذا قول صحيح في اللغة ومنه قضى الميت مضي. وعن بعض القراء ثم افضوا بالفاء أي توجهوا ﴿ولا تنظرون﴾ أي ثم لا تمهلوني ولا تؤخروني، بل عجلوا أمركم ونفذوا واصنعوا ما بدا لكم.

فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ  
 الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا  
 الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَدَبِّرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى  
 قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ وَهُمْ بِالْبَيْتِ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى  
 قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

وفي هذا الكلام من نوح عليه السلام ما يدل على وثوقه بنصر ربه وعدم  
 مبالاته بما يتوعده به قومه، ثم بين لهم أن كل ما أتى به اليهم من الأعدار  
 والالذار وتبليغ الشريعة عن الله ليس هو لطمع دنيوي ولا لغرض خسيس  
 فقال ﴿فإن توليتم﴾ أي إن عرضتم عن العمل بنصحي لكم وتذكيري إياكم،  
 والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها.

﴿فما سألتكم﴾ في مقابلة ذلك عليه ﴿من أجر﴾ تؤدونه إليّ حتى تهمون  
 فيما جئت به والفاء جزائية ﴿ان أجرى﴾ أي ما ثوابي في النصح والتذكير ﴿إلا  
 على الله﴾ سبحانه فهو يشيبي أمتهم أو توليتم ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾  
 المنقادين لحكم الله الذين يعملون أعمالهم خالصة لله سبحانه لا يأخذون عليها  
 أجراً ولا يطمعون في عاجل أو من المستسلمين لكل ما يصعب من البلاء.  
 ﴿فكذبوه﴾ أي استمروا على تكذيبه وأصروا على ذلك. وليس المراد أحدثوا  
 تكذيبه بعد أن لم يكن.

﴿فنجيناه﴾ أي نوحاً عليه السلام ﴿ومن معه﴾ أي من قد أجابه وصار  
 على دينه، وكانوا ثمانين: أربعين رجلاً وأربعين امرأة ﴿في الفلك﴾ أي  
 السفينة، والمفرد على وزن قفل والجمع على وزن أسد والمراد هنا المفرد.

﴿وجعلناهم﴾ أي الذين نجاهم معه في الفلك حلاً على معنى من  
 ﴿خلائف﴾ جمع خليفة، والمعنى انه سبحانه جعلهم خلفاء يسكنون الأرض

التي كانت للمهلكين بالغرق ويخلفونهم فيها ﴿وأغرقنا﴾ بالطوفان ﴿الذين كذبوا بآياتنا﴾ من الكفار المعاندين لنوح الذين لم يؤمنوا به، تأخيره عن ذكر الانجاء والاستخلاف حسبما وقع في قوله تعالى: ﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعياً﴾ الآية لظهار كمال العناية بشأن المقدم ولتعجيل المسرة للسامعين وللإيدان بسبق الرحمة التي هي من مقتضيات الربوبية على الغضب الذي هو من مستتبعات جرائم المجرمين ﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾ من إهلاكهم، فكذلك تفعل بمن كذبك، فيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديد للمشركين وتهويل عليهم..

﴿ثم بعثنا من بعده﴾ أي من بعد نوح عليه السلام ﴿رسلاً إلى قومهم﴾ لم يسم هنا من كان بعد نوح من الرسل، وقد كان بعده هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب ﴿فجاؤوهم بالبينات﴾ أي بالمعجزات الباهرات والدلالات الواضحات وبما أرسلهم الله به من الشرائع التي شرعها لقوم كل نبي ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ أي فما أحدثوا الإيمان بل استمروا على الكفر وأصروا عليه.

والمعنى أنه ما صح ولا استقام لقوم من أولئك الأقوام الذين أرسل الله اليهم رسله أن يؤمنوا في وقت من الأوقات ﴿بما كذبوا به من قبل﴾ أي من قبل تكذيبهم الواقع منهم عند مجيء الرسل اليهم، والمعنى أن كل قوم من العالم لم يؤمنوا عند أن أرسل الله اليهم الرسول المبعوث اليهم على الخصوص بما كانوا مكذبين به من قبل مجيئه اليهم، لأنهم كانوا غير مؤمنين بل مكذبين بالدين، ولو كانوا مؤمنين لم يبعث اليهم رسولاً، وهذا مبني على أن الضمير في ﴿كانوا وكذبوا﴾ راجع إلى القوم المذكورين في قوله ﴿إلى قومهم﴾ وقيل ضمير كذبوا راجع إلى قوم نوح، أي فما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح، وقيل المعنى بما كذبوا به من قبل أي في عالم الذر.

﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك الطبع العظيم المحكم ﴿نطبع﴾ بنون العظمة، وقرئء بالياء على أن الضمير لله ﴿على قلوب المعتدين﴾ أي المتجاوزين للحدود

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا السِّحْرُ مِثْلُ مِثْلٍ ﴿٧٦﴾

المهودة في الكفر والعناد المتجافين عن قبول الحق وسلوك طريق الرشاد، وذلك بخذلانهم وتخليتهم وشأنهم، لانهماكهم في الغي والضلال، وقد تقدم تفسير هذا في غير موضع.

﴿ثم بعثنا من بعدهم﴾ أي بعد الرسل المتقدم ذكرهم وخص ﴿موسى وهرون﴾ بالذكر مع دخولها تحت الرسل لمزيد شرفها وخطر شأن ما جرى بينها وبين فرعون ﴿إلى فرعون وملئه﴾ المراد بالملأ الأشراف، هكذا قرره بعض المفسرين؛ وقرر بعضهم أن المراد بالملأ هنا مطلق القوم من استعمال الخاص في العام وهو ظاهر صنيع النيسوطي في الجلالين.

﴿بآياتنا﴾ أي مصحوبين بالمعجزات وهي التسع المذكورة في الكتاب العزيز ﴿فاستكبروا﴾ عن قبولها ولم يتواضعوا لها ولم يدعوا لما اشتملت عليه من المعجزات الموجبة لتصديق من جاء بها، والاستكبار ادعاء الكبر من غير استحقاق، والفاء فصيحة، وقيل عن الايمان بموسى وهرون، والأول أولى. ﴿وكانوا قوماً مجرمين﴾ أي كانوا ذوي اجرام عظام وآثام كبيرة، فبسبب ذلك اجتروا على ردها لأن الذنوب تحول بين صاحبها وبين إدراك الحق وابصار الصواب، قيل وهذه الجملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها.

﴿فلما جاءهم﴾ أي فرعون وملأه ﴿الحق﴾ أي المعجزات التسع ﴿من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين﴾ أي لم يؤمنوا بها، بل حملوها على السحر مكابرة منهم.

قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ۗ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا  
 أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا  
 بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةُ قَالَ لَهُمْ  
 مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾

﴿قال موسى﴾ أي جملاً ثلاثاً: الأولى ﴿أتقولون للحق لما جاءكم﴾ قيل  
 في الكلام حذف والتقدير أتقولون للحق سحر، فلا تقولوا ذلك.

ثم استأنف انكاراً آخر من جهة نفسه فقال: ﴿أسحر هذا﴾ وهي الثانية  
 والملجىء الى هذا أنهم لم يستفهموه عن السحر حتى يحكي ما قالوه بقوله  
 أسحر هذا بل هم قوم قاطعون بأنه سحر لأنهم قالوا ان هذا الا سحر ميين،  
 فحيث لا يكون قوله ﴿أسحر هذا﴾ من قولهم. وقال الأخفش: هو قولهم،  
 وفيه نظر لما قدمنا.

وقيل معنى أتقولون أتعيبون الحق وتطعنون فيه وكان عليكم أن تدعوا له  
 ثم قال ﴿أسحر هذا﴾ منكرأ لما قالوه؛ والاستفهام للتقرير والتوبيخ بعد الجملة  
 الأولى المستأنفة، والمعنى أتقولون للحق لما جاءكم ان هذا لسحر ميين، وهو  
 أبعد شيء من السحر.

ثم أنكر عليهم وقرعهم ووبخهم فقال: ﴿أسحر هذا﴾ فجاء موسى  
 عليه السلام بإنكار بعد انكار وتوبيخ بعد توبيخ وتجهيل بعد تجهيل. والثالثة  
 ﴿ولا يفلح الساحرون﴾ أي والحال كذا فلا يظفرون بمطلوب ولا يفوزون بخير  
 ولا ينجون من مكروه، فكيف يقع في هذا من هو مرسل من عند الله، وقد  
 أيدته بالمعجزات والبراهين الواضحة، وحاصل السحر تمويه وتخيل وصاحب  
 ذلك لا يفلح أبداً.

﴿قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا﴾ مستأنفة، قال مجاهد:



لتلوينا وتصرفنا، وقال السدي: لتصدنا عن آلهتنا، وفي هذا ما يدل على أنهم انقطعوا عن الدليل وعجزوا عن إبراز الحجة، ولم يجدوا ما يجيبون به عما أورده عليهم، بل لجؤوا إلى ما يلجأ إليه أهل الجهل والبلادة، وهو الاحتجاج بما كان عليه آبائهم من الكفر، وضموا إلى ذلك ما هو غرضهم وغاية مطلبهم وسبب مكابرتهم للحق وجحودهم للآيات البينة وهو الرياسة الدنيوية التي خافوا عليها وظنوا انها ستذهب عنهم إن آمنوا.

وكم بقي على الباطل وهو يعلم أنه باطل بهذه الذريعة من طوائف هذا العالم في سابق الدهر ولاحقه، فمنهم من حبسه ذلك عن الخروج من الكفر، ومنهم من حبسه عن الخروج إلى السنة من البدعة وإلى الرواية الصحيحة من الرأي البحت. قال أبو السعود: استئناف بياني مسوق لبيان أنه عليه السلام ألقمهم الحجر فانقطعوا عن الاتيان بكلام له تعلق بكلامه صلى الله عليه وسلم فضلاً عن الجواب الصحيح، واضطروا إلى التثبت بذيل التقليد الذي هو دأب كل عاجز محجوج وديدن كل عاند لدود. انتهى.

واللفت والقتل أخوان وكلاهما من باب ضرب، يقال لفته لفتاً إذا صرفه عن الشيء ولواه عنه، وفي السمين: اللفت الليّ والصرف، يقال لفته عن رأيه إذا صرفه، ولواه عنه إلى ذات اليمين أو الشمال.

وقال الأزهري: لفت الشيء وفتله لواه وهذا من المقلوب.

قلت ولا يدعي فيه قلب حتى يرجح أحد اللفظين في الاستعمال على الآخر. أي تريد أن تصرفنا عن الشيء الذي وجدنا عليه آباءنا وهو عبادة الأصنام.

﴿وتكون لكما﴾ أي لموسى وهرون ﴿الكبرياء﴾ مصدر على وزن فعليات ومعناها العظمة والملك والسلطان ﴿في الأرض﴾ أي مصر، وفيه خمسة أوجه جوزها أبو البقاء.

«أحدها» أن يكون متعلقاً بنفس الكبرياء «الثاني» أن يتعلق بنفس تكون «الثالث» أن يتعلق بالاستقرار في لكما لوقوعه خبراً «الرابع» أن يكون حالاً من الكبرياء «الخامس» أن يكون حالاً من الضمير في لكما لتحمله آياه.

قال الزجاج: سمي الملك كبرياء لانه أكبر ما يطلب من أمور الدنيا، وقيل سمي بذلك لان الملك يتكبر، والحاصل أنهم عللوا عدم قبولهم دعوة موسى بأمرين: التحسك بالتقليد للأباء والحرص على الرياسة الدنيوية، لانهم اذا أجابوا النبي وصدقوه صارت مقاليد أمر أمته اليه، ولم يبق للملك رياسة تامة لان التدبير للناس بالدين يرفع تدبير الملوك لهم بالسياسات والعادات.

ثم قالوا ﴿وما نحن لكما بمؤمنين﴾ تصريحاً منهم بالتكذيب وقطعاً للطمع في ايمانهم، وقد أفردوا الخطاب لموسى في قولهم اجئتنا لتلفتنا ثم جمعوا بينه وبين هرون في الخطابين الاخيرين، ووجه ذلك انهم أسندوا المجيء والصرف عن طريق آبائهم الى موسى لكونه المقصود بالرسالة المبلغ عن الله ما شرعه لهم، وجمعوا بينهما في الضميرين الآخرين لان الكبرياء شامل لهما في زعمهم، ولكن ترك الايمان بموسى يستلزم ترك الايمان بهرون، وقد مرت القصة في الاعراف.

﴿وقال فرعون﴾ لما رأى اليد البيضاء والعصا ﴿اثتوني بكل ساحر عليم﴾ لانه اعتقد أنها من السحرة فأمر قومه بان يأتوا بكل ساحر، أراد أن يعارض معجزة موسى بأنواع من التليس ليظهر أن ما أتى به موسى سحر، وقد تقدم الكلام على هذا في الاعراف، وقرئ «سحار» على صيغة المبالغة أي كثير السحر كثير العلم بعمله وأنواعه.

﴿فلما جاء السحرة﴾ في الكلام حذف أي فأتوا بهم اليه، فلما جاء السحرة ﴿قال لهم موسى﴾ بعد أن قالوا له اما أن تلقى وإما أن تكون نحن الملقين ﴿ألقوا ما أنتم ملقون﴾ أي اطرحوا على الارض ما معكم من حبالكم وعصيكم ليظهر الحق ويبطل الباطل ويتبين أن ما أتوا به فاسد زاهق.

فَلَمَّا أَتَوْا قَالُوا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ  
الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

﴿فلما أتوا﴾ ما ألقوه من ذلك الحبال والعصى ﴿قال﴾ لهم ﴿موسى ما جئتم به﴾ ما موصولة مبتدأ و﴿السحر﴾ خبره، والمعنى انه سحر لا انه آية من آيات الله كما سماه فرعون وقومه أو هو من جنس السحر، يريد أن حاله بين لا يعبا به كأنه قال: ما جئتم به مما لا ينبغي أن يجاء به، وقرىء السحر على الاستفهام فما استفهامية أي شيء جئتم به أهو السحر الذي يعرف حاله كل أحد، ولا يتصدى له عاقل، وقرىء ما جئتم به سحر، وقرىء ما أتيتم به سحر، ودلالتهما على المعنى الثاني في القراءة المشهورة أظهر، وأجاز الفراء وغيره نصب السحر بجئتم وما شرطية والجزاء:

﴿ان الله سيبطله﴾ على تقدير الفاء أي سيمحقه بالكلية ويهلكه فيصير باطلاً بما يظهره على يدي من الآيات والمعجزة فلا يبقى له أثر والسين للتأكيد: ﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾ أي عمل هذا الجنس فيشمل كل من يصدق عليه أنه مفسد، ويدخل فيه السحر والسحرة دخولاً أولياً، والجملة تعليل لما قبلها أو عملكم فيكون من باب وضع المظهر موضع المضمحل للتسجيل عليهم بالافساد والاشعار بعلّة الحكم.

﴿ويحق الله الحق﴾ أي يبينه ويوضحه ﴿بكلماته﴾ التي أنزلها في كتبه على أنبيائه لاشتمالها على الحجج والبراهين أو بوعد الصديق لموسى انه يظهره أو بما سبق من قضائه وقدره لموسى انه يغلب السحرة، أو بأوامره وأحكامه، والأول أولى.

﴿ولو كره المجرمون﴾ من آل فرعون أو المجرمون على العموم ويدخل تحتهم آل فرعون دخولاً أولياً والاجرام الأثام.

فَمَاءٌ آمِنٌ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةً مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ  
وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ لِمَن الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾

﴿فما آمن لموسى الا ذرية﴾ اسم يقع على القليل من القوم، وقيل المراد به التصغير وقلة العدد ﴿من قومه﴾ أي من قوم موسى، وهم طائفة من ذراري بني إسرائيل، وقيل المراد طائفة من ذراري فرعون فيكون الضمير عائداً على فرعون. قيل ومنهم مؤمن آل فرعون وامراته وماشطة ابنته وامرأة خازنه. وقيل هم قوم آباؤهم من القبط وأمھاتھم من بني إسرائيل.

روي هذا عن الفراء، كما يقال لأولاد فارس الذين نقلوا الى اليمن الابناء لأن أمھاتھم من غير جنس الآباء.

﴿على﴾ أي مع ﴿خوف من فرعون وملئهم﴾ الضمير لفرعون وجمع لأنه لما كان جباراً جمعوا ضميره تعظيماً له.

وقيل ان قوم فرعون سمو فرعون مثل ثمود فرجع الضمير اليهم بهذا الاعتبار، وقيل انه عائد على مضاف محذوف أي على خوف من آل فرعون روي هذا عن الفراء ومنعه الخليل وسيبويه، وروي عن الأخفش ان الضمير يعود على الذرية وقواه النحاس.

﴿أن يفتنهم﴾ أي يصرفهم عن دينهم بالعذاب الذي كان ينزله بهم وهو بدل اشتمال أو مفعول للمصدر أو مفعول له بعد حذف اللام والضمير عائد لفرعون وأفرد، ولم يقل ان يفتنهم أي فرعون والملا للدلالة على ان الخوف من الملا كان بسبب فرعون وتجره من حيث استعانتهم به.

﴿وان فرعون لعال في الارض﴾ أي عات متكبر متغلب على أرض مصر اعتراض تذييلي مؤكداً لمضمون ما سبق ﴿وانه لمن المسرفين﴾ المجاوزين للحد في الكفر وما يفعله من القتل والصلب وتنويع العقوبات أو لانه كان عبداً فادعى الربوبية.

وَقَالَ مُوسَىٰ يَاقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنُتُمْ بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ  
تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ  
ٱلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾

﴿وقال موسى يا قوم﴾ تطمينا لقلوبهم وازالة للخوف عنهم، وسماهم قومه من حيث ايمانهم به والا فهم من قوم فرعون أو المراد به بنو إسرائيل أو مطلق من آمن به ولو من القبط ﴿ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين﴾ قيل ان هذا من باب التكرير للشرط فشرط في التوكل على الله الايمان به والاسلام أي الاستسلام لقضائه وقدره، وبه قال الكرخي.

وقيل ان هذا ليس من تعليق الحكم بشرطين بل المعلق بالايمان هو وجوب التوكل والشروط بالاسلام حصوله ووجوده فإنه لا يوجد مع التخليط، والمعنى أن يسلموا أنفسهم لله أي يجعلوها له مائة خالصة لا حظ للشيطان فيها لان التوكل لا يكون مع التخليط، قال الكازروني: المعنى ان كنتم آمنتم وجب عليكم التوكل وان كنتم مسلمين توكلتم عليه.

﴿فقالوا﴾ أي قوم موسى مجيبين له ﴿على الله توكلنا﴾ أي اعتمدنا لا على غيره ثم دعوا الله مخلصين فقالوا ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة﴾ أي موضع فتنة ﴿للقوم الظالمين﴾ والمعنى لا تسلطهم علينا فيعذبونا حتى يفتنونا عن ديننا، قاله مجاهد أو لا تجعلنا فتنة لهم يفتنون بنا غيرنا فيقولون لهم لو كان هؤلاء على حق لما سلطنا عليهم وعذبناهم، قاله مجاهد أيضاً وعلى المعنى الأول تكون الفتنة بمعنى المفتون.

ولما قدموا التضرع إلى الله سبحانه ان يصون دينهم عن الفساد أتبعوه بسؤال عصمة أنفسهم فقالوا: ﴿ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾ أي من أيديهم، وفي هذا دليل على أنه كان لهم اهتمام بأمر الدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم.

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَ الْقَوْمَ كَمَا بَمِصْرَ بِيوتًا وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً  
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ  
فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا  
اطْمَسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

﴿وأوحينا الى موسى وأخيه ان تبوء القومكما بمصر بيوتاً﴾ قيل هي الاسكندرية، وقيل هي مصر المعروفة لا الاسكندرية، وأن هي المفسرة لأن في الایحاء معنى القول أي اتخذوا لقومكما يقال بوات زيدا مكاناً وبوات لزید مكاناً، والمبوا المنزل الملزوم، ومنه بؤاه الله منزلاً أي ألزمه اياه وأسكنه فيه، ومنه حديث «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»<sup>(١)</sup> والتبوء النزول والرجوع؛ واللام زائدة أي بوا قومكما، وقيل غير زائدة.

﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾ أي متوجهة الى جهة القبلة، قال قتادة: ذلك حين منعهم فرعون الصلاة فأمروا أن يجعلوا مساجدهم في بيوتهم وان يوجهوها نحو القبلة، وعن مجاهد قال: كانوا لا يصلون إلا في البيع حتى خافوا من آل فرعون فأمروا أن يصلوا في بيوتهم، وعن ابن عباس نحوه، وقيل المراد بالبيوت هنا المساجد، واليه ذهب جماعة من السلف، وقيل التي يسكنون فيها أمروا بأن يجعلوها مقابلة بعضها بعضاً.

والمراد بالقبلة على القول الأول هي جهة بيت المقدس وهو قبلة اليهود الى اليوم، وقيل جهة الكعبة وانها كانت قبلة موسى ومن معه، قال أبو سنان: إن آدم فمن بعده كانوا يصلون قبل الكعبة، وظاهر القرآن لا يدل على

(١) مسلم ٣ - البخاري ٩٤.

تعيينها، وقيل انهم يجعلون بيوتهم مستقبلة للقبلة ليصلوا فيها سرّاً لئلا يصيبهم من الكفار معرة بسبب الصلاة.

ومما يؤيد هذا قوله ﴿وأقيموا الصلاة﴾ أي التي أمركم الله باقامتها فانه يفيد أن القبلة هي قبلة الصلاة إما في المساجد أو في البيوت لا جعل البيوت متقابلة وقيل أمر الله موسى وهرون وقومهما باتخاذ المساجد على رغم الأعداء وتكفل بأن يصونهم عن شر الأعداء، ذكره الخطيب، وإنما جعل الخطاب في أول الكلام مع موسى وهرون ثم جعله لهما ولقومهما في قوله ﴿واجعلوا، وأقيموا﴾ ثم أفرز موسى بالخطاب بعد ذلك فقال ﴿وبشر المؤمنين﴾ أي بالنصر والجنة لان اختيار المكان مفوض الى الأنبياء، ثم جعل عاماً في استقبال القبلة وإقامة الصلاة لان ذلك واجب على الجميع لا يختص بالانبياء ثم جعل خاصاً بموسى لانه الاصل في الرسالة وهرون تابع له فكان ذلك تعظيماً للبشارة وللمبشر بها.

وقيل ان الخطاب في ﴿وبشر المؤمنين﴾ لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم على طريقة الالتفات والاعتراض والاول أولى.

﴿وما﴾ لما بالغ موسى عليه السلام في اظهار المعجزات واقامة الحجج البينات ولم يكن لذلك تأثير فيمن أرسل اليهم، دعا عليهم بعد أن بين سبب إصرارهم على الكفر وتمسكهم بالجحود والعناد ﴿قال موسى﴾ مبيناً للسبب أولاً ﴿ربنا انك أتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا﴾ قد تقدم أن الملأ هم الاشراف، والزينة اسم لكل ما يتزين به من ملبوس ومركوب وحلية وفراش وسلاح وغير ذلك، والمال ما زاد على هذه الاشياء من الصامت ونحوه.

ثم كرر النداء للتأكيد فقال ﴿ربنا ليضلوا عن ميلك﴾ قال الخليل

وسبويه: انها لام العاقبة والصيرورة، والمعنى أنه لما كان عاقبة أمرهم الضلال صار كأنه سبحانه أعطاهم ما أعطاهم من النعم ليضلوا، وقيل انها لام كي؛ قاله الفراء: أي أعطيتهم لكي يضلوا، وقال قوم ان المعنى أعطيتهم ذلك لئلا يضلوا فحذفت لا، كما قال سبحانه ﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾.

قال النحاس: ظاهر هذا الجواب حسن إلا أن العرب لا تحذف لا إلا مع أن فمؤه صاحب هذا التأويل بالاستدلال بقوله تعالى المتقدم، وقيل اللام للدعاء عليهم، والمعنى إبتلهم بالهلاك عن سبيلك، قاله ابن الأنباري واستدل بقوله سبحانه بعد هذا ﴿اطمس واشدد﴾ واليه ذهب الحسن البصري، وقيل انها لام العلة والمعنى انك آتيتهم ما آتيتهم على سبيل الاستدراج فكان الايتاء لهذه العلة.

وقد أطل صاحب الكشاف في تقرير هذا بما لا طائل تحته، والقول الاول هو الاولى، وقرىء ليضلوا بضم الياء أي يوقعوا الاضلال على غيرهم، وقرأ الباقون بالفتح أي يضلون في أنفسهم.

﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾ أي امسخها وأزل صورها، قال الزجاج: طمس الشيء إذهابه عن صورته وإزالة أثر الشيء بالمحو. قال مجاهد: أهلكتها، وقال أكثر المفسرين أمسخها وغيرها عن هيئاتها، والمعنى الدعاء عليهم بأن يحق الله أموالهم ويهلكها.

وقرىء بضم الميم من ﴿اطمس﴾ وقد روي عن قتادة أن أموالهم وحروثهم وزروعهم وجواهرهم ودراهمهم ودنانيرهم تحولت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحاً وأنصافاً وأثلاثاً. قيل إن عمر بن عبد العزيز دعا بخريطة فيها شيء من بقايا آل فرعون فأخرج منها البيضة منقوشة والجوزة مشقوقة وهي حجارة.



قال السدي: مسخ الله أموالهم حجارة والنخل والثمار والدقيق والأطعمة، وقال القرظي: صارت صورهم حجارة، وفيه ضعف لأن موسى دعا على أموالهم ولم يدع على أنفسهم بالمسخ، وهذا الطمس هو أحد الآيات التسع التي أوتيتها موسى عليه السلام.

﴿واشدد على قلوبهم﴾ أي اربط عليها واجعلها قاسية مطبوخة حتى لا تقبل الحق ولا تشرح للايمان ولا تلين، قال الواحدي: وهذا دليل على أن الله تعالى يفعل ذلك لمن يشاء، ولولا ذلك لما جسر موسى على هذا السؤال.

﴿فلا يؤمنوا﴾ أي آتيتهم النعم ليضلوا ولا يؤمنوا، قاله المبرد والزجاج، وقال الفراء والكسائي وأبو عبيدة: هو دعاء بلفظ النهي والتقدير، اللهم فلا يؤمنوا. وقال الاخفش: انه جواب الأمر أي اطمس واشدد فلا يؤمنوا ﴿حتى يروا العذاب الاليم﴾ أي فلا يحصل منهم الايمان إلا مع المعاينة لما يعذبهم الله به وعند ذلك لا ينفع ايمانهم، قال ابن عباس العذاب هو الغرق.

وقد استشكل بعض أهل العلم ما في هذه الآية من الدعاء على هؤلاء وقال: ان الرسل انما تطلب هداية قومهم وايمانهم، وأجيب بأنه لا يجوز لنبى أن يدعو على قومه الا بإذن الله سبحانه، وانما يأذن الله بذلك لعلمه بأنه ليس فيهم من يؤمن، ولهذا لما أعلم الله نوحاً عليه السلام بأنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن قال: ﴿رب لا تذر على الارض من الكافرين ديواراً﴾.

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمْ مَا فَاسْتَقِيمُوا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾  
 ﴿٩٠﴾ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا  
 أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ  
 الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ ءَالْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾

﴿قال﴾ الله تعالى ﴿قد أجيبت دعوتكما﴾ جعل الدعوة ههنا مضافة إلى موسى وهرون، وفيما تقدم أضافها إلى موسى وحده، فقبل إن هرون كان يؤمن على دعاء موسى فسمى ههنا داعياً وإن كان الداعي موسى وحده، ففي أول الكلام أضاف الدعاء إلى موسى لكونه الداعي، وههنا أضافه إليهما تنزيلاً للمؤمن منزلة الداعي.

ويجوز أن يكونا جميعاً داعيين، ولكن أضاف الدعاء إلى موسى في أول الكلام لإصالة في الرسالة. قال النحاس: سمعت علي بن سليمان يقول: الدليل على أن الدعاء لهما قول موسى ربنا ولم يقل رب، وقرىء دعاؤكما ودعواكما. قال ابن عباس: فاستجاب له وحال بين فرعون وبين الايمان، ويزعمون أن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة لحكمة يعلمها هو، وعن ابن جريج ومجاهد نحوه ﴿فاستقيما﴾ أي امضيا لأمرى ودوما على الاستقامة، قاله ابن عباس، والاستقامة الثبات على ما هما عليه من الدعاء إلى الله.

قال الفراء وغيره: أمرا بالاستقامة على أمرهما والثبات عليه وعلى دعاء فرعون وقومه إلى الايمان إلى أن يأتيهما تأويل الاجابة أربعين سنة ثم أهلكوا، وقيل معنى الاستقامة ترك الاستعجال ولزوم السكينة والرضاء والتسليم لما يقضي الله به سبحانه.

﴿ولا تتبعان﴾ قرىء بتشديد النون للتأكيد وبتخفيفها على النفي لا على

النهي أو انه نفي في معنى النهي أي لا تسلكا ﴿سبيل الذين لا يعلمون﴾  
 حكمة تأخير المطلوب، نهاهما عن سلوك طريقة من لا يعلم بعبادة الله سبحانه  
 في إجراء الأمور على ما تقتضيه المصالح تعجلاً وتأجلاً، وقيل انه خير محض  
 مستأنف لا تعلق له بما قبله، والمعنى أنها أخبرا بأنها لا يتبعان، وأما تشديد  
 التاء وتخفيفها فلغتان من أتبع يتبع، وتبع يتبع وهما بمعنى واحد، يقال تبعه أي  
 مشى خلفه واتبعه كذلك إلا أنه حاذاه في المشي واتبعه لحقه.

قال الرازي: وهذا النهي لا يدل على أن ذلك قد صدر من موسى  
 وهرون كما أن قوله ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ لا يدل على صدور الشرك  
 منه.

﴿وجاوزنا بيني إسرائيل البحر﴾ هو من جاوز المكان إذا خلفه وتخطاه،  
 والباء للتعدية أي جعلناهم مجاوزين البحر حتى بلغوا الشط، لأن الله سبحانه  
 جعل البحر يساً فمروا فيه حتى خرجوا منه إلى البر، والمراد بحر القلزم وهو  
 بحر السويس وكانوا ستمائة ألف، قاله الخطيب.

وفي الخازن قال أهل التفسير: اجتمع يعقوب وبنوه إلى يوسف وهم  
 اثنان وتسعون وخرج بنوه مع موسى من مصر في الوقت المعلوم وهم ستمائة  
 الف، وقد تقدم تفسير هذا في سورة البقرة في قوله سبحانه ﴿واذ فرقنا بكم  
 البحر﴾ وقرأ الحسن وجوزنا وهما لغتان والآية دليل على خلق الأفعال.

﴿فاتبعهم فرعون وجنوده﴾ يقال تبع وأتبع بمعنى واحد إذا لحقه. قال  
 الأصمعي: يقال تبعه بقطع الألف إذا لحقه وأدركه، واتبعه بوصل الألف إذا  
 اتبع أثره أدركه أو لم يدركه، وكذا قال أبو زيد، وقال أبو عمرو: اتبعه  
 بالوصل اقتدى به، وفي المختار تبعه من باب طرب إذا مشى خلفه أو مر به  
 فمضى معه، وكذا اتبعه وهو افتعل، واتبعه على أفعل إذا كان قد سبقه  
 فلحقه؛ وقال الاخفش: تبعه واتبعه بمعنى مثل ردفه وأردفه.

﴿بغياً﴾ ظلماً ﴿وعدوا﴾ اعتداء، أي لأجلها أو باغين معتدين، وقرأ

الحسن عدواً بضم العين والبدال وتشديد الواو، وقيل إن البغي الاستعلاء في القول بغير حق، والعدو في الفعل، قال عكرمة: العدو والعتو والعلو في كتاب الله التجبر.

﴿حتى إذا أدركه الفرق﴾ أي ناله ووصله وأجمه غاية لاتباعه، وذلك أن موسى خرج ببني إسرائيل على حين غفلة من فرعون، فلما سمع فرعون بذلك لحقهم بجنوده ففرق الله البحر لموسى وبني إسرائيل فمشوا فيه حتى خرجوا من الجانب الآخر، وتبعهم فرعون والبحر باق على الحالة التي كان عليها عند مضي موسى ومن معه، فلما تكامل دخول جنود فرعون وكادوا أن يخرجوا من الجانب الآخر انطبق عليهم ففرقوا كما حكى الله سبحانه ذلك.

﴿قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل﴾ أي صدقت، ولم ينفعه هذا الايمان لأنه وقع منه بعد ادراك الفرق له كما تقدم في النساء، ولم يقل اللعين آمنت بالله أو برب العالمين، بل قال ما تقدم لأنه بقي فيه عرق من دعوى الإلهية ﴿وأنا من المسلمين﴾ أي المستسلمين لأمر الله المنقادين له الذين يوحدونه ويتفون ما سواه.

فإن قيل إنه آمن ثلاث مرات كما في هذه الآية فما السبب في عدم القبول؟.

قيل إنه آمن عند نزول العذاب، والايان والتوبة عنده غير مقبول، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾ وأن الايمان إنما يتم بالاقرار بالتوحيد والتبوة، وفرعون لم يقر بالتبوة فلم يصح إيمانه، وقيل غير ذلك، ذكره الخطيب.

أخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم

والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أغرق الله فرعون فقال: آمنت. الآية. قال جبريل: يا محمد لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فادسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة»<sup>(١)</sup> والمعنى دس جبريل في فيه بأمر الله فلا اعتراض عليه.

وقد روى هذا الحديث الترمذي من غير وجه وقال صحيح حسن غريب، وصححه أيضاً الحاكم عن ابن عباس من طرق أخرى وإسناده على شرط البخاري، وليس في روايتها متهم وإن كان فيهم من هو سيء الحفظ فقد تابعه عليه غيره. وقد أطل الخازن في جواب ما اعترض به الرازي وأشكله في هذا الحديث بما يطول ذكره.

وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال لي جبريل: ما كان على الأرض - يعني أبنض إلى - من فرعون فلما آمن جعلت أحشوا فاه حماة وأنا أعطه خشية أن تدركه الرحمة.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر مرفوعاً نحوه، وأبو الشيخ عن أبي أمامة نحوه أيضاً، وفي إسناد حديث أبي هريرة رجل مجهول وباقي رجاله ثقات. والعجب كل العجب ممن لا علم له بفن الرواية من المفسرين، ولا يكاد يميز بين أصح الصحيح من الحديث وأكذب الكذب منه، كيف يتجارى على الكلام في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، والحكم ببطالان ما صح منها؛ ويرسل لسانه وقلمه بالجهل البحت، والقصور الفاضح الذي يضحك منه كل من له أدنى ممارسة بفن الحديث. فيا مسكين ما لك ولهذا الشأن الذي لست فيه في شيء، ألا تستر نفسك وتربع على ضلعك وتعرف بأنك بهذا العلم من أجهل الجاهلين، وتشتغل بما هو علمك الذي لا تجاوزه وحاصلك الذي ليس لك غيره، وهو علم اللغة وتوابعه من العلوم الآلية.

ولقد صار صاحب الكشف عفا الله عنه بسبب ما يتعرض له في تفسيره من علم الحديث الذي ليس هو منه في ورد ولا صدر سخرة للساخرين، وعبرة للمعتبرين، فتارة يروي في كتابه الموضوعات وهو لا يدري انه منها، وتارة يتعرض لرد ما صح ويجزم بأنه من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم والبهت عليه، وقد يكون في الصحيحين وغيرهما مما يلتحق بهما من رواية جماعة من الصحابة بأسانيد كلها أئمة ثقات حجج اثبات.

وادن نصيب من عقل يحجر صاحبه عن التكلم في علم لا يعلمه ولا يدري به اقل دراية، وان كان ذلك العلم من علوم الاصطلاح التي يتواضع عليها طائفة من الناس، ويصطلحون على أمور فيما بينهم، فما بالك بعلم السنة الذي هو قسم كتاب الله، وقائله رسول الله صلى الله عليه وسلم وراويته عنه خير القرون ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، وكل حرف من حروفه وكلمة من كلماته يثبت بها شرع عام لجميع أهل الاسلام.

﴿الآن﴾ أي فليل له أتؤمن من الآن، وقد اختلف من القائل لفرعون بهذه المقالة، فليل هي من قول الله سبحانه، وقيل من قول جبريل، وقيل من قول ميكائيل وقيل من قول فرعون قال ذلك في نفسه لنفسه، والمعنى انكار الايمان منه عند أن أجمه العرق، والمقصود التقرير والتوبيخ له، قال ابن عباس: لم يقبل الله ايمانه عند نزول العذاب به وقد كان في مهل، والايمان والتوبة عند اليأس لا يقبل ﴿وقد عصيت قبل﴾ تأكيد لهذا المقصود، والجملة حالية أي وقد أيست من نفسك ولم يبق لك اختيار، والايمان في هذه الحالة لا يفيد، يعني الآن تتوب وقد ضيعت التوبة في وقتها وآثرت دنياك الفانية على الآخرة الباقية ﴿وكننت من المفسدين﴾ في الارض بضلالك عن الحق واضلالك لغيرك.

فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيدِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ آيَاتِنَا  
لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا  
أَخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

﴿فاليوم ننجيك﴾ أي نخرجك من البحر ونلقيك على الشط، وذلك ان بني اسرائيل لم يصدقوا أن فرعون غرق وقالوا هو اعظم شأناً من ذلك فألقاه الله على نجوة من الارض أي مكان مرتفع حتى شاهدوه أحمر قصيراً كأنه ثور، ثم اعاده الى البحر ثانياً، فمن ذلك الوقت لا يقبل الماء ميتاً أبداً، قاله الخازن، وقيل المعنى نخرجك مما وقع فيه قومك من الرسوب في قعر البحر ونجعلك طافياً ليشاهدوك ميتاً بالغرق، وقرئ بالحاء المهملة من التنحية، اي نطرحك على ناحية من الأرض.

وقد اختلف المفسرون في معنى ﴿بيدك﴾ فقيل معناه بجسدك بعد سلب الروح منه لا كما هو مطلوبك فهو تخيب له وحسم لطمعه، والباء للمصاحبة، وقيل معناه بدرعك والدرع تسمى بدنأ، والأبدان الدروع، قاله ابو عبيدة، ورجح الاخفش الأول. وقرأ ابو حنيفة رحمه الله بأبدانك وهو مثل قولهم هو بأجرامه أي بيدك كله وافياً بأجزائه، وقيل عرباناً لا شيء عليه، وقيل الباء سببية لان بدنه سبب في تنجيته.

﴿لتكون لمن خلقك آية﴾ هذا تعليل لتنجيته ببدنه، وفي ذلك دليل على انه لم يظهر جسده دون قومه إلا هذه العلة لا سوى، والمراد بالآية العلامة، أي لتكون علامة يعرفون بها هلاكك وانك لست كما تدعي ويندفع عنهم الشك في كونك قد صرت ميتاً بالغرق.

وقيل المراد ليكون طرحك على الساحل وحدك دون المغرقين من قومك

آية من آيات الله يعتبر بها الناس او يعتبر بها من سيأتي من الأمم اذا سمعوا ذلك حتى يحذروا من التكبر والتعجبر والتمرد على الله سبحانه فان هذا الذي بلغ الى ما بلغ اليه من دعوى الإلهية واستمر على ذلك دهوراً طويلاً كانت له هذه العاقبة القبيحة .

وقرىء لمن خلفك على صيغة الماضي، اي لمن يأتي بعدك من القرون او من خلفك في الرياسة او في السكون في المسكن الذي كنت تكته، وهذا آخر مقول جبريل عليه السلام .

﴿وان كثيراً من الناس عن آياتنا﴾ التي توجب الاعتبار والتفكر وتوقظ من سنة الغفلة ﴿لغافلون﴾ عما توجه تلك الآيات، وهذه الجملة تذييلية جيء بها عقب الحكاية تقرير الكلام المحكى .

﴿ولقد بوأنا بني اسرائيل مبوأ صدق﴾ هذا من جملة ما عدده الله سبحانه من النعم التي انعمها عليهم، ومعنى بوأنا أسكنا يقال بوأت زيدا منزلاً أسكنته فيه، والمبوأ اسم مكان او مصدر، وضافته الى الصدق على ما جرت عليه قاعدة العرب فانهم كانوا اذا مدحوا شيئاً اضافوه الى الصدق، والمراد به هنا المنزل المحمود الصالح المختار المرضي، قيل هو ارض مصر، قاله الضحاك، وقيل جميع ما كان تحت أيدي فرعون وقومه من ناطق وصامت وزرع وغيره، وقيل الاردن وفلسطين، وقيل الشام قاله قتادة، وقيل بيت المقدس لانها بلاد الخصب والخير والبركة .

﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ اي المستلذات من الرزق ﴿فما اختلفوا﴾ في أمر دينهم وتشعبوا فيه شعباً بعدما كانوا على طريقة واحدة غير مختلفة ﴿حتى جاءهم العلم﴾ اي لم يقم منهم هذا الاختلاف في الدين الا بعد ما جاءهم



العلم بقراءتهم التوراة وعلمهم بأحكامها وما اشتملت عليه من الاخبار بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

وقيل العلم هو القرآن المنزل على نبينا صلى الله عليه وآله وسلم فاختلّفوا فيه وفي صفته وآمن به من آمن منهم، وكفر به من كفر، قال ابن زيد: يعني كتاب الله الذي أنزله وأمره الذي أمرهم به، وإنما سمي القرآن علماً لأنه سبب العلم، فيكون المراد بالمختلفين على القول الأول هم اليهود بعد أن أنزلت عليهم التوراة وعلموا بها، وعلى القول الثاني هم اليهود المعاصرون لمحمد صلى الله عليه وسلم، وقد روي في الحديث أن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة وأن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة<sup>(١)</sup> وهو في السنن والمسانيد، والكلام فيه يطول.

﴿ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ من أمر الدين بانجاء المؤمنين وتعذيب الكافرين فيجازي المحسن باحسانه، والمسيء باساءته، والمحق بعمله بالحق، والمبطل بعمله بالباطل.

(١) الإمام أحمد، ٢/٣٣٢ نحوه. وقد ألف العلماء الكثير من الكتب حول ماهية هذه الفرق وبعضهم كتب وعُدَّ الفرق الضالة، انظر مثلاً كتاب (الفرق بين الفرق) للبغدادي.

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾

﴿فإن كنت﴾ يا محمد ﴿في شك﴾ هو في أصل اللغة ضم الشيء بعضه الى بعض، ومنه شك الجوهر في العقد والشاك كأنه يضم الى ما يتوهمه شيئاً آخر خلافه فيتردد ويتحير، والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، والمراد غيره كما ورد في القرآن في غير موضع.

وعن ابن عباس قال: لم يشك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يسأل ونحوه عن سعيد بن جبير والحسن البصري وعن قتادة قال: ذكر لنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا اشك ولا أسأل وهو مرسل.

﴿مما﴾ أي في شك ناشيء مما ﴿انزلنا اليك﴾ بأن تشك فيه، ومنه للابتداء او انها بمعنى في من اول الامر، قال القاضي عياض في الشفاء: احذر ثبت الله قلبك ان يخطر ببالك ما ذكره بعض المفسرين من اثبات شك النبي ﷺ فيما اوحى اليه فمثل هذا لا يجوز عليه اهـ.

وقال ثعلب والمبرد: أي قل يا محمد للكافر فان كنت في شك ﴿فاسأل﴾ الذين يقرأون الكتاب من قبلك﴾ يعني مسلمي أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وامثاله وقد كان عبدة الاوثان يعترفون لليهود بالعلم ويقرون بأنهم اعلم منهم، فأمر الله سبحانه نبيه ان يرشد الشاكين فيما انزله الله اليه من القرآن ان يسألوا اهل الكتاب الذين قد اسلموا فانهم سيخبرونهم بأنه كتاب الله حقا، وان هذا رسوله وان التوراة شاهدة بذلك ناطقة به فان ذلك محقق عندهم ثابت في كتبهم، والمراد اظهار نبوته عليه السلام بشهادة الاخبار، وفي هذا الوجه مع حسنه مخالفة للظاهر.

قال الزجاج: ان الله خاطب الرسول وهو شامل للمخلوق، وهذا وجه حسن أيضاً لكن فيه بعد لأن الرسول متى كان داخلاً في هذا الخطاب كان الايراد موجوداً، والاعتراض وارداً.

وقيل ان في قوله ﴿فان﴾ للنفي اي ما أنت في شك حتى تسأل وهذا أبعد.

وقال القتيبي: المراد بهذه الآية من كان من الكفار غير قاطع بتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم ولا بتصديقه بل كان في شك، وقيل المراد بالخطاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا غيره والمعنى لو كنت ممن يلحقه الشك فيما اخبرناك به فسألت اهل الكتاب لأزالوا عنك الشك، وقيل الشك هو ضيق الصدر أي ان ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر واسأل يخبرونك بصبر من قبلك من الانبياء على اذى قومهم.

وقيل معنى الآية الفرض والتقدير كأنه قال له فان وقع لك شك مثلاً وخيل لك الشيطان خيلاً منه تقديراً، فاسأل فانهم سخبرونك عن نبوءتك وما نزل عليك، ويعترفون بذلك لانهم يجدونه مكتوباً عندهم، وقد زال فيمن اسلم منهم ما كان مقتضياً للكتم عندهم.

﴿لقد﴾ أي اقسم لقد ﴿جاءك الحق من ربك﴾ وفي هذا بيان ما يقطع الشك من اصله ويذهب به بجملته، وهو شهادة الله سبحانه بأن هذا الذي وقع الشك فيه على اختلاف التفاسير في الشاك هو الحق الذي لا يخالطه باطل ولا تشوبه شبهة.

ثم عقبه بالنهي للنبي صلى الله عليه وسلم عن الامتراء فقال ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ فيما انزل الله عليه بل تستمر على ما أنت عليه من اليقين وانتفاء الشك، ويمكن ان يكون هذا النهي له تعريضاً لغيره كما في مواطن من الكتاب العزيز، وهكذا القول في نهى صلى الله عليه وسلم عن التكذيب في قوله تعالى ﴿ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله﴾ فان الظاهر فيه التعريض

إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ  
 حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ أَمِنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ  
 لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ  
 شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا  
 مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾

ولا سيما بعد تعقيبه بقوله ﴿فتكون من الخاسرين﴾ وفي هذا التعريض من  
 الزجر للممترين والمكذبين ما هو ابلغ وواقع من النهي لهم انفسهم، لانه اذا  
 كان ينهى عنه من لا يتصور صدوره عنه فكيف بمن يمكن منه ذلك.

﴿ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾ قد تقدم مثله في هذه  
 الصورة والمعنى انه حق عليهم قضاء الله وقدره بانهم يصرون على الكفر  
 ويموتون عليه، لا يقع منهم الايمان بحال من الاحوال وان وقع منهم ما صورته  
 صورة الايمان كمن يؤمن منهم عند معاينة العذاب فهو في حكم العدم، قال  
 مجاهد: حق عليهم سخط الله بما عصوه، وقيل لعنة الله، وقيل الكلمة هي  
 قوله «خلقت هؤلاء للنار ولا ابالي»

﴿ولو جاءتهم كل آية﴾ من الآيات التكوينية والتنزيلية فان ذلك لا  
 ينفعهم لان الله سبحانه قد طبع على قلوبهم وحق منه القول عليهم ﴿حتى  
 يروا العذاب الاليم﴾ فيقع منهم ما صورته صورة الايمان وليس بايمان، ولا  
 يترتب عليه شيء من أحكامه.

﴿فلولا كانت قرية آمنت﴾ لولا هذه هي التحضيضية التي بمعنى هلا،  
 كما قال الأخفش والكسائي وغيرهما، وبدل على ذلك ما في مصحف أبي وابن

معمود ﴿فهلا قرية﴾ وفي هذا التحضيض معنى التوبيخ والنفي فوبخ الله اهل القرى المهلكة قبل يونس على عدم ايمانهم قبل نزول العذاب بهم، والمعنى فهلا قرية واحدة من هذه القرى التي اهلكناها آمنت ايماناً معتداً به نافعاً وذلك بأن يكون خالصاً لله قبل معاينة عذابه ولم تؤخره كما أخره فرعون.

﴿فنفعها ايمانها﴾ في حال اليأس ﴿إلا قوم يونس﴾ استثناء منقطع من القرى لان المراد أهلها، والمعنى لكن قوم يونس، وقد قال بأن هذا الاستثناء منقطع جماعة من الائمة منهم الكسائي والاختش والفراء، وقيل متصل، والجملة في معنى النفي، كأنه قيل ما آمنت قرية من القرى المهلكة إلا قوم يونس، قال ابن جرير: خص قوم يونس من بين الأمم بأن تيب عليهم من بعد معاينة العذاب، وحكى ذلك عن جماعة من المفسرين.

وقال الزجاج: انه لم يقع العذاب وانما رأوا العلامة التي تدل على العذاب، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الايمان، وهذا أولى من قول ابن جرير.

﴿لما آمنوا﴾ ايماناً معتداً به قبل معاينة العذاب حين رؤية أماراته او عند اول المعاينة قبل حلوله بهم ﴿كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا﴾ هو العذاب الذي كان قد وعدهم يونس انه سينزل عليهم ولم يروه او الذي قد رأوا علاماته دون عينه ﴿ومتعناهم الى حين﴾ أي بعد كشف العذاب عنهم متعهم الله في الدنيا الى حين معلوم قدره لهم اي الى وقت انقضاء آجالهم.

قال قتادة: لم يكن هذا في الأمم قبل قوم يونس لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين عاينت العذاب إلا قوم يونس، وذكر لنا ان قومه كانوا بني نوى من ارض الموصل فلما فقدوا نبيهم قذف الله في قلوبهم التوبة، وبحث في ذلك الزجاج فقال: انه لم يقع بهم العذاب وانما رأوا علامته ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الايمان.

قال القرطبي: وهو كلام حسن فإن المعاينة التي لا ينفع معها الايمان هي التلبس بالعذاب كقصة فرعون.

واخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن يونس دعا قومه فلما أبوا ان يجيبوه وعدهم العذاب فقال: إنه يأتيكم يوم كذا وكذا ثم خرج عنهم، وكانت الانبياء اذا وعدت قومها العذاب خرجت، فلما اظلمهم العذاب خرجوا ففرقوا بين المرأة وولدها والسخلة وولدها، وخرجوا يعجون الى الله، وعلم الله منهم الصدق فتاب عليهم وصرف عنهم العذاب وقعد يونس في الطريق يسأل عن الخبر فصر به رجل فقال: ما فعل قوم يونس؟ فحدثه بما صنعوا فقال: لا ارجع الى قوم قد كذبتهم، وانطلق مغاضباً، يعني مراغماً. وعن سعيد بن جبير قال: غشي قوم يونس العذاب كما يغشى القبر، بالثوب اذا دخل فيه صاحبه ومطرت السماء دماً.

وعن ابن عباس: ان العذاب كان هبط على قوم يونس لم يكن بينهم وبينه الا قدر ثلثي ميل فلما دعوا كشفه الله عنهم، وقال قتادة: قدر ميل. وقال وهب: غامت السماء غيماً اسود هائلاً يدخن دخاناً شديداً، فهبط حتى غشى مدينتهم واسودت اسطحتهم فتابوا واخلصوا النية فرحمهم ربهم وكشف ما نزل بهم من العذاب بعدما اظلمهم، وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء، وكان يوم الجمعة، قيل انهم قالوا: يا حي حين لا حي، ويا حي يحيي الموتى، ويا حي لا إله إلا أنت. وقيل قالوا: اللهم ان ذنوبنا قد عظمت وجلت وانت اعظم وأجل، فافعل بنا ما أنت اهله ولا تفعل بنا ما نحن اهله، قاله الفضيل بن عياض، والله اعلم ما قالوه.

ثم بين سبحانه ان الايمان وضده كلاهما بمشيئة الله وتقديره فقال ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم﴾ بحيث لا يخرج عنهم احد ﴿جميعاً﴾

مجتمعين على الايمان لا يتفرقون فيه ويختلفون، ولكنه لم يشأ ذلك لكونه مخالفاً للمصلحة التي ارادها الله سبحانه .

قال الاخفش: جاء بقوله جميعاً بعد كلهم للتأكيد كقوله ﴿لا تتخذوا إلهين اثنين﴾ وقيل اتى به مع ان كلاً منها يفيد الاحاطة والشمول للدلالة على ان وجود الايمان منهم بصفة الاجتماع الذي لا يدل عليه كلهم، ذكره الكرخي .

ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصاً على إيمان جميع الناس أخبره الله بأن ذلك لا يكون لأن مشيئته الجارية على الحكمة البالغة والمصالح الراجحة لا تقتضي ذلك فقال ﴿أفأنت تكره الناس﴾ استفهام تأديب للنبي صلى الله عليه وسلم أي اتكرههم بما لم يشأه الله منهم .

﴿حتى يكونوا مؤمنين﴾ فإن ذلك ليس في وسعك يا محمد ولا داخل تحت قدرتك، وفي هذا تسلية له صلى الله عليه وسلم ودفع لما يضيق به صدره من طلب صلاح الكل الذي لو كان لم يكن صلاحاً محققاً بل يكون الى الفساد أقرب، والله الحكمة البالغة وإيلاء الاسم حرف الاستفهام للاعلام بأن الاكراه ممكن مقدور عليه، وانما الشأن في المكره من هو وما هو إلا هو وحده لا يشارك فيه لأنه هو القادر على أن يخلق في قلوبهم ما يضطرون عنده الى الايمان وذلك غير مستطاع للبشر.

وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا  
 يَعْقِلُونَ ﴿١١٠﴾ قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ  
 قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ  
 فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١١٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا  
 كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾

ثم بين سبحانه ما تقدم بقوله ﴿وما كان﴾ اي ما صح وما استقام  
 ﴿لنفس﴾ من الأنفس ﴿ان تؤمن﴾ إلا بإذن الله ﴿اي بتسهيله وتيسيره ومشيئته  
 لذلك فلا يقع غير ما يشاؤه كائناً ما كان﴾ ويجعل الرجس ﴿بكسر الراء  
 وضمنها لغتان، اي العذاب او السخط او الكفر او الخذلان الذي هو سبب  
 العذاب، وهذا معطوف على محذوف، كأنه قيل فيأذن لبعضهم في الايمان  
 ويجعل الخ، والمضارع في المعطوف والمعطوف عليه بمعنى الماضي.

والمراد بقوله ﴿على الذين لا يعقلون﴾ هم الكفار الذين لا يتعقلون حجج  
 الله ولا يتفكرون في آياته ولا يتدبرون فيما نصبه لهم من الادلة.

﴿قل انظروا﴾ بضم اللام وكسرهما سبعيتان ﴿ماذا في السموات  
 والارض﴾ لما بين سبحانه ان الايمان لا يحصل الا بمشيئة الله أمر بالنظر  
 والاستدلال بالدلائل السماوية والارضية، والمراد بالنظر التفكير والاعتبار، أي  
 قل يا محمد للكفار تفكروا واعتبروا بما فيها من المصنوعات الدالة على الصانع  
 ووحدته وكمال قدرته.

ثم ذكر سبحانه ان التفكير والتدبر في هذه الدلائل لا ينفع في حق من  
 استحكمت شقاوته فقال ﴿وما تغني﴾ اي ما تنفع على ان ﴿ما﴾ نافية وهذا هو  
 الظاهر ويجوز ان تكون استفهامية أي أي غنى تغني ﴿الآيات﴾ هي التي عبر  
 عنها بقوله ماذا في السموات والارض، ففي الكلام اظهار في مقام الاضمار،



والجملة إما حالية أو اعتراضية بنوع ايضاح ﴿والنذر﴾ جمع نذير وهم الرسل او جمع انذار وهو المصدر ﴿عن قوم لا يؤمنون﴾ في علم الله سبحانه، والمعنى ان من كان هكذا لا يجدى فيه شيء ولا يدفعه عن الكفر دافع.

﴿فهل ينتظرون إلا مثل ايام الذين خلوا من قبلهم﴾ أي فهل ينتظر هؤلاء الكفار المعاصرون لمحمد صلى الله عليه وسلم بتكذيبه إلا مثل وقائع الله سبحانه بالكفار الذين خلوا من قبل هؤلاء قوم نوح وعاد وثمود، فقد كان الانبياء المتقدمون يتوعدون كفار زمانهم بأيام مشتملة على انواع العذاب، وهم يكذبونهم ويصممون على الكفر حتى ينزل الله عليهم عذابه ويحل بهم انتقامه، والعرب تسمى العذاب اياماً والنعم اياماً، كقوله تعالى ﴿وذكرهم بأيام الله﴾.

ثم قال: ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار المعاصرين لك ﴿فانتظروا﴾ اي تربصوا لوعد ربكم ﴿إني معكم من المنتظرين﴾ لوعد ربي، وفي هذا تهديد شديد ووعيد بالغ بأنه سينزل بهؤلاء ما نزل بأولئك من الهلاك.

﴿ثم ننجي﴾ بالتشديد باتفاق العشرة وقرىء بالتخفيف وهما لغتان فصيحتان أنجى ينجي انجاء، ونجى ينجي تنجية بمعنى واحد، وثم للعطف على مقدر يدل عليه ما قبله، كأنه قيل أهلكتنا الأمم ثم نجينا ﴿رسلنا﴾ المرسلين اليهم ﴿و﴾ نجينا ﴿الذين آمنوا﴾ والتعبير بلفظ الفعل المستقبل لاستحضار صورة الحال الماضية تهويلاً لأمرها.

﴿كذلك﴾ صفة لمصدر محذوف اي انجاء مثل ذلك الإنجاء، وقوله ﴿حقاً علينا﴾ اعتراض، اي حق ذلك علينا حقاً أي وجب وتحتم بمقتضى الفضل والكرم ﴿ننجي﴾ بالتخفيف والتشديد قراءتان سبعيتان ﴿المؤمنين﴾ من عذابنا للكفار والمراد بالمؤمنين الجنس فيدخل في ذلك الرسل واتباعهم او يكون خاصاً بالمؤمنين وهم اتباع الرسل لان الرسل داخلون في ذلك بالاولى، وقال السيوطي: النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه حين تعذيب المشركين لهم.

قُلْ يَكَايَهِهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكِّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ  
 أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٦﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ  
 حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٧﴾

﴿قل يا أيها الناس﴾ أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يظهر التباين بين طريقته وطريقة المشركين مخاطباً لجميع الناس أو للكفار منهم أو لأهل مكة على الخصوص بقوله ﴿ان كتم في شك من ديني﴾ الذي انا عليه وهو عبادة الله وحده لا شريك له ولم تعلموا بحقيقته ولا عرفتم صحته، وانه الدين الحق الذي لا دين غيره فاعلموا اني بريء من اديانكم التي انتم عليها.

﴿فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله﴾ في حال من الاحوال ﴿ولكن اعبد الله الذي يتوفاكم﴾ اي أخصه بالعبادة لا اعبد غيره من معبوداتكم من الاصنام وغيرها، وخص صفة التوفي من بين الصفات لما في ذلك من التهديد لهم، أي أعبد الله الذي يتوفاكم فيفعل بكم ما يفعل من العذاب الشديد، ولكونه يدل على الخلق أولاً وعلى الإعادة ثانياً، ولكونه أشد الاحوال مهابة في القلوب ولكونه قد تقدم ذكر الإهلاك والوقائع النازلة بالكفار من الأمم السابقة فكأنه قال أعبد الله الذي وعدني بإهلاككم.

ولما ذكر انه لا يعبد إلا الله بين انه مأمور بالايان فقال ﴿وامرت أن أكون من المؤمنين﴾ أي بأن أكون من جنس من آمن بالله واخلص له الدين ﴿وان أقم وجهك للدين﴾ المعنى ان الله سبحانه أمره بالاستقامة في الدين والثبات فيه وعدم التزلزل عنه بحال من الاحوال وخص الوجه لانه اشرف الاعضاء، أو أمره باستقبال القبلة في الصلاة وعدم التحول عنها ﴿حنيفاً﴾ أي مائلاً عن كل دين من الاديان الى دين الاسلام مستقيماً عليه غير معوج عنه الى دين آخر، ثم أكد الأمر المتقدم بالنهي عن ضده فقال: ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ عطف على أقم داخل تحت الأمر، وهو من باب التعريض لغيره صلى الله عليه وسلم.

وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنَّ يُرِيدُ بِكَ خَيْرًا فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

﴿ولا تدع من دون الله﴾ على حال من الاحوال ﴿مالا ينفعك ولا يضر﴾ بشيء من النفع والضر ان دعوته، ودعاء من كان هكذا لا يجلب نفعاً ولا يقدر على ضرر، ضائع لا يفعله عاقل على تقدير انه لا يوجد من يقدر على النفع والضرر غيره فكيف إذا كان موجوداً فإن العدول عن دعاء القادر الى دعاء غير القادر أقبح وأقبح.

﴿فإن فعلت﴾ أي فإن دعوت ولكنه كنى عن القول بالفعل ﴿فإنك إذا من الظالمين﴾ هذا جزاء الشرط، اي فإنك في عداد الظالمين لأنفسهم، والمقصود من هذا الخطاب التعريض لغيره صلى الله عليه وسلم.

﴿و﴾ جملة ﴿إن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو﴾ مقررمة لمضمون ما قبلها، والمعنى ان الله سبحانه هو الضار النافع، فإن انزل بعبده ضراً لم يستطع احد ان يكشفه كائناً من كان بل هو المختص بكشفه كما هو اختص بإنزاله.

﴿وان يردك بخير﴾ أي خير كان لم يستطع احد أن يدفعه عنك وبحول بينك وبينه كائناً من كان، هو من القلب واصله ان يرد بك الخير، ولكن لما تعلق كل واحد منهما بالآخر جاز ان يكون كل واحد منهما مكان الآخر.

قال النيسابوري: وفي تخصيص الارادة بجانب الخير والمس بجانب الشر دليل على ان الخير يصدر عنه سبحانه بالذات والشر بالعرض.

قلت: وفي هذا نظر فإن المس هو أمر وراء الإرادة فهو مستلزم لها،  
وقيل ان الضر انما مسهم لا بالقصد الاول والمعنى متقارب.

﴿فلا راد لفضله﴾ اي لا دافع لما ارادك به من الخير ووضع الفضل  
موضع الضمير للدلالة على انه متفضل بما يريد بهم من الخير لا استحقاق لهم  
عليه، ولم يستثن لان مراد الله تعالى لا يمكن رده وإرادة الله قديمة لا تتغير  
بخلاف مس الضر فانه صفة فعل.

﴿يصيب به﴾ أي بفضله او بكل واحد من الخير والضر ﴿من يشاء من  
عباده﴾ وجملة ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ تذييلية.

عن عامر بن قيس قال: ثلاث آيات في كتاب الله اكتفيت بهن عن جميع  
الخلائق اولهن ﴿ان يَمْسِكَ اللهُ﴾ الآية، والثانية ﴿ما يفتح اللهُ للناس من رحمة  
فلا عمسك لها وما يمسك فلا مرسل له﴾ والثالثة ﴿وما من دابة في الارض إلا  
على الله رزقها﴾ اخرج البيهقي في الشعب، وأخرج أبو الشيخ عن الحسن  
نحوه.

قُلْ يَتَّبِعُنَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۗ  
 وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ  
 وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۗ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

ثم ختم هذه السورة بما يستدل به على قضائه وقدره فقال ﴿قل يا أيها الناس﴾ لأجل ان تقطع معذرتهم فهذا نهاية الأمر ﴿قد جاءكم الحق من ربكم﴾ أي القرآن أو الإسلام أو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه﴾ أي منفعة اهتدائه مختصة به ﴿ومن ضل فانما يضل عليها﴾ أي ضرر كفره مقصور عليه لا يتعداه، وليس لله حاجة في شيء من ذلك ولا غرض يعود اليه ومن في الموضوعين يجوز ان تكون شرطية والفاء واجبة الدخول وان تكون موصولة والفاء جائزته ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾ أي بحفيظ يحفظ اموركم وتوكل اليه، انما أنا بشير ونذير.

ثم أمره الله سبحانه ان يتبع ما اوحاه من الأوامر والنواهي التي شرعها الله له ولأمته فقال ﴿واتبع ما يوحى اليك﴾ ثم أمره بالصبر على أذى الكفار وما يلاقيه من مشاق التبليغ وما يعانیه من تلون اخلاق المشركين وتعجرهم فقال ﴿واصبر﴾ وجعل ذلك الصبر ممتداً الى غاية هي قوله ﴿حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾ أي يحكم الله بينه وبينهم في الدنيا بالنصر له عليهم وفي الآخرة بعذابهم بالنار وهم يشاهدونه صلى الله عليه وسلم هو وامته المتبعون له المؤمنون به العاملون بما يأمرهم به المنتهون عما ينهاهم عنه، ينقلبون في نعيم الجنة الذي لا ينفد ولا يمكن وصفه ولا يوقف على ادنى مزاياه.

وقال مجاهد: هذا منسوخ بأمره بجهادهم والغلظة عليهم وبه قال ابن عباس، قال السيوطي: وقد صبر حتى حكم على المشركين بالقتال واهل الكتاب بالجزية اه؛ وأشار بهذا الى قول مجاهد، قاله الكرخي.



## سورة هود عليه السلام

وهي مائة وثلاث وعشرون آية . وهي مكية فجاء قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر ومجاهد وابن زيد . وقال ابن عباس وقتادة : الآية وهي قوله : ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ﴾ وقال مقاتل : أو الآية ﴿ فلعلك تارك ﴾ الآية ﴿ وأولئك يؤمنون به ﴾ الآية .

والحاصل ان المدني عند ابن عباس آية واحدة وعند مقاتل آيتان . وعن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « اقرأوا هود يوم الجمعة »<sup>(١)</sup> . أخرجه الدارمي وأبو داود والبيهقي وغيرهم . وعن أبي بكر الصديق قال : قلت يا رسول الله لقد أسرع إليك الشيب فقال : شيبتي هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت<sup>(٢)</sup> أخرجه الطبراني والترمذي وحسنه . وعن أنس مرفوعاً وهل أتاك حديث الفاشية رواه البزار . وقد روي بطرق عن جمع من الصحابة .

قال بعض العلماء : سبب شيبه من هذه السور ما فيها من ذكر القيامة والبعث والحساب والجنة والنار والله أعلم بمراد رسوله صلى الله عليه وسلم .

(١) ضعيف الجامع الصغير ١١٦٨ .

(٢) الترمذي تفسير سورة ٦/٥٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



الرَّكِيبِ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي  
 لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مَتَّعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ  
 مُّسَمًّى وَيُؤْتِيَ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾

﴿الر﴾ ان كان مسروداً على سبيل التعديد كما في سائر فواتح السور فلا محل له، وان كان اسماً للسورة فهو في محل الرفع على انه مبتدأ وما بعده خبره او خبر مبتدأ محذوف وهو الاظهر، او في محل النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو اذكر او اقرأ.

وقوله ﴿كتاب﴾ خبر لمبتدأ محذوف اي هذا كتاب، ويدل على ذلك قوله في آية اخرى ﴿ذلك الكتاب﴾ والاشارة اما الى بعض القرآن او الى مجموعه.

ومعنى ﴿أحكمت آياته﴾ صارت محكمة متقنة لا نقص فيها ولا نقص لها كالبناء المحكم المرصف، وقيل معناه انها لم تنسخ بخلاف التوراة والانجيل، وعلى هذا فيكون هذا الوصف للكتاب باعتبار الغالب وهو المحكم الذي لم ينسخ، وقيل معناه احكمت آياته بالأمر والنهي، والآيات المراد بها حقيقتها وهي الجمل من السور المنفصل بعضها عن بعض اي نظمت نظماً متقناً لا يعتريه خلل بوجه من الوجوه، وقيل معنى احكامها ان لا فساد فيها أخذاً من قولهم أحكمت الدابة إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماع.

﴿ثم فصلت﴾ بالوعد والوعيد والثواب والعقاب، وقيل احكمها الله من الباطل ثم فصلها بالحلال والحرام، وقيل أحكمت جملته ثم فصلت آياته، وقيل جمعت في اللوح المحفوظ ثم فصلت بالوحي، وقيل أيدت بالحجج القاطعة الدالة على كونها من عند الله، والتراخي المستفاد من ثم إما زمانى إن فر التفصيل بالتنجيم على حسب المصالح، واما رتبي ان فر بغيره مما تقدم، واليه ذهب الزمخشري، وقال: هي محكمة أحسن الاحكام ثم مفصلة أحسن

التفصيل كما يقال فلان كريم الأصل ثم كريم الفعل .

﴿من لدن حكيم خبير﴾ فيه طباق حسن، لان المعنى احكمها حكيم وفصلها خبير عالم بواقع الامور، وقيل صفة ثانية لكتاب خبر ثان واليه نحنا الزمخشري وقيل غير ذلك ﴿ان لا تعبدوا إلا الله﴾ قال الكسائي والفراء: التقدير احكمت بأن، وقال الزجاج: احكمت ثم فصلت لكلا تعبدوا، وقيل تعليل للفعلين قبله اي لأجل ان تركوا عبادة غير الله وتعبدوا الله فأخذ الترك من لا النافية والاثبات من الاستثناء .

وقيل تقديره هي ان لا تعبدوا، وقيل ان مفسرة لما في التفصيل من معنى القول أي قال لا تعبدوا او أمركم ان لا تعبدوا، وهذا اظهر الاقوال لانه لا يحوج الى اضمار، ولما ذكر شؤون الكتاب ذكر ان من جاء به مرسل من عند الله لتبليغ احكامه فقال ﴿انني لكم منه نذير وبشير﴾ اي ينذرهم ويخوفهم من عذابه لمن عصاه ويشرهم بالجنة والرضوان لمن اطاعه، والضمير في منه راجع الى الله سبحانه اي كائن من جهة الله .

وهذا على ظاهره ليس بجيد لان الصفة لا تتقدم على الموصوف فكيف تجعل صفة لنذير وكأنه يريد انه صفة في الاصل لو تأخر، ولكن لما تقدم صار حالاً، صرح به ابو البقاء فصوابه كائناً من جهته، وقيل يعود على الكتاب أي نذير لكم من مخالفته وبشير منه لمن آمن وعمل صالحاً، وقدم الانذار لأن التخويف أهم إذ يحصل به الانزجار، وقيل هو من كلام الله سبحانه كقوله ﴿ويحذركم الله نفسه﴾

﴿وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه﴾ قدم الارشاد الى الاستغفار على التوبة لكونه وسيلة اليها وقيل ان التوبة من متمات الاستغفار وقيل معنى استغفروا توبوا، ومعنى توبوا اخلصوا التوبة واستقيموا عليها، وقيل استغفروا من سالف الذنوب ثم توبوا من لاحقها .

وقيل استغفروا من الشرك ثم ارجعوا اليه بالطاعة؛ قال الفراء: ثم ههنا بمعنى الواو أي وتوبوا اليه لأن الاستغفار هو التوبة والتوبة هي الاستغفار فذكرهما للتأكيد، وقيل إنما قدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هي الغرض المطلوب والتوبة هي السبب اليها، وما كان آخراً في الحصول كان أولاً في الطلب، وقيل استغفروا في الصغائر وتوبوا اليه في الكبائر.

ثم رتب على ما تقدم أمرين: الأول ﴿يَمْتَعِكُمْ مَتَاعاً حَسَناً﴾ أصل الامتاع الاطالة ومنه امتع الله بك، فمعنى الآية يطول نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية موسعة للرزق ورغد العيش، وقيل هو الرضاء بالميسور والصبر على المقدور ﴿إلى أجل مسمى﴾ إلى وقت مقدر عند الله وهو الموت، وقيل القيامة، وقيل دخول الجنة والأول أولى.

والأمر الثاني قوله ﴿ويؤت كل ذي فضل﴾ في الطاعة والعمل ﴿فضله﴾ أي جزاء فضله إما في الدنيا أو في الآخرة أو فيها جميعاً، والضمير راجع إلى كل ذي فضل، وقيل راجع إلى الله سبحانه على معنى أن الله يعطي كل من فضلت حسناته الذي يتفضل به على عباده.

عن ابن مسعود قال: من عمل سيئة كتبت عليه سيئة، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات، فإن عوقب بالسيئة التي عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات ثم يقول هلك من غلب آحاده اعشاره، وقال أبو العالية من كثرت طاعاته في الدنيا زادت حسناته ودرجاته في الجنة.

ثم توعدهم على مخالفة الأمر فقال ﴿وان تولوا﴾ أي تعرضوا عن الاخلاص في العبادة والاستغفار والتوبة ﴿فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾ هو يوم القيامة، ووصفه بالكبر لما فيه من الأهوال، وقيل اليوم الكبير يوم بدر، وقيل صفة لعذاب فهو منصوب وإنما خفض على الجوار.

إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا  
حِينَ يَسْتَفْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٢﴾

ثم بين سبحانه عذاب اليوم الكبير بقوله ﴿إلى الله مرجعكم﴾ أي رجوعكم إليه بالموت ثم البعث ثم الجزاء لا إلى غيره.

﴿وهو على كل شيء قدير﴾ ومن ذلك عذابكم على عدم الامتثال، وهذه الجملة مقررة لما قبلها.

ثم أخبر الله سبحانه بأن هذا الانذار والتحذير والتوعد لم ينجح فيهم، ولا لانت له قلوبهم، بل هم مصرون على العناد مصممون على الكفر، فقال مصدراً لهذا الاخبار بكلمة التنبيه الدالة على التعجب من حالهم، وانه أمر ينبغي ان يتنبه له العقلاء ويفهموه ﴿ألا انهم يثنون صدورهم﴾ يقال ثنى صدره عن الشيء اذا ازور وانحرف عنه، فيكون في الكلام كناية عن الإعراض لأن من عارض عن الشيء ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه.

وقيل معناه يعطفون صدورهم على ما فيها من الكفر والاعراض عن الحق وعداوة النبي صلى الله عليه وسلم بحيث يكون ذلك مخفياً مستوراً فيها كما تعطف الثياب على ما فيها من الأشياء المستورة، فيكون في الكلام كناية عن الاخفاء لما يعتقدونه من الكف كما كان دأب المنافقين، والوجه الثاني أولى، ويؤيده قوله ﴿ليستخفوا منه﴾ أي من الله فلا يطلع عليه رسوله والمؤمنين او من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم كرر كلمة التنبيه مبيناً للوقت الذي يثنون فيه صدورهم فقال ﴿ألا حين يستفشون ثيابهم﴾ أي يستخفون في وقت استغشاء الثياب وهو التغطي

بها، وقد كانوا يقولون: إذا اغلقنا أبوابنا واستغشينا ثيابنا وثينا صدورنا على عداوة محمد صلى الله عليه وسلم فمن يعلم بنا.

وقيل معناه يأوون الى فراشهم ويتدثرون بثيابهم، وقيل انه حقيقة، وذلك ان بعض الكفار كان إذا مر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وولى ظهره واستغشى ثيابه لئلا يسمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال البخاري عن ابن عباس: يغطون رؤوسهم، وروى عنه ايضاً قال: يعني به الشك في الله وعمل السيئات، وكذا روي عن مجاهد والحسن وغيرهما، أي إنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه فيظنون إنهم سيخفون من الله بذلك، فأعلمهم سبحانه أنه حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل يعلم سرهم وعلانيتهم.

وعن عبد الله بن شداد قال: كان المنافقون إذا مر أحدهم بالنبي (ﷺ) ثنى صدره وتغشى ثوبه لكيلا يراه فنزلت، وعن الحسن قال: في ظلمة الليل في أجواف بيوتهم، وعن قتادة قال: كانوا يحنون صدورهم لكيلا يسمعوا كتاب الله.

وجملة ﴿يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ مستأنفة لبيان انه لا فائدة لهم في الاستخفاء لأن الله سبحانه يعلم ما يسرونه في أنفسهم أو في ذات بينهم وما يظهرونه فالظاهر والباطن عنده سواء والسر والجهر سياتن ﴿انه عليم بذات الصدور﴾ تعليل لما قبله وتقرير له، وذات الصدور هي الضمائر التي تشتمل عليها الصدور وقيل هي القلوب.

والمعنى انه عليم بجميع الضمائر او عليم بالقلوب واحوالها في الأسرار والاطهار فلا يخفى عليه شيء من ذلك.

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ ﴿٧﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾

ثم أكد كونه عالماً بكل المعلومات بما فيه غاية الامتتان ونهاية الاحسان فقال ﴿وما من دابة﴾ هي كل حيوان يدب على وجه الأرض، وتطلق على كل ذي اربع من الحيوان على سبيل العرف، والمراد منه الاطلاق فيدخل فيه الأدمي وغيره من جميع الحيوان، وفي المصباح دب منه الصغير يدب من باب ضرب إذا مشى ودب الجيش ديباً ايضاً سار، ومن زائدة للتأكيد أي ما من حيوان وغيره.

﴿في الارض إلا على الله رزقها﴾ أي الرزق الذي يحتاج اليه من الغذاء اللائق بالحيوان على اختلاف انواعه تفضلاً منه واحساناً، وانما جيء به على طريق الوجوب كما تشعر به كلمة ﴿على﴾ اعتباراً بسبق الوعد به منه، وقيل أن ﴿على﴾ على بابها وانه عليه من باب الفضل لا الوجوب لانه لا يجب عليه شيء.

والحاصل ان المراد بالوجوب وجوب اختيار لا وجوب الزام، فهو موكول الى مشيئته، إن شاء رزقها وان شاء لم يرزقها. وقيل ان على بمعنى «من» أي من الله رزقها، أي ما يقوم به رمقها وتعيش به، قال مجاهد: ما جاءها من رزق فمن الله، وربما لم يرزقها فتموت جوعاً.

ووجه اتصال هذا الكلام بما قبله ان الله سبحانه لما كان لا يغفل عن كل حيوان باعتبار ما قسمه له من الرزق، فكيف يغفل عن أحواله وأقواله وأفعاله ﴿ويعلم مستقرها﴾ أي محل استقرارها في الأرض أو محل قرارها في

الاصلاب ﴿ومستودعها﴾ موضعها في الأرحام وما يجري مجراها كالبيضة ونحوها، وقال الفراء: مستقرها حيث تأوى إليه ليلاً أو نهاراً، ومستودعها موضعها الذي تموت فيه، وقد مر تمام الاقوال في سورة الأنعام.

ووجه تقديم المستقر على المستودع على قول الفراء ظاهر، واما على القول الاول فلعل وجه ذلك ان المستقر أنسب باعتبار ما هي عليه حال كونها دابة، والمعنى وما من دابة الا يرزقها الله حيث كانت من اماكنها بعد كونها دابة، وقبل كونها دابة، وذلك حين تكون في الرحم ونحوه.

وفي البيضاوي أماكنها في الحياة وفي الممات أو الاصلاب والأرحام أو مساكنها من الأرض حين وجدت بالفعل ومودعها من المواد والمقار حين كانت بعد بالقوة. اهـ

والمراد كالمني والعلقة، والمقار كالصلب والرحم، وعن ابن مسعود قال: مستقرها في الأرحام ومستودعها حيث تموت، ويؤيد هذا التفسير ما أخرجه الحاكم وصححه عن ابن مسعود عن النبي (ﷺ) قال: اذا كان أجل أحدكم بأرض اتاحت له اليها حاجة حتى إذا بلغ أقصى أثره منها فيقبض، فتقول الأرض يوم القيامة: هذا ما استودعتني<sup>(١)</sup>

ثم ختم الآية بقوله ﴿كل في كتاب مبين﴾ أي كل مما تقدم ذكره من الدواب ومستقرها ومستودعها ورزقها في اللوح المحفوظ أي مثبت فيه قبل خلقها.

ثم أكد دلائل قدرته بالتعرض لذكر خلق السموات والأرض وكيف كان الحال قبل خلقها فقال ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض﴾ وما بينهما ﴿في ستة أيام﴾ الكلام على التوزيع، فكان خلق السموات في يومين والأرضين في يومين، وما عليها من أنواع الحيوان والنبات والأقوات والجمادات في يومين،

والمراد بالأيام هنا الأوقات، أي في ستة أوقات، كما في قوله ﴿ومن يولهم يومئذ دبره﴾ وقيل مقدار ستة أيام.

وقيل المراد هنا الأيام المعروفة وهي المقابلة لليالي أولها الأحد وآخرها الجمعة ولا يستقيم ذلك لانه لم تكن حينئذ أرض ولا سماء، وليس اليوم إلا عبارة عن مدة كون الشمس فوق الأرض؛ وفي الجمل وهذا مشكل جداً إذ لا يتعين الأحد ولا غيره من الأيام إلا عند وجودها بالفعل، وفي تلك الحال لم يكن زمان قط فضلاً عن تفضيله أياماً فضلاً عن تخصيص كل يوم باسم.

والجواب عن هذا الاشكال بأن المراد مقدار ستة أيام لا يدفع هذا الاشكال إنما يدفع الاشكال الآخر وهو انه لم يكن ثم زمان اهـ.

﴿وكان عرشه﴾ قبل خلقهما ﴿على الماء﴾ ليس تحته شيء غيره، سواء كان بينهما فرجة او كان موضوعاً على متنه فلا دلالة فيه على إمكان الخلاء، كيف لا ولودل لدل على وجوده لا على إمكانه فقط ولا على كون الماء أول ما حدث في العالم بعد العرش، وإنما يدل على ان خلقها أقدم من خلق السموات والأرض من غير تعرض للنسبة بينهما.

قلت: وكونه قبل خلقها مأخوذ من كان لأن المعنى المستفاد منها بالنسبة للحكم لا للتكلم وهو خلق السموات والأرض، وهذا ظاهر سواء كانت الجملة معطوفة او حالية بتقدير قد. ونقل عن السلف انه كان على الماء وهو الآن على ما كان عليه وعبارة سليمان الجمل: بل هو في مكانه الذي هو فيه الآن وهو ما فوق السموات السبع والماء في المكان الذي هو فيه الآن وهو ما تحت الأرضين السبع. انتهى

عن ابن عباس انه سئل على أي شيء كان الماء؟ قال على متن الريح، وعن أبي رزين العقيلي قال: قلت يارسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء وخلق عرشه على الماء<sup>(١)</sup>

(١) الترمذي تفسير سورة ١١/١.



اخرجه الترمذي. قال أحمد: يريد بالعماء انه ليس معه شيء. قال البيهقي: العماء ان كان ممدوداً فمعناه سحاب رقيق والمعنى فوق سحاب مدبراً له وعالياً عليه، وان كان مقصوراً فمعناه لاشيء ثابت لانه مما عمي عن الخلق لكونه غير شيء، ونحوه قال جمع من أهل العلم.

قال الازهري: فنحن تؤمن به ولا نكيف صفته، وقد وردت احاديث كثيرة في صفة العرش، وفي كيفية خلق السموات والأرض ليس هذا موضع ذكرها. ﴿لِيلُوكُمْ﴾ أي خلق هذه المخلوقات ليبتلي عباده بالاعتبار والتفكير والاستدلال على كمال قدرته على البعث والجزاء ﴿أَيْكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ فيما أمر به ونهى عنه من غيره، ويدخل في العمل الاعتقاد لانه من أعمال القلب، وقيل المراد بالأحسن عملاً الأتم عقلاً، وقيل الأزهد في الدنيا وقيل الأكثر شكراً، وقيل الأتقى لله، وجاز تعليق فعل البلوى لما في الاختبار من معنى العلم لانه طريق اليه فهو ملابس له.

﴿وَلْتَن قَلت﴾ اللام موطئة للقسم فقد اجتمع في الكلام شرط وقسم، والقاعدة ان يحذف جواب المتأخر ويذكر جواب المتقدم، فقوله ليقولن جواب القسم وجواب الشرط محذوف، وكذا في قوله ﴿وَلْتَن أُخْرِنَا﴾ وقوله ﴿وَلْتَن أَذْقَنَا الْإِنْسَانَ﴾ وقوله ﴿وَلْتَن أَذْقَنَاهُ﴾ فالمواضع اربعة.

ولما كان الابتلاء يتضمن حديث البعث أتبع ذلك بذكره، والمعنى لست قلت لهم يا محمد على ما توجهه قضية الابتلاء ﴿إِنْكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، قيل أنكم بمعنى لعلكم على أن الرجاء باعتبار حال المخاطبين، أي توقعوا ذلك ولا تبشوا القول بإنكاره ﴿لِيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من الناس ﴿أَنْ هَذَا﴾ الذي تقوله يا محمد ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي كالسحر أو باطل كبطلان السحر وخدع كخدعه فالكلام من باب التشبيه البليغ.

ويجوز ان تكون الاشارة بهذا الى القرآن لانه المشتمل على الاخبار بالبعث وقرىء ساحر يعني النبي صلى الله عليه وسلم.

وَلَيْنَ أَخْرَنَّا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ الْيَوْمَ يَا أَيُّهَا  
 لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَيْنَ أَدْقَنَّا  
 الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحِمْنَا ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ كَفُورًا ﴿٩﴾

﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب﴾ أي الذي يستعجلونه استهزاء، وهو ما تقدم ذكره في قوله ﴿عذاب يوم كبير﴾ وقيل عذاب يوم القيامة وما بعده، وقيل عذاب يوم بدر ﴿إلى أمة معدودة﴾ أي إلى طائفة من الأيام قليلة لأن ما يحصره العدد قليل والأمة اشتقاقها من الأم وهو القصد وأراد بها الوقت المقصود لايقاع العذاب، وقيل هي في الأصل الجماعة من الناس، وقد يسمى الحين باسم ما يحصل فيه، كقولك كنت عند فلان صلاة العصر، أي في ذلك الحين، فالمراد على هذا إلى حين تنقضي أمة معدودة من الناس ﴿ليقولن ما يحبس﴾ أي أي شيء يمنع من النزول استعجالاً له على جهة الاستهزاء والتكذيب والسخرية.

فأجابهم الله بقوله ﴿ألا﴾ أداة استفتاح داخلية على ليس في المعنى ﴿يوم يأتيهم﴾ أي العذاب ﴿ليس مصروفاً﴾ أي محبوساً ﴿عنهم﴾ بل واقع بهم لا محالة، ويوم منصوب بخبر ﴿ليس﴾ مقدماً عليه وهو دليل البصريين على جواز تقديم خبرها عليها إذ المعمول تابع للعامل فلا يقع إلا حيث يقع متبوعه والا يلزم تقديم الفرع على أصله.

ورد بأن الظرف يجوز فيه ما لا يجوز في غيره توسعاً، وبنى الأمر فيه على التسامح فيه، وبأنه قد يقدم المعمول حيث لا مجال لتقدم العامل كما في قوله تعالى ﴿فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر﴾ فإن اليتيم والسائل مع كونها منصوبين بالفعلين المجزومين قد تقدما على لا الناهية مع امتناع تقدم الفعلين عليها.

قال أبو حيان: وقد تبعت جملة من دواوين العرب فلم أظفر بتقديم خبر ﴿ليس﴾ عليها ولا بتقديم معموله إلا ما دل عليه ظاهر هذه الآية، وقول الشاعر:

فيأبى فما يزداد إلا لجاجة      وكننت أيباً في الخنا لست أقدم  
قلت وهذا الخلاف بينهم في تقديم الخبر على ﴿ليس﴾ لا على اسمها فإنه جائز بلا خلاف والكلام فيه وفي أدلته مفصل في كتب النحو.

﴿وحاق﴾ أي أحاط ﴿بهم ما كانوا به يستهزون﴾ أي العذاب الذي كانوا يستعجلونه استهزاء منهم، ووضع هذا مكان يستعجلون لأن استعجالهم كان استهزاء منهم، وعبر بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه فكأنه قد حاق بهم ﴿ولئن أذقنا الانسان﴾ أي الجنس فيشمل المؤمن والكافر، ويدل على ذلك الاستثناء الآتي، قيل المراد به جنس الكفار، ويؤيده أن اليأس والكفران والفرح والفخر هي أوصاف أهل الكفر لا أهل الإسلام في الغالب، وقيل المراد بالانسان الوليد بن المغيرة، وقيل عبد الله بن أمية المخزومي ﴿منا رحمة﴾ أي نعمة من توفير الرزق والصحة والسلامة من المحن وسعة العيش والرخاء.

﴿ثم نزعناها منه﴾ أي سلبناه إياها واخذناها قهراً عليه، وإيراد النزع للإشعار بشدة تعلقه بها وحرصه عليها ﴿انه ليؤوس﴾ أي آيس من الرحمة شديد القنوط من عودها وامثالها لقلّة صبره وعدم ثقته بالله ﴿كفور﴾ عظيم الكفران وهو الجحود لها. قاله ابن الاعرابي

وفي إيراد صيغتي المبالغة ما يدل على ان الانسان كثير اليأس وكثير الجحود عند ان يسلبه الله بعض نعمه فلا يرجو عودها ولا يشكر ما قد سلف له منها. وفي التعبير بالذوق ما يدل على انه يكون منه ذلك عند سلب أدنى نعمة ينعم الله بها عليه لأن الإذابة والذوق أقل ما يوجد به الطعم.

وَلَمَّا أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضُرَّاءٍ مَسَّتَهُ لَيْقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

﴿ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته﴾ والنعماء انعام يظهر اثره على صاحبه؛ والضراء ظهور أثر الاضرار على من أصيب به، والمعنى انه ان أذاق الله سبحانه العبد نعماءه من الصحة والسلامة والغنى بعد أن كان في ضر من فقر او مرض أو خوف، لم يقابل ذلك بما يليق به من الشكر لله سبحانه، وفي اختلاف الفعلين نكتة لا تخفى.

﴿ليقولن﴾ اي بل يقول ﴿ذهب السيئات عني﴾ أي المصائب التي ساءته من الضر والفقر والخوف والمرض عنه وزال أثرها غير شاكر لله ولا مثن عليه بنعمه ﴿انه لفرح فخور﴾ أي كثير الفرح بطراً أو أشراً كثير الفخر على الناس بتعدد المناقب والتطاول عليهم بما يفضل الله به عليه من النعم، والفرح لذة تحصل في القلب بنيل المراد والمشتهى.

وفي التعبير عن ملازمة الضر له بالمرس مناسبة للتعبير في جانب النعماء بالإذافة فإن كليهما لأذن ما يطلق عليه اسم الملاقاة كما تقدم.

﴿إلا الذين صبروا﴾ فإن عادتهم الصبر عند نزول المحن، والشكر عند حصول المن، قال الاخفش: هو استثناء منقطع، يعني ولكن الذين صبروا فإنهم ليسوا كذلك، وقيل متصل اذ المراد بالانسان الجنس لا واحد بعينه قاله الفراء ﴿وعملوا الصالحات﴾ في حالة النعمة والنعمة.

﴿اولئك﴾ إشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بالصبر وعمل الصالحات ﴿لهم مغفرة﴾ لذنوبهم وان جمت ﴿وأجر﴾ يؤجرون به على اعمالهم الحسنة ﴿كبير﴾ متناه في الكبر، وهو الجنة، ووصف الأجر به لما احتوى عليه من النعيم السرمدي ودفع التكليف والأمن من عذاب الله والنظر الى وجهه الكريم، واختياره على العظيم لعله لرعاية الفواصل.

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ ۖ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾  
 أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَاتُوا بَعْشَرَ سُورٍ مِّثْلِهِ ۗ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ ۚ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾

ثم صلى الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم فقال ﴿فلعلك﴾ لعظم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب واقتراح الآيات التي يقترحونها عليك على حسب هواهم وتعنتهم ﴿تارك بعض ما يوحى اليك﴾ مما أنزله الله عليك وأمرك بتبليغه مما يشق عليهم سماعه أو يستشقون العمل به كسب آهتهم، وأمرهم بالآيمان بالله وحده. وقيل هذا الكلام خارج مخرج الاستفهام أي هل أنت تارك، وقيل هو في معنى النفي مع الاستبعاد أي لا يكون منك ذلك بل تبلفهم جميع ما أنزل الله عليك أحبوا ذلك أم كرهوا، شاءوا أم أبوا.

﴿وضائق به صدرك﴾ الضمير راجع الى «ما» او الى بعض وعبر بضائق دون ضيق لأن اسم الفاعل فيه معنى الحدوث والعروض والصفة المشبهة فيها معنى اللزوم ﴿أن يقولوا﴾ أي كراهة أو مخافة، أو لأجل أن أو بأن لا. وقال أبو البقاء: لأن يقولوا ﴿لولا﴾ أي هلا ﴿أنزل عليه كتر﴾ أي مال مكنوز مخزون ينتفع به ويستغني به ﴿أو جاء معه ملك﴾ يصدقه ويبين لنا صحة رسالته.

ثم بين سبحانه أن حاله صلى الله عليه وسلم مقصور على النذارة فقال ﴿إنما أنت نذير﴾ أي ليس عليك إلا الانذار بما أوحى اليك، وليس عليك حصول مطلوبهم وإيجاد مقترحاتهم ﴿والله على كل شيء وكيل﴾ يحفظ ما يقولون وهو فاعل بهم ما يجب ان يفعل.

﴿أم يقولون افتراه﴾ أم هي المنقطعة بمعنى بل والهمزة، أضرب عما تقدم من تهاونهم بالوحي وعدم قنوعهم بما جاء به من المعجزات الظاهرة، وشرع في ذكر ارتكابهم لما هو أشد من ذلك وهو افتراؤهم عليه بأنه افتراء، والاستفهام للتقريع والتوبيخ والضمير المستتر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والبارز لما يوحى .

ثم أمره الله سبحانه ان يجيب عليهم بما يقطعهم ويبيِّن كذبهم ويظهر به عجزهم فقال ﴿قل فاتوا بعشر سور مثله﴾ أي مماثلة له في البلاغة وحسن النظم، وجزالة اللفظ، وفخامة المعنى، ووصف السور بما يوصف به المفرد فقال مثله ولم يقل أمثاله لأن المراد مماثلة كل واحدة من السور أو لقصد الايماء الى أن وجه الشبه ومداره المماثلة في شيء واحد وهو البلاغة البالغة الى حد الاعجاز.

وهذا إنما هو على القول بأن المطابقة في الجمع والتثنية والافراد شرط، وقيل لفظة مثل وان كانت بلفظ الافراد فانها يوصف بها المثني والمجموع والمؤنث كقوله تعالى ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا﴾ وتجاوز المطابقة قال تعالى ﴿وحوور عين كامثال اللؤلؤ﴾ وقال تعالى: ﴿ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ والهاء في مثله تعود لما يوحى . ثم وصف السور بصفة أخرى فقال ﴿مفتريات﴾ جمع مفتراة كمصطفيات في مصطفاة فانقلبت الألف ياء كالتثنية، قاله السمين أي مختلفات حيث قالوا له افتريت هذا القرآن من عند نفسك وليس من عند الله، فتحداهم وارخى لهم العنان وفاوضهم على مثل دعواهم وقال مفتريات في مقابلة قولهم افتراه .

ولما تحداهم بهذا الكلام أمره بأن يقول لهم ﴿وادعوا﴾ للاستظهار على المعارضة بالعشر السور ﴿من استطعتم﴾ دعاءه وقدرتم على الاستعانة به من هذا النوع الانساني و ﴿من دون الله﴾ أي ممن تعبدونه وتجعلونه شريكاً لله سبحانه أي ادعوا من استطعتم متجاوزين الله سبحانه ﴿ان كنتم صادقين﴾ فيما تزعمون من افترائي له .

فَإِنَّهُ يَسْتَجِيبُ لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾

﴿فالهم﴾ تكتب بغير نون كما في خط المصحف وهذا في خصوص هذا الموضوع ﴿يستجيبوا لكم﴾ أي فإن لم يفعلوا ما طلبته منهم وتحديتهم به من الايتان بعشر سور مثله، ولا استجابوا الى المعارضة المطلوبة منهم، ويكون الضمير في لكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين او للنبي (ﷺ) وحده وجمع تعظيماً وتفخياً.

﴿فاعلموا﴾ أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين او للرسول وحده على التأويل الذي سلف قريباً ومعنى أمرهم بالعلم أمرهم بالثبات عليه لانهم عالمون بذلك من قبل عجز الكفار عن الايتان بعشر سور مثله او المراد بالأمر بالعلم الأمر بالازدياد منه الى حد لا يشوبه شك، ولا تخالطه شبهة، وهو علم اليقين، والاول أولى.

﴿أما أنزل﴾ متلبساً ﴿بعلم الله﴾ المختص به الذي لا تطلع على كنهه العقول ولا تستوضح معناه الافهام لما اشتمل عليه من الاعجاز الخارج عن طوق البشر، وليس مفترى على الله، وانما أداة حصر ويجوز في ما أن تكون موصولة اسمية او حرفية تقديره فاعلموا ان تنزيله أو أن الذي أنزله متلبس بعلم الله ﴿وأن لا إله إلا هو﴾ أي واعلموا أن الله هو المتفرد بالالوهية لا شريك له ولا يقدر غيره على ما يقدر عليه، ثم ختم الآية بقوله ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ اي ثابتون على الاسلام راسخون فيه مخلصون له إذا تحقق عندكم اعجازه.

عن مجاهد قال: الخطاب لأصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم أي هل أنتم مزدادون من الطاعات لانه قد حصل لكم بعجز الكفار عن الايمان بمثل عشر سور من هذا الكتاب طمأنينة فوق ما كنتم وبصيرة زائدة وان كنتم مسلمين من قبل هذا فان الثبوت عليه وزيادة البصيرة فيه والطمأنينة به مطلوب منكم.

وقيل المعنى فان لم يستجب لكم من دعوتهم للمعاوضة والمناصرة على الإتيان بعشر سور من سائر الكفار ومن تعبدونهم وتزعمون أنهم يضررون وينفعون فاعلموا أن هذا القرآن الذي أنزله الله على هذا الرسول خارج عن قدرة غيره سبحانه وتعالى لما اشتمل عليه من الاعجاز الذي يتقاصر دونه قوة المخلوقين وانه أنزل الله الذي لا تحيط به العقول ولا تبلغه الأفهام.

واعلموا انه المتفرد بالألوهية لا شريك له فهل أنتم بعد هذا مسلمون أي داخلون في الإسلام متبعون لأحكامه مقتدون بشرائعه بعد قيام الحجة القاطعة.

وفي مثل هذا الاستفهام ايجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر، وهذا الوجه أقوى من الوجه الأول من جهة، وأضعف منه من جهة.

فأما جهة قوته فلا تساق الضمائر وتناسبها وعدم احتياج بعضها الى تأويل، وأما ضعفه في ترتيب الأمر بالعلم على عدم الاستجابة ممن دعوتهم واستعانوا بهم من الخفاء واحتياجه الى تكلف، وهو أن يقال إن عدم استجابة من دعوتهم واستعانوا بهم من الكفار والآلهة مع حرصهم، على نصرهم ومعاضدتهم ومبالغتهم في عدم ايمانهم واستمرارهم على الكفر، يفيد حصول العلم لهؤلاء



الكفار بأن هذا القرآن من عند الله وان الله سبحانه هو الإله وحده لا شريك له وذلك يوجب دخولهم في الإسلام.

وأعلم انه قد اختلف التحدث للكفار بمعارضة القرآن فتارة وقع بمجموع القرآن كقوله: ﴿لكن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله﴾ وبعشر سور كما في هذه الآية وذلك لأن العشرة أول عقد من العقود، وبسورة منه كما تقدم في البقرة ويونس، وذلك لأن السورة أقل طائفة منه.

ثم ان الله سبحانه توعد من كان مقصور الهمة على الدنيا لا يطلب غيرها ولا يريد سواها فقال: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾ واختلف أهل التفسير في هذه الآية فقال الضحاك: نزلت في الكفار وأهل الشرك واختاره النحاس بدليل الآية التي بعدها ﴿وأولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار﴾ وقال أنس: نزلت في اليهود والنصارى، وعن الحسن مثله، وقيل نزلت في المنافقين، وقيل الآية واردة في الناس على العموم كافرهم ومسلمهم والحمل على العموم أولى.

والمعنى ان من كان يريد بعمله حظ الدنيا يكافأ بذلك وليس المراد مجرد الارادة والمراد بزيتها ما يزينها ويحسنها من الصحة والأمن والسعة في الرزق وارتفاع الحظ ونفاذ القول وكثرة الاولاد والرياسة ونحو ذلك، وادخال كان في الآية يفيد انهم مستمررون على ارادة الدنيا بأعمالهم لا يكادون يريدون الآخرة ولهذا قيل انهم مع اعطائهم حظوظ الدنيا يعذبون في الآخرة لأنهم جردوا قصدهم الى الدنيا ولم يعملوا للآخرة.

وظاهر قوله: ﴿نوف اليهم أعمالهم فيها﴾ ان من أراد بعمله الدنيا حصل له الجزاء الدنيوي لا محالة، ولكن الواقع في الخارج يخالف ذلك فليس كل متمن ينال من الدنيا أمنيته وان عمل لها وأرادها فلا بد من تقييد ذلك

بمشيئة الله سبحانه، عن ابن عباس قال: يعني من عمل صالحاً التماس الدنيا صوماً أو صلاة أو تهجداً بالليل لا يعملها إلا لذلك.

قال القرطبي: ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة وكذلك الآية التي في الشورى ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه - ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها﴾ ﴿ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها كذلك، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها﴾ وقيدتها وفسرتها التي في سبحان ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد﴾.

﴿وهم فيها لا يبخسون﴾ أي وهؤلاء المريدون بأعمالهم الدنيا هم في الدنيا لا ينقصون من جزائهم فيها بحسب أعمالهم لها وذلك في الغالب، وليس بمطرد بل إن قضت به مشيئته سبحانه ورجحته حكمته البالغة.

وقال القاضي: معنى الآية من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم وأفية كاملة من غير بخص في الدنيا وهو ما ينالون من الصحة والكفاف وسائر اللذات والطيبات والمنافع، فخص الجزاء بمثل ما ذكره وهو حاصل لكل عامل للدنيا ولو كان قليلاً يسيراً. أهـ.

وإنما عبر عن عدم نقص أعمالهم بنفي البخص الذي هو نقص الحق مع أنه ليس لهم شائبة حق فيها أوتوه كما عبر عن إعطائه بالتوفية التي هي إعطاء الحقوق مع أن أعمالهم بمعزل عن كونها مستوجبة لذلك، بناء للأمر على ظاهر الحال ومحافظة على صور الأعمال ومبالغة في نفي النقص، كأن ذلك نقص لحقوقهم فلا يدخل تحت الوقوع والصدور عن الكريم أصلاً.

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَدَّلَ مَا  
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار﴾ الإشارة الى المريدین المذكورين ولا بد من تقييد هذا بأنهم لم يريدوا الآخرة بشيء من الأعمال المعتد بها الموجبة للجزاء الحسن في الدار الآخرة او تكون الآية خاصة بالكفار كما تقدم.

﴿وحيط ما صنعوا فيها﴾ أي ظهر في الدار الآخرة حبوط ما صنعوه من الاعمال التي كانت صورتها صورة الطاعات الموجبة للجزاء الاخروي لولا انهم أفسدوها بفساد مقاصدهم وعدم الخلوص واردة ما عند الله في دار الجزاء، بل قصروا ذلك على الدنيا وزينتها.

ثم حكم سبحانه ببطلان عملهم فقال: ﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾ أي انه كان عملهم في نفسه باطلاً غير معتد به، لأنه لم يعمل لوجه صحيح يوجب الجزاء ويترتب عليه ما يترتب على العمل الصحيح.

عن مجاهد قال: هم أهل الرياء، وهذا مشكل لأن قوله أولئك الذين، الآية لا يليق بحال المؤمن إلا إذا قلنا إن تلك الأعمال الفاسدة والأفعال الباطلة لما كانت لغير الله استحقق فاعلها الوعيد الشديد وهو عذاب النار. ويدل له ما روي عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من تعلم علماً لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار» أخرجه الترمذي.

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه<sup>(٢)</sup> أخرجه مسلم. وفي الباب أحاديث بمعناه والرياء هو الشرك الأصغر كما ورد في الحديث، وهذا هو أحد الأقوال.

والذي تقتضيه جزالة النظم الكريم أن المراد به مطلق الكفرة بحيث يندرج فيهم القادحون في القرآن العظيم اندراجاً أولياً، فإنه عز وعلا لما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأن يزدادوا علماً ويقيناً بأن القرآن منزل بعلم الله وبأن لا قدرة لغيره على شيء أصلاً، وهيجهم على الثبات على الإسلام والرسوخ فيه عند ظهور عجز الكفرة وما يدعون من دون الله عن المعارضة، وتبين أنهم ليسوا على شيء أصلاً، اقتضى الحال أن يتعرض لبعض شؤونهم الموهمة لكونهم على شيء في الجملة من نيلهم الحظوظ العاجلة واستيلائهم على المطالب الدنيوية، وبيان أن ذلك بمعزل عن الدلالة عليه، بلقد بين ذلك أي بيان.

أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا  
وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ، مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ، فَلَا تَكُ  
فِي مَرِيضٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

ثم بين سبحانه ان بين من كان طالباً للدنيا فقط ومن كان طالباً للآخرة  
تفاوتاً وتبايناً بعيداً فقال: ﴿أفمن كان على بيّنة﴾ برهان يدل على الحق ﴿من  
ربه﴾ في اتباع النبي صلى الله عليه وسلم والايمان بالله كغيره، ممن يريد الحياة  
الدنيا وزينتها، وقيل المراد به النبي صلى الله عليه وسلم، أي أفمن كان معه  
بيان من الله ومعجزة كالقرآن ومعه شاهد كجبريل، وقد بشرت به الكتب  
السابقة كمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها.

والضمير في ﴿ويتلوه شاهد﴾ راجع الى البيّنة باعتبار تأويلها بالبرهان أي  
يؤيده ويشدده ويقويه، والضمير في ﴿منه﴾ راجع الى القرآن لأنه تقدم ذكره في  
قوله أم يقولون افتراه أو راجع الى الله تعالى. والمعنى ويتلو البرهان الذي هو  
البيّنة شاهد يشهد بصحته من القرآن أو من الله سبحانه، والشاهد هو  
الاعجاز الكائن في القرآن او المعجزات التي ظهرت لرسول الله (ﷺ) فإن  
ذلك من الشواهد التابعة للقرآن.

وقال الفراء: قال بعضهم: ويتلوه شاهد منه الانجيل وان كان قبله فهو  
يتلو القرآن في التصديق، والهاء في منه لله عز وجل. وقيل المراد بمن كان  
على بيّنة من ربه هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام واضرا به.

وعن علي بن أبي طالب قال: ما من رجل من قريش إلا نزل فيه طائفة  
من القرآن، فقال له رجل: ما نزل فيك؟ قال: أما تقرأ سورة هود ﴿أفمن  
كان على بيّنة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾ فرسول الله صلى الله عليه وسلم بيّنة

من ربه وأنا شاهد منه، اخرجته أبو نعيم وابن أبي حاتم.

وعنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ويتلوه شاهد منه، علي<sup>(١)</sup> أخرجه ابن عساكر. وعنه وددت أني أنا هو ولكنه لسان محمد. وعن ابن عباس أن الشاهد جبريل، ووافقه سعيد بن جبير وعلقمة وإبراهيم ومجاهد والضحاك وأكثر المفسرين. وقال الحسن وقتادة: هو لسان النبي صلى الله عليه وسلم.

ووجه ذلك أن اللسان لما كان يعرب عما في الجنان، ويظهره جعل كالشاهد له لأنه آية الفصل والبيان وبه يتلى القرآن. وقال مجاهد: الشاهد هو ملك يحفظ النبي (ﷺ) ويسدده والأول أولى.

﴿ومن قبله﴾ أي القرآن ﴿كتاب موسى﴾ عطف على شاهد والتقدير ويتلوه الشاهد وشاهد آخر وهو كتاب موسى، فهو إن كان متقدماً في النزول فهو يتلو الشاهد في الشهادة، وإنما قدم الشاهد على كتاب موسى مع كونه متأخراً في الوجود لكونه وصفاً لازماً غير مفارق فكان أعرق في الوصفية من كتاب موسى.

ومعنى شهادة كتاب موسى وهو التوراة انه بشر بمحمد صلى الله عليه وسلم وأخبر بأنه رسول من الله.

قال الزجاج: والمعنى ويتلوه من قبله كتاب موسى لأن النبي صلى الله عليه وسلم موصوف في كتاب موسى يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل، وقرئ كتاب موسى بالنصب أي يتلو كتاب موسى جبريل.

﴿إماماً ورحمة﴾ الإمام هو الذي يؤتم به في أمور الدين ويقتدى به في الأحكام والشرائع، والرحمة النعمة العظيمة التي أنعم الله بها على من أنزله

(١) فيه راحة النسيج.

عليهم وعلى من بعدهم الى يوم القيامة باعتبار ما اشتمل عليه من الأحكام الشرعية الموافقة لحكم القرآن.

﴿أولئك﴾ أي المتصفون بتلك الصفة الفاضلة وهو الكون على البينة من الله ﴿يؤمنون به﴾ أي يصدقون بالنبي صلى الله عليه وسلم أو بالقرآن ﴿ومن يكفر به﴾ أي بالنبي أو بالقرآن ﴿من الأحزاب﴾ وهم المتحزبون على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل مكة وغيرهم أو المتحزبون من أهل الأديان كلها قال قتادة: الكفار أحزاب كلهم على الكفر.

﴿فالنار موعده﴾ أي هو من أهل النار لا محالة وفي جعل النار موعداً إشعار بأن فيها ما لا يحيط بها الوصف من أفانين العذاب.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة لا يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار<sup>(١)</sup> أخرجه البغوي بسنده، قال سعيد بن جبير: ما بلغني حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على وجهه إلا وجدت مصداقه في كتاب الله حتى بلغني هذا الحديث، فقلت أين هذا في كتاب الله حتى أتيت على هذه الآية.

﴿فلا تك في مرية منه﴾ أي في شك من كون القرآن نازلاً من عند الله وفيه تعريض بغيره صلى الله عليه وسلم لأنه معصوم عن الشك في القرآن أو في شك من الموعود. والمرية بالكسر والضم والأولى لغة الحجاز، وبها قرأ جماهير الناس، والثانية لغة أمد وتميم وبها قرأ السلمي وغيره ﴿انه الحق من ربك﴾ فلا مدخل للشك منه بحال من الأحوال ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ بذلك مع وجوب الايمان به وظهور الدلائل الموجبة له، ولكنهم يعاندون مع علمهم بكونه حقاً أو قد طبع على قلوبهم فلا يفهمون أنه الحق أصلاً.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ  
 الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾  
 الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ أي لا أحد أظلم منهم لانفسهم لانهم افتروا عليه سبحانه كذباً بقولهم لأصنامهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله . وقولهم الملائكة بنات الله، وأضافوا كلامه سبحانه الى غيره، واللفظ وان كان لا يقتضي إلا نفي وجود من هو أظلم منهم كما يفيد الاستفهام الانكاري فالمقام يفيد نفي المساوي لهم في الظلم، فالمعنى على هذا لا أحد مثلهم في الظلم فضلاً عن أن يوجد من هو أظلم منهم، وذكر لهم هنا من أوصافهم أربعة عشر وصفاً، أولها افتراء الكذب وآخرها كونهم في الآخرة أخسر من غيرهم

﴿أولئك﴾ أي الموصوفون بالظلم المتبالغ ﴿يعرضون على ربهم﴾ يوم القيامة فيحاسبهم على أعمالهم أو المراد بعرضهم عرض أعمالهم عرضاً تظهر به فضيحتهم ﴿ويقول الأشهاد﴾ جمع شهيد، ورجحه أبو علي بكثرة ورود شهيد في القرآن كقوله ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً، فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ .

وقيل هو جمع شاهد كأصحاب وصاحب . قال مجاهد: هم الملائكة الحفظة وقيل المرسلون . قاله ابن عباس، وقيل الملائكة والمرسلون والعلماء الذين بلغوا ما أمرهم الله بإبلاغه، وقيل جميع الخلائق، قاله قتادة . والمعنى انه يقول هؤلاء الأشهاد عند العرض

﴿هؤلاء﴾ المعرضون أو المعروضة أعمالهم ﴿الذين كذبوا على ربهم﴾ في



الدنيا بما نسبوه اليه ولم يصرحوا بما كذبوا به، كأنه كان أمراً معلوماً عند أهل ذلك الموقف ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالافتراء، هذا من تمام كلام الاشهاد، أي يقولون ألا لعنة الله الخ، ويجوز أن يكون من كلام الله سبحانه. قاله بعدما قال الاشهاد.

وفي الصحيحين وغيرهما عن ابن عمر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله يذني المؤمن حتى يضع كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول رب أعرف، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه انه قد هلك قال فإني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم. ثم يعطى كتاب حسناته وأما الكافر والمنافق فيقول الاشهاد الى قوله الظالمين<sup>(١)</sup>.

والفائدة في قول الاشهاد بهذه المقالة المبالغة في فضيحة الكفار والتفريع لهم على رؤوس الاشهاد.

ثم وصف هؤلاء الظالمين الذين لعنوا بأنهم ﴿الذين يصدون عن سبيل الله﴾ أي يمنعون من قدروا على منعه عن دين الله والدخول فيه، وقال السدي عن محمد صدت قريش عنه الناس.

﴿ويبغونها عوجاً﴾ أي يصفونها بالاعوجاج تنفيراً للناس عنها أو يبغون أهلها أن يكونوا معوجين بالخروج عنها إلى الكفر، يقال بغيتك شراً أي طلبته لك. وقال أبو مالك: يعني يرجون بمكة غير الاسلام ديناً.

﴿وهم﴾ أي والحال أنهم هم بالآخرة ﴿كافرون﴾ أي غير مصدقين فكيف يصدون الناس عن طريق الحق وهم على الباطل البحت، وتكرير الضمير لتأكيد كفرهم واختصاصهم به، حتى كأن كفر غيرهم غير معتد به بالنسبة الى عظيم كفرهم.

(١) البخاري كتاب التوحيد باب ٣٦ بلفظ: «يدنو احدكم من ربه حتى...»

أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَعِّفُ لَهُمُ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾

﴿أولئك﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿لم يكونوا معجزين في الأرض﴾ أي ما كانوا يعجزون الله في الدنيا إن أراد عقوبتهم، وقيل معناه سابقين، وقيل فائتين، وقيل مفلتين أنفسهم من أخذه لو أرادوا ذلك في الأرض مع سعتها وإن هربوا فيها كل مهرب

﴿وما كان لهم من دون الله من أولياء﴾ يدفعون عنهم ما يريد الله سبحانه من عقوبتهم وانزال بأسه بهم؛ ومن زائدة

﴿يضاعف﴾ وقرئ يضاعف بالتشديد ﴿لهم العذاب﴾ في الآخرة مستأنفة لبيان أن تأخير العذاب والتراخي عن تعجيله لهم ليكون عذاباً مضاعفاً بسبب صدهم عن سبيل الله وإنكارهم البعث، بعد الموت

وقال السيوطي: بإضلالهم غيرهم قال الصاوي: حاصله<sup>(١)</sup> ان المضاعفة مخصوصة بالحسنات، وأما السيئات فلا تضاعف قال تعالى ﴿ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها﴾ فمعنى المضاعفة الشدة لأنهم يعذبون عذابين عذاباً على ضلالهم في أنفسهم وعذاباً على اضلالهم غيرهم.

﴿ما كانوا يستطيعون السمع﴾ أي أفرطوا في إعراضهم عن الحق وبغضهم له حتى كأنهم لا يقدرّون على السمع للحق وهذا تعليل لمضاعفة

(١) قوله حاصله أي حاصل قول السيوطي | هـ منه.

العذاب ﴿وما كانوا يبصرون﴾ أي ولا يقدرّون على الابصار لفرط تعاميمهم عن الصواب.

ويجوز أن يراد بقوله ﴿وما كان لهم من دون الله من أولياء﴾ أنهم جعلوا ألهتهم أولياء من دون الله ولا ينفعهم ذلك، فما كان هؤلاء الأولياء يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون فكيف ينفعونهم فيجلبون لهم نفعاً ويدفعون عنهم ضرراً.

وقوله : ﴿يضاعف لهم العذاب﴾ اعتراض وسط بينها نعيماً عليهم من أول الأمر سوء العاقبة ويجوز أن يكون ما هي المدة، والمعنى انه يضاعف لهم العذاب مدة استطاعتهم السمع والبصر، وقال الفراء: لا يستطيعون السمع لأن الله أضلهم في اللوح المحفوظ.

وقال الزجاج : لبغضهم النبي صلى الله عليه وسلم وعداوتهم له لا يستطيعون ان يسمعوا منه ولا يفهموا عنه .

قال النحاس: هذا معروف في كلام العرب يقال فلان لا يستطيع أن ينظر إلى فلان، إذا كان ثقيلاً عليه.

﴿أولئك﴾ المتصفون بتلك الصفات ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ بعبادة غير الله، والمعنى اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله فكان خسراهم في تجارتهم أعظم خسرا ﴿وضل﴾ أي ذهب وضاع ﴿عنهم ما كانوا يفترون﴾ من الآلهة التي يدعون انها تشفع لهم ولم يبق بأيديهم إلا الخسران.

لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾  
 ﴿٢٤﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا  
 أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾

﴿لا جرم انهم في الآخرة هم الاخسرون﴾ قال الخليل وسيبويه: لا جرم بمعنى حق فهي عندهما بمنزلة كلمة واحدة وبه قال الفراء، وروي عن الخليل والفراء أنها بمنزلة قولك لا بد ولا محالة، ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقاً.

وقال الزجاج: ان جرم بمعنى كسب وفاعله مضر أي كسب ذلك الفعل لهم الخسران، وان منصوبة بجرم.

قال الأزهري: وهذا من أحسن ما نقل في هذه اللغة، وقال الكسائي: معنى لا جرم لا صد ولا منع، وقال جماعة من النحويين: ان معنى لا جرم لا قطع قاطع قالوا والجرم القطع وقد جرم النخل واجترمه أي قطعه.

ووردت هذه اللفظة في القرآن في خمسة مواضع مثلوة بأن واسمها ولم يبيء بعدها فعل ويقال في كل واحد منها ما قيل هنا، وفيه لغات بكسر الجيم وبضمها ولا جر بحذف الميم، ولا ان ذا جرم ولا ذو جرم وغير ذلك:

وفي هذه الآية بيان انهم قد بلغوا في الخسران الى حد يتقاصر عنه غيرهم ولا يبلغ اليه، وهذه الآيات مقررة لما سبق من نفي المماثلة بين من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها وبين من كان على بينة من ربه.

﴿ان الذين آمنوا﴾ أي صدقوا بكل ما يجب عليهم التصديق به من

كون القرآن من عند الله وغير ذلك من خصال الايمان ﴿وعملوا الصالحات﴾ أراد بها جميع أعمال الجوارح ﴿وأخبتوا إلى ربهم﴾ أي أنابوا إليه وسكنوا، وقيل خشعوا وقيل خضعوا وقيل خافوا، قاله ابن عباس وقيل اطمأنوا قاله مجاهد، وهذا إشارة إلى أعمال القلوب، وقيل وأصل الاخبات الاستواء في الخبت وهو الأرض المستوية الواسعة فيناسب معنى الخشوع والاطمئنان.

قال الفراء: إلى ربهم ولربهم واحد، وقيل لفظ الاخبات يتعدى باللام وإلى فإذا قلت أخبت فلان إلى كذا فمعناه اطمأن إليه، وإذا قلت له فمعناه خشع وخضع ﴿أولئك﴾ الموصوفون بتلك الصفات الصالحة ﴿أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ لا انقطاع لنعيمها ولا زوال لأهلها.

﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع﴾ ضرب للفريقين مثلاً وهو تشبيه فريق الكافرين بالأعمى والأصم وتشبيه فريق المؤمنين بالبصير والسميع على أن كل فريق شبه بشيئين أو شبه بمن جمع بين الشيئين، فالكافر شبه بمن جمع بين العمى والصمم، والمؤمن شبه بمن جمع بين السمع والبصر، وعلى هذا يكون الواو في والأصم وفي والسميع لعطف الصفة على الصفة.

﴿هل يستويان مثلاً﴾ أي حالاً وصفة ﴿أفلا تذكرون﴾ في عدم استوائهما وفيما بينهما من التفاوت الظاهر لا يخفى على من له تذكرو وعنده تفكر وتأمل. والهمزة لإنكار عدم التذكر واستبعاد صدوره عن المخاطبين.

ولما أورد سبحانه على الكفار المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم أنواع الدلائل التي هي أوضح من الشمس أكد ذلك بذكر القصص على طريقة الافتتان في الكلام، ونقله من أسلوب إلى أسلوب لتكون الموعظة أظهر والحجة أبين والقبول أتم فقال.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٦٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَوْمِ ﴿٦٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرِيكَ إِلَّا الَّذِي اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَفُرُوا إِلَّا أَنَّكَ لَا تُؤْتِيهِمْ كَيْدًا وَلَا تَكُنْ لَهُمْ آيَةً فَهُمْ إِذَا طَغَوْا فِي الْكُفْرِ لَا يَدْرُونَ أَيَّ يَوْمٍ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ لَعْنَةُ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٧﴾

﴿ولقد﴾ الواو للابتداء واللام هي المرطئة للقسم ﴿أرسلنا نوحاً الى قومه اني لكم نذير مبين﴾ بالكسر على ارادة القول أي فقال أو قائلاً، وقرىء بالفتح على اضمار حرف الجر أي أرسلناه متلبساً بذلك الكلام وهو اني لكم، واقتصر على النذارة دون البشارة لأن دعوته كانت لمجرد الانذار أو لكونهم لم يعملوا بما بشرهم به.

وفي هذه السورة ذكر أنواع من القصص، الأولى قصة نوح، الثانية قصة هود، الثالثة قصة صالح، الرابعة قصة ابراهيم؛ الخامسة قصة لوط، السادسة قصة شعيب، السابعة قصة موسى وهي آخر القصص على الترتيب الزمني.

﴿أن لا تعبدوا إلا الله﴾ أن مصدرية أو مفسرة متعلقة بأرسلنا أو بنذير أو مبين ولا ناهية ﴿اني أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾ تعليلية والمعنى نهيتكم عن عبادة غير الله لاني أخاف عليكم، وفيها تحقيق لمعنى الانذار، واليوم هو يوم القيامة أو يوم الطوفان، ووصفه بالأليم من باب الاسناد المجازي مبالغة.

ثم ذكر ما أجاب به قومه عليه، وهذا الجواب يتضمن الطعن منهم في نبوته من ثلاث جهات ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ الملأ الاشراف كما تقدم غير مرة، ووصفهم بالكفر ذماً لهم وفيه دليل على أن بعض اشراف قومه لم يكونوا كفرة ﴿ما نراك إلا بشراً مثلنا﴾ هذه الجهة الأولى من جهات طعنهم في نبوته، أي نحن وأنت مشتركون في البشرية فلم تكن لك علينا منزلة تستحق بها النبوة دوننا.

والجهة الثانية ﴿وما نراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا﴾ أي ولم يتبعك أحد من الاشراف فليس لك مزية علينا باتباع هؤلاء الاراذل لك، والاراذل جمع أرذل بضم الذا ل وأرذل جمع رذل بسكونها مثل أكالب واكلب وكلب فهو جمع الجمع، وقيل الاراذل جمع أرذل كالاساود جمع أسود، وهم السفلة كالحاكة والاساكفة، والارذل الأدون من كل شيء فقال النحاس الاراذل الفقراء والذين لا حسب لهم والحسب الصناعات.

وقال الزجاج: نسبهم الى الحياكة ولم يعلموا ان الصناعات لا أثر لها في الديانة لأن الرفعة في الدين ومتابعة الرسل لا تكون بالشرف والمال والمنصب العلية بل للفقراء الخاملين وهم أتباع الرسل ولا تضرهم خسة صنائعهم إذا حسنت سيرتهم في الدين، وهذه عادة الله في الانبياء والأولياء ان أول من يتبعهم ضعفاء الناس لذهم فلا يتكبرون عن الاتباع بمال ولا جاه.

وقال ثعلب عن ابن الاعرابي: السفلة هو الذي يصلح الدنيا بدينه قيل له فمن سفلة السفلة، قال: الذي يصلح دنيا غيره بفساد دينه.

والظاهر من كلام أهل اللغة ان السفلة هو الذي يدخل في الحرف الدنية، والرؤية في الموضعين ان كانت القلبية فبشراً في الأول واتبعك في الثاني هما المفعول الثاني، وان كانت البصرية فهما منتصبان على الحال.

﴿بادي الرأي﴾ أي في ظاهر الرأي من غير تعمق، يقال بدا يبدو إذا ظهر قال الازهري: معناه فيما يبدو لنا من الرأي، وقيل أول الرأي قرىء بالهمز وتركه وهما سبعيتان ونصبه على الظرف أي وقت حدوث أول رأيهم.

والوجه الثالث من جهات قدحهم في نبوته ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ بالمال والشرف والجاه والرأي خاطبوه في الوجهين الأولين منفرداً، وفي هذا الوجه خاطبوه مع متبعيه، ثم اضربوا عن الثلاثة المطاعن وانتقلوا إلى ظنهم المجرد عن البرهان الذي لا مستند له إلا مجرد العصبية والحسد واستبقاء ما هم فيه من الرياسة الدنيوية فقالوا ﴿بل نظنكم كاذبين﴾ فيما تدعونه، ويجوز

قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَأْتِيَتْكُمْ رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِي فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنزَلْنَا مُكْمُوهُنَّ وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا تَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْمَقُونَ وَلَكِنِّي أَرَىٰ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾

أن يكون هذا خطاباً للأراذل وحدهم، والأول أولى لأن الكلام مع نوح لا معهم إلا بطريق التبعية له.

ثم ذكر سبحانه ما أجاب به نوح عليه السلام عليهم اجمالاً فقال ﴿قال يا قوم أرأيتم﴾ أي اخبروني ﴿ان كنت على بينة﴾ برهان ﴿من ربي﴾ في النبوة يدل على صحتها ويوجب عليكم قبولها مع كون ما جعلتموه قادحاً ليس بقادح في الحقيقة فإن المساواة في صفة البشرية لا تمنع المفارقة في صفة النبوة واتباع الأراذل كما تزعمون ليس مما يمنع من النبوة فانهم مثلكم في البشرية والعقل والفهم فاتباعهم لي حجة عليكم لا لكم، ويجوز أن يريد بالبينة المعجزة، وفي هذا الخطاب غاية التلطف بهم.

﴿وأناي رحمة من عنده﴾ وهي النبوة وقيل الرحمة المعجزة والبينة النبوة قيل ويجوز أن يكون الرحمة هي البينة نفسها والأولى تفسير الرحمة بغير ما فسرت به البينة وقيل الرحمة هي على الحق، وقيل هي الهداية إلى معرفة البرهان، وقيل الإيمان والافراد في ﴿فعميت﴾ على ارادة كل واحدة منها أو على ارادة البينة لأنها هي التي تظهر لمن تفكر وتحفى على من لم يتفكر، ومعنى عميت خفيت يقال عميت عن كذا وعمي علي كذا إذا لم أفهمه.

قيل وهو من باب القلب لأن البينة أو الرحمة لا تعمي، وإنما يعمي عنها



فهو كقولهم ادخلت القلنسوة رأسي، وقيل ان عمى الدليل بمعنى خفائه مجازاً فيقال حجة عمياء كما يقال مبصرة للواضحة وهو استعارة تبعية، شبه خفاء الدليل بالعمى في ان كلاً يمنع الوصول الى المقاصد وقرىء فعميت بضم العين وتشديد الميم على البناء للمفعول أي فعمأها الله .

﴿عليكم﴾ فلم تهلكم كما لو عمي على القوم دليلهم في المفازة بقوا بغيرها وفي قراءة أبي فعمأها عليكم .

والاستفهام في ﴿أنلزمكموها﴾ لانكار أي لا يمكنني ان اضطرركم الى المعرفة بها أي بالرحمة والمراد الزام الجبر بالقتل ونحوه لا إلزام الايجاب إذ هو حاصل ولذا فسر السيوطي بقوله انجبركم على قبولها ﴿وأنتم﴾ أي والحال انكم ﴿لها كارهون﴾ أي منكرون وناقون لها، والمعنى أخبروني ان كنت على حجة ظاهرة الدلالة على صحة النبوة إلا انها خافية عليكم أيمكننا أن نضطرركم إلى العلم بها والحال انكم لها كارهون غير متدبرين فيها فان ذلك لا يقدر عليه إلا الله عز وجل .

وعن قتادة قال: أما والله لو استطاع نبي الله لألزمها قومه، ولكنه لم يستطع ذلك ولم يمكنه .

﴿ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله﴾ فيه التصريح منه عليه السلام بأنه لا يطلب على تبليغ الرسالة مالا حتى يكون بذلك محلاً للتهمة، ويكون لقول الكافرين مجال بأنه ادعى طلباً للدنيا، والضمير في عليه راجع إلى ما قاله لهم فيما قبل هذا .

﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾ كالجواب عما يفهم من قولهم ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا﴾ من التلميح منهم إلى إبعاد الأراذل

عنه وقيل إنهم سألوه طردهم تصریحاً لا تلميحاً، وهذا كما قالت قریش لمحمد (ﷺ) كما تقدم في سورة الأنعام ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم﴾ الآية

ثم علل ذلك بقوله ﴿إنهم ملاقوا ربهم﴾ أي لا أطردهم فإنهم ملاقون يوم القيامة ربهم فهو يجازيهم على إيمانهم لأنهم طلبوا بإيمانهم ما عنده سبحانه، وكأنه قال هذا على وجه الإعظام لهم، ويحتمل أنه قاله خوفاً من نخاصمتهم له عند ربهم بسبب طرده لهم.

ثم بين لهم ما هم عليه في هذه المطالب التي طلبوها منه والعلل التي اعتلوا بها عن إجابته فقال ﴿ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾ كل ما ينبغي أن يعلم، ومن ذلك استرذالهم للذين اتبعوه وسؤالهم له أن يطردهم.

وَيَقَوْمٍ مِّنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَبْنُوخُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَابِنَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾

ثم أكد عدم جواز طردهم بقوله ﴿ويا قوم من ينصروني من الله﴾ أي من يمتعني من عذاب الله وانتقامه ﴿ان طردتهم﴾ فإن طردهم بسبب سبقهم إلى الإيمان والاجابة الى الدعوة التي أرسل الله رسوله لأجلها ظلم عظيم لا يقع من الأنبياء المؤيدين بالعصمة، ولو وقع ذلك منهم فرضاً وتقديراً لكان فيه من الظلم ما لا يكون لو فعله غيرهم من سائر الناس.

﴿أفلا تذكرون﴾ معطوف على مقدر كأنه قيل أتستمرون على ما أنتم عليه من الجهل بما ذكر فلا تذكرون من أحوالهم ما ينبغي تذكركم وتفكرون فيه حتى تعرفوا ما أنتم عليه من الخطأ، وما هم عليه الصواب، وقيل تقديره أتأمروني بطردهم فلا تذكرون، وقيل الأصل فلا تذكرون، وقيل أفلا بمعنى هلا التحضيضية كما ذكره الكرخي.

﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ أعطيكم منها، بين لهم انه كما لا يطلب منهم شيئاً من أموالهم على تبليغ الرسالة، كذلك لا يدعي أن عنده خزائن الله حتى تستدلوا بعدمها على كذبه كما قالوا ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ والمراد بخزائن الله خزائن رزقه، وقال ابن الانباري: الخزائن هنا بمعنى غيوب الله وما هو منطوق عن الخلق والأول أولى لقوله ﴿ولا أعلم الغيب﴾ أي ولا أدعي أني أعلم بغيب الله بل لم أقل لكم إلا إنني نذير مبين إنني أخاف

عليكم عذاب يوم أليم وهذا رد لقولهم ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾ أي في ظاهر حالهم وأول فكرهم، وفي الباطن لم يتبعوك، فقال لهم إني إنما أعول على الظاهر لأنني لا أعلم الغيب فأحكم به.

﴿ولا أقول﴾ لكم ﴿إني ملك﴾ حتى تقولوا ما نراك إلا بشراً مثلنا، فإن البشرية ليست من موانع النبوة بل من مباديها، وقد استدل بهذا من قال إن الملائكة أفضل من الانبياء، والأدلة نفي هذه المسألة مختلفة وليس لطالب الحق إلى تحقيقها حاجة، فليست هي مما كلفنا الله بعلمه.

﴿ولا أقول للذين﴾ أي في شأن الذين ﴿تزدري أعينكم﴾ أي تحتقره وتستصغر، والإزدراء مأخوذ من أزرى عليه إذا عابه وزرى عليه إذا احتقره، والمعنى إني لا أقول لهؤلاء المتبعين لي المؤمنين بالله الذين تعيبونهم وتحتقرونهم ﴿لن يؤتيهم الله خيراً﴾ أي توفيقاً وهداية وإيماناً وأجرأً بل قد آتاهم الخير العظيم بالآيمان به واتباع نبيه، فهو مجازيهم بالجزاء العظيم في الآخرة ورافعهم في الدنيا إلى أعلى محل، ولا يضرهم احتقاركم لهم شيئاً.

﴿الله أعلم بما في أنفسهم﴾ من الآيمان به والاحلاص له فمجازيهم على ذلك ليس لي ولا لكم من أمرهم شيء ﴿إني إذا لمن الظالمين﴾ لهم ان فعلت ما تريدونه بهم أو من الظالمين لأنفسهم ان فعلت ذلك بهم.

ثم جاوبوه بغير ما تقدم من كلامهم وكلامه ﴿قالوا﴾ عجزاً عن القيام بالحجة وقصوراً عن رتبة المناظرة وانقطاعاً عن المباراة بقولهم ﴿يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا﴾ أي خاصمتنا بأنواع الخصام ودفعتنا بكل حجة لها مدخل في المقام، ولم يبق لنا في هذا الباب مجال فقد ضاقت علينا المسالك وانسدت أبواب الحيل ﴿فأنتنا بما تعدنا﴾ من العذاب الذي تخوفنا منه وتخافه علينا ﴿ان كنت من الصادقين﴾ فيما تقوله لنا.

إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾

فأجاب بأن ذلك ليس اليه وإنما هو بمشيئة الله وإرادته ﴿وقال إنما يأتيكم به الله إن شاء﴾ فإن قضت مشيئته وحكمته بتعجيله عجله لكم، وإن قضت مشيئته وحكمته بتأخيره أخره ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ بفائتين عما أَرَادَهُ اللهُ بكم هرب أو مدافعة ﴿ولا ينفعكم نصحي﴾ الذي أبدله لكم وأستكثر منه قياماً مني بحق النصيحة لله بإبلاغ رسالته لكم بإيضاح الحق؛ وبيان بطلان ما أنتم عليه ﴿إن أردت أن أنصح لكم﴾ وجواب هذا الشرط محذوف والتقدير لا ينفعكم نصحي كما يدل عليه ما قبله

﴿إن كان الله يريد أن يغويكم﴾ أي إغواءكم فلا ينفعكم النصح مني، وكان جواب هذا الشرط محذوفاً كالأول وتقديره ما ذكرنا، وهذا التقدير إنما هو على مذهب من يمنع من تقدم الجزاء على الشرط، وأما على مذهب من يميزه فجزاء الشرط الأول ولا ينفعكم نصحي، والجملة جزاء للشرط الثاني.

قال ابن جرير: معنى يغويكم يهلككم بعذابه؛ وظاهر لغة العرب أن الإغواء الإضلال، فمعنى الآية لا ينفعكم نصحي إن كان الله يريد أن يضلكم عن سبيل الرشاد، ويخذلكم عن طريق الحق. وحكى عن طي أصبح فلان غاويًا أي مريضاً وليس هذا المعنى هو المراد في الآية، وقد ورد الإغواء بمعنى الإهلاك، ومنه فسوف يلقون غياً، وهو غير ما في الآية هذه.

﴿هو ربكم﴾ فإنه الإغواء واليه الهداية ﴿واليه ترجعون﴾ فيجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ، فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُجْرِمُونَ ﴿٢٥﴾  
 وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّمَ أَمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا  
 يَفْعَلُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَصْنَعُ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ  
 مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلَّكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ  
 إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٢٨﴾

﴿أم يقولون افتراه﴾ أنكر سبحانه عليهم قولهم ان ما أوحى الى نوح مفترى ثم أمره أن يجيب بكلام منصف فقال ﴿قل ان افتريته فعلي اجرامي﴾ بكسر الهمزة مصدر أجرم أي فعل ما يوجب الاثم وجرم واجرم بمعنى، قاله النحاس أي اكتسب الذنب وافتعله، والمعنى فعلي اثمى أو جزاء كسبي، ومن قرأ بفتح الهمزة قال هو جمع جرم ذكره النحاس أيضاً.

قال قتادة: اجرامي أي عملي، والاجرام اكتساب السيئة واقترافها، يقال جرم جرمًا أذنب والاسم منه الجرم بالضم والجريمة مثله، وأجرم هو الفاشي في الاستعمال، ويجوز جرم ثلاثياً، والمعنى ان كنت افتريته فعلي عقاب جرمي، وان كنت صادقاً وكذبتهم فعلي عقاب ذلك التكذيب الا انه حذف هذه البقية لدلالة الكلام عليها، ولا يدل ذلك على انه كان شاكاً لانه قول يقال على وجه الانكار عند اليأس من القبول ﴿وأنا بريء مما تجرمون﴾ أي من اجرامكم بسبب ما تنسبون الى من الافتراء، قيل وفي الكلام حذف والتقدير لكن ما افتريته فالاجرام وعقابه ليس الا عليكم وأنا بريء منه.

وقد اختلف المفسرون في هذه الآية فقيل انها حكاية عن نوح وما قاله لقومه، وقيل هي حكاية عن المحاورة الواقعة بين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وكفار مكة قاله مقاتل، فعلى هذا تكون الآية معترضة في قصة نوح والاول اولى، لان الكلام قبلها وبعدها مع نوح عليه السلام.

﴿وأوحى الى نوح انه﴾ في محل رفع على أنه نائب الفاعل الذي لم يسم، ويجوز أن يكون في محل نصب بتقدير الباء أي بأنه ﴿لن يؤمن من قومك الا من قد آمن﴾ وفي الكلام تأييس له من ايمانهم وانهم مستمرين على كفرهم مصممون عليه لا يؤمن أحد منهم الا من قد سبق ايمانه، أو المراد الا من استعد للايمان وتوقع منه ولا يراد ظاهره، والا كان المعنى الا من آمن فإنه يؤمن

وقيل ان الاستثناء منقطع وهو على طريقة قوله ﴿الا ما قد سلف﴾ قال قتادة: وذلك حين دعا عليهم نوح قال ﴿لا تذر على الارض من الكافرين دياراً﴾ وعن الحسن قال: ان نوحاً لم يدع على قومه حتى نزلت الآية هذه فانقطع عند ذلك رجاءه منهم فدعا عليهم ﴿فلا تبئس بما كانوا يفعلون﴾ البؤس الحزن أي فلا تحزن عليهم، قاله ابن عباس والبائس المستكين، فناه الله سبحانه عن أن يحزن حزن مستكين لأن الابتئاس حزن في استكانة، يقال ابتأس فلان اذا بلغه ما يكره والمبتئس الكاره الحزين.

ثم ان الله سبحانه لما أخبره انهم لا يؤمنون البتة عرفه الله هلاكهم وألمه الأمر الذي يكون به خلاصة وخلاص من آمن معه فقال ﴿واصنع الفلك﴾ الظاهر أنه أمر ايجاب لأنه لا سبيل إلى صون روح نفسه وأرواح غيره من الهلاك إلا بهذا الطريق وصون النفس من الهلاك واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، أي اعمل السفينة متلبساً ﴿بأعيننا﴾ أي بمراى منا وبأبصارنا لك وهو مجاز عن كلاء الله له بالحفظ وعبر بالأعين عن ذلك لأنها آلة الرؤية وهي التي تكون بها الحراسة والحفظ في الغالب.

وقيل بعلمنا لك وجمع الأعين للمبالغة والتعظيم لا للتكثير، وقيل معناها بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً على حفظك، وقيل بأمرنا، والحق ان العين صفة من صفاته لا ندري كيفيتها فيجب إمرارها على ظاهرها من دون

تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل ولا تقدير.

ومعنى ﴿ووحينا﴾ بما أوحينا اليك من كيفية صنعتها، وقال ابن عباس: بعين الله ووجهه ولم يعلم نوح كيف يصنع الفلك فأوحى الله إليه ان يصنعها مثل جؤجؤ الطائر.

﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ قيل هم امرأته وابنه أي لا تطلب إمهالهم وترك اهلاكهم أي لا تراجعني ولا تدعني باستدفاع العذاب عنهم فقد حان وقت الانتقام منهم ﴿انهم مغرقون﴾ تعليل لما قبله أي فانهم محكوم منا عليهم بالغرق وقد مضى به القضاء فلا سبيل الى دفعه ولا تأخير، وقيل المعنى ولا تخاطبني في تعجيل عقابهم فانهم مغرقون في الوقت المضروب لذلك لا يتأخر اغراقهم عنه.

﴿و﴾ طفق ﴿يصنع الفلك﴾ أو أخذ أو أقبل يصنعها فاقصر على يصنع وقيل هو حكاية حال ماضية لاستحضار صورتها العجيبة، وأياً ما كان ففيه ملاءمة للاستمرار المفهوم من الجملة الآتية الواقعة حالاً من ضميره، ومكث في صنع السفينة مائتي سنة ذكره الصاوي وقيل أربعمائة سنة ذكره أبو السعود، وقال ابن عباس: اتخذ نوح السفينة في ستين وقيل ثلاثين سنة.

وكان طولها ثلثمائة ذراع وسمكها في السماء ثلاثين ذراعاً وعرضها خمسين ذراعاً والذراع إلى المنكب، وكانت من خشب الساج لها ثلاثة بطون وأطباق سفلى ووسطى وعلوية، وكان بابها في عرضها فحمل في أسفلها الدواب والوحش، وفي أوسطها الانس وفي أعلاها الطير، وقيل السفلى للوحش والوسطى للطعام والعلوية له ولبن آمن، قال الخفاجي: والساج شجر عظيم يكثر بالهند، وقيل إنه ورد في التوراة انها من الصنوبر وقيل غير ذلك<sup>(١)</sup>.

﴿وكلما مر عليه ملا﴾ أي جماعة ﴿من قومه سخروا منه﴾ كل ظرفية وما

(١) ليس على ما أورده المفسر من دليل صريح عن المعصوم فلا داعي إلى مثله.



مصدرية ظرفية أي كل وقت مرور قوم استهزؤوا به لعمله السفينة، والجملة في محل نصب على الحال، قال الأخفش والكسائي: يقال سخرت به ومنه.

وفي وجه سخريتهم منه قولان ﴿أحدهما﴾ انهم كانوا يرونه يعمل السفينة فيقولون: يا نوح صرت بعد النبوة نجاراً، وكان يصنعها في بركة في أبعاد موضع من الماء وفي وقت عزته عزة شديدة ﴿والثاني﴾ انهم لما شاهدوه يعمل السفينة وكانوا لا يعرفونها قبل ذلك ولا كيفية استعمالها والانتفاع بها فتعجبوا من ذلك وقالوا: يا نوح ما تصنع بها.

﴿قال﴾ أمشي بها على الماء فعجبوا من قوله وسخروا به ثم أجاب عليهم بقوله ﴿إن تسخروا منا﴾ وهذا الكلام مستأنف على تقدير سؤال كأنه قيل فماذا قال لهم فقيل قال والمعنى ان تسخروا منا بسبب عملنا السفينة اليوم.

﴿فانا نسخر منكم﴾ غداً عند الفرق، ومعنى السخرية هنا الاستجهال أي ان تستجهلونا فانا نستجهلكم، وهذا على سبيل المشاكلة إذ السخرية لا تليق بمقام الأنبياء، وقيل انه لجزائهم من جنس صنيعهم فلا يقبح ﴿كما تسخرون﴾ أي تستجهلون واستجهاله لهم باعتبار اظهاره لهم ومشافهتهم وإلا فهم عنده جهال قبل هذا وبعده والتشبيه لمجرد التحقيق والوقوع أو التجدد والتكرار.

والمعنى انا نسخر منكم سخرية متحققة واقعة كما تسخرون منا كذلك أو متجددة متكررة كما تسخرون منا كذلك، وقيل معناه نسخر منكم في المستقبل سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الفرق وفيه نظر فان حالهم إذ ذاك لا تناسبه السخرية إذ هم في شغل شاغل عنها ثم هددهم بقوله.

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحْمِلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾

﴿فسوف تعلمون من﴾ موصولة في محل نصب او استفهامية في محل رفع أي أينا ﴿يأتيه عذاب يخزيه﴾ أي يهينه وهو عذاب الغرق في الدنيا، قاله ابن عباس: والمراد بعذاب الخزي العذاب الذي يخزي صاحبه ويحل عليه العار ﴿ويحمل﴾ التلاوة بكسر الحاء ويجوز لغة ضمها كما في المصباح أي ينزل ﴿عليه عذاب مقيم﴾ في الآخرة وهو عذاب النار الدائم والخلود فيها.

وقيل معنى يحمل يجعل المؤجل حالاً مأخوذ من حلول الدين المؤجل.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كان نوح مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم حتى كان آخر زمانه غرس شجرة فعظمت وذهبت كل مذهب، ثم قطعها ثم جعل يعمل منها سفينة ويمرون فيسألونه فيقول اعملها سفينة فيسخررون منه ويقولون تعمل سفينة في البر وكيف تجري، قال سوف تعلمون، فلما فرغ منها وفار التور وكثر الماء في السكك خشيت أم الصبي عليه وكانت تحبه حباً شديداً فخرجت الى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقبتة رفعت بين يديها حتى ذهب الماء بها، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي<sup>(١)</sup>، وقد ضعفه الذهبي في مستدركه على مستدرك الحاكم، وقد روي في صفة السفينة وقدرها أحاديث وأثار ليس في ذكرها هنا كثير فائدة.

(١) المستدرك كتاب التفسير / هود / ٣٤٢/٢١.

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ  
 إِلَىٰ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ أَمِنَ وَمَاءَ مَعَهُ، إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا  
 فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَعَبْرُنَهَا وَمُرْسَسَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾

﴿حتى إذا جاء أمرنا﴾ حتى هي الابتدائية دخلت على الجملة الشرطية وجعلت غاية لقوله ﴿واصنع الفلك بأعيننا﴾ وما بينها اعتراض والمراد بالأمر العذاب أو وقته وهو واحد الأمور لا الأوامر ويصح أن يراد الثاني على معنى جاء أمرنا بركوب السفينة.

﴿وفار التنور﴾ أي غلى، واختلف في تفسير التنور على أقوال (الأول) انه وجه الأرض والعرب تسمى وجه الأرض تنوراً أو اشرف موضع فيها؛ روى ذلك عن ابن عباس وعكرمة والزهري وابن عيينة.

(الثاني) أنه تنور الخبز الذي يخبزون فيه ابتدء منه النبع على خلاف العادة وبه قال مجاهد وعطية والحسن وهو قول أكثر المفسرين، قيل وهذا أولى لأن اللفظ اذا دار بين الحقيقة والمجاز كان حمله على الحقيقة أولى، ولفظ التنور حقيقة في اسم الموضع الذي يخبز فيه (الثالث) انه موضع اجتماع الماء في

السفينة وروى هذا عن الحسن. (الرابع) انه طلوع الفجر من قولهم تنور الفجر، روي ذلك عن علي بن أبي طالب (الخامس) انه مسجد الكوفة، روي ذلك عن علي أيضاً ومجاهد، وقال مجاهد: كان ناحية التنور بالكوفة على يمين الداخل مما يلي باب كندة وكان الشعبي يحلف بالله أنه ما فار إلا من ناحية الكوفة. (السادس) أنه أعالي الأرض والمواضع المرتفعة قاله قتادة (السابع) انه العين التي بالجزيرة المسماة عين الوردية وهي بالشام، روي ذلك عن عكرمة، وبه قال مقاتل (الثامن) انه موضع بالهند، قال ابن عباس: كان تنور آدم

بالهند وكانت حواء تحبز فيه وصار إلى نوح.

قال النحاس: وهذه الأقوال ليست بمتناقضة لأن الله سبحانه قد أخبر بأن الماء قد جاء من السماء والأرض قال ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيوناً﴾ فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان علامة هكذا، قال: وفيه نظر فإن القول الرابع يناهض هذا الجمع ولا يستقيم عليه التفسير بنبع الماء إلا إذا كان المراد مجرد العلامة كما ذكره آخراً.

وقد ذكر أهل اللغة أن الفور الغليان، يقال فار الماء يفور فوراً نبع وجرى وفارت القدر فوراً من باب قال وفوراناً غلت، وعلى هذا لا تجوز في الآية إلا من حيث نسبة الفوران إلى التنور، وهو اسم أعجمي عربته العرب، وعلى هذا فلا اشتقاق له.

وقيل فارسي لا تعرف له العرب اسماً غير هذا فلذلك جاء في القرآن بهذا اللفظ فخطبوا بما يعرفون، وقيل جاء هكذا بكل لفظ عربي وعجمي، وأنه مما اتفق عليه لغة العرب والعجم كالصابون ووزنه تفعول ويعزى هذا لتعلب، وقيل فعول ويعزى لأبي على الفارسي، وقيل معنى فار التنور التمثيل بحضور العذاب كقولهم حمي الوطيس إذا اشتد الحرب، وعلى هذا فهو كناية عن اشتداد الأمر.

وقيل كان من حجر لحواء فصار إلى نوح، وقد روى في تفسير التنور غير هذا. ذكر ابن جرير وغيره إن الطوفان كان في ثالث عشر من أبيب رجب في شدة القيظ وكان الفوران علامة لنوح على مجيئه وركوب السفينة.

﴿قلنا﴾ يا نوح ﴿احمل فيها﴾ أي في السفينة ﴿من كل زوجين﴾ مما في الأرض من الحيوانات ﴿اثنتين﴾ ذكراً وأنثى، وقرىء من كل بالتثنية أي من كل شيء زوجين، والزوجان للثنتين اللذين لا يستغني أحدهما عن الآخر،

ويطلق على كل واحد منهما زوج كما تقول للرجل زوج وللمرأة زوج؛ وهو المراد هنا أي من كل فردين متزاوجين اثنين بأن تحمل من الطير ذكراً وأنثى ومن الغنم ذكراً وأنثى، وهكذا وتترك الباقي، والمراد من الحيوانات التي تنفع والتي تلد أو تبيض ليخرج المضرات، والتي تتوالد من العفونة والتراب كاللدود والقمل والبق والبعوض فلم يحمل منه شيئاً.

ويطلق الزوج على الاثنين إذا استعمل مقابلاً للفرد، ويطلق الزوج على الضرب والصفة ومنه قوله تعالى ﴿وأنبتت من كل زوج بهيج﴾.

قال الرازي: وأما ما يروى أن إبليس دخل السفينة فبعيد لأنه من الجن، وهو جسم ناري أو هوائي فكيف يفر من الغرق، وأيضاً فإن كتاب الله لم يدل على ذلك ولم يرد فيه خبر صحيح، فالأولى ترك الخوض فيه اهـ.

﴿و﴾ احمل ﴿أهلك﴾ والمراد امرأته المؤمنة وبنوه ونساؤهم ﴿إلا من سبق عليه القول﴾ أي من تقدم الحكم عليه بأنه من المغرقين في علمه أو في قوله ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون﴾ على الاختلاف الشائع فيهم، فمن جعلهم جميع الكفار من أهله وغيرهم كان هذا الاستثناء من جملة احمل فيها وأهلك ومن قال المراد بهم ولده كنعان وامرأته الكافرة واعلة أم كنعان جعل الاستثناء من أهلك ويكون متصلاً إن أريد بالأهل ما هو أعم من المسلم والكافر منهم، ومنقطعاً إن أريد بالأهل المسلمون منهم فقط.

﴿و﴾ احمل ﴿من آمن﴾ من قومك في السفينة، وأفرد الأهل منهم لمزيد العناية بهم أو للاستثناء منهم على القول الآخر.

ثم وصف الله سبحانه قلة المؤمنين مع نوح بالنسبة الى من كفر به فقال ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾ واعتبار المعية في إيمانهم للإيمان إلى المعية في مقر الأمان والنجاة، قيل كانوا ثمانية: نوح وأهله وبنوه الثلاثة ونساؤهم، وبه قال

قتادة وابن جرير ومحمد بن كعب القرظي، وقيل كانوا ثمانين رجلاً أحدهم جرههم، قاله ابن عباس. قال الخفاجي: وهي الرواية الصحيحة. اهـ.

ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية يقال لها قرية الثمانين وهي موجودة بناحية الموصل، وقيل سبعة نوح وبنوه وثلاث كنان له، قاله الاعمش، قال الخفاجي: ويرده عطف من آمن إلا أن يكون الأهل بمعنى الزوجة فإنه ثبت بهذا المعنى، وهو خلاف الظاهر، وقيل كانوا تسعة وسبعين: زوجته المسلمة وبنوه الثلاثة سام وحام ويافث ونساؤهم واثنان وسبعون رجلاً وامرأة من غيرهم.

وعن ابن اسحاق كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نساء، وقيل غير ذلك، قال الطبري: والصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال عز وجل ﴿وما آمن معه الا قليل﴾ ولم يجد عدداً بمقدار، فلا ينبغي أن يجاوز في ذلك حد الله سبحانه وتعالى اذ لم يرد ذلك في كتاب ولا خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿وقال اركبوا فيها﴾ القائل نوح، وقيل الله سبحانه، والأول أولى لقوله: ﴿ان ربي لغفور رحيم﴾ والركوب العلو على ظهر الشيء المتحرك حقيقة نحو ركب الدابة أو مجازاً نحو ركب الدين؛ وفي الكلام حذف أي اركبوا الماء في السفينة فلا يرد ان ركب يتعدى بنفسه.

وقيل ان الفائدة في زيادة «في» أنه أمرهم بأن يكونوا في جوف السفينة لا على ظهرها، وقيل بل أنها زيدت لرعاية جانب المحلية والمكانية في السفينة كما في قوله ﴿فإذا ركبوا في الفلك﴾ وقوله ﴿حتى إذا ركبوا في السفينة﴾.

قيل ولعل نوحاً قال هذه المقالة بعد ادخال ما أمر بحمله في الفلك من الأزواج كأنه قيل فحمل الأزواج وأدخلها في الفلك وقال للمؤمنين اركبوا فيها، ويمكن أن يقال أنه أمر بالركوب كل من أمر بحمله من الأزواج والأهل

والمؤمنين، ولا يمتنع أن يفهم خطابه من لا يعقل من الحيوانات، أو يكون هذا على طريقة التغليب، وقد روى صفة القصة وما حمله نوح في السفينة وكيف كان الغرق. وكم بقيت السفينة على ظهر الماء روايات كثيرة لا مدخل لها في تفسير كلام الله سبحانه ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ متعلق بركبوا أو حال من فاعله أي اركبوا مسمين الله أو قائلين بسم الله ﴿مَجْرِيًا وَمَرَسَاهَا﴾ بضم الميم فيها من أجريت وأرسيت على إنها اسماً زمان وهما في موضع نصب على الظرفية أي وقت إجرائها وإرسائها أو مصدران كالأجراء والإرساء بحذف الوقت كقولك آتتك خفوق النجم أو اسماً مكان انتصبا بما في بسم الله من معنى الفعل أو إرادة القول.

وقرىء الأول بفتح الميم والثاني بضمها وهاتان القراءتان سبعيتان، وقرىء بفتحها فيها من جرى ورسى، وهذه شاذة، وقرىء مجريها ومرسيها بلفظ اسم الفاعل مجروري المحل على أنها وصفان لله، ويجوز أن يكونا في موضع رفع بإضمار مبتدأ أي هو مجريها ومرسيها، والرسو الثبات والاستقرار. قال مجاهد في الآية: أي حين تركبون وتجرؤون وترسون.

وعن الضحاك قال: كان إذا أراد أن ترسى قال: بسم الله فرست، وإذا أراد أن تجري قال: بسم الله فجرت.

﴿إِنْ رَبِّي لَغَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ بعباده ومن رحمته إنجاء هذه الطائفة تفضلاً منه لبقاء هذا الجنس الحيواني وعدم استئصاله بالغرق.

أخرج أبو يعلى والطبراني وابن السني وغيرهم عن الحسن بن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا الفلك أن يقولوا بسم الله الملك الرحمن بسم الله مجراها الآية ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية<sup>(١)</sup>.

(١) ضعيف الجامع الصغير ١٣٤٦ - تخريج الكلم ١٧٥ - الأحاديث الضعيفة ٢٩٣٢.

وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِي  
 أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَتَأْوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ  
 الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعُ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ  
 الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾

﴿وهي تجري بهم﴾ أي فركبوا مسمين والسفينة تجري، والجملة مستأنفة  
 أو حالية ولذلك فسره الزمخشري بقوله أي تجري وهم فيها ﴿في موج﴾ جمع  
 موجة وهي ما ارتفع عن جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح واضطرابه في  
 خلاله ﴿كالجبال﴾ شبهها بالجبال المرتفعة على الأرض، أي كل موجة منه  
 كالجبل في تراكمها وارتفاعها وعظمتها.

قال أهل السير: ارتفع الماء على أعلى جبل وأطوله أربعين ذراعاً، وقيل  
 خمسة عشر ذراعاً حتى أغرق كل شيء وعم العباد وشمل كل البلاد، وما قيل  
 من أن الماء طبق ما بين السماء والأرض وكانت السفينة تجري في جوفه كالحوت  
 فغير ثابت.

﴿ونادى نوح ابنه﴾ هو كنعان وقيل يام وكان كافراً؛ واستبعد كون نوح  
 ينادي من كان كافراً مع قوله ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾  
 وأجيب بأنه كان منافقاً فظن نوح أنه مؤمن، وقيل حملته شفقة الأبوة على ذلك  
 وكان من صلبه على المعتمد.

وقال ابن عباس: هو ابنه غير أنه خالفه في النية والعمل، وقيل أنه كان  
 ابن امرأته ولم يكن ابنه. ويؤيده ما روي أن علياً قرأ ﴿ونادى نوح ابنها﴾ وقيل  
 أنه كان لغير رشدة وولد على فراش نوح، ورد بأن قوله هذا وقوله ﴿ان ابني  
 من أهلي﴾ يدفع ذلك مع ما فيه من عدم صيانة منصب النبوة فإن جناب  
 الأنبياء أرفع من أن يشار إليه بأصبع الطعن.



﴿وكان في معزل﴾ أي في مكان عزل فيه نفسه عن قومه وقرابته بحيث لم يبلغه قول نوح ﴿اركبوا فيها﴾ وقيل في معزل من دين الله وقيل من السفينة. قيل وكان هذا النداء قبل أن يستيقن الناس الفرق، بل كان في أول فور التنور قبل سير السفينة.

﴿يا بني﴾ أصله بثلاث ياءات ياء التصغير ولام الكلمة وياء المتكلم ﴿اركب معنا﴾ في السفينة أي أسلم واركب، قال ملا عليّ الجيلاني: الظاهر أن معنى الآية أسلم لتستحق الركوب معنا.

﴿ولا تكن مع الكافرين﴾ في البعد عنا فتهلك معهم، نهاه عن الكون معهم خارج السفينة، ويمكن أن يراد بالكون معهم الكون على دينهم في الكفر، والأول أولى لأنه عليه السلام بصدد التحذير عن الهلكة فلا يلائمه النهي عن الكفر.

ثم حكى الله سبحانه ما أجاب به ابن نوح على أبيه فقال ﴿قال ساوي﴾ أي سألتجيء وأصير ﴿إلى جبل يعصمني﴾ أي يعني بارتفاعه وعلوه ﴿من﴾ وصول ﴿الماء﴾ إلى زعماً منه أن ذلك كسائر المياه في أزمئة السيول المعتادة التي ربما يتقي منها بالصعود إلى الرب، وأن له ذلك وقد بلغ السيل الزور، وجهلاً بأن ذلك إنما كان لإهلاك الكفرة، وإن لا يحص من ذلك سوى الالتجاء إلى ملجأ المؤمنين، فلذلك أراد عليه السلام أن يبين له حقيقة الحال، وأن يصرفه عن ذلك الفكر المحال.

﴿قال﴾ أي فأجاب عنه نوح بقوله ﴿لا عاصم﴾ من الجبال أي لا مانع ﴿اليوم من أمر الله﴾ فإنه يوم قد حق فيه العذاب وجف القلم بما هو كائن، فيه نفي جنس العاصم فيندرج تحته العاصم من الفرق في ذلك اليوم اندراجاً أولياً، وعبر عن الماء أو عن الفرق بأمر الله سبحانه تفخيماً لشأنه وتهويلاً لأمره ﴿إلا من رحم﴾ وقرىء على البناء للمفعول والاستثناء منقطع قاله الزجاج أي لكن من رحمه فهو يعصمه واستظهره السفاقي أو متصل على أن يكون عاصم

بمعنى معصوم أي لا معصوم اليوم من أمر الله الا من رحمه الله مثل ماء دافق وعيشة راضية، واختار هذا الوجه ابن جرير والزغشري وتبعه القاضي.

وقيل العاصم بمعنى ذي العصمة كلابن وتامر، والتقدير لا عاصم قط إلا مكان من رحم الله وهو السفينة وحينئذ فلا يرد ما يقال ان معنى من رحم من رحمه الله ومن رحمه الله فهو معصوم، فكيف يصح استثناءه عن العاصم لأن في كل وجه من هذه الوجوه دفعا للاشكال.

وذكر صاحب الانتصاف ان الاحتمالات الممكنة هنا أربعة لا عاصم إلا راحم، لا معصوم إلا مرحوم، لا عاصم إلا مرحوم، لا معصوم إلا راحم، فالأولان استثناء من الجنس، والآخران استثناء من غير الجنس فيكون منقطعاً أي لكن المرحوم يعصم على الأول؛ ولكن الراحم يعصم من أراد على الثاني قال عكرمة: لا ناج إلا أهل السفينة.

﴿وحال بينهما الموج﴾ أي حال بين نوح وابنه فتعذر خلاصه من الغرق وقيل بين ابن نوح وبين الجبل والأول أولى لأن تفرع ﴿فكان من المفرقين﴾ عليه يدل على الأول لا على الثاني لأن الجبل ليس بعاصم والمعنى فصار أو فكان كنعان من المفرقين في علم الله بالفعل والمهلكين بالماء.

﴿وقيل﴾ أي بعد ما تنهى الطوفان وأغرق الله قوم نوح والقيل كما قيل في هذين الموضعين عبارة عن تعلق القدرة التنجيزي بزوال الماء وبهلاكهم كما قيل في قوله تعالى ﴿أن يقول له كن فيكون﴾ وعلى هذا فالآية على الاستعارة المكنية والتخييلية وقيل تمثيلية، كما فصل ذلك الخفاجي في العناية تفصيلاً بسيطاً مع ما يصحبه من لطائف البلاغة.

ولكن الحق الذي لا تردد فيه عند أولى البصيرة ان الآية على حقيقتها من النداء والأمر وهو المختار في قوله سبحانه ﴿كن فيكون﴾ وأمثاله أيضاً.

وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأْهُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى  
 الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ  
 أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾

﴿يا أرض ابلعي﴾ يقال بلع الماء يبلعه مثل منع يمنع وبلع يبلع مثل حمد  
 يحمد لغتان حكاهما الكسائي والفراء: والبلع الشرب وتغيير الماء ومنه البالوعة  
 وهي الموضع الذي يشرب الماء والازدراد يقال بلع ما في فمه من الطعام إذا  
 ازدرده، واستعير البلع الذي هو من فعل الحيوان للنشف دلالة على ان ذلك  
 ليس كالنشف المعتاد الكائن على سبيل التدرج.

قال الخفاجي: النشف من نشف الثوب العرق كسمع وبصر إذا شربه،  
 قال المدقق: هذا أولى من جعل السكاكي البلع مستعاراً لغور الماء في الأرض  
 لدلالته على جذب الأرض ما عليها كالبلع بالنسبة إلى الحيوان ولان النشف  
 فعل الأرض والغور فعل الماء. فالله دره ما أكثر اطلاعه على حقائق المعاني  
 اهـ.

وقال عكرمة: ابلعي هو بالحشية ازدرديه وعن ابن منبه نحوه وعن  
 جعفر بن محمد عن أبيه قال: معناه اشربي بلغة الهند وعن ابن عباس مثله.

أقول وثبت لفظ البلع وما يشتق منه في لغة العرب ظاهر مكشوف  
 فمالنا وللحبشة والهند والمعنى انشفي وتشربي ﴿ماءك﴾ أي ما على وجهك من  
 ماء الطوفان، دون المياه المعهودة فيها من العيون والانهار. وعبر عنه بالماء بعد ما  
 عبر عنه بأمر الله، لأن المقام مقام النقص والتقليل لا مقام التفضيم والتهويل.

﴿وياساء أقلمي﴾ الاقلاع الامسك يقال اقلع المطر إذا انقطع وأقلع عن

الشيء إذا تركه وهو قريب من الأول، والمعنى أمر السماء بامسك الماء عن الارسال، ولفظ أحد المهامي في تفسيره: أي اجذبي الى جهة الفوق ما نزل منك اهد. وقيل ميز الله بين المائين فما كان من ماء الارض أمرها فبلعته وصار ماء السماء بحاراً، وخوطبت الارض أولاً بالبلع لأن الماء نبع منها أولاً قبل ان تمطر السماء.

﴿وغيض الماء﴾ أي نقص ونضب ما بين السماء والارض من الماء يقال غاض الماء وغضته أنا وهو لازم ومتعد، فمن اللازم قوله تعالى ﴿وما تغيض الأرحام﴾ أي تنقص، وقيل بل هو هنا متعد أيضاً وسيأتي، ومن المتعدي هذه الآية لأنه لا يبنى للمفعول من غير واسطة حرف الجر الا المتعدي بنفسه وهو اخبار عن حصول المأمورية من السماء والارض معاً أي فامتثلا ما أمر به ونقص الماء، ولا يخص غيض الماء بطوفان السماء كما توهم، وفيه كلام طويل في الكشف، قال الصاوي: أي ولم يذهب بالكلية لما علمت من بقاء ماء السماء.

﴿وقضي الأمر﴾ أي أحكم وفرغ منه يعني أهلك الله قوم نوح على تمام واحكام وأنجز ما كان وعده، قاله القرطبي ﴿واستوت على الجودي﴾ أي استقرت السفينة على الجبل المعروف بالجودي، روى انه عليه السلام ركب في الفلك في عاشر رجب ونزل عنها في عاشر المحرم فصام ذلك اليوم شكراً فصار سنة، والجودي جبل بقرب الموصل.

وقيل ان الجودي اسم لكل جبل وقيل هو بالشام، وقيل بأمل وفي الحديث لقد بقي منها شيء ادركه أوائل هذه الامة ويقال انه من جبال الجنة فلذا استوت عليه بعد ان طافت الارض كلها ستة أشهر.

﴿وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ القائل هو الله سبحانه ليناسب صدر الآية، وقيل هو نوح وأصحابه والمعنى وقيل هلاكاً لهم وهو من الكلمات التي تختص

بدعاء السوء، ووصفهم بالظلم للاشعار بأنه علة الهلاك وللإيماء إلى قوله ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾.

قال عبد الرحمن بن خلدون: اتفقوا على ان الطوفان الذي كان في زمن نوح وبدعوته ذهب بعمران الارض أجمع وبما كان من خراب المعمور وهلك الذين ركبوا معه في السفينة ولم يعقبوا فصار أهل الارض كلهم من نسله وعاد أباً ثانياً للخليقة انتهى.

وقال ابن الاثير في الكامل: واما المجوس فلا يعرفون الطوفان وكان بعضهم يقر به ويزعم انه كان في اقليم بابل وما قرب منه، وان مساكن ولد خمومت كانت بالمشرق فلم يصل ذلك اليهم، وكذلك جميع الامم المشرقية من الهند والفرس والصين لا يعرفون بالطوفان، وبعض الفرس يعترف به ويقول لم يكن عاماً ولم يتعد عقبة حلون.

والصحيح ان جميع أهل الارض من ولد نوح عليه السلام لقوله تعالى ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ فجميع الناس من ولد سام وحام ويافث أولاد نوح انتهى.

وقال المقرئ في الخطط: ان جميع أهل الشرائع أتباع الانبياء من المسلمين واليهود والنصارى قد أجمعوا على ان نوحاً هو الاب الثاني للبشر، وان العقب من آدم عليه السلام انحصر فيه ومنه ذراً الله جميع أولاد آدم، فليس أحد من بني آدم إلا وهو من أولاد نوح، وخالفت القبط والمجوس وأهل الهند والصين ذلك فانكروا الطوفان.

وزعم بعضهم ان الطوفان انما حدث في اقليم بابل وما وراءه من البلاد الغربية فقط وان أولاد كيومرت الذي هو عندهم الانسان الاول كانوا بالبلاد الشرقية من بابل فلم يصل الطوفان اليهم ولا إلى الهند والصين.

والحق ما عليه أهل الشرائع وإن نوحاً عليه السلام لما أنجاه الله ومن معه بالسفينة نزل بهم وهم ثمانون رجلاً سوى أولاده فماتوا بعد ذلك ولم يعقبوا، وصار العقب من نوح في أولاده الثلاثة، ويؤيد هذا قول الله تعالى عن نوح. ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ انتهى.

وقد أطبق علماء البلاغة على أن هذه الآية الشريفة بالغة من الفصاحة والبلاغة إلى محل يتقاصر عن الوصف وتضعف عن الاتيان بما يقاربه قدرة القادرين على فنون البلاغة الثابتين الاقدام في علم البيان، الراسخين في اللغة المطلعين على ما هو مدون من خطب مصانع خطباء العرب وأشعار بواقع شعرائهم المتراضين بدقائق علوم العربية وأسرارها.

قال الصاوي وسليمان الجمل: قال بعضهم: هذه الآية ابلغ آية في القرآن باحتوائها على احد وعشرين نوعاً من أنواع البديع، والحال أن كلماتها تسعة عشر انتهى.

قلت: وقد تعرض لبيان ما اشتملت عليه من ذلك جماعة فأطالوا وأطابوا رحمنا الله وإياهم برحمته الواسعة منهم أبو حيان محمد بن يوسف الامام الاندلسي في تفسيره المسمى بالنهر الماد من المحيط ذكر فيه أحداً وعشرين نوعاً من البديع وكذا السيد محمد بن اسماعيل بن صلاح الامير في رسالته المسماة بالنهر المورود، في تفسير آية هود، وهو المناسبة والمطابقة، والمجاز، والاستعارة، والاشارة والتمثيل، والارداف، والتعليل، وصحة التقسيم، والاحتراس، والايضاح، والمساواة، وحسن النسق، والايجاز، والتسليم، والتهديب، وحسن البيان، والتمكين، والتجنيس، والمقابلة، والذم، والوصف.

وبسط في بيان هذه الأنواع أتم بسط وقال هذا كله نظراً في الآية من

جانب البلاغة، وأما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية فهي كما ترى نظم للمعاني لطيف سديد وتأدية لها ملخصة مبينة، لاتعقيد يعثر الفكر في طلب المراد ولا التواء يشيك الطريق على المرتاد، بل ألفاظها تسابق معانيها، ومعانيها تسابق ألفاظها.

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية فألفاظها على ما ترى عربية أصلية مستعملة جارية على قانون اللغة سليمة عن التنافر، بعيدة عن البشاعة عذبة على العذبات سلسلة على الاسلات، كل منها كالماء في السلاسة وكالعملل في الحلاوة وكالنسيم في الرقة. انتهى.

قلت: النظر في هذه الآية من أربع جهات:

(الأول) من جهة علم البيان وهو النظر فيما فيها من المجاز وغيره كما تقدمت الإشارة إليه (والثاني) من جهة علم المعاني، وهو النظر في فائدة كل كلمة فيها وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها (والثالث والرابع) من جهة الفصاحة المعنوية واللفظية كما تقدم.

وقد ذكر طرفاً من هذه الجهات الأربع النسفي في المدارك، ثم قال: ومن ثم أطبق المعاندون، على أن طوق البشر قاصر عن الاتيان بمثل هذه الآية، والله در شأن التنزيل لا يتأمل العالم آية من آياته إلا أدرك لطائف لاتسع الحصر.

ولا تظنن الآية مقصورة على المذكور فلعل المتروك أكثر من المسطور.

اهـ.

قال القاضي: والآية في غاية الفصاحة لفخامة لفظها وحسن نظمها

والدلالة على كنه الحال مع الإيجاز الخالي عن الإخلال. قال الخفاجي: هذه الآية حوت من البلاغة أمراً عجبياً ترقص الرؤوس له طرباً وما اشتملت عليه من الفصاحة والنكات مفصل في شرح المفتاح.

وقال أبو السعود: ولقد بلغت الآية الكريمة من مراتب الإعجاز قاصيتها، وملكت من غرر المزايا ناصيتها، وقد تصدى لتفصيلها المهرة المتقنون، ولعمري إن ذلك فوق ما يصفه الواصفون، فحري بنا أن نوجز الكلام في هذا الباب ونفوض الأمر إلى تأمل أولي الألباب والله عنده علم الكتاب.

﴿ونادى نوح ربه﴾ أي دعاه، والظاهر أن هذا النداء كان قبل سيرها لأنه سؤال في تجاه ابنه ولا معنى للسؤال إلا عند إمكان النجاة، والمراد أنه أراد دعاءه بدليل الفاء في قوله ﴿فقال رب ان ابنى من أهلى﴾ وعطف الشيء على نفسه غير سائغ فلا بد من التقدير المذكور قاله الزمخشري. وقيل عطف تفسير أو تفصيل إذ القول المذكور هو عين النداء فهو مرتبط في المعنى بقوله ﴿ونادى نوح ابنه﴾ والمعنى أنه من الأهل الذين وعدتني بتنجيتهم بقولك وأهلك.

فإن قيل كيف طلب نوح عليه السلام إنجاز ما وعده الله بقوله ﴿وأهلك﴾ وهو المستثنى منه وترك ما يفيد الاستثناء وهو إلا من سبق عليه القول فيجاب بأنه لم يعلم إذ ذاك أنه ممن سبق عليه القول فإنه كان يظنه من المؤمنين.

﴿وان وعدك الحق﴾ الصدق الذي لا خلف فيه وهذا منه ﴿وانت أحكم الحاكمين﴾ أي أتقن المتقنين لما يكون به الحكم فلا يتطرق إلى حكمك نقض، وقيل أراد به أعلمهم وأعدلهم أي أنت أكثر علماً وعدلاً من ذوي الحكم، وقيل أن الحاكم بمعنى ذي الحكمة كدراع.



قَالَ يَنْتُوْحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِينَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي  
 أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾

ثم أجاب الله سبحانه عن نوح ببيان أن ابنه غير داخل في عموم الأهل  
 وانه خارج بقيد الاستثناء ﴿قال يا نوح انه﴾ يعني هذا الابن الذي سألتني  
 نجاته ﴿ليس من أهلك﴾ الذين آمنوا بك وتابعوك ومن أهل دينك، وان كان  
 من أهلك باعتبار القرابة، قال عكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وأكثر  
 المفسرين: انه ابن نوح من صلبه وهو الصحيح.

وعن ابن عباس قال: ما بغت امرأة نبي قط، وان الله نص عليه بقوله  
 ﴿ونادى نوح ابنه﴾ ونوح أيضاً نص عليه بقوله ﴿يا بني﴾ ولا يجوز صرف  
 الكلام عن الحق إلى المجاز من غير ضرورة.

وقيل المعنى إنه ليس من الذين وعدتكم أن أنجيهم معكم، وإنما خالف  
 هذا الظاهر من خالفه لأنه استبعد أن يكون ولد نبي كافراً، وهذا خطأ عن  
 قاله لأن الله يخرج الكافر من المؤمن، والمؤمن من الكافر، ولا فرق في ذلك  
 بين الأنبياء وغيرهم، فإن الله سبحانه قد أخرج قابيل من صلب آدم وهو نبي  
 وكان كافراً. وأخرج إبراهيم: وهو نبي من صلب أزر وكان كافراً، فكذلك  
 أخرج كنعان من صلب نوح وهو كافر، فهو المتصرف في خلقه كيف شاء لا  
 يسأل عما يفعل وهم يسألون.

ثم صرح بالعلة الموجبة لخروجه من عموم الأهل الميئة له بأن المراد  
 بالقرابة قرابة الدين لا قرابة النسب وحده فقال ﴿إنه عمل غير صالح﴾ قرأ  
 الجمهور ﴿عمل﴾ على لفظ المصدر وقرئ على لفظ الفعل، ومعنى الأولى  
 المبالغة في ذمه كأنه جعل نفس العمل وأصله ذو عمل غير صالح، كذا قال أبو

إسحق الزجاجي وأبو علي الفارسي وابن الأنباري والواحدي ، وعبارة الصاوي إن الضمير عائد إلى الولد، ويقال في الإخبار عنه بعمل ما قيل في زيد عدل وهو الراجع . اهـ .

ومعنى الثانية ظاهر ، أي انه عمل عملاً غير صالح ، وهو كفره وعدم متابعتة لأبيه . قاله أبو علي .

قال الصاوي : أثار السيوطي إلى أن الضمير في (انه) عائد إلى نوح على حذف مضاف ، والمعنى قال الله له : يا نوح ان سؤالك عمل غير مقبول . انتهى . ويؤيده ما قال ابن عباس : يقول سألتك إياي يا نوح عمل غير صالح لا أرضاه لك .

ثم ناه عن مثل هذا السؤال فقال ﴿فلا تسألن ما ليس لك به علم﴾ أي ما لا تعلم أصواب هو فتسأل عنه أم ليس كذلك فتركه ، وهو وان كان نهياً عاماً بحيث يشمل كل سؤال لا يعلم صاحبه ان حصول مطلوبه منه صواب فهو يدخل تحته سؤاله هذا دخولاً أولياً . وفيه عدم جواز الدعاء بما لا يعلم الانسان مطابقتة للشرع وسمى دعاءه سؤالاً لتضمنه معنى السؤال باعتبار استجازه في شأن ولده .

﴿إني أعظك﴾ من ﴿أن تكون من الجاهلين﴾ أي أحذرك وأنهاك أن تكون جاهلاً فتسأل مثل ما يسألون كقوله يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً ، وسمى سؤاله جهلاً لأن حب الولد شغله عن تذكر استثناء من سبق عليه القول منهم بالاهلاك قاله الكرخي .

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي  
 أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ  
 مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُنَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

وقيل المعنى أرفعك أن تكون منهم، قال ابن العربي: وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين، ويعليه بها الى مقام العلماء العاملين. ثم لما علم نوح بأن سؤاله لم يطابق الواقع وان دعاءه ناشيء عن وهم كان يتوهم بادر الى الاعتراف بالخطأ وطلب المغفرة والرحمة وقال رب اني أعوذ بك ﴿أي الجا اليك واعتذر من ﴿أن أسالك ما ليس لي به علم﴾ أي أطلب منك بعد ذلك ما لا علم لي بصحته وجوازه ﴿والا تغفر لي﴾ ذنب ما دعوت به على غير علم مني وجهلي واقدامي عليه ﴿وترحمني﴾ برحمتك التي وسعت كل شيء فتقبل توبتي ﴿أكن من الخاسرين﴾ في أعمالي فلا أربح فيها.

وليس في الآية ما يقتضي صدور ذنب ومعصية من نوح سوى تأويله واقدامه على سؤال ما لم يؤذن له فيه. وهذا ليس بذنب ولا معصية.

وقال الخطيب: أخطأ في ذلك الاجتهاد كما وقع لأدم في الاكل من الشجرة فلم يصدر منه الا هذه الزلة.

﴿قيل يانوح﴾ القائل هو الله أو الملائكة ﴿اهبط﴾ أي أنزل من السفينة الى الارض أو من الجبل الى المنخفض منها فقد بلعت الارض ماءها وجفت ﴿بسلام منا﴾ أي بسلامة وأمن.

وقيل بتحية وعظمة كما قال ﴿سلام على نوح في العالمين﴾ وذلك ان الفرق لما كان عاماً في جميع الأرض فعندما خرج من السفينة علم انه ليس في

الأرض شيء يتفجع به من النبات والحيوان فكان كالحائف في انه كيف يعيش وكيف يدفع جهات الحاجات عن نفسه من المأكول والمشروب، فلما قال الله ذلك زال عنه الخوف لأن السلامة لا تكون الا مع الأمن وسعة الرزق.

ثم أردفه الله تعالى بالبركة بقوله ﴿وبركات﴾ أي خيرات نامية ونعم ثابتة باقية دائمة في نسلك وما يقوم به معاشك ومعاشهم من أنواع الأرزاق والبركة مشتق من بروتك الحمل وهو ثبوته ومنه البركة لثبوت الماء فيها ﴿عليك﴾ وفي هذا الخطاب دليل على قبول توبته ومغفرة زلته وخلاصه من الخسران وإعلام وبشارة من الله تعالى بفيضان أنواع الخيرات عليه في كل ما يأتي وما يذر.

﴿وعلى أمم﴾ ناشئة وهم المتشعبون ﴿ممن معك﴾ أي من ذرية من كان معك في السفينة وهي الأمم الى آخر الدهر؛ قيل الذين كانوا معه في السفينة لم يعقب أحد منهم إلا أولاد نوح الثلاثة، فانحصر النوع الانساني بعد نوح في ذريته ولذلك يقال انه آدم الصغير وقد كان بينه وبين آدم ألف سنة وثمانية أجداد.

فالمراد من هذه الآية تقسيم ذرية أولاد نوح الى فريق مؤمن وفريق كافر لا تقسيم من كان معه في السفينة إذ كانوا كلهم مؤمنين، قال أبو السعود: ويجوز ان تكون من بيانية أي وعلى أمم هم الذين معك، وانما سموا أمماً لأنهم أمم متحزبة وجماعات متفرقة أو لأن جميع الامم انما تشعبت منهم، فحيثئذ يكون المراد بالامم المشار اليهم في قوله ﴿وأمم سمنتهم﴾ بعض الامم المتشعبة منهم وهي الامم الكافرة المتناسلة منهم الى يوم القيامة، ويبقى أمر الامم المؤمنة الناشئة منهم مبهماً غير متعرض له ولا مدلول عليه ومع ذلك ففي دلالة المذكور على خبره المحذوف خفاء، لأن من المذكورة بيانية والمحذوفة تبعية أو ابتدائية فتأمل اهـ.

قيل أراد الله سبحانه بهذا الأمم الذين كانوا معه من صار مؤمناً من ذريتهم وأراد بقوله وأمم ستمتعهم من صار كافراً من ذريتهم الى يوم القيامة، والتقدير ومنهم أمة أو يكون أمة، والمعنى ستمتعهم في الدنيا بما فيها من المتاع ونعطيهم منها ما يعيشون به ﴿ثم يمسهم مناً﴾ في الآخرة أو في الدنيا ﴿عذاب اليم﴾ وعن الضحاك قال: وعلى أمة عن معك يعني عن لم يولد أوجب الله لهم البركات لما سبق لهم في علم الله من السعادة، وأمم ستمتعهم يعني متاع الحياة الدنيا لما سبق لهم في علم الله من الشقاوة.

قال محمد بن كعب القرظي: دخل في ذلك السلام والبركات كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، ودخل في ذلك العذاب الأليم كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة وعن ابن زيد: هبطوا والله راض عنهم، ثم أخرج منهم نسلًا منهم من رحم الله ومنهم من عذب، وقيل المراد بالأمم المتمتع قوم هود وصالح ولوط وشعيب وبالعذاب ما نزل بهم، وإلى هنا انتهت قصة نوح عليه السلام.

تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا  
فَأَصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ  
مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ  
أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾

﴿تلك﴾ أي قصة نوح وهو مبتدأ ﴿من أنباء الغيب﴾ خبره أي من  
جنسها والأنباء جمع نبأ وهو الخبر أي اخبار الغيب التي مرت بك في هذه  
السورة ﴿نوحياً﴾ أي القصة ﴿اليك﴾ خبر ثانٍ والمجيء بالمضارع لاستحضار  
الصورة.

﴿ما كنت﴾ يا محمد ﴿تعلمها أنت﴾ تفصيلاً خبر ثالث والا كانت  
مشهورة عند كل القرون لكن اجماًلاً ﴿ولا﴾ يعلمها ﴿قومك﴾ يعني العرب بل  
هي مجهولة عندكم وفي ذكرهم تنبيه على انه لم يتعلمه اذا لم يخالط غيرهم وانهم  
مع كثرتهم لما لم يسمعه فكيف بواحد منهم ﴿من قبل هذا﴾ أي الوحي أو  
القرآن أو من قبل هذا الوقت.

﴿فاصبر﴾ على ما تلاقيه من كفار زمانك كما صبر نوح على أذى قومه  
والفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها ﴿ان العاقبة﴾ المحمودة في الدنيا والآخرة  
﴿للمتقين﴾ لله المؤمنين بما جاءت به رسله؛ وفي هذا تسلية لرسول الله صلى  
الله عليه وسلم وتبشير له بأن الظفر للمتقين في عاقبة الأمر ولا اعتبار بمباديه.

﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى عاد أخاهم هوداً﴾ أي واحداً منهم في النسب لا في  
الدين، وهود عطف بيان وقوم عاد كانوا عبدة أوثان وقد تقدم مثل هذا في  
الأعراف، وقيل هم عادان الأولى والأخرى، فهؤلاء هم عاد الأولى من ذرية سام

ابن نوح، وعاد الاخرى هم شداد ولقمان وقومها المذكورون في قوله ﴿إرم ذات العماد﴾ وأصل عاد اسم رجل ثم صار اسماً للقبيلة كتميم وبكر ونحوهما وبين هود ونوح ثمانمائة سنة وعاش أربعمائة سنة وأربعاً وستين سنة.

﴿قال يا قوم اعبدوا الله﴾ وحدوه ولا تشركوا معه شيئاً في العبادة ﴿مالكم من إله غيره﴾ في معنى العلة لما قبله قرىء غيره بالجر على اللفظ، وبالرفع على محل من إله، وبالنصب على الاستثناء ﴿إن أنتم﴾ أي ما أنتم بانخاذ إله غير الله وجعله شفيعاً ﴿إلا مفترون﴾ أي كاذبون على الله عز وجل.

ثم خاطبهم فقال ﴿يا قوم لا أسألكم عليه أجراً﴾ أي لا أطلب منكم أجراً على الذي أبلغكم وأنصحكم به من الارشاد الى عبادة الله وحده وانه لا إله لكم سواه، فالضمير راجع الى مضمون هذا الكلام وخاطب بهذا كل نبي قومه ازاحة لما عسى أن يتوهموه وإحاضاً للنصحية، فإنها ما دامت مشوبة بالمطامع فهي بمعزل عن التأثير، وقد تقدم معنى هذا في قصة نوح وقال هنا أجراً وهناك ما لا تفنتاً أو لذكر الخزائن بعده هناك ولفظ المال بها أليق.

﴿ان اجري إلا على الذي فطرن﴾ أي ما اجري الذي اطلب إلا عن خلقتي فهو الذي يثيني على ذلك ﴿أفلا تعقلون﴾ ان اجر الناصحين انما هو من رب العالمين.

وَيَقُومِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا  
 وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا  
 بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾ إِنْ  
 نَقُولُ إِلَّا آعْرَبْنَاكَ بِعُضَى آلِ هَارُونَ بِسُوءِ مَا قَالِ إِنَّهُ اشْهَدُ اللَّهُ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا  
 تُشْرِكُونَ ﴿٥٣﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿٥٤﴾

ثم أرشدهم إلى الاستغفار والتوبة فقال ﴿وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا  
 إليه﴾ أي اطلبوا مغفرته لما سلف من ذنوبكم بفعل الطاعة ثم توسلوا إليه  
 بالتوبة وقد تقدم زيادة بيان لمثل هذا في قصة نوح ثم رغبتهم في الإيمان بالخير  
 العاجل فقال ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ أي كثير الدور أي السيلان  
 والنزول والتتابع، والسماء المطر يقال درت السماء تدر فهي مدرار، ولم يؤثته  
 لأن المراد بالسماء المؤنثة السحاب أو المطر كما تقدم فذكر على المعنى أو ان  
 مفعلاً للمبالغة فيستوي فيه المذكر والمؤنث أو ان الهاء حذف من مفعال على  
 طريق النسب قاله مكي .

وكان قوم هود أهل بساتين وزروع وعمارة وكانت مساكنهم الرمال التي  
 بين الشام واليمن، عن الضحاك قال: أمسك الله القطر عن عاد ثلاث سنين  
 فأجدبت بلادهم وقحطت بسبب كفرهم فقال لهم هود ﴿استغفروا﴾ الآية فأبوا  
 إلا تمادياً.

﴿ويزدكم قوة الى قوتكم﴾ أي شدة مضافه إلى شدتكم أو خصباً إلى  
 خصبكم أو عزاً إلى عزمكم، قال الزجاج: قوة في النعم، وقال عكرمة: القوة  
 الى القوة ولد الولد، وقيل كانت قد عقت نساؤهم ثلاثين سنة لم تلد؛ وقيل  
 قوة في الدين الى قوة الابدان .



﴿ولا تتولوا مجرمين﴾ أي لا تعرضوا عما أدعوكم اليه وتقيموا على الكفر مصرين عليه والاجرام الاثام كما تقدم ثم أجابه قومه بما يدل على فرط جهالتهم وعظيم غباوتهم.

﴿قالوا يا هود ما جئنا ببينة﴾ أي بحجة واضحة نعمل عليها ونؤمن لك بها غير معترفين بما جاءهم به من حجج الله وبراهينه عناداً وبعداً عن الحق والبراء للتعدي أو للمصاحبة ﴿وما نحن بتاركي آلهتنا﴾ التي نعبدها من دون الله ﴿عن قولك﴾ أي لأجله أو تركاً صادراً عنه، فعن على الأول للتعليل كما أشار اليه ابن عطية ولكن المختار الثاني ولم يذكر الزمخشري غيره.

﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ أي بمصدقين في شيء مما جئت به ﴿إن نقول الا اعتراك﴾ يقال عراه الأمر واعتراه اذا ألم به أي ما نقول الا أنه أصابك ﴿بعض آلهتنا﴾ التي تعيها وتسفه رأينا في عبادتها ﴿بسوء﴾ بجنون حتى نشأ عنه ما تقوله لنا وتكرره علينا من التنفير عنها والاستثناء مفرغ كما قال الزمخشري.

فأجابهم بما يدل على عدم مبالاة بهم وعلى وثوقه بربه وتوكله عليه وأنهم لا يقدرّون على شيء مما يريد به الكفار، بل الله سبحانه هو الضار النافع ﴿قال اني أشهد الله﴾ على نفسي ﴿واشهدوا﴾ أنتم أيضاً عليها ﴿أني بريء مما تشركون﴾ به ﴿من دونه﴾ أي من اشراككم من دون الله من غير أن ينزل به سلطاناً ﴿فكيدون جميعاً﴾ انتم وآلهتكم ان كانت كما تزعمون من أنها تقدر على الاضرار بي وانها اعترتني بسوء ﴿ثم لا تنظرون﴾ أي لا تهملوني بل عاجلوني واصنعوا ما بدا لكم واحتالوا في هلاكي.

وفي هذا من اظهار عدم المبالاة بهم وبأصنامهم التي يعبدونها ما يصك مسامعهم ويوضع عجزهم وعدم قدرتهم على شيء وهذا من معجزاته الباهرة.

إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَسَخِطُفَ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ءَادَاءُ جَحْدٍ وَأَيَّاتٍ لِّرَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾

﴿إني توكلت على الله ربي وربكم﴾ فهو يعصمني من كيدكم وإن بلغت في تطلب وجوه الاضرار بي كل مبلغ فمن توكل على الله كفاه.

ثم لما بين لهم توكله على الله وثقته بحفظه وكلاءته وصفه بما يوجب التوكل عليه والتفويض اليه من اشتغال ربوبيته عليه وعليهم وانه مالك للجميع فقال ﴿ما من دابة﴾ تدب على الأرض ﴿الا هو آخذ بناصيتها﴾ أي ان ناصية كل دابة.

قال الرازي وهو بعيد لأن شرط الناسخ أن يكون رافعاً لحكم المنسوخ، ومدلول الآية اختصاص كل واحد بأفعاله وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب وآية القتال ما رفعت شيئاً من مدلولات هذه الآية، بل هو باق فكان القول بالنسخ باطلاً.

﴿ومنهم من يستمعون اليك﴾ بين الله سبحانه في هذا أن في أولئك الكفار من بلغت حاله في النفرة والعداوة الى هذا الحد وهي أنهم يستمعون الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا قرأ القرآن وعلم الشرائع في الظاهر ولكنهم لا يسمعون في الحقيقة لعدم حصول أثر السماع وهو حصول القبول والعمل بما يسمعون، وجمع الضمير في يستمعون حملاً على معنى من وأفرده في ومنهم من ينظر حملاً على لفظه، قيل والنكته كثرة المستمعين بالنسبة إلى الناظرين لأن الاستماع لا يتوقف على ما يتوقف عليه النظر من المقابلة وانتفاء الحائل

وانفصال الشعاع والنور الموافق لنور البصر، والتقدير في قوله ومنهم من يستمعون ومنهم من ينظر ومنهم ناس يستمعون ومنهم بعض ينظر.

﴿أفأنت تسمع الصم﴾ الهمزة للانكار يعني أن هؤلاء وإن استمعوا في الظاهر فهم صم والصمم مانع من سماعهم فكيف يطمع منهم في ذلك مع حصول المانع وهو الصمم، فكيف إذا انضم إلى ذلك ﴿لو كانوا لا يعقلون﴾ فإن من كان اصم غير عاقل لا يفهم شيئاً ولا يسمع ما يقال له، والفاء عاطفة.

وفيه تنبيه على أن حقيقة استماع الكلام فهم المعنى المقصود منه ولذلك لا توصف به البهائم وهو لا يتأتى إلا باستعمال العقل السليم في تدبره، وعقولهم لما كانت مريضة بمعارضة الوهم ومتابعة الإلف والتقليد، تعذر إفهامهم الحكم والمعاني الدقيقة فلم ينتفعوا بسرد الألفاظ عليهم غير ما ينتفع به البهائم من كلام الناعق.

والكلام في ﴿ومنهم من ينظر اليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون﴾ كالكلام فيما تقدم لأن العمى مانع فكيف يطمع من صاحبه في النظر، وقد انضم إلى فقد البصر فقد البصيرة لأن الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يكون له من الحدس الصحيح ما يفهم به في بعض الأحوال فهما يقوم مقام النظر، وكذلك الأصم ﴿وعصوا﴾ أي رؤساؤهم وسفلةهم ﴿رسله﴾ أي هوداً وحده لأنه لم يكن في عصره رسول سواه، وإنما جمع هنا للتعظيم أو لأن من كذب رسولاً فقد كذب جميع الرسل.

وقيل إنهم عصوا هوداً ومن كان قبله من الرسل أو كانوا بحيث لو بعث الله اليهم رسلاً متعددين لكذبوهم ﴿واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾ الجبار المتكبر والعنيد الطاغى الذي لا يقبل الحق ولا يذعن له ويتجاوز في الظلم.

قال أبو عبيدة: العنيد والعنود والعائد والمعاند هو المعارض بالخلاف منه، ومنه قيل للعرق الذي يتفجر بالدم عائد، وعن قتادة قال: عنيد مشرك، وقال السدي: العنيد المشاق.

وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدَ الْعَادِ قَوْمٌ هُودٌ ﴿٦١﴾ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ تَتَوَبَّوْا إِلَيْهِ إِن رَّبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦٢﴾ قَالُوا يَصْلِحْ فَذَكَرْنَا فِينَا مَرْجُوا قَبْلَ هَذَا أَنَّهُمْ نَأْنَأْنَأْنَا أَن تَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٦٣﴾

﴿واتبعوا﴾ أي جميعهم أو السفلة والرؤساء ﴿في هذه الدنيا لعنة﴾ أي الحقوها على لسان الانبياء، واللعنة هي الابعاد من الرحمة والطرده من الخير، والمعنى انها لازمة لهم لا تفارقهم ماداموا في الدنيا ﴿و﴾ اتبعوها ﴿يوم القيامة﴾ فلعنوا هنالك كما لعنوا في الدنيا.

قال السدي: لم يبعث نبي بعد عاد الا لعنت على لسانه، وقال قتادة: تتابعت عليهم لعنتان من الله، لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة.

﴿ألا ان عاداً كفروا ربهم﴾ قال الفراء: أي بنعمة ربهم، يقال كفرته وكفرت به مثل شكرته وشكرت له ﴿ألا بعداً لعاد قوم هود﴾ أي لا زالوا مبعدين من رحمة الله، والبعد الهلاك والتباعد عن الخير، يقال بعد يبعد بعداً إذا تأخر وتباعد، وبعد يبعد بعداً إذا هلك، والمبالغة في التنصيص والتكرير بعبارتين مختلفتين تدل على تقوية التأكيد ونهاية التحقيق، وقد تقدم ان العرب تستعمله في الدعاء بالهلاك.

﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى ثمود أخاهم صالحاً﴾ وهم سكان الحجر، فقوم هود عاد الاولى وقوم صالح عاد الثانية كما قال المحلي في سورة النجم، وقرأ الحسن ثمود بالتثوين في جميع المواضع، واختلف سائر القراء فيه فصرفوه في موضع ولم يصرفوه في موضع، فالصرف باعتبار التأويل بالحي والمنع بالقبيلة، وهكذا سائر ما يصح فيه التأويلان، وبين صالح وهود مائة سنة، وعاش صالح مائتي سنة

وثمانين سنة ومكانهم بين الشام والمدينة، وتقدم في الأعراف بسط قصتهم وقصة الناقة بأكثر مما هنا.

والكلام فيه وفي قوله ﴿قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾ كما تقدم في قصة هود ﴿هو أنشأكم من الأرض﴾ أي ابتداء خلقكم لأن كل بني آدم من صلب آدم وهو مخلوق منها فمن لا ابتداء الغاية، وقيل هي بمعنى في ﴿واستعمركم فيها﴾ أي جعلكم عمارها وسكانها من قولهم أعمر فلان فلاناً داره فهي له عمرى فيكون استفضل بمعنى افعال مثل استجاب بمعنى أجاب والسين والتاء زائدتان.

وقال الضحاك: معناه أطال عمركم، وكانت أعمارهم ثلثمائة إلى ألف سنة، وقيل معناه أمركم بعمارتها من بناء المساكن وغرس الأشجار. وقال ابن زيد: استخلفكم فيها.

﴿فاستغفروه﴾ أي سلوه المغفرة لكم من عبادة الأصنام ﴿ثم توبوا إليه﴾ أي ارجعوا إلى عبادته ﴿إن ربي قريب مجيب﴾ أي قريب الاجابة لمن دعاه، وقد تقدم القول فيه في البقرة عند قوله تعالى ﴿فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾.

﴿قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً﴾ أي كنا نرجو أن تكون فينا سيداً مطاعاً ننتفع برأيك ونسعد بسيادتك لما نرى فيك من مخايل الرشد والسادد لأنه كان من قبيلتهم، وكان يعين ضعيفهم ويغني فقيرهم ﴿قيل هذا﴾ الذي أظهرته من ادعائك النبوة ودعوتك إلى التوحيد، وقيل كان صالح يعيب آهتهم وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم فلما دعاهم إلى الله قالوا انقطع رجاؤنا منك.

والاستفهام في قوله: ﴿أأنهنا أن نعبد ما يعبد آباؤنا﴾ للانكار، أنكروا عليه هذا النهي، والمعنى ما كان يعبد آباؤنا فهو حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة ﴿وإننا لفي شك مما تدعونا إليه﴾ من عبادة الله ﴿مريب﴾ موقع في الريية من أربته فأنا أربيه إذا فعلت به فعلاً يوجب له الريية، وهي قلق النفس وانتفاء

قَالَ يَنْقُومِ أَرْعَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿١٣﴾

الطمأنينة أو من أراب الرجل اذا كان ذا ريبة، فالاسناد مجازي للمبالغة كجد جده، والظاهر انه على الاول مجازي أيضاً، والمعنى اننا مرتابون في عبادة الله وحده وترك عبادة الأوثان، والتنوين فيه وفي شك للتفخيم.

﴿قال يا قوم أرأيتم﴾ قال ابن عطية: هي من رؤية القلب، والشرط الذي بعده وجوابه يسد مسد مفعولين لأرأيتم. قال الشيخ: والذي تقرر أن أرأيتم ضمن معنى أخبرني، وعلى تقدير ان لا يضمن فجعله الشرط والجواب لا تسد مسد مفعولي علمت.

﴿ان كنت على بينة من ربي﴾ أي حجة ظاهرة وبرهان صحيح ﴿وآتاني منه﴾ أي من جهته ﴿رحمة﴾ أي نبوة، وهذه الأمور وان كانت متحققة الوقوع لكنها صدرت بكلمة الشك اعتباراً بحال المخاطبين لانهم في شك من ذلك كما وصفوه عن أنفسهم، وعبارة الشهاب انه من باب ارخاء العنان.

﴿فمن ينصُرني من الله﴾ استفهام معناه النفي أي لا ناصر لي يمنعني من عذاب الله والنصرة مستعملة في لازم معناها وهو المنع ولذا عدي بمن ﴿ان عَصَيْتُهُ﴾ في تبليغ الرسالة وراقبتكم وفترت عما يجب علي من البلاغ ﴿فما تَزِيدُونَنِي﴾ بتشيطكم اي اي ﴿غير تخسير﴾ بأن تجعلوني خاسراً بإبطال عملي وما منحني الله والتعرض لعقوبة الله لي، قال الفراء: أي تضليل وإبعاد من الخير. وقيل المعنى فما تَزِيدُونَنِي باحتجاجكم بدين آبائكم غير بصيرة بخسارتكم، وقال مجاهد وعطاء الخراساني: ما تزدادون أنتم الا خساراً.

وَيَنْقُومِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾

﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية﴾ أي معجزة ظاهرة، وقد مر تفسير هذه الآية في الاعراف، وانما قال هذه ناقة الله لانه أخرجها لهم من جبل على حسب اقتراحهم. وقيل من صخرة صماء، والاضافة للتشريف كبيت الله وعبد الله ﴿فذروها﴾ أي فدعوها ﴿تأكل في أرض الله﴾ مما فيها من المراعي التي تأكلها الحيوانات وليس عليكم كلفة في مؤنتها، وهذا من تنمة إلزامهم.

قال الكرخي: أي ترع نباتها وتشرب ماءها فهو من قبيل الاكتفاء نحو ﴿تقبلكم الحر﴾ وجعل تأكل من عموم المجاز يحتاج الى قرينة صارفة.

﴿ولا تمسوها بسوء﴾ قال الفراء: بعقر، والظاهر أن النهي عما هو أعم من ذلك ﴿فياخذكم﴾ ان قتلتموها ﴿عذاب قريب﴾ في الدنيا، جواب النهي أي قريب من عقرها وذلك ثلاثة أيام.

﴿فعقروها﴾ أي فلم يمتثلوا الأمر من صالح ولا النهي بل خالفوا كل ذلك فوقع منهم العقرها وعقرها قدار وهو من اشقى الأشقياء ﴿فقال﴾ لهم صالح ﴿تمتعوا في داركم﴾ أي بالعيش في منازلكم أو بلادكم ومساكنكم فان العقاب نازل عليكم وعبر عن الحياة بالتمتع لأن الحي يكون متمتعاً بالحواس ﴿ثلاثة أيام﴾ ثم تهلكون قيل عقروها يوم الأربعاء فأقاموا الخميس والجمعة والسبت وأتاهم العذاب يوم الأحد.

﴿ذلك﴾ أي التمتع ثلاثة أيام ﴿وعد غير مكذوب﴾ فيه، فحذف الجار اتساعاً أو من باب المجاز كأن الوعد إذا وفي به صدق ولم يكذب، ويجوز أن يكون مصدراً أي وعد غير كذب.

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ  
يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا  
فِي دِيَارِهِمْ جَثْمِينَ ﴿٦٧﴾

﴿فلما جاء أمرنا﴾ أي عذابنا أو أمرنا بوقوع العذاب ﴿نجينا صالحاً  
والذين آمنوا معه برحمة﴾ عظيمة ﴿منا﴾ قد تقدم تفسير هذا في قصة هود،  
والباء للسببية أو للمصاحبة وهي بالنسبة إلى صالح النبوة وبالنسبة إلى المؤمنين  
الايان ﴿و﴾ نجيناهم ﴿من خزي يومئذ﴾ وهو هلاكهم بالصيحة، وسمي  
خزياً لأن فيه خزيًا للكفار والخزي الذل والمهانة، وقيل من عذاب يوم القيامة  
والأول أولى ويومئذ بكسر الميم اعراباً وفتحها بناء لإضافته إلى مبنى، قال  
السيوطي: وهو الأكثر أي في الاستعمال وإلا فهما قراءتان سبعيتان على السواء  
﴿ان ربك هو القوي العزيز﴾ القادر الغالب الذي لا يعجزه شيء والخطاب  
لرسول الله (ﷺ) والقصة تمت عند قوله يومئذ.

﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة﴾ أي في اليوم الرابع من عقر الناقة صيح  
بهم فماتوا وذكر الفعل لان الصيحة والصبح واحد مع كون التأنيث غير  
حقيقي والصيحة فعلة تدل على المرة من الصباح وهو الصوت الشديد يقال  
صاح يصيح صياحاً أي صوت بقوة قيل صيحة جبريل وقيل صيحة من السماء  
فتقطعت قلوبهم وماتوا وتقدم في الأعراف فأخذتهم الرجفة قيل ولعلها وقعت  
عقب الصيحة.

﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ ميتين صرعى هلكت ساقطين على  
وجوههم موت قد لصقوا بالتراب كالطير إذا جثمت، والجثوم كالركوب من  
البعير والفاعل جاثم وجثام مبالغ يقال جثم الطائر والأرنب يجثم.



كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الْآلَانَ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ الْأَبْعَدًا لَثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ  
رُسُلَنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ ﴿٦٩﴾  
فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا  
أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾

﴿كان لم يغنوا فيها﴾ أي كأنهم لم يقيموا في بلادهم أو ديارهم ولم يعيشوا فيها ولم يعمرها ولم ينعموا، والتقدير مماثلين لمن لم يوجد ولم يقيم في مقام قط، يقال غنيت بالمكان إذا أتيت وأقمت فيه.

﴿ألا إن ثمود كفروا ربهم﴾ وضع الظاهر موضع المضمرة لزيادة البيان وصرح بكفرهم مع كونه معلوماً تعليلاً للدعاء عليهم بقوله ﴿ألا بعداً لثمود﴾ بالصرف وتركه قراءتان سبعيتان على معنى الحي والقبيلة وقد تقدم تفسير هذه القصة في الاعراف بما يحتاج الى مراجعته ليضم ما في احدي القصتين من الفوائد إلى الاخرى.

﴿ولقد جاءت رسلنا ابراهيم﴾ بسكون السين وضمها حيثما وقع مضافاً الى الضمير بخلاف ما إذا اضيف الى مظهر فليس فيه إلا ضمها، وهذا شروع في قصة ابراهيم لكنها مذكورة هنا توطئة لقصة لوط لا استقلالاً ولذا لم يذكرها على أسلوب ما قبلها وما بعدها فلم يقل وأرسلنا ابراهيم الى كذا، وعاش ابراهيم من العمر مائة وخمسة وسبعين سنة وبينه وبين نوح ألفا سنة وستمائة سنة وأربعون سنة، وابنه اسحاق عاش مائة وثمانين سنة ويعقوب بن اسحاق عاش مائة وخمسة وأربعين سنة، ولوط عليه السلام هو ابن أخي ابراهيم عليه السلام.

وكانت قرى قوم لوط بنواحي الشام و ابراهيم ببلاد فلسطين فلما انزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط مروا بإبراهيم ونزلوا عنده وكان كل من نزل عنده

يحسن قراءه وكان مرورهم عليه لتبشيريه بهذا البشارة الآتية فظنهم أضيافاً وهم جبريل وميكائيل واسرافيل، قاله عطاء، وقيل كانوا تسعة قاله الضحاك، وقيل احد عشر قاله السدي، وقيل اثني عشر قاله مقاتل، وقيل كان جبريل ومعه سبعة املاك، قاله محمد بن كعب القرظي والأول أولى لأن أقل الجمع ثلاثة.

﴿بالبشرى﴾ التي بشره بها هي بشارته بالولد وقيل بإهلاك قوم لوط، والأول أولى ﴿قالوا سلاماً﴾ أي سلمنا عليك سلاماً وهذه تحيتهم التي وقعت منهم وهي لفظ سلاماً ﴿قال﴾ لهم ابراهيم ﴿سلام﴾ أي أمركم سلام أو عليكم سلام وهذه التحية الواقعة منه جواباً وهي لفظ سلام وحياتهم بالجملة الاسمية في جواب تحيتهم بالفعلية ومن المعلوم ان الأولى أبلغ من الثانية فكانت تحيته أحسن من تحيتهم كما قال تعالى ﴿فحيوا بأحسن منها﴾.

﴿فما لبث﴾ أي ابراهيم ﴿ان جاء بعجل حنيذ﴾ قال أكثر النحاة «ان» هنا بمعنى حتى، وقيل التقدير فما لبث عن ان جاء أي ما ابطأ إبراهيم عن مجيئه بعجل، وما نافية قاله سيويه، وقال الفراء: فما لبث مجيئه أي ما ابطأ مجيئه، وقيل ان ما موصولة والتقدير فالذي لبث إبراهيم هو مجيئه والحنيذ المشوي مطلقاً.

وقيل المشوي بحرّ الحجارة من غير أن تمسه النار، وهذا من فعل أهل البادية يقال حنذ الشاة يحنذها جعلها فوق حجارة محماة لينضجها فهي حنيذ وقيل هو سمين وقيل هو السميط، وقيل النضيج وهو فعيل بمعنى مفعول وإنما جاءهم بعجل لان البقر كانت أكثر أمواله.

﴿فلما رأى﴾ الرؤية بصريه أي أبصر ﴿أيديهم لا تصل اليه﴾ أي لا يمدونها إلى العجل المشوي كما يمد يده من يريد الأكل ﴿نكرهم﴾ يقال نكرته وأنكرته وامتنكرته إذا وجدته على غير ما تعهد، ويقال أنكرت لما تراه بعينك

ونكرت لما تراه بقلبك، قيل وانما استنكر منهم ذلك لأن عادتهم ان الضيف إذا نزل بهم ولم يأكل من طعامهم ظنوا انه قد جاء بشر، ولم يأت بخير قاله قتادة.

وفي الذاريات ﴿قوم منكرون﴾ أي غرباء لا أعرفهم قال ذلك في نفسه كما قاله ابن عباس، وقيل انما انكر أمرهم لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان، وقال أبو العالية: انكر سلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الأرض.

﴿وأوجس منهم﴾ أي أحس في نفسه ﴿خيفة﴾ أي خوفاً وفزعاً، وقيل معنى أوجس أضمر في نفسه، والأول ألصق بالمعنى اللغوي، والوجس هو رعب القلب والايحاس الادراك وقيل الاضمار، وفي السمين الايحاس حديث النفس وأصله من الدخول كأن الخوف داخله والوجس ما يعترى النفس أو ان الفزع ووجس في نفسه كذا أي خطر بها يحس وجساً ووجيماً وكأنه ظن انهم قد نزلوا به لأمر ينكره أو لتعذيب قومه.

﴿قالوا لا تخف﴾ قالوا له ذلك مع كونه لم يتكلم بما يدل على الخوف بل أوجس ذلك في نفسه فلعلهم استدلوا على خوفه بأمارات كظهور أثره على وجهه أو قالوه له بعد ما قال عقب ما أوجس في نفسه من الخيفة قولاً يدل على الخوف كما في قوله في سورة الحجر ﴿قال إنا منكم وجلون﴾ ولم يذكر ذلك هنا اكتفاء بما هنالك.

ثم عللوا نبيه عن الخوف بقولهم ﴿إنا أرسلنا إلى قوم لوط﴾ خاصة ولوط أول من آمن بإبراهيم وأبوه هاران أخو إبراهيم، ويمكن ان يكون إبراهيم عليه السلام قد قال قولاً يكون هذا جواباً عنه كما قال: ﴿فما خطبكم أيها المرسلون قالوا إنا أرسلنا الى قوم مجرمين﴾.

﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ (٧١)

﴿وامراته﴾ أي سارة زوجة ابراهيم وهي ابنة هرون بن ناحورا وهي ابنة عم ابراهيم ﴿قائمة﴾ قيل كانت قائمة عند تحاورهم وراء الستر تسمع كلامهم وقيل كانت واقفة قائمة تخدم الملائكة وهو جالس؛ والجملة مستأنفة أو حالية ﴿فضحكت﴾ الضحك هنا هو الضحك المعروف الذي يكون للتعجب أو للسرور كما قاله الجمهور، وأصل الضحك انبساط الوجه من سرور يحصل للنفس ولظهور الاسنان عنده سميت مقدمات الاسنان الضواحك ويستعمل في السرور المجرد وفي التعجب المجرد أيضا وعليه أكثر المفسرين.

وقال مجاهد وعكرمة انه الحيض، والعرب تقول ضحكت الأرنب اذا حاضت وقد انكر بعض اللغويين ان يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت، قال الراغب: وقول من قال حاضت ليس تفسيرا لقوله فضحكت كما تصوره بعض المفسرين وانما ذكر ذلك تنصيحا لحالها فان ذلك أمانة لما بشرت به فحيضها في الوقت ليعلم ان حملها ليس بمنكر لأن المرأة ما دامت تحيض فانها تحمل.

قال الفراء: ضحكت بمعنى حاضت لم نسمعه من ثقة، وقال الزجاج: ليس بشيء ضحكت بمعنى حاضت، وقال ابن الانباري: قد أنكر الفراء وأبو عبيده ان يكون ضحكت بمعنى حاضت، وقال في المحكم: ضحكت المرأة حاضت والأول أولى ولا مصير الى المجاز الا عند تعذر الحقيقة، وظاهر النص أنها ضحكت.

قال قتادة: ضحكت تعجبا مما فيه قوم لوط من الغفلة وبما أتاهم من العذاب، وقال السدي: ضحكت تعجبا من عدم أكلهم، وقال مقاتل والكلبي: ضحكت من خوف ابراهيم من ثلاثة وهو فيا بين خدومه وحشمه

وخواصه . وقيل ضحكت من زوال الخوف عنها وعن إبراهيم، حين قالوا لا تخف . وقيل ضحكت سروراً من البشارة .

وقال وهب: ضحكت تعجباً من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها . وقيل غير ذلك مما ليس في ذكره كثير فائدة والله أعلم مما ضحكت .  
وقال ابن عباس: حاضت وهي بنت ثمان وتسعين سنة . وعن مجاهد قال: وكان إبراهيم ابن مائة سنة .

﴿فبشرناها بإسحاق﴾ ظاهره أن التبشير كان بعد الضحك، وقال الفراء: فيه تقديم وتأخير، والمعنى فبشرناها فضحكت سروراً بالولد وولد إسحق بعد البشارة بسنة وكانت ولادته بعد اسماعيل بأربعة عشر سنة ﴿ومن وراء﴾ أي وهبنا لها من وراء ﴿إسحاق يعقوب﴾ وقرئ بجر يعقوب ومنعه الفراء وقرئ بالرفع على الابتداء وخبره الظرف الذي قبله وبالنصب وهما سبعيتان .

وقد وقع التبشير هنا لها ووقع لإبراهيم في قوله تعالى ﴿وبشرناه بغلام حليم﴾ وبشروه بغلام عليم لأن كل واحد منهما مستحق للبشارة به لكونه منهما، قال ابن عباس: هو ولد الولد أي فبشرت بأنها تعيش حتى ترى ولد الولد وقد رآته .

قَالَتْ يَتُوبُنِيَّ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٧﴾

﴿قالت ياويلتنا﴾ مستأنفة كأنه قيل فماذا قالت وهي لم ترد الدعاء على نفسها بالويل، ولكنها كلمة تقع كثيراً على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يعجبن منه، وأصل الويل الخزي، ثم شاع في كل أمر فظيع، والألف مبدلة من ياء الاضافة والاستفهام في قولها.

﴿أألد وأنا عجوز﴾ للتعجب، أي كيف ألد وأنا شيخة قد طعنت في السن يقال عجزت تعجز مخففاً ومثقلاً عجزاً وتعجزاً أي طعنت في السن، ويقال عجوز وعجوزة، وأما عجزت بكسر الجيم فمعناه عظمت عجيزتها ﴿وهذا بعلي﴾ أي زوجي ابراهيم ﴿شيخاً﴾ لا تحبل من مثله النساء ونصبه على الحال والعامل فيه معنى اسم الاشارة.

ومثل هذه الحال من غوامض العربية اذ لا تجوز الا حيث يعرف الخبر، وقرئ بالرفع على انه خبر محذوف أي هو شيخ أو خبر بعد خبر أو هو الخبر، وبعلي بدل؛ وجوز كونه عطف بيان، وكون شيخ تابعاً لبعلي أيضاً والبعلي هو المستعلي على غيره، والزوج مستعمل على المرأة قائم بأمرها فسمي بعلاً لذلك. قيل كان ابراهيم ابن مائة وعشرين سنة وهي بنت تسع وتسعين وقيل بنت تسعين وهذه المبشرة هي سارة امرأة ابراهيم، وقد كان ولد لابراهيم من هاجر أمته اسماعيل فتمنت سارة أن يكون لها ابن وأيست منه لكبر سنها فبشرها الله به على لسان ملائكته، وكانت بين الولادة والبشارة سنة.

﴿إن هذا لشيء عجيب﴾ أي ما ذكرته الملائكة من التبشير بحصول الولد مع كونها في هذه السن العالية التي لا يولد لمن كان في مثلها شيء يقضى منه العجب ولم تنكر قدرة الله.

قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ  
مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾

﴿قالوا أتعجبين من أمر الله﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر والاستفهام فيها للانكار، أي كيف تعجبين من قضاء الله وقدره وهو لا يستحيل عليه شيء. وقيل المعنى لا تعجبي من ذلك، وإنما أنكروا عليها مع كون ما تعجبت منه من خوارق العادة لأنها من بيت النبوة، ولا يخفى على مثلها أن هذا من مقدوراته سبحانه، ولهذا قالوا.

﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ أي الرحمة التي وسعت كل شيء واستبعت كل خير، وإنما وضع المظهر موضع المضمرة لزيادة تشريفها، والبركات الخيرات النامية المتكاثرة في كل باب، التي من جملتها هبة الاولاد، والبركة هي النمو والزيادة؛ وقيل الرحمة النبوة والبركات الأسباط من بني اسرائيل لما فيهم من الانبياء وكلهم من ولد ابراهيم.

وانتصاب أهل البيت على المدح أو الاختصاص وبين النصيين فرق ذكره السمين، وصرف الخطاب من صيغة الواحدة الى الجمع لقصد التعميم، وقيل خطاب لها وله، وهذا على معنى الدعاء من الملائكة بالخير والبركة، وفيه دليل على أن أزواج الرجل من أهل بيته عن ابن عباس أنه كان ينهي عن أن يزداد في جواب التحية على قولهم عليكم السلام ورحمة الله وبركاته ويتلو هذه الآية. وعن ابن عمر نحوه ﴿إنه حميد﴾ أي يفعل موجبات الحمد من عباده على سبيل الكثرة ﴿مجيد﴾ كثير الاحسان إلى عباده بما يفيضه اليهم من الخيرات. وقيل المجيد المنيع الذي لا يرام.

وقال الخطابي: المجيد الواسع الكريم وأصل المجد في كلامهم السعة، وقيل هو ذو الشرف والكرم والجملة تعليل لقوله رحمة الله وبركاته الخ.

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ مُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾

﴿فلما ذهب عن ابراهيم الروع﴾ أي الخيفة التي أوجسها في نفسه، يقال ارتاع من كذا إذا خاف. قال مجاهد: الروع الفرق وهو الخوف وقيل الفرع ﴿وجاءته البشري﴾ أي بالولد أو بقولهم لا تحف ﴿بمجادلنا في قوم لوط﴾ قال الأخفش والكسائي: إن مجادلنا في موضع جادلنا فيكون هو جواب لما، لما تقرر من أن جوابها يكون بالماضي لا بالمستقبل.

قال النحاس: جعل المستقبل مكانه كما يجعل الماضي مكان المستقبل في الشرط وقيل ان الجواب محذوف ومجادلنا في محل نصب على الحال قاله الفراء وتقديره فلما ذهب عنه الروح وجاءته البشري اجترأ على خطابنا حال كونه بمجادلنا، أي يجادل رسلنا.

وقيل ان المعنى أخذ أو جعل مجادلنا ومجادلته لهم، قيل انه لما سمع قولهم إنا مهلكو أهل هذه القرية، قال: أرأيتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين أتهلكونهم قالوا: لا، قال: فأربعون، قالوا: لا، قال فعشرون: قالوا: لا، قال: فعشرة فخمسة، قالوا: لا، قال: فواحد؛ قالوا: لا، قال: ان فيها لوطاً، قالوا: نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله. الآية.

وعن ابن عباس قال: لما جاءت الملائكة الى ابراهيم قالوا لابراهيم ان كان فيها خمسة يصلون رفع عنهم العذاب، فهذا معنى مجادلته في قوم لوط، أي في شأنهم وأمرهم، وقيل معناه يكلمنا ويسألنا، لأن العبد لا يقدر أن يخاصم ربه وإن كان نبياً؛ ولهذا قال جمهور المفسرين معناه يجادل رسلنا.



إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾

ثم أثنوا على ابراهيم أو أثنى الله عليه فقال ﴿ان ابراهيم حلِيم﴾ أي ليس بعجول في الأمور ولا بموقع لها على غير ما ينبغي ﴿أواه﴾ أي كثير التأوه أو الرحيم ﴿منيب﴾ أي راجع الى الله، وقد تقدم في براءة الكلام على الاواه والمنيب هو المقبل الى طاعة الله. وقال قتادة: المنيب المخلص. وفي الآية ما يشير الى أن المراد بالمجادلة فيها تقدم مجادلة الرسل لا مجادلة الرب كما قاله الجمهور، والمقصود من ذلك بيان الحامل له على المجادلة، وهو رقة قلبه وفرط رحمته، فطلب تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون، ويرجعون عما هم فيه من الكفر والمعاصي.

﴿يا ابراهيم أعرض عن هذا﴾ هذا قول الملائكة له أي أعرض عن هذا المقال واترك هذا الجدال في أمر قد فرغ منه وجف به القلم وحق به القضاء ﴿انه قد جاء أمر ربك﴾ الضمير للشأن والمعنى مجيء عذابه الذي قدره عليهم وسبق به قضاؤه في أزله ﴿وانهم آتيهم عذاب غير مردود﴾ أي لا يرده دعاء ولا جدال بل هو واقع بهم لا محالة ونازل بهم على كل حال ليس بمصروف ولا مدفوع.

﴿ولما جاءت رسلنا لوطاً﴾ أي لما خرجت الملائكة من عند ابراهيم وكان بين ابراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ، جاءوا الى لوط فلما رأهم لوط وكانوا في صورة غلمان حسان مرد ﴿سيء بهم﴾ أي ساءه مجيئهم اليه، يقال ساءه يسوؤه لانهم جاءوه في صورة غلمان حسان مرد، فظن أنهم أناس، فخاف عليهم أن

يقصدهم قومه فيعجز عن مدافعتهم.

﴿وضاق بهم ذرعاً﴾ قال الأزهري: الذرع يوضع موضع الطاقة، وأصله أن البعير يذرع بيده في سيره على قدر سعة خطوة أي ييسطها فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق ذرعه عن ذلك فجعل ضيق الذرع كناية عن قلة الوسع والطاقة وشدة الأمر.

وقيل هو من ذرعه القيء إذا غلبه وضاق عن حبسه، والمعنى انه ضاق صدره لما رأى الملائكة في تلك الصورة خوفاً عليهم من قومه لما يعلم من فسقهم وارتكابهم لفاحشة اللواط ولم يجد مخلصاً.

قال ابن عباس. ساء ظناً بقومه وضاق ذرعاً بأضيافه، وقيل ضاق بهم قلباً وصدرأ ولا يعرف أصله، ويقال ضاق فلان ذرعاً بكذا إذا وقع في مكروه ولا يطيق الخروج منه ﴿وقال هذا يوم عصيب﴾ أي شديد كأنه قد عصب به الشر والبلاء أي شد به مأخوذ من العصابة التي يشد بها الرأس، يقال عصب وعصيب وعصوب على التكثير أي يوم مكروه يجتمع فيه الشر، ومنه عصابة وعصابة أي مجتمعو الكلمة، ورجل معصوب أي مجتمتع الخلق.

وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يهرعون إليه وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْقَوْمِرْ هَتُولَاءِ  
 بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾  
 قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ  
 آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾

﴿وجاءه قومه يهرعون إليه﴾ أي جاءوا لوطاً يسرعون إليه قاله قتادة، وقال الكسائي والفراء وغيرهما من أهل اللغة: لا يكون الإهراع إلا إسراعاً مع رعدة يقال أهرع الرجل إهراعاً أي أسرع في رعدة من برد أو غضب أو همي وقيل يهرولون قاله مجاهد، وقيل هو مشي بين الهرولة والعدو، قاله الحسن وقال شمر: هو بين الهرولة والخبب والجمز.

والمعنى أن قوم لوط لما بلغهم مجيء الملائكة في تلك الصورة أسرعوا إليه كأنما يدفعون دفعاً لطلب الفاحشة من أضيافه ﴿ومن قبل﴾ أي ومن قبل مجيء الرسل ﴿كانوا يعملون السيئات﴾ أي يأتون الرجال في أدبارهم وكانت ذلك عادتهم، فلا حياء عندهم منها فلما جاؤوا إلى لوط وقصدوا أضيافه لذلك العمل قام إليهم لوط مدافعاً.

﴿قال يا قوم﴾ مخاطبهم بهذا الخطاب وهم من وراء الباب خارجه ﴿هؤلاء بناتي﴾ أي تزوجهن ودعوا ما تطلبونه من الفاحشة بأضيافي، وقد كان له ثلاث بنات وقيل ابنتان وكانوا يطلبون منه أن يزوجهن بهن فيمتنع لخبثهم لا لعدم كفاءتهم، وكان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما بتيه والمراد بالجمع ما فوق الواحد.

وقيل أراد بقوله هؤلاء بناتي النساء جملة، لأن نبي القوم أب لهم قاله ابن عباس وهو قول مجاهد وسعيد بن جبیر، قال الكرخي: وهذا القول أولى لأن

إقدام الانسان على عرض بناته على الأوباش والفجار مستبعد لا يليق بأهل المروءة فكيف بالانبياء. وأيضاً فبناته لا تكفي الجمع العظيم أما بنات أمته ففيهن كفاية لكل انتهى.

لكن فيه مخالفة لظاهر النظم، وقيل كان في ملته يجوز تزوج الكافر بالمسلمة قال قتادة: المراد بناته لصلبه، وفي أضيافه بيناته، وقال الحسين بن الفضل: عرض بناته عليهم بشرط الإسلام، وقالت طائفة: أما كان هذا القول منه على طريق المدافعة ولم يرد الحقيقة، وعن حذيفة بن اليمان قال: عرض عليهم بناته تزويجاً وأراد أن يقي أضيافه بتزويج بناته.

﴿هن أطهر لكم﴾ أي أحل وأنزه والتطهر التنزه عما لا يحل، وليس في صيغة أطهر دلالة على التفضيل، بل هي مثل ﴿الله أكبر﴾ وقرأ الحسن وعيسى ابن عمر بنصب أطهر، وقرأ الباقر بالرفع، ووجه النصب أن يكون اسم إشارة مبتدأ وخبره بناتي. وهن ضمير فصل، وأطهر حال، وقد منع الخليل وسيبويه والأخفش مثل هذا، لأن ضمير الفصل الذي يسمى عماداً إنما يكون بين كلامين بحيث لا يتم الكلام إلا بما بعدها، نحو كان زيد هو أخاك ﴿فاتقوا الله ولا تحزون في ضيفي﴾ أي اتقوا الله بترك ما تريدون من الفاحشة بهم، ولا تذلوني وتجلبوا عليّ العار في ضيفي، والضيف يطلق على الواحد والاثنين والجماعة، لأنه في الأصل مصدر، ومنه قول الشاعر:

لا تعدمي الدهر سفار الجازر للضيف والضيف أحق زائر

ويجوز فيه التثنية والجمع، والأول أكثر، يقال خزري الرجل خزاية: أي استحيا أو ذل أو هان. وخزري خزياً: إذا افتضح، ومعنى في ضيفي: في حق ضيفي، فخزري الضيف خزري للمضيف، ثم وبخهم فقال ﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ يرشدكم إلى ترك هذا العمل القبيح ويمنعكم منه، فأجابوا عليه معرضين عما نصحهم به،

وأرشدهم إليه بقولهم ﴿ما لنا في بناتك من حق﴾ أي ما لنا فيهم من شهوة ولا حاجة لأن من احتاج إلى شيء فكأنه حصل له فيه نوع حق، ومعنى ما نسبوه إليه من العلم أنه قد علم منهم المكالبة على إتيان الذكور وشدة الشهوة إليهم، فهم من هذه الخبيثة كأنهم لا حاجة لهم إلى النساء، ويمكن أن يريدوا: أنهم لا حق لنا في نكاحهن، لأنه لا ينكحهن ولا يتزوجهن إلا مؤمن ونحن لا نؤمن أبداً، وقيل إنهم كانوا قد خطبوا بناته من قبل فردهم، وكان من سنتهم أن من خطب فرداً فلا تحل المخطوبة أبداً؛ ﴿وإنك لتعلم ما تريد﴾ من إتيان الذكور، ثم إنه لما علم تصميمهم على الفاحشة وأنهم لا يتركون ما قد طلبوه ﴿قال لو أن لي بكم قوة﴾ وجواب لو محذوف، والتقدير لدافعتكم عنهم ومنعتكم منهم، وهذا منه عليه السلام على طريق التمني: أي لو وجدت معيماً وناصرًا، فسمي ما يتقوى به قوة ﴿أو آوي إلى ركن شديد﴾ عطف على ما بعد لوطاً فيه من معنى الفعل، والتقدير: لو قويت على دفعكم أو آويت إلى ركن شديد. وقرئ ﴿أو آوي﴾ بالنصب عطفاً على قوة كأنه قال: لو أن لي بكم قوة أو إيواء إلى ركن شديد، ومراده بالركن الرشيد: العشيبة، وما يمنع به عنهم هو ومن معه لأنه كان أولاً بالعراق مع إبراهيم فلما هاجر إلى الشام أرسله الله إلى أهل سدوم وهي قرية عند حمص.

قال أبو هريرة: ما بعث الله نبياً بعده إلا في منعة من عشيرته، وقيل أراد بالقوة الولد وبالركن من ينصره من غير ولده، وقيل أراد بالقوة قوته في نفسه قال السدي: إلى جند شديد لقاتلتكم.

وقد ثبت في البخاري وغيره من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: يغفر الله للوط إن كان يأوي إلى ركن شديد، وهو مروى في غير الصحيح من طريق غيره من الصحابة، وقال النووي: المراد بالركن الشديد هو الله عز وجل فإنه أشد الأركان وأقواها وأمنعها أهـ. وهو يخالف ظاهر الآية والحديث المتقدم.

قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبْنَا بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ الْبَيْتِ وَلَا يَلْفَتْهُ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَكِيًّا إِنَّهُ مُمْسِكٌ بِمَا أَخَذَ مِنْهُمْ إِنْ مَوَّعَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا مَكَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُودٍ ﴿٨٢﴾

ولما سمعته الملائكة يقول هذه المقالة ووجدوا قومه قد غلبوه وعجز عن مدافعتهم ﴿قالوا يا لوط انا رسل ربك﴾ أخبروه أولاً انهم رسل ربه ثم بشروه بقولهم ﴿لن يصلوا اليك﴾ وهذه الجملة موضحة لما قبلها لانهم اذا كانوا مرسلين من عند الله اليه لم يصل عدوه اليه بسوء ولم يقدروا عليه ثم أمروه ان يخرج عنهم فقالوا له .

﴿فأسر بأهلك﴾ قرىء بالوصل وبالقطع من اسرى وسرى وهما لغتان سبعيتان فصيحتان، قال تعالى ﴿والليل اذا يسر﴾ وقال ﴿سبحان الذي أسرى﴾ وهل هما بمعنى واحد أو بينهما فرق .

خلاف مشهور فقيل هما بمعنى واحد وهو قول أبي عبيد . وقيل ان أسرى للمسير من أول الليل وسرى للمسير من آخره وهو قول الليث، وأما سار فمختص بالنهار، وليس مقلوباً من سرى والباء للتعدي أو للمصاحبة والأهل هم بنتاه فلم يخرج من القرية الا هو وبنتاه فقط، وفي القرطبي: خرج لوط وطوى الله له الأرض في وقته حتى نجا ووصل الى ابراهيم .

﴿بقطع﴾ أي مصاحبين بقطع ﴿من الليل﴾ القطع الطائفة منه، قال ابن الاعراب: بساعة منه؛ وقال الأخفش: بجنح من الليل، وقال الضحاك: ببقية الليل وقال قتادة: بعد مضي أوله وقيل انه السحر الأول، وقيل بنصف منه لأنه قطعة منه مساوية لباقيه، وقيل بظلمة منه، وقيل بعد هدو من الليل، وقال

ابن عباس: بجوف الليل وبسواده.

وقيل ان الباء بمعنى في؛ وقد تقدم الكلام على القطع في يونس بأشبع من هذا وقيل ان السرى لا يكون إلا في الليل فما وجه زيادة بقطع من الليل؟ قيل لو لم يقله لجاز أن يكون في أوله قبل اجتماع الظلمة وليس ذلك بمراد.

﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ أي بقلبه إلى ما خلف أو لا ينظر إلى ما وراءه أو لا يشتغل بما خلفه من مال أو غيره، قيل وجه النهي عن الالتفات أن لا يروا عذاب قومهم وهول ما نزل بهم فيرحمهم ويرقوا لهم، أو لئلا ينقطعوا عن السير المطلوب منهم بما يقع من الالتفات فانه لا بد للملتفت من فترة في سيره، وقع فيه ضمير منكم للاهل فهو التفات فقوله لا يلتفت من تسمية النوع.

وهذا من بديع النكات وهو عند المتأخرين من أهل البديع أن يؤق بشيء من البديع ويذكر اسمه على سبيل التورية، وتبجحوا باختراعه وانه قد وقع في القرآن في هذه الآية.

قال الخفاجي: ثم أي وجدت منه قوله تعالى ﴿من وجد في رحله فهو جزاؤه﴾ في سورة يوسف فإن ﴿فهو جزاؤه﴾ جزاء من الشرطية وقد ذكر انه جزاء ومنه قوله تعالى: ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها﴾ إلى قوله: ﴿كذلك يضرب الله الأمثال﴾ اهـ.

﴿الا امرأتك﴾ بالنصب سبعية والاستثناء من قوله فأسر بأهلك أي أسر بأهلك جميعاً إلا امرأتك فلا تسر بها لكونها كافرة، وأنكر قراءة الرفع جماعة منهم أبو عبيدة، قال النحاس: الرفع على البدل له معنى صحيح أي لا يلتفت منكم أحد الا امرأتك فانها تلتفت وتهلك، وقيل أن الرفع على البدل من أحد ويكون الالتفات بمعنى التخلف لا بمعنى النظر الى الخلف، فكأنه قال ولا

يتخلف منكم أحد الا امرأتك فانها تتخلف، والملجىء إلى هذا التأويل البعيد الفرار من تناقض القراءتين.

﴿انه مصيبتها ما أصابهم﴾ من العذاب وهو رميهم بالحجارة، والجملة تعليل للاستثناء ﴿إن موعدهم الصبح﴾ هذه الجملة تعليل لما تقدم من الأمر بالاسراء والنهي عن الالتفات، والمعنى ان موعد عذابهم أي وقت هلاكهم الصبح المسفر عن تلك الليلة، روي انه قال لهم متى موعد هلاكهم فقالوا هذه المقالة فقال أريد أسرع من ذلك فقالوا ﴿أليس الصبح بقريب﴾ الهمة للانكار التقريبي على حد ﴿لم نشرح لك صدرك﴾ والجملة تأكيد للتعليل ولعل جعل الصبح ميقاتاً لهلاكهم لكون النفوس فيه أسكن، والناس فيه مجتمعون لم يتفرقوا إلى أعمالهم.

﴿فلما جاء أمرنا﴾ أي الوقت المضروب لوقوع العذاب فيه أو المراد بالأمر نفس العذاب والأول أولى ﴿جعلنا عاليها﴾ أي عالي قرى قوم لوط ﴿سافلها﴾ والمعنى انه قلبها على هذه الهيئة وهي كون عاليها صار سافلها وسافلها صار عاليها وذلك لأن جبريل أدخل جناحه تحتها فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء ثم قلبها عليهم:

قال مجاهد: لما أصبحوا عدا جبريل على قريتهم وقطعها من أركانها ثم أدخل جناحه ثم حملها على خوافي جناحه بما فيها ثم صعد بها الى السماء، حتى سمع أهل السماء صياح ديكهم ونباح كلابهم ثم قلبها فكان أول ما سقط منها سراقها فلم يصب قوماً ما أصابهم.

ثم ان الله طمس على أعينهم ثم قلبت قريتهم وهي خمس مدائن أكبرها سدوم وهي المؤتفكات المذكورة في سورة براءة يقال كان فيها أربعة آلاف ألف.

﴿وأمطرنا عليها﴾ أي على المدن حين رفعها جبريل أو على شذاذها وعلى من كان خارجاً عنها من مسافرينها أو من بعد قلبها، قيل انه يقال امطرنا في



العذاب ومطرنا في الرحمة وقيل هما لغتان يقال مطرت السماء وأمطرت حكى ذلك الهروي.

﴿حجارة من سجيل﴾ هو الطين المتحجر بطبخ أو غيره، وقيل هو الشديد الصلب من الحجارة، وقيل هو الكثير، وقيل ان السجيل لفظه غير عربية أصله سنج وجيل وهما بالفارسية حجر وطين عربتها العرب فجعلتها اسماً واحداً.

قال سعيد: معناه سنك كل فارسي معرب لأن العرب اذا تكلمت بشيء من الفارسي صار لفة للعرب ولا يضاف الى الفارسي مثل قوله سندس واستبرق، فكل هذه ألفاظ فارسية تكلمت بها العرب واستعملتها في ألفاظهم فصارت عربية.

قال قتادة وعكرمة: هو الحجر والطين، دليله قوله تعالى في موضع آخر ﴿حجارة من طين﴾ وقال مجاهد: أولها حجر وآخرها طين. وقال الحسن: أصل الحجارة طين فشدت، وقال الضحاك: يعني الأجر. وقيل هو من لغة العرب. وذكر الهروي إن السجيل اسم لسماء الدنيا.

قال ابن عطية: وهذا ضعيف يردده وصفه بمنضود، وقيل هو بحر معلق في الهواء بين السماء والأرض، وقيل هي جبال في السماء الدنيا. وقال الزجاج: هو من التسجيل لهم أي ما كتب لهم من العذاب فهو في معنى سجين، ومنه قوله تعالى ﴿وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم﴾ وقيل هو من أسجلته إذا أعطيته فكانه عذاب أعطوه والأول أولى.

﴿منضود﴾ أي نضد بعضه فوق بعض، ومنه ﴿وطلح منضود﴾ أي متراكب والمراد وصف الحجارة بالكثرة. وقيل بعضه في إثر بعض، يقال نضدت المتاع إذا جعلت بعضه على بعض فهو منضود ونضيد أي متتابع أو مجموع معه العذاب نعت لسجيل.

## مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

﴿مُسَوِّمَةٌ﴾ معلمة أي التي لها علامة حال من حجارة، وسوغ بجيئها من النكرة تخصيص النكرة بالوصف، والتسويم العلامة، قيل كان عليها أمثال الخواتيم. قاله الحسن والسدي، وقيل مكتوب على كل حجر اسم من رمى به، وقال الفراء: زعموا أنها كانت مخططة بحمرة وسواد في بياض فذلك تسويمها. قال ابن جريج: عليها سياء لا تشاكل حجارة الأرض، وقال قتادة وعكرمة: عليها خطوط حمر على هيئة الجزع.

﴿عند ربك﴾ أي في خزائنه أو في حكمه والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿وما هي﴾ أي الحجارة الموصوفة، وقيل العقوبة المفهومة من السياق والأول أولى لأنه أقرب مذكور ﴿من الظالمين﴾ وهم قوم لوط ﴿ببعيد﴾ فإنهم بظلمهم حقيق بأن تمطر عليهم، وفيه وعيد لكل ظالم من الظلمة، ومنهم كفار قريش ومن عاضدهم على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وقيل الضمير للقري، أي هي قرية من ظالمي مكة ممن كفر بالنبي ﷺ فإنها بين الشام والمدينة يمرون بها في أسفارهم وتذكير البعيد على تأويل الحجارة بالحجر أو إجراء له على موصوف مذكر أي شيء بعيد أو مكان بعيد أو لكونه مصدراً كالزفير والصهيل، والمصادر يستوي في الوصف بها المذكر والمؤنث.

وعن مجاهد قال: يرهب بها قريشاً أن يصيهم ما أصابهم. وعن السدي قال: من ظلمة العرب إن لم يؤمنوا فيعذبوا بها، وعن قتادة قال: من ظالمي هذه الأمة. وقد ذكر المفسرون روايات وقصصاً في كيفية هلاك قوم لوط طويلة متخالفة وليس في ذكرها فائدة ولا سيما وبين من قال بشيء من ذلك وبين هلاك قوم لوط دهر طويل لا يتيسر له في مثله إسناد صحيح. وغالب ذلك ماخوذ عن أهل الكتاب وحالهم في الرواية معروف، وقد أمرنا بأن لا نصدقهم

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيدُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾

ولا نكذبهم فاعرف هذا فهو الوجه لحدفنا كثيراً من هذه الروايات الكائنة في قصص الانبياء وقومهم ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى مدین﴾ هو اسم ابن ابراهيم الخليل ثم صار اسماً للقبيلة من اولاده وهو المراد هنا.

وقيل هو في الأصل اسم مدينة بناها مدين المذكور والتقدير إلى أهل مدين قال المقرئ في الخطط: إن مدين أمة شعيب هم بنو مديان بن ابراهيم وأمهم قنطورا ابنة يقطان الكنعانية ولدت له ثمانية من الولد تناسلت منهم أمم، ومدين على بحر القلزم تحاذي تبوك على نحو ست مراحل، وهي أكبر من تبوك وبها البئر التي استقى منها موسى لسائمة شعيب وعمل عليها بيت.

قال الفراء: مدين اسم بلد وقطر والجمهور على أن مدين أعجمي، وقيل عربي، فإن كان عربياً فإنه يحتمل أن يكون فعلاً من مدن بالمكان أقام به وهو بناء نادر، وقيل مهمل أو مفعلاً من دان فتصحح شاذ وهو ممنوع الصرف على كل حال، سواء كان اسم الأرض أو اسم القبيلة عجمياً أو عربياً اهـ. وبه قال النحاس وقد تقدم الكلام على هذا في الأعراف بأبسط مما هنا وهم قوم شعيب.

﴿أخاهم﴾ في النسب لأن ﴿شعيباً﴾ بن ميكائيل بن يشجر بن مدين بن ابراهيم عليه السلام، وقد تقدم تفسير قوله ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ في أول السورة، وهذه الجملة مستأنفة كأنه قيل ماذا قال لهم

شعيب عليه السلام لما أرسله الله تعالى اليهم.

وقد كان شعيب عليه السلام يسمى خطيب الانبياء لحسن مراجعته لقومه، وهذه عادة الأنبياء عليه السلام يبدؤون بالأهم فالأهم.

ولما كان الدعوة الى توحيد الله وعبادته أهم الأشياء دعاهم اليه ثم نهاهم عن أن ينقصوا المكيال والميزان لأنهم كانوا مع كفرهم أهل تطفيف، وكان المعتاد منهم البخس في الكيل والوزن، وكانوا اذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائد، وكذلك إذا وصل اليهم الموزون أخذوا بوزن زائد، وإذا باعوا باعوا بكيل ناقص ووزن ناقص فقال:

﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان﴾ أي لا عند الأخذ ولا عند الدفع، والنقص فيها على وجهين كما قدمنا الاشارة اليه، والمراد بالمكيال المكيل به وبالميزان الموزون به، وهذا أبلغ في الأمر بوفائهما ﴿إني أراكم بخير﴾ أي بثروة وسعة في الرزق تغنيكم عن البخس فلا تغيروا نعمة الله عليكم بمعصيته والاضرار بعباده، وهذه النعمة حقها أن تفضلوا على الناس شكراً عليها لا أن تنقصوا حقوقهم، وهو في الجملة علة النهي.

ثم ذكر بعد هذه العلة علة أخرى فقال ﴿واني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾ فهذه العلة فيها الإذكار لهم بعذاب الآخرة كما أن العلة الأولى فيها الإذكار لهم بنعيم الدنيا، ووصف اليوم بالاحاطة والمراد العذاب لان العذاب واقع في اليوم، فهو مجاز في الاسناد كقولهم نهاره صائم، ومعنى إحاطة عذاب اليوم بهم انه لا يشد منهم أحد عنه ولا يجدون منه ملجأ ولا مهرباً، واليوم هو يوم القيامة، وقيل هو يوم الانتقام منهم في الدنيا بالصيحة. قال ابن عباس: الخير رخص السعر والعذاب غلاء السعر.

وَيَقْوِمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلَوْتِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾

ثم أكد النهي عن نقص الكيل والوزن بقوله: ﴿ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط﴾ الإيفاء هو التمام والقسط العدل وهو عدم الزيادة والنقص، وإن كانت الزيادة على الإيفاء فضل وخير ولكنها فوق ما يفيد اسم العدل والنهي عن النقص وإن كان يستلزم الإيفاء ففي تعاضد الدالتين مبالغة بليغة وتأکید حسن وشدة اهتمام فلذا كرر ليقوي الزجر والمنع من ذلك الفعل، والمعنى أتموها ولا تطففوا فيها، وقيل القسط تقويم لسان الميزان وتعديل المكيال. ثم زاد ذلك تأكيداً ثالثاً فقال ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ قد مر تفسير هذا في الأعراف وفيه النهي عن البخس على العموم والأشياء أعم مما يكال ويوزن فيدخل البخس بتطيف الكيل والوزن في هذا دخولاً أولاً، فظهر بهذا البيان فائدة هذا التكرير، وقيل البخس الكسر خاصة.

ثم قال ﴿ولا تعثوا في الأرض﴾ بتطيف الكيل والوزن ومنع الناس حقوقهم، وقد مر أيضاً تفسيره في البقرة. والعثي في الأرض يشمل كل ما يقع فيها من الأضرار بالناس فيدخل فيه كل ما في السياق من نقص المكيال والميزان، وعثى مصدر قياسي وعثو سماعي وقيدته بالحال وهو قوله ﴿مفسدين﴾ ليخرج ما كان صورته من العثي في الأرض، والمراد به الإصلاح كما وقع من الخضر في السفينة.

﴿بقية الله﴾ أي ما يبقى لكم من الحلال بعد إيفاء الحقوق بالقسط

﴿خير لكم﴾ أي أكثر خيراً وبركة مما تبقونه لأنفسكم من التطفيف والبخس والفساد في الأرض، ذكر معناه ابن جرير وغيره من المفسرين، وقال مجاهد: بقية الله طاعته.

وقال الربيع: وصيته، وقال الفراء: مراقبته، وقال قتادة: حظكم من ربكم. وقال ابن عباس: رزق الله، وقيل ثوابه في الآخرة.

وبقيت ترسم التاء المجرورة؛ وإذا وقف عليه اضطراراً يصح الوقف بالمجرورة والمربوطة، وليس في القرآن غيرها.

وإنما قيد ذلك بقوله ﴿ان كنتم مؤمنين﴾ لأن ذلك إنما يتفع به المؤمن لا الكافر، والمراد بالمؤمنين هنا المصدقون لشعيب عليه السلام، وفي البيضاوي: بشرط أن تؤمنوا فإن خيريتها باستتباع الثواب مع النجاة وذلك مشروط بالآيمان ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ أحفظكم من الوقوع في المعاصي من التطفيف والبخس وغيرها وأحفظ عليكم أعمالكم وأحاسبكم بها وأجازيكم عليها، وإنما أنا ناصح مبلغ، وقد أعذرت حين أنذرت؛ أو لست بحافظ عليكم نعم الله لو لم تركوا سوء صنيعكم.

﴿قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك﴾ مستأنفة كأنه قيل فماذا قالوا لشعيب عليه السلام والاستفهام للانكار عليه والاستهزاء به لأن الصلاة عندهم ليست من الخير الذي يقال لفاعله عند ارادة تليين قلبه وتذليل صعوبته كما يقال لمن كان كثير الصدقة إذا فعل ما لا يناسب الصواب أصدقتك أمرتك بهذا، وقيل المراد بالصلاة هنا القراءة قاله الأعمش، وقيل المراد بها الدين، وقيل المراد بها اتباعه، ومنه المصلي الذي يتلو السابق، قال الاحنف: ان شعيباً كان أكثر الانبياء صلاة فلذلك قالوا هذه المقالة وإنما ذكر الصلاة لأنها من أعظم شعائر الدين.

﴿أن نترك ما يعبد آباؤنا﴾ أي عبادة الاوثان وفيه ان الترك فعلهم لا فعل شعيب وهو المأمور والانسان يؤمر بفعل نفسه فالمضاف محذوف وهو التكليف

وهذا فعله أي هل هي تأمرك بتكليفك إيانا ترك عبادة الأصنام، وهذا منهم جواب لشعيب عن أمره لهم بعبادة الله وحده.

وقولهم ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلُ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ جواب له عن أمرهم بإيفاء الكيل والوزن ونهيمهم عن نقصهما وعن بخرس الناس، وعن العثي في الأرض معطوف على ما يعبد، فالترك مسلط عليه، وأو بمعنى الواو، والمعنى هل تأمرك بتكليفك لنا ترك ان نفعل في أموالنا ما نشاء من الاخذ والاعطاء والزيادة والنقص، وهذا لف ونشر مرتب.

وقرىء بالتاء في الفعلين عطفاً على مفعول تأمرك أي أصلاتك تأمرك ان تفعل أنت في أموالنا ما تشاء، وقرىء نفعل بالنون وما تشاء بالفوقية أي نفعل فيها ما تشاء انت وندع ما نشاء نحن وما يجري به التراضي بيننا.

وعن ابن زيد في الآية قال: نهاهم عن قطع هذه الدنانير والدراهم فقالوا انما هي أموالنا نفعل فيها ما نشاء ان شئنا قطعناها وان شئنا أحرقتها وان شئنا طرحناها، وعن محمد بن كعب وزيد بن أسلم وابن المسيب نحوه.

ثم وصفوه بوصفين عظيمين فقالوا ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ عند نفسك وفي اعتقادك ومعناه ان هذا الذي نبتنا عنه وأمرتنا به يخالف ما نعتقده في نفسك من الحلم والرشد، وقيل انهم قالوا ذلك لا على طريق الاستهزاء بل هو عندهم كذلك، وأنكروا عليه الأمر والنهي منه لهم بما يخالف الحلم والرشد في اعتقادهم والمعنى انك فينا حلیم رشيد فلا يحمد بك شق عصا قومك ومخالفتهم في دينهم.

وقال ابن عباس: يقولون انك لست بحليم ولا رشيد أي ارادوا السفيه الغاوي لأن العرب قد تصف الشيء بضده فيقولون للديغ سليم وللفلاة المهلكة مفازة؛ وقيل هو على حقيقته وانما قالوا ذلك على سبيل السخرية قال قتادة: استهزاء به.

قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ  
أُخَالِفَكُمُ إِلَىٰ مَا أَنهَيْتُكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي  
إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا تَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ  
مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَّوِطٍ مِّنكُمْ

بِعِيدِ ﴿٨٩﴾

﴿قال يا قوم أرايتم ان كنت على بينة من ربي﴾ مستأنفة كالجمل التي قبلها، والمعنى اخبروني ان كنت على بيان وحجة واضحة وبصيرة وهداية من عند ربي فيها امرتكم به ونهيتكم عنه ﴿ورزقني منه﴾ أي من فضله وخزائن ملكه ومن عنده وباعائه بلا كد مني ولا تعب في تحصيله ﴿رزقاً حسناً﴾ أي كثيراً واسماً حلالاً طيباً وقد كان عليه السلام كثير المال والنعمة، وقيل أراد بالرزق النبوة وقيل الحكمة وقيل العلم وقيل التوفيق وقيل المعرفة وقيل الهداية.

وجواب الشرط محذوف يدل عليه سياق الكلام تقديره أترك أمركم ونهيتكم أو تقولون في شأني ما تقولون مما تريدون به السخرية والاستهزاء أو هل يسعني مع هذه النعمة ان اخون في وحيه، وهذا الجواب شديد المطابقة بقولهم انك لأنت الخليم الرشيد أي كيف يليق بالخليم الرشيد ان يخالف أمر ربه وله عليه نعم كثيرة

﴿وما أريد﴾ ينهي لكم عن التطفيف والبخس ﴿ان اخالفكم الى ما انهاكم﴾ نهيتكم ﴿عنه﴾ فأفعله دونكم يقال خالفه إلى كذا إذا قصده وهو مول عنه وخالفته عن كذا في عكس ذلك، قال الزجاج: معناه لست انهاكم عن شيء وادخل فيه انما اختار لكم ما اختار لنفسه، قال ابن الانباري: بين ان الذي يدعوهم اليه من اتباع طاعة الله وترك البخس والتطفيف هو ما يرتضيه لنفسه ولا



ينطوي إلا عليه، فكان هذا محض النصح لهم، وقال قتادة: لم اكن لأنهاكم عن أمر وأرتكبه.

﴿ان أريد﴾ أي ما أريد بالأمر والنهي ﴿إلا الاصلاح﴾ لكم ودفع الفساد عن دينكم ومعاملاتكم ﴿ما استطعت﴾ ما بلغت اليه استطاعتي وتمكنت منه طاقتي ﴿وما توفيقى إلا بالله﴾ أي ما صرت موفقاً هادياً نبياً مرشداً إلا بتأييد الله سبحانه وإقداري عليه ومنحي اياه ﴿عليه توكلت﴾ في جميع أموري التي منها أمركم ونهيكم ﴿واليه أنيب﴾ أي اليه ارجع في كل ما نابني من الأمور وأفوض جميع أموري الى ما يختاره لي من قضائه وقدره وقيل معناه اليه أرجع في الآخرة وقيل ان الإنابة الدعاء ومعناه وله أدعو.

وعن علي قال: قلت يا رسول الله أوصني قال: قل الله ربي ثم استقم قلت ربي الله وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب، قال؛ ليهنك العلم يا أبا الحسن لقد شربت العلم شرباً ونهلته نهلاً، أخرجه أبو نعيم في الحلية وفي إسناده محمد بن يوسف الكديمي.

﴿ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى﴾ قال الزجاج: معناه لا يكسبنكم والشقاق العداوة، وقال قتادة: لا يحملنكم فراقى، وعن السدي: لا يحملنكم عداوتى، وعن مجاهد نحوه ﴿ان يصيكم﴾ مفعول ثان ليجرمنكم أي أن لا يكسبنكم معاداتكم لي ان لا يصيكم ﴿مثل ما أصاب قوم نوح﴾ من الغرق ﴿أو قوم هود﴾ من الريح ﴿أو قوم صالح﴾ من الحجارة وغيرها.

﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ يحتمل ان يريد ليس مكانهم ببعيد من مكانكم أو ليس زمانهم ببعيد من زمانكم أو ليسوا منكم ببعيد في السبب الموجب لعقوبتهم وهو مطلق الكفر وأفرد لفظ بعيد لمثل ما سبق، وقيل بشيء بعيد كذا قدره الزمخشري وتبعه الشيخ، وقال الزمخشري يجوز أن يستوي في بعيد وقريب وقليل وكثير بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التي هي كالصهيل والتهيق ونحوهما، وقال قتادة: انما كانوا حديثي عهد قريب بهلاكهم بعد نوح وثمود.

وَأَسْتَغْفِرُكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا  
 نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ  
 عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾

ثم بعد ترهيبهم بالعذاب أمرهم بالاستغفار والتوبة فقال ﴿واستغفروا ربكم﴾ من عبادة الأوثان ﴿ثم توبوا إليه﴾ من البخس والنقصان في المكيال والميزان وقد تقدم تفسير الاستغفار مع ترتيب التوبة عليه في أول السورة ﴿إن ربي رحيم﴾ بالموثنين ﴿ودود﴾ للتائبين، وتقدم تفسير الرحيم والمراد هنا انه عظيم الرحمة، والودود المحب صيغة مبالغة من ود الشيء يودّ وداً ووداد أو وداة أي أحبه وآثره.

قال في الصحاح: وددت الرجل أوده وداً إذا أحببته والود المحبة والمشهور وددت بكسر العين وسمع بفتحها والودود بمعنى فاعل أي يود عباده ويرحمهم، وقيل بمعنى مفعول بمعنى ان عباده يحبونه ويوادون أوليائه فهم بمنزلة المواد مجازاً، والأول أولى، والمعنى هنا انه يفعل بعباده فعل من هو بليغ المودة بمن يوده من اللطف به وسوق الخير اليه ودفع الشر عنه وفي هذا تعليل لما قبله من الأمر بالاستغفار والتوبة.

وجملة ﴿قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول﴾ مستأنفة كالجمل السابقة والمعنى أنك تأتينا بما لا عهد لنا به من الإخبار بالأمور الغيبية كالبعث والنشور ولا نفهم ذلك كما نفهم الأمور الحاضرة المشاهدة فيكون نفي الفقه على هذا حقيقة لا مجازاً.

وقيل قالوا ذلك إعراضاً عن سماعه، وإيذاناً بقلّة المبالاة به واحتقاراً لكلامه مع كونه مفهوماً لديهم معلوماً عندهم، فلا يكون نفي الفقه حقيقة بل مجازاً، يقال فقه يفقه إذا فهم فقهاً وفقهاً وحكى الكسائي فقهاناً ويقال فقه فقهاً إذا صار فقيهاً.

﴿وإننا لنراك فينا ضعيفاً﴾ أى لا قوة لك تقدر بها على ان تمنع نفسك منا وتمكن بها من مخالفتنا أو مهيناً لا عز لك، وهذا قريب من الأول، وقيل المراد انه ضعيف في بدنه قاله علي بن عيسى وقيل انه كان مصاباً ببصره، قال النحاس وحكى أهل اللغة ان حير تقول للأعمى ضعيف أى قد ضعف بذهاب بصره كما يقال له ضرير أى ضر بذهاب بصره، وقال الزجاج: الأعمى يسمى ضعيفاً.

عن سعيد بن جبير قال: كان أعمى، وإنما عمي من بكائه من حب الله عز وجل وعن شداد بن أوس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكى شعيب عليه السلام من حب الله حتى عمي، أخرجه ابن عساكر والراحي، قال السدي: معناه إنما أنت واحد، وقال علي: كان مكفوفاً فنسبوه الى الضعف، وقيل الضعيف العاجز عن الكسب والتصرف؛ وقال الحسن ومقاتل: يعني ذليلاً والأول أولى ويدل لصحته قوله.

﴿ولولا رهطك﴾ رهط الرجل جماعته وعشيرته الذين يستند اليهم ويتقوى بهم، ومنه الراهط لحجر اليربوع لأنه يتوثق به ويحبا فيه ولده، والرهط والراهط يقع على الثلاثة إلى العشرة، وقيل الى السبعة، قاله الزمخشري ولا يقع الراهط والعصبة والنفر إلا على الرجال ويجمع على أرهط وأرهط على أراهط وإنما جعلوا رهطه مانعاً من إيقاع الضرر به مع كرههم في قلة، والكفار ألوف مؤلفة لأنهم كانوا على دينهم فتركوه احتراماً لهم لا خوفاً منهم وقال علي: فوالله الذي لا إله غيره ما هابوا جلال ربه. ما هابوا إلا العشيعة.

﴿لرجهناك﴾ أى لقتلناك بالحجارة، والرجم بالحجارة أسوأ القتلات وأشرها وقيل معناه لثمتناك وأغلظنا لك القول والأول أظهر.

ثم أكدوا ما وصفوه به من الضعف بقولهم ﴿وما أنت علينا بعزيز﴾ أى كريم مكرم معظم حتى نكف عنك لأجل عزتك ومنعتك عندنا بل تركنا رجمك لعزة رهطك علينا لموافقتهم لنا في الدين لا لقوة شوكتهم.

قَالَ يَنْقُومِ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي  
بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢﴾

﴿قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله﴾ مستأنفة وإنما قال من الله ولم يقل مني لأن نفي العزة عنه واثباتها لقومه كما يدل عليه إيلاء الضمير حرف النفي استهانة به والاستهانة بأنبياء الله استهانة بالله عز وجل، فقد تضمن كلامهم أن رهطه أعز عليهم من الله، فاستنكر ذلك عليهم وتعجب منه وألزمهم ما لا مخلص لهم عنه ولا مخرج لهم منه بصورة الاستفهام وفي هذا من قوة المحاجة ووضوح المجادلة وإلزام الخصم الحجر ما لا يخفى.

والضمير في ﴿واتخذتموه﴾ راجع إلى الله سبحانه والمعنى واتخذتم الله عز وجل بسبب عدم اعتدادكم بنبيه الذي أرسله اليكم ﴿وراءكم ظهرياً﴾ أي منبوذاً وراء الظهر لا تبالون به، وقيل المعنى واتخذتم أمر الله الذي أمرني بإبلاغه اليكم وهو ما جئتكم به وراء ظهوركم كالشيء الملقى الذي لا يلتفت إليه.

يقال جعلت أمره بظهر إذا قصرت فيه، وظهرياً منسوب إلى الظهر والكسر من تغييرات النسب، والقياس فتح الظاء كما قالوا في أمس إمسى بكسر الهمزة وفي دهر دهرى بضم الدال، قال مجاهد: نبذتم أمره، وقال قتادة: لا تخافونه، وقال الضحاك: تهاونتم به، وقيل إن الضمير يعود إلى العصيان أي واتخذتم العصيان عوناً على عداوتي فالظهري على هذا بمعنى المعين المقوي ﴿إن ربي بما تعلمون محيط﴾ لا يخفى عليه شيء من أقوالكم، ولا أفعالكم فيجازيكم بها يوم القيامة.

وَيَقَوْمٍ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ  
يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾

﴿ويا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ لما رأى اصرارهم على الكفر وتصميمهم على دين آبائهم وعدم تأثير الموعظة فيهم توعدهم بأن يعملوا على غاية تمكثهم ونهاية استطاعتهم يقال مكن مكانة اذا تمكث ابلغ تمكث.

﴿اني عامل﴾ على حسب ما يمكنني ويقدره الله لي ثم بالغ في التهديد والوعيد بقوله ﴿سوف تعلمون﴾ اينا الجاني على نفسه المخطيء في فعله وتعلمون عاقبة ما أنتم عليه من عبادة غير الله والاضرار بعباده، وقد تقدم مثله في الأنعام.

قال الزمخشري: وصل سوف تارة بالفاء وتارة بالاستئناف كما هو عادة البلغاء من العرب، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف لأنه أكمل في باب الفصاحة والتهويل اهـ. يعني حذف الفاء هنا لأنه جواب سائل هو المسمى في علم البيان بالاستئناف البياني كأن كان قائلاً قال: فماذا يكون بعد ذلك فهو أبلغ في التهويل.

﴿من يأتيه عذاب يخزيه﴾ أي سوف تعلمون من هو الذي يأتيه العذاب المخزي الذي يتأثر عنه الذل والفضيحة والعار ﴿ومن هو كاذب﴾ في زعمكم ومن هو المعذب، وفيه تعريض بكذبهم في قولهم لولا رهطك لرجناك وما أنت علينا بعزيز.

وقيل التقدير من هو كاذب فسيعلم كذبه ويذوق وبال أمره ﴿وارتقبوا اني معكم رقيب﴾ أي انتظروا اني معكم منتظر لما يقضي به الله بينا.

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا  
الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثِمِينَ ﴿٩١﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ الْأَبْعَدُ لِمَدِينٍ كَمَا  
بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٢﴾

﴿ولما جاء أمرنا﴾ بعذابهم أو عذابنا ﴿نجينا شعيباً والذين آمنوا معه  
برحمة منا﴾ لهم بسبب إيمانهم أو بهدايتهم للإيمان ﴿وأخذت الذين ظلموا﴾  
غيرهم بما أخذوا من أموالهم بغير وجه وظلموا أنفسهم بالتصميم على الكفر  
﴿الصيحة﴾ التي صاح بها جبريل حتى خرجت أرواحهم من أجسادهم، وفي  
الأعراف ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ وكذا في العنكبوت وقد قدمنا أن الرجفة الزلزلة  
وانها تكون تابعة للصيحة لتموج الهواء المفضي إليها، وهذا في أهل قريته واما  
أصحاب الأيكة فأهلكوا بعذاب الظلة وهو نار نزلت من السماء أحرقتهم.

﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ ميتين باركين على الركب وقد تقدم  
تفسيره وتفسير ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ قريباً وكذا تفسير ﴿ألا بعداً لمدين كما  
بعدت ثمود﴾

قال المهدوي: من ضم العين من بعدت فهي لغة تستعمل في الخير  
والشر، وبعدت بالكسر على قراءة الجمهور تستعمل في الشر خاصة وهي هنا  
بمعنى اللعنة وقيل بكسر العين بمعنى الهلاك وبضمها ضد القرب والمصدر البعد  
بفتح العين، والمعنى هلاكاً لهم كما هلكت ثمود والتشبيه من حيث أن هلاك  
كل بالصيحة.

قال ابن الأنباري: من العرب من يسوي بين الهلاك والبعد الذي هو  
ضد القرب قيل لم يعذب أمتان قط بعذاب واحد إلا قوم شعيب وقوم صالح،  
فأما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم، وأما قوم شعيب فأخذتهم  
الصيحة من فوقهم.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا  
 أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ  
 وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾

﴿ولقد أرسلنا موسى﴾ هذه سابعة قصص ذكرت في هذه السورة فتقدم قصة نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط ومدین علی هذا الترتیب وهذه قصة موسى ﴿بآياتنا﴾ أي بالتوراة حال كونه متلبساً بها ﴿وسلطان مبین﴾ أي المعجزات الباهرات.

وقيل المراد بالآيات هي التسع المذكورة في غير هذا الموضع منها ثمانية في الاعراف، والتاسعة في يونس.

وليس من الآيات المرادة هنا التوراة لأنها أنزلت بعد اغراق فرعون وقومه والسلطان العصا وهي وان كانت من التسع لكنها لما كانت أعظم الآيات وأبهرها للعقول وأشدّها خرقاً للعادة أفردت بالذكر.

وقيل المراد بالآيات ما يفيد الظن، والسلطان ما يفيد القطع مما جاء به موسى وقيل هما جميعاً عبارة عن شيء واحد أي أرسلناه بما يجمع وصف كونه آية وكونه سلطاناً بيناً، وقيل ان السلطان المبین ما أورده موسى علی فرعون في المحاوره بينهما.

﴿إلى فرعون وملئه﴾ أي أرسلناه بذلك إلى هؤلاء، وقد تقدم أن الملأ أشرف القوم وإنما خصهم بالذكر دون سائر القوم لأنهم اتباع لهم في الإصدار والإيراد وخص هؤلاء الملأ دون فرعون بقوله ﴿فاتبعوا أمر فرعون﴾ أي أمره لهم بالكفر لأن حال فرعون في الكفر أمر واضح إذ كفر قومه من الأشراف وغيرهم إنما هو مستند إلى كفره.

ويحوز أن يراد بأمر فرعون شأنه وطريقه فيعم الكفر وغيره ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾ أي ليس فيه رشد قط، بل هو غي وضلال، والرشيد بمعنى المرشد والاسناد مجازي، أو بمعنى ذي رشد، وفيه تعريض بأن الرشد في أمر موسى.

﴿يقدم قومه﴾ تعليل للنفي قبله من قدمه بمعنى تقدمه أي يصير متقدماً لهم ﴿يوم القيامة﴾ وسابقاً لهم إلى عذاب النار كما كان يتقدمهم في الدنيا ﴿فأوردتهم النار﴾ أي أنه لا يزال متقدماً لهم وهم يتبعونه حتى يوردتهم النار في الآخرة. والورود الدخول وأورد ماض لفظاً مستقبلي معنى لأنه عطف على ما هو نص في الاستقبال.

وعبر بالماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه والهمزة في أورد للتعدية لأنه قبلها يتعدى لواحد، قال تعالى ﴿ولما ورد ماء مدين﴾.

وقيل بل هو ماض على حقيقته وهذا قد وقع وانفصل، وذلك أنه أوردتهم في الدنيا النار، قال تعالى ﴿النار يعرضون عليها﴾

وقيل أوردتهم موجباتها وأسبابها، وفيه بعد لأجل العطف بالفاء قال قتادة: يمضي فرعون بين أيدي قومه حتى يهجم بهم على النار. قال الخفاجي: وأنزل لهم النار منزلة الماء فسمى آتيانها وروداً فالنار استعارة مكنية تهكمية للضد وهو الماء وإثبات الورد لها تخييل.

ثم ذم الورد الذي أوردتهم إليه فقال ﴿وبئس الورد المورود﴾ أي المدخل المدخول فيه الذي وردوه لأن الوارد إلى الماء الذي يقال له الورد وإنما يرده ليطفىء حر العطش ويذهب ظمأه، والنار على ضد ذلك، والورد يكون مصدراً بمعنى الورد فلا بد من حذف مضاف تقديره وبئس مكان الورد المورود وهو النار، وإنما احتج إلى هذا التقدير، لأن تصادق فاعل نعم وبئس ومخصوصها شرط، فلا يقال نعم الرجل الفرس.



وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَبْسُ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ  
الْقُرَى نَقَضَهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا  
أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ  
رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾

ثم ذمهم بعد ذم المكان الذي يردونه فقال ﴿وَاتَّبِعُوا﴾ أي أتبع قوم  
فرعون مطلقاً أو الملا خاصة أو هم وفرعون ﴿في هذه﴾ الدنيا ﴿لعنة﴾ عظيمة  
أي طرداً وابعاداً من الأمم بعدهم ﴿و﴾ أتبعوا لعنة ﴿يوم القيامة﴾ يلغهم  
أهل المحشر جميعاً، ثم انه جعل اللعنة رفاً لهم على طريقة التهكم فقال  
﴿بئس الرفد المرفود﴾ أي العون المعان أو العطاء المعطى.

قال الكسائي وأبو عبيدة: رفته أرفده رفاً أعتته وأعطيته، واسم  
العطية الرفد أي بئس العطاء والاعانة ما أعطوهم إياه وأعانوهم به  
والمخصوص بالذم محذوف أي رفدهم وهو اللعنة التي اتبعوها في الدنيا والآخرة  
كانها لعنة بعد لعنة تمد الاخرى وتؤيدها.

وسميت اللعنة عوناً لأنها اذا تبعتهم في الدنيا أبعدهم عن رحمة الله  
وأعانهم على ما هم فيه من الضلال، وسميت رفاً أي عوناً لهذا المعنى على  
التهكم، والا فاللعنة إذلال لهم وانزال بهم الى الخضيض الاسفل، وسميت  
معاناً لأنها أرفدت في الآخرة بلعنة أخرى لتكونا هاديتين الى طريق الجحيم.

وذكر الماوردي حكاية عن الاصمعي ان الرفد بالفتح القدح وبالكسر ما  
فيه من الشراب فكأنه ذم ما يستقون في النار وهذا أنسب بالمقام، وقيل ان الرفد  
الزيادة، أي بشما يرفدونه به بعد الفرق وهو الزيادة، قاله الكلبي: وأصل  
الرفد العون والعطاء والصلة، والارفاً أيضاً الاعطاء والاعانة. قال أبو  
السعود: وقد فسر الرفد بالعطاء ولا يلائمه المقام، وأصله ما يضاف الى غيره  
ليعمده.

﴿ذلك﴾ أي ما قصه الله سبحانه في هذه السورة من القصص السبعة ﴿من أنباء القرى﴾ أي من أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية وما فعلوه بأنبيائهم ﴿نقصه عليك﴾ أي هو مقصوص عليك لتخبر به قومك لعلهم يعتبروا، وقد تقدم تحقيق معنى القصص ﴿منها﴾ أي من القرى التي أهلكتنا أهلها ﴿قائم وحصيد﴾ القائم ما كان قائماً على عروشه والحصيد ما لا أثر له.

وقيل القائم العامر والحصيد الخراب، وقيل القائم القرى الخاوية على عروشها والحصيد المستأصل بمعنى محصود، شبه ما بقي من آثار القرى بالزرع القائم على ساقه وشبه المقطوع والمعفو منها بالحصيد.

قال ابن عباس: يعني قرى عامرة وقرى خاملة، وقال قتادة: قائم يرى مكانه وحصيد لا يرى له أثر، وقال ابن جريج: قائم خاو على عروشه وحصيد ملصق بالأرض، والمعنى بعضها باق وبعضها عاف، والجملة مستأنفة استثنافاً بياناً لأنه لما ذكر أنباء القرى اتجه لسائل أن يقول ما حال هذه القرى أباقيّة آثارها أم لا؟ ﴿وما ظلمناهم﴾ بما فعلنا بهم من العذاب والإهلاك ﴿ولكن ظلموا أنفسهم﴾ بأن جعلوها عرضة للهلاك باقتراف ما يوجب من الكفر والمعاصي.

﴿فما أغنت عنهم آلهتهم﴾ أي فما دفعت عنهم أصنامهم أو ما نفعت، قاله أبو عاصم ﴿التي يدعون﴾ يعبدونها ﴿من دون الله﴾ أي غيره ﴿من شيء﴾ أي شيئاً من العذاب، وبأس الله، ومن زائدة ﴿لما جاء﴾ أي حين جاء ﴿أمر ربك﴾ أي عذابه ﴿وما زادوهم غير تنبيء﴾ أي هلاك وخسران. قال ابن عمر: أي هلكة وقال ابن زيد: أي تحسير، وقيل تدمير، والتنبيء اسم من تبه بالتشديد، وتبت يده تتب بالكسر خسرت كناية عن الهلاك وتباً له أي هلاكاً واستتب الأمر تهباً ويستعمل لازماً ومتعدياً، يقال تبه غيره وتب هو بنفسه، والمعنى ما زادتهم أصنامهم التي يعبدونها إلا هلاكاً وخسراناً، وقد كانوا يعتقدون أنها تعينهم على تحصيل المنافع ودفع المضار.

وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾

﴿وكذلك﴾ أي مثل ذلك الأخذ ﴿أخذ ربك﴾ قرىء على انه فعل وعلى انه مصدر ﴿إذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾ أي أهلها وهم ظالمون بالذنوب فلا يغني عنهم من أخذه شيء ﴿ان أخذه﴾ عقوبته للكافرين ﴿أليم شديد﴾ أي موجع غليظ على المأخوذ وهو مبالغة في التهديد والتحذير.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله سبحانه وتعالى ليملي للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ ﴿وكذلك أخذ ربك﴾ الآية<sup>(١)</sup> ولا تظن ان الآية حكمها مختص بظالمي الأمم الماضية بل هو عام في كل ظالم وبعضه الحديث. ﴿ان في ذلك﴾ أي أخذ الله سبحانه لأهل القرى أو في القصص السبعة التي قصها الله على رسوله ﴿لآية﴾ لعبرة وموعظة لأن القصص المذكورة فيها عذاب الدنيا وعذاب الآخرة وقد حصل الأول فيعلم العاقل أن القادر على إنزال الأول قادر على إنزال الثاني ﴿لمن خاف عذاب الآخرة﴾ لأنهم الذين يعتبرون بالعبر ويتعظون بالمواعظ. قال ابن زيد: يقول انا سوف نفي لهم بما وعدناهم في الآخرة كما وفينا للأنبياء إنا لننصرهم.

﴿ذلك﴾ أي يوم القيامة المدلول عليه بذكر الآخرة ﴿يوم مجموع له﴾ صفة ليوم جرت على غير من هي له فلذلك رفعت الظاهر وهو ﴿الناس﴾ من الأولين والآخرين للمحاسبة والمجازاة ﴿وذلك﴾ أي يوم القيامة ﴿يوم مشهود﴾ يشهده أهل المحشر، أو مشهود فيها الخلائق، أو يشهده أهل السماء والأرض فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول.

وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ  
شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنْفَوْنَ إِلَى النَّارِ لَمْ يَبْتَغُوا فِيهَا فَتَرْجَمُونَ فِيهَا ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَنسَاءَهُمْ  
وَأَنفُسَهُمْ يَوْمَ تُنْفَخُ أَعْيُنُهُمْ كَالْحِجَابِ وَإِنَّهُمْ فِيهَا لَمَكِيدُونَ ﴿١٠٦﴾

﴿وما تؤخره﴾ أي ذلك اليوم ﴿الا لأجل﴾ اللام للتعليل أي لانتهاه  
أجل أي وقت ﴿معدود﴾ معلوم بالعدد لا يعلمه الا الله وهو مدة الدنيا وقد  
عين سبحانه وقوع الجزاء بعده، وعبرة أبي السعود: الا لانقضاء مدة قليلة  
مضروبة حسبها تقتضيه الحكمة.

﴿يوم﴾ حين ﴿يات﴾ يوم القيامة وقيل الضمير لله تعالى كقوله الا أن  
يأتيهم الله أو يأتي ربك ﴿لا تكلم﴾ أي لا تتكلم فيه ﴿نفس﴾ بما ينفع  
وينجي من جواب ﴿الا بإذنه﴾ أي بما أذن لها من الكلام، وقيل لا تكلم  
بحجة ولا شفاعة الا بإذنه سبحانه لها في التكلم بذلك كقوله لا يتكلمون إلا  
من أذن له الرحمن، وقوله تعالى ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾.

وقد جمع بين هذا وبين قوله ﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾  
وقوله إخباراً عن محاجة الكفار ﴿ربنا ما كنا مشركين﴾ وقوله ﴿هذا يوم لا  
ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ باختلاف أحوالهم باختلاف مواقف القيامة  
وقد تكرر مثل هذا الجمع في مواضع.

وقد اشتملت هذه الآية على ثلاثة أنواع من البديع. الجمع في قوله لا  
تكلم نفس والتفريق في قوله فمنهم شقي وسعيد والتقسيم في قوله فأما الذين  
شقوا.

﴿فمنهم﴾ أي من الأنفس أو من أهل الموقف وان لم يذكرها قال  
الزمخشري: لأن ذلك معلوم ولأن قوله لا تكلم نفس يدل عليه وكذا قال ابن  
عطية ﴿شقي﴾ هو من كتبت عليه الشقاوة ﴿وسعيد﴾ أي من كتبت له  
السعادة وتقديم الشقي على السعيد لأن المقام مقام تحذير.

أخرج الترمذي وحسنه وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم

وأبو الشيخ وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال: لما نزلت فمنهم شقي وسعيد قلت يا رسول الله فعلام نعمل على شيء قد فرغ منه أو على شيء لم يفرغ منه قال: بل على شيء قد فرغ منه وجرت به الأقدام يا عمر ولكن كل ميسر لما خلق له<sup>(١)</sup>

وقد استدل بهذه الآية على أن أهل الموقف قسمان لا ثالث لهما وظاهر الآية والحديث يدل على ذلك لكن بقي قسم آخر مسكوت عنه وهو من استوت حسناته وسيئاته أو لا حسنات لهم ولا سيئات كالمجانين والأطفال فهم تحت مشيئته يحكم فيهم بما شاء وتخصيص القسمين لا ينفي القسم الثالث.

﴿فأما الذين شقوا﴾ أي الذين سبقت لهم الشقاوة في علمه تعالى وهم الذين يموتون على الكفر وإن تقدم منهم إيمان ﴿ففي النار﴾ أي فمستقرون فيها ﴿لهم فيها زفير وشهيق﴾ قال الزجاج: الزفير من شدة الأنين وهو المرتفع جداً.

قال: وزعم أهل اللغة من البصريين والكوفيين أن الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير والشهيق بمنزلة آخره، وقيل الزفير للحمار والشهيق للبعول، وقيل الزفير الصوت الشديد والشهيق الصوت الضعيف، وقيل الزفير إخراج النفس والشهيق ردها، وقيل الزفير من الصدر والشهيق من الحلق.

وقيل الزفير ترديد النفس في الصدر من شدة الخوف حتى تنتفخ منه الاضلاع والشهيق النفس الطويل الممتد أو رد النفس إلى الصدر والمراد بهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم وتشبيه حالهم بمن استولت الحرارة على قلبه وانحصر فيه روجه

وقال الليث: الزفير أن يملأ الرجل صدره حال كونه في الغم الشديد من النفس ويخرجه والشهيق أن يخرج ذلك النفس وهو قريب من قولهم تنفس الصعداء، والجملة إما مستأنفة أو حالية.

(١) الترمذي كتاب القدر الباب الثالث.

خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾

﴿خالدين﴾ لا يثين ﴿فيها﴾ أي في النار ﴿ما دامت السموات والأرض﴾ ما مصدرية أي مدة دوامها في الدنيا وهذه المدة غير ما يزيده الله مما لا نهاية له ودامت هنا تامة لأنها بمعنى بقيت.

وقد اختلف العلماء في بيان معنى هذا التوقيت لأنه قد علم بالادلة القطعية تأبيد عذاب الكفار في النار وعدم انقطاعه عنهم.

وثبت أيضاً ان السموات والأرض تذهب عند انقضاء أيام الدنيا فقالت طائفة: ان هذا الإخبار جار على ما كانت العرب تعتاده إذا أرادوا المبالغة في دوام الشيء قالوا هو دائم ما دامت السموات الأرض ومنه قولهم لا آتيك ما جن الليل وما اختلف الليل والنهار وما ناح الحمام ونحو ذلك فيكون المعنى انهم خالدون فيها أبداً لا انقطاع لذلك ولا انتهاء له.

وقيل ان المراد سموات الآخرة وأرضها فقد ورد ما يدل على ان للآخرة سموات وأرضاً غير هذه الموجودة في الدنيا وهي دائمة بدوام دار الآخرة، وأيضاً لا بد لهم من موضع يقلهم وآخر يظلمهم وهما أرض وسما؛ قال ابن عباس: لكل جنة أرض وسما؛ وروى نحوه عن السدي والحسن

﴿إلا ما شاء ربك﴾ قد اختلف أهل العلم في معنى هذا الاستثناء على أقوال.

الأول: انه من قوله ففي النار كأنه قال: الا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك روى هذا عن أبي سعيد الخدري.

الثاني: ان الاستثناء انما هو للعصاة من الموحدين وانهم يخرجون بعد مدة من النار وعلى هذا يكون قوله سبحانه ﴿فاما الذين شقوا﴾ عاماً في الكفرة

والعصاة ويكون الاستثناء من خالدين ويكون ما بمعنى من، وبهذا قال قتادة والضحاك وأبو سنان وغيرهم.

قال البيضاوي: هو استثناء من الخلود في النار لأن بعضهم وهم فساق الموحدين يخرجون منها وذلك كاف في صحة الاستثناء، لأن زوال الحكم عن الكل يكفيه زواله عن البعض؛ وهم المرادون بالاستثناء الثاني فإنهم مفارقون عن الجنة أيام عذابهم، فإن التأيد من مبدأ معين ينتقص باعتبار الابتداء كما ينتقص باعتبار الانتهاء، وهؤلاء وإن شقوا بعصيانهم فقد سعدوا بإيمانهم اهـ.

وقد ثبت بالأحاديث المتواترة-تواتراً يفيد العلم الضروري بأنه يخرج من النار أهل التوحيد فكان ذلك مخصصاً لكل عموم.

الثالث: ان الاستثناء من الزفير والشهيق أي لهم فيها ذلك إلا ما شاء ربك من أنواع العذاب غير الزفير والشهيق، قاله ابن الأنباري.

الرابع: أن معنى الاستثناء أنهم خالدون فيها ما دامت السموات والأرض لا يموتون فيها إلا ما شاء ربك، فإنه يأمر النار فتأكلهم حتى يفنوا ثم يجدد الله خلقهم، روي ذلك عن ابن مسعود.

الخامس: ان إلا بمعنى سوى ولكن والاستثناء منقطع والمعنى ما دامت السموات والأرض سوى ما يتجاوز ذلك من الخلود كأنه ذكر في خلودهم ما ليس عند العرب أطول منه ثم زاد عليه الدوام الذي لا آخر له حكاه الزجاج.

السادس: ما روي عن الفراء وابن الأنباري وابن قتيبة من ان هذا لا ينافي عدم المشيئة كقولك والله لأضربنه إلا أن أرى غير ذلك، ونوقش هذا بأن معنى الآية الحكم بخلودهم إلا المدة التي شاء الله فالمشيئة قد حصلت جزماً، وقد حكى هذا القول الزجاج أيضاً.

السابع: ان المعنى خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك من مقدار موقفهم في قبورهم وللحساب حكاه الزجاج أيضاً.

الثامن: ان المعنى خالدين فيها إلا ما شاء ربك من زيادة النعيم لأهل النعيم وزيادة العذاب لأهل الجحيم حكاه الزجاج أيضاً واختاره الحكيم الترمذي.

التاسع: ان إلا بمعنى الواو قاله الفراء والمعنى وما شاء ربك من الزيادة، قال مكّي: وهذا القول بعيد عند البصريين ان يكون إلا بمعنى الواو.

العاشر: إن إلا بمعنى الكاف، والتقدير كما شاء ربك ومنه قوله تعالى ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف﴾ أي كما قد سلف.

الحادي عشر: ان هذا الاستثناء إنما هو على سبيل الاستثناء الذي ندب اليه الشارع في كل كلام فهو على حد قوله ﴿لندخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمين﴾ قاله ابن عطية، وروى نحو هذا عن أبي عبيد، ولا يحتاج إلى أن يوصف بمتصل ولا منقطع.

وهذه الأقوال هي جملة ما وقفنا عليه من أقوال أهل العلم، وقد نوقش بعضها بمناقشات ودفعت بدفوعات، وقد اوضح الشوكاني ذلك في رسالة مستقلة جمعها في جواب سؤال ورد من بعض الأعلام، قال السيوطي: وما تقدم من التأويل هو الذي ظهر وهو خال من التكلف، والله أعلم بمراده انتهى.

قال في الجمل: أي التفسير للاستثناء وحاصله ان إلا في المعنى بمعنى حرف العطف والاستثناء منقطع، فكأنه قيل ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ وزيادة على هذه المدة لا منتهى لها؛ وقوله هو الذي ظهر أي ظهر له اختياره من ثلاثة عشر وجهاً للمفسرين في هذا المقام وهو وجه حسن لأن فيه التأييد بما يعلمه المخاطبون بالمشاهدة ويعترفون به وهو دوام الدنيا.

وأما التأييد بدوام سموات الأخرة وأرضها كما قيل ففيه انه غير معلوم



للمخاطبين خصوصاً من ينكر البعث، وقد استوفى السمين الوجوه المذكورة، ولنقتصر على نقل بعضها لكونه أقرب من غيره انتهى.

ثم ذكر الوجه الثاني والخامس والحادي عشر كما مر.

وقال ابن حجر الهيتمي المكي في الزواجر عن اقتراف الكبائر: دلت الآيات والاحاديث على ان عذاب الكفار في جهنم دائم مؤبد، وما ورد مما يخالف ذلك يجب تأويله، فمن ذلك قوله تعالى ﴿خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ان ربك فعال لما يريد﴾ فظاهره ان مدة عقابهم مساوية لمدة بقاء السموات والأرض إلا ما شاء الله من هذه المدة فلا يكونون فيه خالدين فيها.

وقد أوله العلماء بنحو عشرين وجهاً يرجع بعضها الى حكمة التقييد بمدة دوام السموات والأرض، وبعضها إلى حكمة الاستثناء ومعناه، فمن الأول ان المراد سموات الجنة وأرضها إذ السماء كل ما علاك، والأرض كل ما استقرت عليه، وكون الجنة والنار لهما سماء وأرض بهذا الاعتبار أمر قطعي لا يخفى على أحد، فاندفع التنظير في هذا القول بأنه لا يجوز حمل ما في الآية عليه لانه غير معروف للمخاطبين او سموات الدنيا وأرضها وأجرى ذلك على عادة العرب في الاخبار عن دوام الشيء وتأيبده بذلك ونحوه كقولهم لا آتيك ما سال سيل وما جن ليل وما طما البحر، وما قام جبل، لأنه تعالى يخاطب العرب على عرفهم في كلامهم وهذه الالفاظ في عرفهم تفيد الابد والدوام.

وعن ابن عباس ان جميع الأشياء المخلوقة أصلها من نور العرش وان السموات والأرض في الآخرة تردان إلى النور الذي خلقنا منه وهما دائمتان أبداً من نور العرش.

ثم هذا الجواب إنما يحتاج إليه بناء على ان مفهوم التقييد بدوام السموات والأرض انهم لا يبقون في النار إلا بقدر مدة دوامها من حين

ايجادها إلى اعدامها، ومنع بعضهم ذلك بأن المفهوم من الآية انها متى كانتا دائمتين كان كونهم في النار باقياً، وقضية ذلك انه كلما حصل الشرط وهو دوامها حصل المشروط وهو بقاءهم في النار، ولا يقتضي انه إذا عدم الشرط يعدم المشروط.

فاذا قلنا ما دامت بقي عقابهم، ثم قلنا لكنها دائمتان لزم دوام عقابهم أو لكنها ما بقيتا لم يلزم عدم دوام عقابهم، لا يقال اذا دام عقابهم بقيتا أو عدمتا فلا فائدة للتقييد بدوامها لانا نقول بل فيه أعظم الفوائد وهو دلالته على بقاء ذلك العذاب دهرأ دائماً طويلاً لا يحيط العقل بقدر طوله وامتداده.

فأما انه هل لذلك العذاب آخر أم لا فذلك يحصل من أدلة أخرى، وهي الآيات المصرحة بتأييد خلودهم المستلزم انه لا آخر له، ومن الثاني انه استثناء من فيها لانهم يخرجون من النار الى الزمهير والى شرب الحميم ثم يعودون فيها فهم خالدون فيها أبداً الا في تلك الاوقات فإنها وان كانت أوقات عذاب أيضاً الا انهم ليسوا حينئذ فيها حقيقة أو أن ما لمن يعقل كانكحوا ما طاب لكم من النساء وحينئذ فيكون استثناء لعصاة المؤمنين من ضمير خالدين متصلاً ببناء على شمول شقوا لهم أو منقطعاً ببناء على عدم شموله لهم وهو الأظهر، أو انه منقطع والا بمعنى سوى أي ما دامت سوى ما شاء ربك زيادة على ذلك .

وبقيت اجوبة كثيرة اعرضت عنها لبعدها، ولا ينافي ذلك ما رواه أحمد عن عبد الله بن عمر وليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد، وذلك بعدما يلبثون فيها أحقاباً، لأن في سنده من قالوا فيه انه غير ثقة وصاحب أكاذيب كثيرة عظيمة .

نعم نقل غير واحد هذه المقالة عن ابن مسعود وأبي هريرة، قال شيخ الاسلام ابن تيمية وهو قول عمر بن الخطاب وابن عباس وابن مسعود وأبي

هريرة وأنس واليه ذهب الحسن البصري وحامد بن سلمة، وبه قال علي بن طلحة الوالي وجماعة من المفسرين انتهى.

ويرد ما نقله عن الحسن قول غيره، قال العلماء: قال ثابت: سألت الحسن عن هذا فأنكره، والظاهر أن هؤلاء الذين ذكرهم لم يصح عنهم من ذلك شيء، وعلى التنزل فمعنى كلامهم كما قاله العلماء ليس فيها أحد من عصاة المؤمنين، أما مواضع الكفار فهي ممتلئة بهم لا يخرجون عنها أبداً كما ذكره الله في آيات كثيرة.

وفي تفسير الرازي قال قوم: إن عذاب الكفار منقطع وله نهاية، واستدلوا بهذه الآية وبـ «لابئين فيها أحقاباً»، وبأن معصية الظالم متناهية فالعقاب عليها بما لا يتناهى ظلم انتهى.

والجواب عن الآية وقوله تعالى أحقاباً لا يقتضى أن له نهاية لما مر أن العرب يعبرون به وينحوه عن الدوام، ولا ظلم في ذلك لأن الكافر كان عازماً على الكفر ما دام حياً فعوقب دائماً فهو لم يعاقب بالدائم إلا على دائم، فلم يكن عذابه إلا جزءاً وفاقاً.

واعلم أن التقييد والاستثناء في أهل الجنة ليس المراد بهما ظاهرهما باتفاق الكل لقوله تعالى ﴿غير مجذوذ﴾ فيؤول بنظير ما مرء ويكون المراد بما إذا جعلناها بمعنى ﴿من﴾ أهل الاعراف عصاة المؤمنين الذين لم يدخلوها بعد.

قال ابن زيد: أخبرنا الله تعالى بالذي يشاء لأهل الجنة فقال: عطاء غير مجذوذ أي غير مقطوع ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار. انتهى كلام ابن حجر.

وفي الذي تحامل به علي ابن تيمية نظر فقد أوضح البحث الحافظ ابن القيم رحمه الله في حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح مستوفياً بما له وعليه فمن شاء فليرجع إليه.

أخرج أبو الشيخ عن قتادة أنه تلا هذه الآية فقال حدثنا أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يخرج قوم من النار» ولا نقول كما قال أهل حروراء إن من دخلها بقي فيها.

وعن جابر قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقال: إن شاء الله أن يخرج أناساً من الذين شقوا من النار فيدخلهم الجنة فعل، أخرجه ابن مردويه. وعن خالد بن معدان في الآية قال: إنها في ذوي التوحيد من أهل القبلة وعن جابر بن عبد الله أو أبي سعيد الخدري قال: هذه الآية قاضية على القرآن كله يقول حيث كان في القرآن خالد بن معدان في الآية قال: وعن ابن عباس في قوله ﴿إلا ماشاء ربك﴾ قال: فقد شاء ربك أن يخلد هؤلاء في النار، وأن يخلد هؤلاء في الجنة.

وعنه قال: استثنى الله من النار أن تأكلهم، وعن السدي في الآية قال: فجاء بعد ذلك من مشيئة الله ما نسخها، فأنزل بالمدينة «إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً» إلى آخر الآية، فذهب الرجاء لأهل النار أن يخرجوا منها وأوجب لهم خلود الأبد.

وقوله: وأما الذين سعدوا؛ الآية، فجاء بعد ذلك من مشيئة الله ما نسخها، فأنزل بالمدينة «والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات - إلى قوله - ظلاً ظليلاً»، فأوجب لهم خلود الأبد.

وعن أبي نضرة قال: ينتهي القرآن كله إلى هذه الآية، يعني ﴿إن ربك فعال لما يريد﴾ وفي المناوي الكبير على الجامع الصغير ما نصه:

تنبيه: ما ذكرته آنفاً من أن عذاب الكفار في جهنم دائم أبداً هو ما دلت عليه الآيات والأخبار وأطبق عليه جمهور الأمة سلفاً وخلفاً، ووراء ذلك أقوال يجب تأويلها، فمنها ما ذهب إليه الشيخ محيي الدين بن عربي أنهم

يعذبون فيها مدة ثم تنقلب عليهم وتبقى طبيعة نارية لهم يتلذذون بها لموافقتهما لطبيعتهم، فإن الثناء بصدق الوعد لا بصدق الوعيد بل بالتجاوز، وقال فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله، ولم يقل وعيده، بل قال ويتجاوز عن سيئاتهم مع انه توعد على ذلك وأثنى على اسماعيل بأنه كان صادق الوعد.

وقال في موضع آخر: ان أهل النار اذا أدخلوها لا يزالون خائفين مترقبين أن يخرجوا منها فإذا أغلقت عليهم أبوابها اطمأنوا لأنها خلقت على وفق طبائعهم قال الحافظ ابن القيم: وهذا في طرف أي جهة، والمعتزلة القائلون بأنه يجب على الله تعذيب من توعدده بالعذاب في طرف آخر، فأولئك عندهم لا ينجو من النار من دخلها أبداً، والقولان مخالفان لما علم بالاضطرار أن الرسول جاء به وأخبر به عن الله.

ومنها قول جمع: النار تفضى فإنه تعالى جعل لها أمداً تنتهي إليه ثم يزول عذابها لهذه الآية، وقوله تعالى ﴿لَابِئْسَ فِيهَا أَحْقَاباً﴾ قال هؤلاء: وليس في القرآن دلالة على بقاء النار وعدم فنائها، انما الذي فيه ان الكفار خالدون فيها وانهم غير خارجين منها وانه لا يفتر عنهم عذابها وانهم لا يموتون، وان عذابهم فيها مقيم وانه غرام لازم، وهذا لا نزاع فيه من الصحابة والتابعين، انما النزاع في أمر آخر وهو أن النار أبدية أو مما كتب عليه الفناء، وأما كون الكفار لا يخرجون منها ولا يدخلون الجنة فلم يختلف فيه أحد من أهل السنة.

وقد نقل شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله القول بفنائها عن جمع من الصحابة والتابعين، وقد نصر هذا القول ابن القيم كشيخه ابن تيمية وهو مذهب متروك وقول مهجور لا يصار اليه ولا يعول عليه، وقد أول ذلك كله الجمهور، وأجابوا عن الآيات المذكورة بنحو عشرين وجهاً وعمما نقل أولئك الصحب بأن معناه ليس فيها أحد من عصاة المؤمنين، أما مواضع الكفار فهي ممتلئة منهم لا يخرجون عنها أبداً كما ذكر الله في آيات كثيرة، انتهى كلامه.

قلت وبالله التوفيق: أخرج ابن المنذر عن عمر قال: لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه، وروى عبد بن حميد بإسناد رجاله ثقات عن عمر نحوه. وأخرج بن راهويه عن أبي هريرة قال: سيأتي على جهنم يوم لا يبقى فيها أحد، وقرأ ﴿فأما الذين شقوا﴾.

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن إبراهيم قال: ما في القرآن آية أرجى لأهل النار من هذه الآية ﴿خالدين فيها﴾ الخ. قال: وقال ابن مسعود: ليأتين عليها زمان تحفق أبوابها، وروى أحمد عن ابن عمرو بن العاص: ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد، وحكاها البغوي وغيره عن أبي هريرة وغيره وأخرج ابن جرير عن الشعبي قال: جهنم أسرع الدارين عمراً وأسرعها خراباً، وعن قتادة قال: الله أعلم بثنيته على ما وقعت. وقد روى عن جماعة من السلف مثل ما ذكره ابن مسعود وعمر وأبو هريرة كابن عباس وابن عمر وجابر وأبي سعيد من الصحابة. وعن أبي مجلز وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم وغيرهما من التابعين، وورد في ذلك حديث في معجم الطبراني الكبير عن أبي أمامة صدى بن عجلان الباهلي وإسناده ضعيف.

وقد ثبت بذلك صحة ما نقله شيخ الإسلام ابن تيمية عن هؤلاء وانتصره الحافظ ابن القيم، ووضح وهن ما قاله ابن حجر والمناوي عليهما وإن كان لا شك في أن الراجح هو الأول. ولقد تكلم صاحب الكشاف في هذا الموضوع بما كان له في تركه سعة وفي السكوت عنه غنى فقال:

ولا يخذعك قول المجبرة ان المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار، فإن الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم ويسجل بافرائهم، وما ظنك بقوم نبذوا كتاب الله لما روى لهم بعض النوايت عن ابن عمرو: ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد.

ثم قال: وأقول ما كان لابن عمرو في سيفيه ومقاتلته بهما علي بن أبي

طالب رضي الله عنه ما يشغله عن تسيير هذا الحديث. اهـ.

قال الشوكاني: وأقول أما الطعن على من قال بخروج أهل الكباثر من النار فالقائل بذلك يأمسكين رسول الله (ﷺ) كما صح عنه في دواوين الإسلام التي هي دفاتر السنة المطهرة وكما صح عنه في غيرها من طريق جماعة من الصحابة يبلغون عدد التواتر، فما لك والطعن على قوم عرفوا ما جهلته وعملوا بما أنت عنه في مسافة بعيدة، وأي مانع من حمل الاستثناء على هذا الذي جاءت به الأدلة الصحيحة الكثيرة كما ذهب إلى ذلك وقال به جمهور العلماء من السلف والخلف.

وأما ما ظنته من أن الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم ويسجل بافترائهم فلا مناداة ولا مخالفة، وأي مانع من حمل الاستثناء في الموضعين على العصاة من هذه الأمة فالاستثناء الأول يحمل على معنى إلا ما شاء ربك من خروج العصاة من هذه الأمة من النار والاستثناء الثاني يحمل على معنى إلا ما شاء ربك من عدم خلودهم في الجنة كما يخلد غيرهم، وذلك لتأخر دخولهم إليها مقدار المدة التي لبثوا فيها في النار وقد قال بهذا من أهل العلم من قدمنا ذكره، وبه قال ابن عباس حبر الأمة.

وأما الطعن على صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحافظ سنته وعابد الصحابة عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنه فإلى أين يا محمود أتدري ما صنعت، وفي أي واد وقعت، وعلى أي جنب سقطت، ومن أنت حتى تصعد إلى هذا المكان وتتناول نجوم السماء بيدك القصيرة ورجلك العرجاء، أما كان لك في مكسري طلبتك من أهل النحو واللغة ما يردك عن الدخول فيها لا تعرف والتكلم بما لا تدري، فيالله العجب ما يفعل القصور في علم الرواية والبعد عن معرفتها إلى أبعد مكان من الفضيحة لمن لم يعرف قدر نفسه ولا أوقفها حيث أوقفها الله سبحانه.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُوزٍ ﴿١٤٨﴾ فَلَاتُكَ فِي مَرِيَّةٍ مَعَا يَعْبُدُ هَتُولَاءُ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاءَهُمْ مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُم نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٤٩﴾﴾

﴿وأما الذين سعدوا﴾ أي في علمه تعالى وهم الذين يموتون على الايمان وان تقدم منهم كفر أو غيره من المعاصي قرأ الكسائي وغيره سعدوا بضم السين وقرأ الباقون بفتحها، قال سيويه: لا يقال سعد فلان كما لا يقال شقي فلان لكونه مما لا يتعدى، قال النحاس: ورأيت علي بن سليمان يتعجب من قراءة الكسائي بضم السين مع علمه بالعربية وهذا لحن لا يجوز.

قال السمين: قرأ الأخوان وحفص بضم السين والباقون بفتحها فالأولى من قولهم سعده الله أي أسعده حكى الفراء عن هذيل انها تقول كذلك، قال الأزهري: سعد فهو سعيد كسلم فهو سليم وسعد فهو مسعود، وقال أبو عمرو بن العلاء: يقال سعد الرجل كما يقال حسن، وقيل سعده لغة مهجورة وقد ضعف جماعة قراءة الأخوين، وفي المصباح: سعد فلان يسعد من باب تعب في دين أو دنيا سعداً وبالمصدر سمي ومنه سعد بن عبادة والفاعل سعيد والجمع سعداء ويتعدى بالحركة في لغة فيقال سعده الله يسعده بفتححتين فهو مسعود، وقرئ في السبعة بهذه اللغة في هذه الآية بالبناء للمفعول والأكثر ان يتعدى بالهمزة فيقال أسعده الله وسعد بالضم خلاف شقي.

﴿وفي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ معنى الآية كما مر في قوله، وأما الذين شقوا ﴿إلا ما شاء ربك﴾ من الزيادة التي لا تنتهي لها فالمعنى خالدين فيها أبداً وقد عرف من الأقوال المتقدمة ما يصلح لحمل هذا الاستثناء عليه ولا يستقيم الا على التأويل المذكور في الوجه الخامس والسابع وما بعده ﴿عطاء﴾ اسم مصدر والمصدر في الحقيقة الإعطاء أو يكون مصدراً



على حذف الزوائد كقوله أنبتكم من الأرض نباتاً أو منصوب بمقدر يقال عطوت بمعنى ناولت ﴿غير مجذوذ﴾ من جذه يجذه إذا قطعه وكسره والجذاذ بكسر الجيم ما تكسر منه والضم أفصح والجذاذات القراضات، والمعنى يعطيهم الله عطاء غير مقطوع يعني انه ممتد إلى غير نهاية.

قال القاضي: وهو تصريح بأن الثواب لا ينقطع وتنبية على ان المراد من الاستثناء في الثواب ليس الانقطاع ولأجله فرق بين الثواب والعقاب في التأييد انتهى، قال الخفاجي: وقع لبعضهم هنا ان النار ينقطع عذابها بخلاف نعيم أهل الجنة وأورد فيه حديثاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وقد تقدم، قال ابن الجوزي: انه موضوع وأشار لنحو منه الزمخشري إلا أنه تكلم في ابن عمرو كلاماً لا ينبغي ذكره انتهى.

وقد ثبت بالنصوص القاطعة ان لا وجود لذلك فيقدر الخلود، ولا يتوهم جواز التعارض بين هذه وبين النصوص الدالة على عدم الخلود لأن المحتمل لا يعارض القطعي.

ولما فرغ الله سبحانه من أقاصيص الكفرة وبيان حال السعداء والأشقياء سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرح أحوال الكفرة من قومه في ضمن النهي عن الامتراء فقال ﴿فلا تك﴾ حذف النون لكثرة الاستعمال ولأن النون إذا وقعت طرف الكلام لم يبق عند التلغظ بها إلا مجرد الغنة فلا جرم أسقطوها قاله الكرخي ﴿في مرية مما يعبد هؤلاء﴾ أي ما يعبدونه غير نافع لهم ولا ضار ولا تأثير له في شيء والمرية الشك والاشارة بهؤلاء إلى كفار عصره صلى الله عليه وآله وسلم من قريش.

وقيل المعنى لا تك في شك من بطلان ما يعبد هؤلاء من الاصنام، وقيل لا تك في شك من سوء عاقبتهم ولا مانع من الحمل على جميع هذه المعاني

وهذا النهي له صلى الله عليه وسلم هو تعريض لغيره ممن يداخله شيء من الشك فإنه صلى الله عليه وسلم لا يشك في ذلك أبداً.

ثم بين له سبحانه بقوله ﴿ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم﴾ ان معبودات هؤلاء كمعبودات آبائهم وان عبادتهم كعبادة آبائهم ﴿من قبل﴾ وفي هذا الاستثناف تعليل للنهي عن الشك والمعنى انهم سواء في الشرك بالله وعبادة غيره فلا يكن في صدرك حرج مما تراه من قومك فهم كمن قبلهم من طوائف البشر وفي الخازن يعني انه ليس لهم في عبادة هذه الأصنام مستند إلا تقليد آبائهم انتهى. وجاء بالمضارع في كما يعبد لاستحضار الصورة.

ثم بين له انه مجازيهم بأعمالهم فقال ﴿وانا لمفوفهم نصيهم﴾ من العذاب ﴿غير منقوص﴾ لا ينقص ذلك شيء وانتصاب غير على الحال والتوفية لا تستلزم عدم النقص فقد يجوز ان يوفى وهو ناقص كما يجوز ان يوفى وهو كامل، قال القاضي كالزغشري: فانك تقول وفيه حقه وتريد به وفاء بعضه ولو مجازاً انتهى.

وانت خبير بأنه إذا لم تكن قرينة المجاز قائمة كما في هذا المقام لا تكون الحال إلا للتأكيد لأن التوفية تقتضي الإكمال فقد استفيد معناها من عاملها وهو شأن المؤكدة وفائدته دفع توهم التجوز، قال بعضهم: وجعلها مقيدة له لدفع احتمال كونه منقوصاً في حد نفسه مبني على الذهول عن كون العامل هو التوفية تأمل قاله الكرخي، وقيل المراد نصيهم من الرزق وقيل ما هو أعم من الخير والشر.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ  
 بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٦﴾ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا لِيُوفِيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ  
 بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١٧﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا  
 تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٨﴾

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ أي التوراة ﴿فاختلف فيه﴾ اختلفت فيه أي في شأنه  
 وتفصيل أحكامه فأمن به قوم وكفر به آخرون وعمل بأحكامه قوم وترك  
 العمل ببعضها آخرون فلا يضيق صدرك يا محمد بما وقع من هؤلاء في  
 القرآن، وقيل في سببية أي هو سبب اختلافهم وقيل بمعنى على.

﴿ولولا كلمة﴾ الإنظار الى يوم القيامة أي الحكم الأزلي بتأخير عذابهم  
 ﴿سبقت من ربك﴾ لما علم في ذلك من الصلاح ﴿لقضي بينهم﴾ أي بين  
 قومك أو بين قوم موسى فيما كانوا فيه مختلفين فأتى المحق وعذب المبطل  
 وعذبوا في الحال وفرغ من عذابهم واهلاكهم والكلمة هي ان رحمته سبحانه  
 سبقت غضبه فأمهلهم ولم يعاجلهم لذلك وقيل ان الكلمة هي انهم لا يعذبون  
 بعذاب الاستئصال وهذا من جملة التسلية له صلى الله عليه وسلم.

ثم وصفهم بأنهم في شك من الكتاب فقال ﴿وانهم لفي شك منه﴾ أي  
 من القرآن ان حمل على قوم محمد صلى الله عليه وسلم أو من التوراة ان حمل  
 على قوم موسى ﴿مريب﴾ موقع في الريبة من أراب إذا حصل الريب لغيره أو  
 صار هو في نفسه ذا ريب ثم جمع الأولين والآخرين في حكم توفية العذاب لهم  
 أو هو والثواب فقال:

﴿وان كلاً﴾ أي كل الخلائق ﴿لما ليوفينهم ربك أعمالهم﴾ أي جزاءها  
 وفي ان وكلاً ولما أقوال متخالفة هل ان مخففة أم مثقلة والتنوين في كلاً مع  
 النصب عوض عن المضاف اليه ونصبه بان ولما خفيفة أم ثقيلة وهي بمعنى إلا  
 أم لا.

وأحسن هذه الأقوال انها بمعنى الاستثنائية، وقد روي ذلك عن الخليل وسيبويه ورجحه الزجاج، وقرأ أبيّ ان كُلاً الا ليوفينهم وقرىء بالتنوين بمعنى جميعاً وبسط الكلام في ذلك في جمل، قال السمين: هذه الآية الكريمة مما تكلم الناس فيها قديماً وحديثاً وعسر على أكثرهم تلخيصها قراءة وتخريجاً وقد سهل الله تعالى ذلك فذكرت أقاويلهم وما هو الراجح منها فأقول:

قرأ بعضهم ان ولما مخففتين وبعضهم خفف ان وثقل لما وبعضهم شددهما وبعضهم شدد ان وخفف لما فهذه أربع قراءات في هذين الحرفين وكلها متواترة سبعة قال: والرابعة وهي تشديد إن وتخفيف لما فواضحة جداً وقرىء شاذاً وان كل بتخفيف ان ورفع كل ولما بالتشديد، وهي قراءة الحسن البصري وعليها فلما بمعنى إلا انتهى ملخصاً وقرىء أيضاً شاذاً قراءات أخر فلتراجع في السمين وغيره.

﴿انه بما تعملون﴾ أيها المختلفون ﴿خير﴾ لا يخفي عليه منه شيء والجملة تعليل لما قبلها وفيه وعد للمحسنين المصدقين ووعيد للمكذابين الكافرين.

ثم أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بكلمة جامعة لأنواع الطاعة له سبحانه فقال ﴿فاستقم كما أمرت﴾ أي كما أمرك الله فيدخل في ذلك جميع ما أمره به وجميع ما نهاه عنه لأنه قد أمره بتجنب ما نهاه عنه كما أمره بفعل ما تعبه بفعله. وأمه اسوته في ذلك.

قال قتادة: أمره ان يستقيم على أمره ولا يطغى في نعمته، وقال سفيان: استقم على القرآن، وعن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية قال: شمروا شمروا فما رئي ضاحكاً قال أبو السعود: وبالجملة فهذا الأمر منتظم لجميع محاسن الأحكام الأصلية والفرعية والكمالات النظرية والعملية والخروج عن عهده في غاية ما يكون من الصعوبة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: شيتني سورة هود<sup>(١)</sup>.

﴿و﴾ ليستقم ﴿من تاب معك﴾ أي آمن ورجع عن الكفر الى الاسلام

وشاركك في الايمان وما أعظم موقع هذه الآية وأشد أمرها فان الاستقامة كما أمر الله لا تقوم بها إلا الانفس المطهرة والذوات المقدسة ولهذا يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم شبيبتني هود كما تقدم.

وعن سفيان الثقفى قال: قلت يا رسول الله قل لي في الاسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك قال: قل آمنت بالله ثم استقم<sup>(١)</sup> أخرجه مسلم أقول هي تشمل العقائد والاعمال والاخلاق فانها في العقائد اجتناب التشبيه والتأويل والتعطيل والصرف عن الظاهر وفي الاعمال الاحتراز عن الزيادة والنقصان والبدع والمحدثات والتغيير للكتاب والتبديل للسنن والتقليد للرجال وللاراء وفي الاخلاق التباعد عن طرفي الافراط والتفريط وهذا في غاية العسر وبالله التوفيق وهو المستعان.

﴿ولا تطغوا﴾ الطغيان مجاوزة الحد لما أمر الله سبحانه بالاستقامة المذكورة بين ان الغلو في العبادة والافراط في الطاعة على وجه يخرج به عن الحد الذي حده والمقدار الذي قدره ممنوع منه منى عنه وذلك كمن يصوم ولا يفطر ويقوم الليل ولا ينام ويترك الحلال الذي أذن الله به ورغب فيه ولهذا يقول الصادق المصدوق فيما صح عنه: اما انا فأصوم وافطر واقوم وانام وانكح النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني<sup>(٢)</sup>، والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولأمته تغليبا لحالهم على حاله أو النهي عن الطغيان خاص بالامة.

قال ابن عباس: لا تطغوا لا تظلموا، وقال العلاء بن عبد الله: لم يرد أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إنما عنى الذين يجيئون من بعدهم، وعن ابن زيد الطغيان خلاف أمره وارتكاب معصيته ﴿إنه بما تعملون بصير﴾ يجازيكم على حسب ما تستحقون، والجملة تعليل لما قبلها، قيل ما نزلت آية على رسول الله صلى الله عليه وسلم هي أشد عليه من هذه الآية.

(١) الترمذى، تفسير سورة، ٦/٥٦.

(٢) مسلم، ٣٨.

(٣) النسائي، كتاب النكاح، باب ٤.

وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَعِمَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ  
ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾

﴿ولا تركبوا الى الذين ظلموا﴾ قرىء بفتح الكاف وضمها وهي لغة تميم وقيس والاول لغة أهل الحجاز، قال أبو عمرو: ولغة تميم بكسر التاء وفتح الكاف، وهم يكسرون حرف المضارعة في كل ما كان من باب علم يعلم، قال الأزهري: وليست بالفصيحة وركن يركن بفتحتين وليست بالأصل، بل من تداخل اللغتين.

وقال الراغب: والصحيح إنه يقال بالفتح فيها وبالكسر في الماضي والفتح في المضارع؛ وبالفتح في الماضي والضم في المضارع، وقرىء على البناء للمفعول من أركنه، وقال في الصحاح: ركن اليه يركن بالضم، وحكى أبو زيد: ركن اليه بالكسر يركن ركوناً فيها، أي مال اليه وسكن، قال الله تعالى ﴿ولا تركبوا الى الذين ظلموا﴾ وأما بالفتح فيها فإنما هو على الجمع بين اللغتين. اهـ.

وقال في شمس العلوم: الركون السكون، وقال في القاموس: ركن اليه كنصر وعلم ومنع ركوناً مال وسكن. اهـ، فهؤلاء الأئمة من رواة اللغة فسروا الركون بمطلق الميل والسكون من غير تقييد بما قيده به صاحب الكشاف حيث قال: فإن الركون هو الميل اليسير.

وهكذا فسره المفسرون بمطلق الميل والسكون من غير تقييد الا من كان من المتقيدين بما ينقله صاحب الكشاف، ومن المفسرين من ذكر في تفسير الركون قيوداً لم يذكرها أئمة اللغة.

قال القرطبي في تفسيره: الركون حقيقة الاستناد والاعتماد والسكون الى الشيء والرضا به، ومن أئمة التابعين من فسر الركون بما هو أخص من معناه

اللغوي، فروي عن قتادة وعكرمة أن معناها لا تودوهم ولا تطيعوهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد: الركون هنا الادهان، وذلك أن لا ينكر عليهم كفرهم، وقال أبو العالية: معناه لا ترضوا أعمالهم، وقال ابن عباس: الركون إلى الشرك ولا تركنوا لا تميلوا ولا تدهنوا. وعن عكرمة: لا تصطنعوهم.

وقد اختلف أيضا الأئمة من المفسرين في هذه الآية هل هي خاصة بالمشركين أو عامة، فقليل خاصة وإن معنى الآية النهي عن الركون إلى المشركين وإنهم المرادون بالذين ظلموا. وقد روي ذلك عن ابن عباس، وقيل إنها عامة في الظلمة من غير فرق بين كافر ومسلم، وهذا هو الظاهر من الآية، ولو فرضنا أن سبب النزول هم المشركون لكان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

فإن قلت وقد وردت الأدلة الصحيحة البالغة عدد التواتر الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبوتاً لا يخفى على من له أدنى تمسك بالسنة المطهرة بوجوب طاعة الأئمة والسلاطين والأمراء حتى ورد في بعض ألفاظ الصحيح أطيعوا السلطان وإن كان عبداً حبشياً رأسه كالزبيبة، وورد وجوب طاعتهم ما أقاموا الصلاة وما لم يظهر منهم الكفر البواح وما لم يأمروا بمعصية الله.

وظاهر ذلك إنهم وإن بلغوا في الظلم إلى أعلى مراتبه وفعلوا أعظم أنواعه مما لم يخرجوا به إلى الكفر البواح فإن طاعتهم واجبة حيث لم يكن ما أمروا به من معصية الله، ومن جملة ما يأمرون به تولي الأعمال لهم والدخول في المناصب الدينية التي ليس الدخول فيها من معصية الله، ومن جملة ما يأمرون به الجهاد وأخذ الحقوق الواجبة من الرعايا، وإقامة الشريعة بين المتخاصمين منهم وإقامة الحدود على من وجبت عليه.

وبالجملة فطاعتهم واجبة على كل من صار تحت أمرهم ونهيهم في كل ما يأمرون به مما لم يكن من معصية الله، ولا بد في مثل ذلك من المخالطة لهم والدخول عليهم ونحو ذلك مما لا بد منه ولا يحصى عن هذا الذي ذكرنا من وجوب طاعتهم بالقيود المذكورة لتواتر الأدلة الواردة به، بل قد ورد به الكتاب العزيز أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم.

بل ورد أنهم يعطون الذي لهم من الطاعة وإن منعوا ما هو عليهم للرعايا، كما في بعض الأحاديث الصحيحة: «أعطوهم الذي لهم وأسألوا الله الذي لكم» بل ورد الأمر بطاعة السلطان وبالغ في ذلك النبي (ﷺ) حتى قال: «وان أخذ مالك وضرب ظهرك»<sup>(١)</sup>.

فإن اعتبرنا مطلق الميل والسكون فمجرد هذه الطاعة المأمور بها مع ما تستلزمه من المخالطة هي ميل وسكون، وإن اعتبرنا الميل والسكون ظاهراً وباطناً فلا يتناول النهي في هذه الآية من مال اليهم في الظاهر لأمر يقتضي ذلك شرعاً كالطاعة أو للتقية وخفاة الضرر منهم، أو جلب مصلحة عامة أو خاصة أو دفع مفسدة عامة أو خاصة إذا لم يكن له ميل اليهم في الباطن ولا محبة ولا رضى بأفعالهم.

قلت: أما الطاعة على عمومها بجميع أقسامها حيث لم تكن في معصية الله فهي على فرض صدق مسمى الركون عليها مخصصة لعموم النهي عنه بأدلتها التي قدمنا الإشارة إليها ولا شك في هذا ولا ريب، فكل من أمره ابتداءً أن يدخل في شيء من الأعمال التي أمرها اليهم مما لم يكن من معصية الله كالمناصب الدينية ونحوها إذا وثق من نفسه بالقيام بما وكل إليه فذلك واجب عليه، فضلاً عن أن يقال جائز له.

وأما ما ورد من النهي عن الدخول في الامارة فذلك مقيد بعدم وقوع الأمر ممن تجب طاعته من الأئمة والسلاطين والأمراء جمعاً بين الأدلة أو مع

(١) مسلم ١٨٤٧ بلفظ: «سمع وتطع للامير. وان ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع واطع».



ضعف الأمور عن القيام بما أمر به، كما ورد تعليل النهي عن الدخول في الامارة بذلك في بعض الاحاديث الصحيحة.

وأما مخالطتهم والدخول عليهم لجلب مصلحة عامة أو خاصة أو دفع مفسدة عامة أو خاصة مع كراهة ما هم عليه من الظلم وعدم ميل النفس اليهم ومحبتها لهم وكراهة المواصلة لهم لولا جلب تلك المصلحة أو دفع تلك المفسدة، فعلى فرض صدق مسمى الركون على هذا فهو مخصص بالادلة الدالة على مشروعية جلب المصالح ودفع المفاسد، والاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى، ولا تخفى على الله خافية.

وبالجمله فمن ابتلى بمخالطة من فيه ظلم فعليه أن يزن أقواله وأفعاله وما يأتي وما يذر بميزان الشرع، فإن زاغ عن ذلك فعلى نفسها براقش تحبني، ومن قدر على الفرار منهم قبل أن يؤمر من جهتهم بأمر يجب عليه طاعته فهو الاولى له والاليق به. يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اجعلنا من عبادك الصالحين الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر الذين لا يخافون فيك لومة لائم وقونا على ذلك ويسره لنا وأعنا عليه.

قال القرطبي في تفسيره: وصحبة الظالم على التقية مستثناة من النهي بحال الاضطرار انتهى. وقال النيسابوري في تفسيره: قال المحققون: الركون المنهي، عنه هو الرضا بما عليه الظلمة أو تحسين الطريقة وتزيينها عند غيرهم ومشاركتهم في شيء من تلك الأبواب، فأما مداخلتهم لدفع شيء من الضرر واجتلاب منفعة عاجلة فغير داخل في الركون.

قال: وأقول هذا من طريق المعاش والرخصة ومقتضى التقوى هو الاجتناب عنهم بالكلية، أليس الله بكاف عبده. اهـ.

﴿فتمسككم النار﴾ بحرهما بسبب الركون اليهم، وفيه إشارة إلى أن

الظلمة أهل النار أو كالنار، ومصاحبة النار توجب لا محالة مس النار، قيل هذا فيمن ركن الى من ظلم فكيف بالظالم. والجملة حالية أو مستأنفة. قال أبو السعود: وإذا كان حال الميل في الجملة الى من وجد منه ظلم ما في الافضاء إلى مساس النار هكذا، فما ظنك بمن يميل إلى الراسخين في الظلم والعدوان ميلاً عظيماً ويتهالك على مصاحبتهم ومناذمتهم ويلقي شرارته على مؤانستهم ومعاشرتهم ويتهيج بالترجي يزيمهم؛ ويمد عينه الى زهرتهم الفانية، ويعبثهم بما أوتوا من القطوف الدانية، وهو في الحقيقة من الحبة طفيف، ومن جناح البعوض خفيف، بمعزل عن أن تميل إليه القلوب، ضعف الطالب والمطلوب.

والآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم والتهديد عليه، وخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين تثبيت على الاستقامة التي هي العدل، فإن الميل الى أحد طرفي الافراط والتفريط ظلم على نفسه أو غيره. انتهى.

﴿وما لكم من دون الله من أولياء﴾ ان ركنتم اليهم، والمعنى انها تمسك النار حال عدم وجود من ينصركم وينقذكم منها، ونفى الأولياء ليس بطريق نفي أن يكون لكل واحد منهم أولياء حتى يصدق أن يكون له ولي بل لمكان لكم بطريق انقسام الأحاد على الأحاد لكن لا على معنى نفي استقلال كل منهم بنصير بل على معنى نفي أن يكون لواحد منهم نصير بقريئة المقام.

﴿ثم لا تنصرون﴾ من جهة الله سبحانه اذ قد سبق في علمه انه يعذبكم بسبب ركونكم الذي نهيتم عنه فلم تنتهوا عناداً وتمرداً والجملة حالية أو مستأنفة معترضة وأن بثم هنا تنبيهاً على تراخي رتبة كونهم غير منصورين من جهة الله بعدما أوعدهم بالعذاب وأوجه عليهم، ويجوز أن يكون منزلاً منزلة الفاء بمعنى الاستبعاد فانه لما بين أن الله تعالى معذبهم وأن غيره لا ينقذهم أنتج انهم لا ينصرون أصلاً.

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ  
 ذَكَرْنَا لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ  
 الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا  
 مِنْهُمْ وَأَتَّبِعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ  
 رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

﴿واقم الصلاة طرفي النهار﴾ لما ذكر الله سبحانه الاستقامة خص من أنواعها إقامة الصلاة لكونها رأس الايمان، والمراد صلاة الغداة والعشي وهما الفجر والعصر، قاله الحسن، وقيل الظهر موضع العصر، وقيل الطرفان الصبح والمغرب، قاله ابن عباس. وقيل هما الظهر والعصر، وقال مجاهد: صلاة الفجر وصلاتي العشي يعني الظهر والعصر، ورجح ابن جرير انها الصبح والمغرب.

قال: والدليل عليه اجماع الجميع على أن أحد الطرفين الصبح، فدل على أن الطرف الآخر المغرب.

قال الرازي: كثرت المذاهب في تفسير طرفي النهار والاشهر انها الفجر والعصر لان أحد طرفي النهار هو طلوع الشمس والثاني هو غروبها، فالطرف الاول هو صلاة الفجر، والطرف الثاني لا يجوز أن يكون صلاة المغرب لأنها داخلة تحت قوله وزلفاً من الليل فوجب حمل الطرف الثاني على صلاة العصر. ﴿وزلفاً﴾ أي في زلف ﴿من الليل﴾ والزلف الساعات القريبة بعضها من بعض ومنه سميت المزدلفة لأنها منزل بعد عرفة بقرب مكة، وقرىء زلفاً بضم اللام جمع زليف، ويجوز أن يكون واحده زلفة، وقرىء بإسكان اللام، وقرأ مجاهد: زلفى على وزن فعلى، وقرأ الباقون: زلفا بفتح اللام كغرفة وغرف، قال ابن الاعراب: الزلف الساعات واحدها زلفة.

وقال قوم: الزلقة أول ساعة من الليل بعد مغيب الشمس، وفي القاموس الزلقة الطائفة من الليل والجمع زلف وزلفات والزلف ساعات الليل الأخذة من النهار وساعات النهار الأخذة من الليل. قال الأخفش: معنى زلفاً من الليل صلاة الليل، قال ابن عباس: صلاة العتمة، وقال الحسن: هما زلفتان صلاة المغرب وصلاة العشاء، وعن مجاهد والحسن نحوه، وقال أيضاً: ساعة بعد ساعة يعني صلاة العشاء الآخرة.

﴿إن الحسنات﴾ أي الواجبة والمندوبة وغيرها على العموم ومن جملتها بل عمادها الصلوات. عن ابن مسعود قال: هي الصلوات الخمس. وزاد ابن عباس والباقيات الصالحات ﴿يذهبن السيئات﴾ على العموم، وقيل المراد بها الصغائر ومعنى يذهبن يكفرنها حتى كأنها لم تكن.

أخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبله، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له كأنه يسأل عن كفارتها، فأنزلت عليه ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار﴾ الآية، فقال الرجل يا رسول الله ألي هذه؟ قال: هي لمن عمل بها من أمتي.

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود وغيرهم عن أبي أمامة أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال يا رسول الله أقم في حد الله، مرة أو مرتين، فأعرض عنه؛ ثم أقيمت الصلاة فلما فرغ قال أين الرجل؟ قال أنا ذا، قال أقمتم الوضوء وصليت معنا أنفاً؟ قال نعم، قال فإنك من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد وأنزل الله حيثنذ على رسوله ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار﴾ وفي الباب أحاديث كثيرة بالفاظ مختلفة.

ووردت أحاديث صحيحة أيضاً أن الصلوات الخمس كفارات لما بينهن. وقال مجاهد: الحسنات قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، والاول أولى، وبه قال ابن المسيب والقرطبي والضحاك وجمهور المفسرين: أي الصلوات الخمس وله تدل الأحاديث.

﴿ذلك﴾ إشارة الى قوله فاستقم وما بعده، وقيل الى القرآن ﴿ذكرى للذاكرين﴾ أي موعظة للمتعتبين. عن الحسن قال: هم الذين يذكرون الله في السراء والضراء والشدة والرخاء والعافية والبلاء. وعن ابن جريج قال: لما نزع الذي قبل المرأة تذكر فذلك قوله ذلك ذكرى للذاكرين.

﴿واصبر﴾ على ما أمرت به من الاستقامة وعدم الطغيان والركون إلى الذين ظلموا، وقيل ان المراد الصبر على ما أمر به دون ما نهى عنه لأنه لا مشقة في اجتنابه وفيه نظر فان المشقة في اجتناب المنهى عنه كائنة وعلى فرض كونها دون مشقة امثال الامر فذلك لا يخرجها عن مطلق المشقة ﴿فان الله لا يضع أجر المحسنين﴾ أي يوفيهم أجورهم ولا يضع منها شيئاً فلا يهمله ولا يبخره بنقص قيل المحسنون المصلون.

﴿فلولا كان﴾ هذا عود الى أحوال الأمم الخالية لبيان ان سبب حلول عذاب الاستئصال بهم انه ما كان فيهم من ينهي عن الفساد ويأمر بالرشاد فقال ﴿فلولا﴾ أي فهلا كان ﴿من القرون﴾ الماضية المهلكة بالعذاب الكائنة ﴿من قبلكم أولوا بقية﴾ من الرأي والعقل والدين، والبقية في الاصل اسم لما يستبقه الرجل مما يخرج به وهو لا يستبقي إلا أجوده وأفضله فصار لفظ البقية مثلاً في الجودة يقال فلان ذو بقية إذا كان فيه خير، والمراد بها حينئذ جيد الشيء وخياره، من قولهم فلان بقية الناس وبقية الكرام وإنما صفة على فعيلة للمبالغة بمعنى فاعلة ولذلك دخلت التاء فيها.

وقيل معناه أولوا بقية من خير يقال فلان على بقية من الخير إذا كان على خصلة محمودة ومنه قولهم في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا؛ وقيل انها مصدر بمعنى البقوى، كالتيبة بمعنى التقوى أي فهلا كان منهم ذوا بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله وعقابه، وقرىء بتخفيف الياء وهي اسم فاعل من بقي، والتقدير أولوا طائفة بقية أي باقية.

وقرىء بضم الباء وسكون القاف، أخرج ابن مردويه عن أبي بن كعب قال: أقرأني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أولو بقية وأحلام.

﴿ينهن﴾ قومهم ﴿عن الفساد في الأرض﴾ ويمنعونهم من ذلك لكونهم ممن جمع الله له بين جودة العقل وقوة الدين، وفي هذا من التوبيخ للكفار ما لا يخفى والاستثناء في قوله ﴿إلا قليلاً﴾ منقطع أي لكن قليلاً ﴿ممن أنجبنا منهم﴾ أي من الأمم الماضية وهم أتباع الأنبياء نهوا عن الفساد في الأرض وسائرهم تركوا النهي، وقيل هو متصل لأن في حرف التحضيض معنى النهي فكأنه قال ما كان في القرون أولو بقية ينهن عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجبنا منهم إلا أنه يؤدي إلى النصب في غير الموجب وإن كان غير النصب أولى.

قال الزمخشري: إن جعلته متصلاً كان المعنى فاسداً لأن الكلام يؤول إلى أن الناجين لا يحضون على النهي ومن في ممن بيانية لأنه لم ينبج إلا الناهون قبل هؤلاء القليل هم قوم يونس لقوله فيما مر إلا قوم يونس، وقيل هم أتباع الأنبياء أهل الحق من الأمم على العموم.

﴿واتبع الذين ظلموا﴾ أنفسهم بسبب مباشرتهم للفساد وتركهم للنهي عنه ﴿وما أترفوا فيه﴾ أي أنعموا من الشهوات فاهتموا بتحصيل أسبابها وأعرضوا عما وراء ذلك والمترف الذي أبطرته النعمة يقال صبي مترف منعم البدن.

وفي القاموس الترفة بالضم النعمة والطعام والشيء الظريف تخص به صاحبك وتترف كفرح تنعم وأترفته النعمة أطفته وأترف فلان أصر على المكر والمترف كمكرم المتروك يصنع ما يشاء ولا يمنع والمتنعم لا يمنع من تنعمه أي صاروا تابعين للنعم التي صاروا بها مترفين من خصب العيش ورفاهية الحال

وسعة الرزق، وآثروا ذلك على الاشتغال بأعمال الآخرة واستغرقوا بأعمارهم في الشهوات النفسانية.

وقيل المراد بالذين ظلموا، تاركوا النهي وردبانه يستلزم خروج مباشري الفساد عن الذين ظلموا وهم أشد ظلماً ممن لم يباشروا وكان ذنبه ترك النهي وقرىء واتبع على البناء للمفعول ومعناه اتبعوا جزاء ما أترفوا فيه، قال مجاهد: واتبع الذين ظلموا أي في ملكهم وتجرهم وتركهم للحق، وقال ابن عباس: أترفوا وأبطروا.

وجملة ﴿وكانوا مجرمين﴾ متضمنة لبيان سبب اهلاكهم أي وكان هؤلاء الذين اتبعوا ما أترفوا فيه مجرمين كافرين والاجرام الآثام والمعنى انهم أهل اجرام بسبب اتباعهم للشهوات واشتغالهم بها عن الأمور التي يحق الاشتغال بها ويجوز أن تكون معطوفة على واتبع الذين أي اتبعوا شهواتهم وكانوا بسبب ذلك الاتباع مجرمين.

﴿وما كان ربك ليهلك القرى﴾ أي ما صح ولا استقام بل استحال في الحكمة ان يهلك القرى التي اهلكها حسب ما بلغك انبأؤها ويعلم من ذلك حال باقيها من القرى الظالمة واللام لتأكيد النفي ﴿بظلم﴾ أي متلبساً به قيل هو حال من الفاعل أي ظالماً لها والتكثير للتفخيم والايذان بأن اهلاك المصلحين ظلم عظيم والمراد تنزيه الله تعالى عن ذلك بالكلية بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى والا فلا ظلم فيما فعله الله تعالى بعباده كائناً ما كان لما تقرر من قاعدة أهل السنة.

قال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى وما كان ربك ليهلك أحداً وهو يظلمه وان كان على نهاية الصلاح لأن تصرفه في ملكه دليله قوله تعالى ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً﴾ وقوله: وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴿وأهلها

مصلحون ﴿ حال من المفعول والعامل عامله ولكن لا باعتبار تقييده بما وقع حالاً من فاعله أعني بظلم لدلالته على تقييد نفي الإهلاك ظلماً بحال كون أهلها مصلحين ولا ريب في فساد بل مطلقاً عن ذلك .

وقيل المراد بالظلم الشرك والباء للسمية أي لا يهلك القرى بسبب اشراك أهلها أي بمجرد الشرك وحده حتى ينضم إليه الفساد في الأرض ومتابعة الهوى كما أهلك قوم شعيب بنقص المكيال والميزان ويخس الناس أشياءهم وأهلك قوم لوط بسبب ارتكابهم للفاحشة الشنعاء وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم لا يظلمون الناس شيئاً وذلك لفرط رحته ومسامحته في حقوقه تعالى .

ومن ذلك قدم الفقهاء عند تزامم الحقوق حقوق العباد الفقراء على حقوق الله الغني الحميد وقيل الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم وأنت تدري ان مقام النهي عن المنكرات التي أقبحها الاشرار بالله لا يلائمه فإن الشرك داخل في الفساد في الأرض دخولاً أولاً ولذلك ينهى كل من الرسل الذين قصت أنباؤهم أمته أولاً عن الاشرار ثم عن سائر المعاصي التي كانوا يتعاطونها فالوجه حمل الظلم على مطلق الفساد الشامل للشرك وغيره من أصناف المعاصي وحمل الاصلاح على اصلاحه والاقلاع عنه يكون بعضهم متصددين للنهي عنه وبصنعهم متوجهين الى الاتعاظ غير مصرين على ما هم عليه من الشرك وغيره من أنواع الفساد .

وقيل المعنى وما كان يهلكهم بذنوبهم وهم مخلصون في الايمان فالظلم المعاصي على هذا، أخرج الطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن جرير قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عن تفسير هذه الآية فقال: وأهلها ينصف بعضهم بعضاً، وروي موقوفاً على جرير، قيل والمراد بالهلاك عذاب الاستئصال في الدنيا وأما عذاب الآخرة فهو لازم لهم .



وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۗ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾

﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ أي أهل دين واحد أما أهل ضلالة أو أهل هدى، وقيل معناه جعلهم مجتمعين على الحق غير مختلفين فيه أو مجتمعين على دين الاسلام دون سائر الأديان ولكنه لم يشأ ذلك فلم يكن ولهذا قال:

﴿ولا يزالون مختلفين﴾ في ذات بينهم على أديان شتى ما بين يهودي ونصراني ومجوسي ومشرك ومسلم فكل هؤلاء قد اختلفوا في أديانهم اختلافاً كثيراً لا ينضبط، وقيل مختلفين في الحق أو دين الإسلام وقيل مختلفين في الرزق فهذا غني وهذا فقير، وعن ابن عباس في الآية قال: أهل الحق وأهل الباطل. عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: افتترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين والنصارى كذلك وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة<sup>(١)</sup>.

أخرجه أبو داود والترمذي بنحوه عن معاوية قال: قام فينا رسول الله (ﷺ) فقال: ألا ان من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة وان هذه الامة ستفترق على ثلاث وسبعين اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة<sup>(٢)</sup>، أخرجه أبو داود.

قال الخطابي: فيه دلالة على ان هذه الفرق غير خارجة عن الملة والدين إذ جعلهم من أمته، وقال غيره: المراد بها أهل البدع والأهواء الذين تفرقوا واختلفوا وظهروا بعده كالخوارج والقدرية والمعتزلة والرافضة وغيرهم والمراد بالواحدة هي فرقة السنة والجماعة الذين اتبعوا الرسول في قوله وفعله ولم يقلدوا أحداً في خلافه.

(١) و(٢) أبو داود كتاب السنة باب ١.

إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ  
وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

﴿إلا من رحم ربك﴾ أي إلا أهل رحمته فانهم لا يختلفون وعن عطاء ابن أبي رباح قال: لا يزالون مختلفين أي اليهود والنصارى والمجوس والحنيفية وهم الذين رحم ربك. وقال الحسن: الناس مختلفون على أديان شتى إلا من رحم ربك فمن رحم ربك غير مختلف.

وعن مجاهد قال: من اختلف أهل الباطل ومن رحم أهل الحق فمن الله عليهم بالتوفيق والهداية إلى الدين الحق، فإنهم لم يختلفوا أو إلا من رحم ربك من المختلفين في الحق أو دين الإسلام بهدأته إلى الصواب الذي هو حكم الله وهو الحق الذي لا حق غيره أو إلا من رحم ربك بالقناعة والاولى تفسير لجعل الناس أمة واحدة بالمجتمعة على الحق حتى يكون معنى الاستثناء في إلا من رحم واضحاً غير محتاج إلى تكلف.

﴿ولذلك﴾ أي ولما ذكر من الاختلاف أو ولرحمته وصح تذكير الإشارة إلى الرحمة لكون تأنيثها غير حقيقي، والضمير في ﴿خلقهم﴾ إن كان راجعاً إلى الناس فلا إشارة إلى الاختلاف واللام للمعاينة أو إليه وإلى الرحمة، وإن كان إلى من قبل الرحمة، وقيل الإشارة بذلك إلى مجموع الاختلاف والرحمة ولا مانع من الإشارة بها إلى شيئين كما في قوله ﴿عوان بين ذلك﴾ وقوله ﴿وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾ وقوله ﴿فبذلك فليفرحوا﴾ قال مجاهد: خلقهم للرحمة وعن عكرمة نحوه وقال ابن عباس: خلقهم فريقين، فريقاً يرحم فلا يختلف، وفريقاً لا يرحم فيختلف فذلك قوله فمنهم شقي وسعيد.

وقال الحسن وعطاء: خلقهم للاختلاف، وقال أشهب: سألت مالك بن أنس عن هذه الآية فقال: خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير. وقال الفراء: خلق أهل الرحمة للرحمة وأهل الاختلاف للاختلاف.

قال شيخ الاسلام ابن تيمية في كتاب الرد على المنطقيين: ان القوم كلما بعدوا عن اتباع الرسل والكتب المنزلة كان أعظم في تفرقهم واختلافهم فإنهم يكونوا أضل، وقد أمر الله بالجماعة والاتلاف، ونهى عن الفرقة والاختلاف فقال تعالى ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ وقال تعالى ﴿ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء﴾ وقال ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم اليينات﴾.

وقد أخبر أن أهل الرحمة لا يختلفون فقال تعالى ﴿ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك﴾ ولذلك يوجد أتبع الناس للرسول أقلهم اختلافاً كأهل الحديث والسنة فإنهم أقل اختلافاً من جميع الطوائف، ثم من كان اليهم أقرب كان من الاختلاف أبعد، فأما من بعد عن السنة كالمعتزلة والرافضة فتجدهم أكثر الطوائف اختلافاً، وأما اختلاف الفلاسفة فلا يحصره أحد.

وقد ذكر أبو الحسن الأشعري في كتاب المقالات مقالات غير الاسلاميين عنهم من المقالات ما لم يذكره الفارابي وابن سينا وأمثالهما، وكذلك القاضي أبو بكر بن الطيب في كتاب الدقائق الذي رد فيه على الفلاسفة والمنجمين، ورجع فيه منطق المتكلمين من العرب على منطق اليونان.

وكذلك متكلمة المعتزلة والشيعة وغيرهم في ردهم على الفلاسفة ذكروا أنواعاً من المقالات وردوها ولكن مذهب الفلاسفة الذي نصره الفارابي وابن سينا وأمثالهما كالسهروردي المقتول على الزندقة وكأبي بكر بن الصائغ وابن رشد الحفيد هو مذهب المشائين أتباع ارسطو صاحب المنطق وهو الذي يذكره الغزالي في كتاب مقاصد الفلاسفة، وعليه رد في التهافت، وهو الذي يذكره الرازي في الملخص والمباحث المشرقية ويذكره الأمدى في دقائق الحقائق ورموز الكنوز وغير ذلك.

وعلى طريقتهم مشى أبو البركات صاحب المعبر لكن لم يقلدهم تقليد غيره بل اعتبر ما ذكره بحسب نظره وعقله، وكذلك الرازي والأمدى

يعترضان عليهم في كثير مما يذكرونه بحسب ما يسنع لهم، وابن سينا أيضاً قد يخالف الأولين في بعض ما ذكروه.

والفلاسفة طوائف كثيرون وبينهم اختلاف كثير في الطبيعيات والإلهيات وفي الهيئة أيضاً وأول من خلط منطقهم بأصول المسلمين أبو حامد الغزالي وتكلم فيه علماء المسلمين بما يطول ذكره، وهذا الرد عليهم مذكور في كثير من كتب أهل الكلام.

والفلاسفة ليسوا أمة واحدة لها مقالة في العلم الإلهي والطبيعي وغيرهما بل هم أصناف متفرقون وبينهم من التفرق والاختلاف ما لا يحصيه إلا الله أعظم مما بين الملة الواحدة كاليهود والنصارى أضعافاً مضاعفة.

والمقصود أن نظار المسلمين ما زالوا يصنفون في الرد عليهم في المنطق وغير المنطق ويشتون خطأهم فيما ذكروه جميعاً إذ لا يحكم بين الناس فيما تنازعوا فيه إلا كتاب منزل ونبي مرسل كما قال تعالى ﴿وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ ولهذا قال تعالى ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ انتهى المقصود بتصرف في العبارة.

وحاصل الآية أن الله خلق أهل الباطل وجعلهم مختلفين، وخلق أهل الحق وجعلهم متفقين وحكم على بعضهم بالاختلاف ومصيرهم إلى النار وحكم على بعضهم بالرحمة ومصيرهم إلى الجنة وهم أهل الاتفاق.

ويدل لصحة هذا قوله ﴿وتمت كلمة ربك﴾ أي ثبتت كما قدره في أزله وإذا تمت وحقت ووجبت وامتنعت من التغيير والتبديل وقيل الكلمة هي قوله للملائكة ﴿لأملأن جهنم من الجنة﴾ أي الجن والنساء للمبالغة ﴿والناس أجمعين﴾ أي ممن يستحقها من الطائفتين.

وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ  
 وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا  
 عَامِلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ  
 الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٤﴾

﴿وَكُلًّا﴾ أي وكل نبأ فالتنوين عوض عن المضاف اليه ﴿نقص عليك﴾ أي نخبرك به مما يحتاج اليه وقوله ﴿من أنباء الرسل﴾ بيان لكُلًّا، وقوله ﴿ما نثبت به فؤادك﴾ يدل منه والأظهر ان يكون المضاف اليه المحذوف في ﴿كُلًّا﴾ المفعول المطلق لنقص أي كل اقتصاص أي كل أسلوب من أساليبه نقص عليك من أنباء الرسل، وقوله ﴿ما نثبت﴾ مفعول نقص وفائدته التنبيه على ان المقصود بالاقتصاص زيادة يقينه عليه السلام وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على أداء الرسالة واحتمال أذية الكفار بالوقوف على تفاصيل أحوال الأمم السالفة في تماديهم في الضلال وما لقي الرسل من جهتهم من مكابدة المشاق لان تكاثر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ في النفس وأقوى للعلم.

﴿وجاءك في هذه﴾ أي السورة قاله ابن عباس وأبو موسى الأشعري وسعيد بن جبير والحسن وعليه الاكثر: أو في هذه الدنيا قاله قتادة وفيه بعد لانه لم يجر للدنيا ذكر، وقيل في هذه الآية أو في هذه الأنباء ﴿الحق﴾ أي البراهين القاطعة الدالة على صحة المبدأ والمعاد.

وقيل النبوة وعلى الاول يكون تخصيص هذه السورة بمجيء الحق فيها مع كونه قد جاء في غيرها من السور لقصد بيان اشتغالها على ذلك لا بيان كونه موجوداً فيها دون غيرها.

وقيل لأنها جمعت من اهلاك الأمم وشرح حالهم ما لم يجمع غيرها، وقيل خصها بالذكر تشريفاً لها والتعريف في الحق اما للجنس أو للعهد وانما عرفه

ونكر تاليه تضحياً له لكونه يطلق على الله بخلاف تاليه.

﴿وموعظة﴾ يتعظ بها الواقف عليها إذا تذكر أحوال الأمم الماضية  
﴿وذكري للمؤمنين﴾ أي يتذكر بها من تفكر فيها منهم، وخص المؤمنين لكونهم  
المتأهلين للاتعاظ والتذكر.

﴿وقل للذين لا يؤمنون﴾ بهذا الحق ولا يتعظون ولا يتذكرون  
﴿اعملوا﴾ حال كونكم قارين وثابتين ﴿على مكانتكم﴾ على تمكنتكم وحالكم  
وجهتكم من الكفر وقد تقدم تحقيقه.

وقال قتادة: على منازلكم ﴿انا عاملون﴾ على مكانتنا وحالنا وجهتنا من  
الايان بالحق والاتعاظ والتذكر وفي هذا تشديد للوعيد وتهديد لهم.

﴿وانظروا﴾ عاقبة أمرنا، وقال ابن جريج: انتظروا مواعيد الشيطان  
اياكم على مايزين لكم ﴿انا منتظرون﴾ عاقبة أمركم وما يحل بكم من عذاب  
الله وعقوبته وفيه من الوعيد والتهديد ما لا يخفى.

﴿ولله غيب السموات والأرض﴾ أي علم جميع ما هو غائب عن العباد  
فيها وخص الغيب مع كونه يعلم، بما هو مشهود كما يعلم بما هو مغيب لكونه  
من العلم الذي لا يشاركه فيه غيره.

وقيل ان غيب السموات والأرض نزول العذاب من السماء وطلوعه من  
الأرض، والأول أولى؛ وبه قال أبو علي الفارسي وغيره وأضاف الغيب إلى  
المفعول توسعاً.

﴿واليه يرجع﴾ بالبناء للفاعل يعود وللمفعول يرد ﴿الأمر كله﴾ أي أمر  
الخلق كلهم في الدنيا والآخرة فيجازي كلاً بعمله فينتقم من عصي ويثيب من  
أطاع.

وقال ابن جريج: فيقضي بينهم بحكم العدل ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾  
فانه كافيك كل ما تكره ومعطيك كل ما تحب والفاء لترتيب الامر بالعبادة

والتوكل على كون مرجع الامور كلها إلى الله سبحانه قيل هذا الخطاب له  
ولجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم وفي تأخير الامر بالتوكل عن الامر بالعبادة  
اشعار بأنه لا ينفع دونهما.

﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ بل عالم بجميع ذلك ومجاز عليه ان خيراً  
فخيراً وان شراً فشراً، وقرأ أهل المدينة والشام وحفص بالفوقية على الخطاب  
وهي سبعية والباقون بالتحية وهم الجمهور:

وأخرج عبد الله بن أحمد وابن الدريس وابن جرير وأبو الشيخ عن كعب  
الأخبار قال: فاتحة التوراة فاتحة الأنعام وخاتمة التوراة خاتمة هود ﴿ولله غيب  
السموات والارض﴾ إلى آخر الآية.

## استدراك

فاتنا أن نعلق على الآيات التي مرت في سورة هود الواردة في بيان وظيفة الرسل بأوسع مما كتبه المؤلف فرأينا أن نستدركه هنا:

وظيفة الرسل الأساسية هي ما بعثهم الله لأجله من تبليغ رسالته بإنذار من تولى عن الإيمان وعصى، وتبشير من أجاب الدعوة فأمن واهتدى، والشواهد عليها من هذه السورة قوله تعالى في دعوة رسوله خاتم النبيين ﴿إني لكم منه نذير مبين﴾ وقوله حكاية عن رسوله هود صلى الله عليه وسلم فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم.

وموضوع التبليغ هو الدعوة إلى أركان الدين، وعليها مدار معادة المكلفين في الدنيا والآخرة، وكلها مبطلّة لما كان عليه أقوامهم المشركون من أن بينهم وبين الله تعالى وسائط منهم أو من غيرهم من خلقه يقربونهم إليه بجاههم الشخصي ويقضون حوائجهم من جلب نفع أو دفع ضرر بشفاعتهم لهم عنده، أو بتصرفهم في خلقه بما خصهم به من خوارق العادات، إلا ما جعله من آياته دليلاً على صدقهم في دعوى الرسالة.

والرسل بشر بمعنى أنهم لا يملكون من أمور العالم شيئاً مما هو فوق كسب البشر، غير ما خصهم الله به من الرسالة دون شؤون ربوبيته، حتى أنهم لا يملكون هداية أحد إلى الدين بالفعل لأن هدايتهم خاصة بالتبليغ والتعليم، وحكاية نوح مع ابنه الكافر حجة في هذا الموضوع واضحة.

والشواهد على هذا في القرآن كثيرة، ومنها في هذه السورة ما علمت من آيات توحيد الربوبية، والرد على مشركي مكة في اقتراحهم مجيء الملك بقوله تعالى ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك، إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل﴾



وقوله حكاية عن نوح ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك﴾ وفي معناه آيات كثيرة في السور الأخرى.

ومنها في احتجاج المشركين على رسلهم بأنهم بشر في قصة نوح ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه: ما نراك الا بشراً مثلنا﴾ وقد قال مثل هذا سائر أقوام الرسل بعده الى خاتمهم محمد صلوات الله عليهم أجمعين.

ولو كان أولئك الرسل في عصرهم على غير ما يعهد أقوامهم من البشر بأن كانوا يتصرفون في الكون بالضر والنفع وعلم الغيب لما احتجوا عليهم بأنهم بشر مثلهم كما يدعي الذين ضلوا من أقوامهم من بعدهم عما جاءوا به مع دعوى اتباعهم فزعموا أنهم وبعض من وصفوا بالصلاح والولاية من أتباعهم يضررون وينفعون: أحيائهم وأمواتهم في هذا سواء.

بل يزعمون أنهم أحياء في قبورهم حياة مادية بدنية، يأكلون فيها ويشربون ويسمعون كلام من يدعوهم ويستغيث بهم، ويستجيون دعاءهم فيها: يخالفون هذه الدعاوي ماثات من آيات القرآن المحكمات في صفات الأنبياء، وكونهم بشراً لا يقدر على شيء مما لا يقدر عليه البشر.

وقد يحتجون بما ورد فيه من بعض أنباء الغيب في حياة الشهداء البرزخية فيقيسون عليها بأهوائهم حياة أوليائهم رجماً بالغيب وافتراء على الله.



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## سورة يوسف عليه السلام

قيل هي مائة واحد عشر آية وهي مكية كلها. وقيل نزلت ما بين مكة والمدينة وقت الهجرة. وقال ابن عباس وقتادة: إلا أربع آيات قال القرطبي: قال العلماء: ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن وكررها بهنك واحد في وجوه مختلفة بألفاظ متباينة على درجات البلاغة وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها فلم يقدر فخالف على معارضة ما تكرر، ولا على معارضة ما لم يتكرر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّتِّكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾  
 نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ  
 قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾

﴿الر﴾ قد تقدم الكلام فيه في فاتحة سورة يونس ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ أي تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب وتبكيتهم، والمبين من أبان بمعنى بان أي الظاهر أمره في كونه من عند الله، وفي إعجازه بنوعيه لا سيما الإخبار عن الغيب، أو الواضح معانيه للعرب بحيث لا يلتبس على قارئه وسامعه لنزوله على لغتهم، أو بمعنى بين أي المبين لما فيه من الأحكام والشرائع وخفاء الملك والمملوك وأسرار الناشئين في الدارين، أو المبين فيه قصص الأولين وشرح أحوال المتقدمين، أو قد أبين فيها ما سألت عنه اليهود من قصة يوسف.

قال قتادة: مبين بينه الله ببركته ورشده فهذا من بان أي ظهر، وقال الزجاج: مبين للحق من الباطل والحلال من الحرام فهذا من أبان بمعنى أظهر، قال مجاهد: بين الله حلاله وحرامه، وعن معاذ قال: بين الله الحروف التي سقطت عن السن الأعاجم وهي ستة أحرف.

﴿إنا أنزلناه﴾ أي الكتاب المبين حال كونه ﴿قرآناً﴾ فعلى تقدير أن الكتاب السورة يكون تسميتها قرآناً باعتبار أن القرآن اسم جنس يقع على الكل وعلى البعض وعلى تقدير أن المراد به كل القرآن فتكون تسميته قرآناً واضحة و﴿عربياً﴾ صفة لقرآن أي لغة العرب وفيه من غير لسان العرب مثل سجيل ومشكاة وأليم واستبرق ونحو ذلك، قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وهذا هو الصحيح وأنكرها أبو عبيدة محتجاً بهذه الآية والجمع أنها لما تكلمت بها العرب نسبت إليهم وصارت لهم لغة ﴿لعلكم تعقلون﴾ أي لكي تعلموا معانيه وتفهموا ما فيه لأنه نازل بلغتكم.

أخرج الحاكم عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا ﴿قرآناً عربياً﴾ ثم قال: ألهم اسماعيل هذا اللسان العربي إلهاماً<sup>(١)</sup>، وعن مجاهد قال: نزل القرآن بلسان قريش وهو كلامهم.

﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ هو تتبع الشيء ومنه قوله تعالى ﴿وقالت لأخته قصيه﴾ أي تتبعي أثره وهو مصدر وسميت الحكاية قصة لأن الذي يقص الحديث يذكرك تلك القصة شيئاً فشيئاً، والتقدير نقص عليك قصصاً أحسن القصص فيكون بمعنى الاقتصار، أو هو بمعنى المفعول أي المقصود، والظاهر أنه أحسن ما يقتص في بابه، قال ابن عباس: قالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فتزلت هذه الآية.

وعن ابن مسعود مثله وقال قتادة: نقص عليك من الكتب الماضية والقرون الخالية وأمور الله السابقة في الأمم أحسن البيان، واختلف في وجه كون هذه السورة أو القرآن هو أحسن القصص فقليل لأن ما في هذه السورة من القصص يتضمن من العبر والمواعظ والحكم ما لم يكن في غيرها وقيل لما فيها من حسن المحاورة وما كان من يوسف عليه السلام من الصبر على أذاهم وعفوه عنهم، وقيل لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجن والانس والأنعام والطيور وسير الملوك والممالك والتجار العلماء والجهال والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن.

وقيل لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب وما دار بينهما وقيل أن أحسن هنا بمعنى أعجب، وقيل أن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة، قال خالد بن معدن: أن سورة يوسف وسورة مريم يتفكه بهما أهل الجنة في الجنة، وقال عطاء: لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها.

﴿بما أوحينا﴾ بإيجائنا ﴿إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله﴾ أي من قبل إيجائنا إليك ﴿لمن الغافلين﴾ عن هذه القصة لم تخطر ببالك ولم تفرغ سمعك،

(١) المستدرک، کتاب التفسیر، ٤٤١/٢.

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَبْنَئِي لَأَنْقُصَنَّ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾

﴿إذ﴾ أي اذكر وقت أن ﴿قال يوسف لأبيه﴾ قرأ الجمهور ويوسف بضم السين وقرئء بكسرها مع الهمز مكان الواو وحكي الهمز وفتح السين وهو اسم عبراني غير منصرف للعلمية والعجمة وقيل هو عربي والأول أولى بدليل عدم صرفه وأبوه يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم وعاش يوسف من العمر مائة وعشرين سنة ذكره السيوطي في التحبير.

﴿يا أبت﴾ بكسر تاء التانيث اللفظي التي هي عوض عن ياء المتكلم المحذوفة وأصله يا أبي وهذا التعويض مختص بلفظين يا أبت ويا أمت ولا يجوز في غيرهما من الأسماء ومن نص على كونها للتانيث سيويه والخليل ويدل عليه كتبهم إياها هاء وقياس من وقف بالتاء أن يكتبها تاء كبت وأخت وجاز إلحاقها المذكور كما جاز حمادة ذكر وشاة ذكر ورجل ربعة وغلام يفعة

﴿إني رأيت﴾ من الرؤيا النومية لا من الرؤية البصرية كما يدل عليه لا تقصص رؤياك على إخوتك قال ابن عباس: رؤيا الأنبياء حق وكانت هذه الرؤيا ليلة الجمعة وكانت ليلة القدر فرأى أن أحد عشر كوكباً نزلت من السماء ومعها الشمس والقمر فسجدوا له وكان يوسف إذ ذاك ابن اثنتي عشرة سنة وقيل سبع عشرة وقيل سبع سنين.

﴿أحد عشر كوكباً﴾ وهي جريان والطارق والذبال وقابس وعمودان والفلق والمصبح والصروح والفرع ووثاب وذو الكتفين قاله اليبضاوي وهذه نجوم غير مرصودة خصت بالرؤيا لغيبتهن عنه قاله الشهاب وورد في حديث أسماؤها هكذا ساقه السيوطي في الدر المنثور وفيه الضعفاء والمتروكون وقال ابن

الجوزي: هو موضوع، قال ابن عباس: أحد عشر كوكباً وإخوته والشمس أمه والقمر أبوه وعن قتادة والسدي وابن زيد نحوه.

﴿والشمس والقمر﴾ أخرهما عن الكواكب لاظهار مزيتها وشرفها كما في عطف جبريل وميكائيل على الملائكة وقيل أن الواو بمعنى مع ﴿رايتهم لي ساجدين﴾ مستأنفة لبيان الحالة التي رأهم عليها كأن سائلاً سأل فقال كيف رايتهم فأجاب بذلك.

وإنما أجريت مجرى العقلاء في الضمير المختص بهم لوصفها بوصف العقلاء وهو كونها ساجدة كذا قال الخليل وسيبويه والعرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل إذا نزلوا منزلته وقيل كررت للتأكيد لما طال الفصل بالمفاعيل والأول أولى وإليه نحا الزمخشري لأنه متى دار الكلام بين الحمل على التأكيد والتأسيس فحملة على الثاني أولى، والمراد حقيقة السجود لأنه كان التحية فيما بينهم السجود، وقيل المراد بالسجود تواضعهم له ودخولهم تحت أمره والأول أولى.

ولم تظهر رؤية يوسف إلا بعد أربعين سنة وهو قول أكثر المفسرين وقال الحسن البصري: كان بينها ثمانون سنة حين اجتمع عليه أبواه وإخوته وخرخوا له ساجدين.

﴿قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك﴾ الرؤيا مصدر رأي في المنام رؤيا على وزن فعلى كالسقى والبشرى وألفه للتأنيث ولذلك لم يصرف نهي يعقوب ابنه يوسف عن أن يقص رؤياه على أخوته لأنه قد علم تأويلها وخاف أن يقصها عليهم فيفهمون تأويلها ويحصل منهم الحسد له ولهذا قال.

﴿فيكيدوا لك كيداً﴾ وهذا جواب النهي أي فيفعلوا لاجلك كيداً مثبناً



راسخاً لا تقدر على الخلوص منه أو كيداً خفياً عن فهمك وهذا المعنى الحاصل بزيادة اللام أكد من أن يقال فيكيدوا كيداً وقيل إنما جرى باللام لتضمنه معنى الاحتيال المتعدي باللام فيفيد هذا التضمن معنى الفعلين جميعاً الكيد والاحتيال كما هو القاعدة في التضمنين أن يقدر أحدهما أصلاً والآخر حالاً .

﴿إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾ مستأنفة كأن يوسف قال: كيف يقع ذلك منهم فنبه بأن الشيطان يحملهم على ذلك لأنه عدو للإنسان مظهر للعداوة مجاهر بها وقد وردت أحاديث صحيحة في بيان الرؤيا الصالحة وأنها من الله والسوء وأنها من الشيطان وفي أن رؤيا المؤمن جزء من أربعين جزءاً من النبوة وليس لها تعلق بهذه الآية بل هي تعم .

وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ  
 آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِشْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾  
 ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْسَّابِقِينَ ﴿٧﴾﴾

﴿وكذلك﴾ أي ومثل ذلك الاجتناء البديع الذي رأته في المنام وشاهدت  
 آثاره في عالم المثال من سجود تلك الأجرام العلوية النيرة لك الدال على شرف  
 وعز وكمال نفس وبحسبه وعلى وفقه ﴿يجتبيك ربك﴾ وبحقق فيك تأويل تلك  
 الرؤيا فيجعلك نبياً ويصطفيك على سائر العباد ويسخرهم لك كما تسخرت لك  
 تلك الأجرام التي رأيتها في منامك فصارت ساجدة لك .

قال النحاس : الاجتناء أصله من جبيت الشيء إذا حصلت له نفسك ومنه  
 جبيت الماء في الحوض جمعته ومعنى الاجتناء الاصطفاء واجتناء الله العبد  
 تخصيصه إياه بفيض إلهي تحصل منه أنواع المكرمات بلا سعي من العبد وذلك  
 مختص بالأنبياء وبعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء والصالحين وهذا  
 يتضمن الثناء على يوسف وتعدد نعم الله عليه ومنها .

﴿ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾ أي تأويل الرؤيا قال مجاهد : عبارة  
 الرؤيا، وقال ابن زيد : تأويل العلم والحلم وكان يوسف من أعبر الناس وسمى  
 الرؤيا أحاديث لأنها أحاديث الملك إن كانت صادقة وأحاديث الشيطان إن كانت  
 كاذبة، قال القرطبي : وأجمعوا أن ذلك في تأويل الرؤيا وقد كان يوسف أعلم  
 الناس بتأويلها .

وقيل المراد تأويل أحاديث الأمم السالفة والكتب المنزلة قاله الزجاج وقيل  
 المراد به إحواج أخوته إليه وقيل إنجاؤه من كل مكروه وقيل إنجاؤه من القتل  
 خاصة والأحاديث جمع تكسير فقيل لواحد ملفوظ به وهو حديث ولكنه شد جمعه

على أحاديث وله نظائر في الشذوذ كأباطيل وأفاظيع وأعاريض في باطل وفضيع وعريض وزعم أبو زيد أن لها واحداً مقدرًا وهو أحدوثة ونحوه وليس باسم جمع لأن هذه الصيغة مخصصة بالتكسير وإذا كانوا قد التزموا ذلك فيما لو يصرح له بمفرد من لفظه نحو عباديد وشماطيط وأبائيل، ففي أحاديث أولى قاله السمين.

﴿وإتم نعمته عليك﴾ فيجمع لك بين النبوة والملك كما تدل عليه هذه الرؤيا التي أراك الله أو يجمع لك بين خيرى الدنيا والآخرة ﴿وعلى آل يعقوب﴾ وهم قرابته من إخوته وأولاده ومن بعدهم وذلك أن الله سبحانه أعطاهم النبوة كما قاله جماعة من المفسرين ولا يبعد أن يكون إشارة إلى ما حصل لهم بعد دخولهم مصر من النعم التي من جملتها كون الملك فيهم مع كونهم أنبياء وبه قال أكثر المفسرين.

﴿كما أتمها على أبويك﴾ أي إتماما مثل إتمامها عليهما وهي نعمة النبوة عليهما مع كون إبراهيم اتخذته الله خليلاً ومع كون اسحق نجاه الله سبحانه من الذبح قاله عكرمة وصار لها الذرية الطيبة وهم يعقوب ويوسف وسائر الأسباط ﴿من قبل﴾ أي من قبل هذا الوقت الذي أنت فيه أو من قبلك ﴿إبراهيم واسحاق﴾ عطف بيان لأبويك أو بدل منه أو على إضمار أعني وعبر عنهما بالأبوين مع كونهما أبا جده وأبا أبيه للاشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء الكرام ﴿إن ربك عليم﴾ بمصالح خلقه ﴿حكيم﴾ في أفعاله والجملة متأنفة مقررة لمضمون ما قبلها تعليلاً له أي فعل ذلك لأنه عليم حكيم إشارة إلى قوله تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالته وأنه لا يضع النبوة إلا في نفس قدسية.

وكان هذا الكلام من يعقوب مع ولده يوسف تعبيراً لرؤياه على طريق الإجمال أو علم ذلك من طريق الوحي، أو عرفه بطريق الفراسة وما تقتضيه المخايل اليوسفية.

﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾ أي لقد كان في قصتهم

علامات دالة على عظيم قدرة الله وبديع صنعه للسائلين من الناس عنها وغيرهم ففيه اكتفاء، وقرأ أهل مكة آية على التوحيد، قال النحاس: وآية ههنا قراءة حسنة، وقيل المعنى لقد كان في يوسف وأخوته آيات دالة على نبوة محمد ﷺ للسائلين له من اليهود فإنه روي أنه قال جماعة منهم وهو بمكة أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج ابنه إلى مصر فبكى عليه حتى عمي، ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ولا من يعرف خبر الأنبياء، وإنما وجهوا إليه من أهل المدينة من يسأله عن هذا فأنزل الله سورة يوسف جملة واحدة كما في التوراة.

وقيل معنى آيات للسائلين عجب لهم، وقيل بصيرة وقيل عبرة للمعتبرين، فإن هذه القصة تشتمل على أنواع من العبر والمواعظ والحكم منها رؤيا يوسف وما حقق الله فيها، ومنها حقد أخوته له وما آل إليه أمرهم، ومنها صبر يوسف على ما فعلوا به وما آل إليه أمره من الملك، ومنها حزن يعقوب وصبره على فقد ولده وما آل إليه أمره من بلوغ المراد وغير ذلك من الآيات.

قال القرطبي: وأسماءهم يعني أخوة يوسف وهم أحد عشر: روبيل وهو أكبرهم وشمعون ولاوي ويهوذا وزبولون ويشجر وأمهم ليا بنت ليان وهي بنت خال يعقوب وولد له من سريتين زلفة وبلهة أربعة وهم دان وتفتونا وجاد وأوشير، ثم ماتت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين، فهؤلاء بنو يعقوب وهم الأسباط وعددهم اثنا عشر تفرأ...

وقال السهيلي: أن أم يوسف اسمها وفقا وراحيل ماتت من نفاس بنيامين وهو أكبر من يوسف وعن قتادة في الآية يقول: من سأل عن ذلك فهو هكذا ما قص الله عليكم وأنبأكم به وعن الضحاك نحوه وعن ابن اسحاق قال: إنما قص الله على محمد صلى الله عليه وآله وسلم خبر يوسف وبغي أخوته عليه وحسداهم إياه حين ذكر رؤياه لما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من بغي قومه عليه وحسداهم إياه حين أكرمه الله بنبوته ليأتسي به.

إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨﴾

﴿إِذ﴾ أي وقت أن ﴿قالوا ليوسف وأخوه﴾ هو بنيامين بكسر الباء وصحح بعضهم فتحها ففيه الوجهان وهو أصغر من يوسف وخصوه بكونه أخاه مع أنهم جميعاً أخوته لأنه أخوه لأبويه كما تقدم واللام لام القسم أي والله ليوسف ووجد الخبر فقال ﴿أحب إلى أينا منا﴾ مع تعدد المتبدأ لأن أفعل التفضيل يستوي فيه الواحد وما فوقه إذا لم يعرف وهو مبني من حب المبني للمفعول وهو شاذ قياساً فصيح استعمالاً لوروده في أفصح الفصيح وإذا بنيت أفعل التفضيل من مادة الحب والبغض تعدى إلى الفاعل المعنوي بإلى وإلى المفعول المعنوي باللام أو بقي وعلى هذا جاءت الآية الكريمة .

وإنما قالوا هذا لأنه بلغهم خبر الرؤيا فأجمع رأيهم على كيدته .

﴿ونحن عصابة﴾ الواو للحال والعصبة الجماعة قيل وهي ما بين الواحد إلى العشرة وقيل ما بين الثلاثة إلى العشرة وقيل هي العشرة فما زاد وقيل من العشرة إلى خمسة عشر وقيل ستة وقيل تسعة وقيل من العشرة إلى الأربعين قاله قتادة . والمادة تدل على الإحاطة من العصابة لإحاطتها بالرأس وقيل الأصل فيه إن كل جماعة يتعصب بعضهم لبعض يسمون عصابة والعصبة لا واحد لها من لفظها بل هي كالنفر والرهط وقد كانوا عشرة .

﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾ أي لفي ذهاب عن وجه التدبير بالترجيح لهما علينا وإبناهما دوننا مع استوائنا في الإنتساب إليه ولا يصح أن يكون مرادهم أنه في دينه في ضلال إذ لو أرادوا ذلك لكفروا به قال ابن زيد: أي لفي خطأ من رأيه .

أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيِّبَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ ﴿١١﴾

﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً﴾ أي في أرض وإليه ذهب الحوفي وابن عطية وقال الزمخشري: أي أرضاً منكورة مجهولة بعيدة من العمران وهو معنى تنكيرها وإخلائها من الناس ولأنها من هذا الوجه نصبت نصب الظروف المبهمة وقيل أنها مفعول ثان والمعنى أنزلوه أرضاً والطرح الرمي ويعبر به عن الاقتحام في المخاوف يعني قالوا: افعلوا به أحد الأمرين إما القتل أو الطرح في أرض أو المشير بالقتل بعضهم، والمشير بالطرح البعض الآخر أو كان المتكلم بذلك واحداً منهم فوافقه الباقون، فكانوا كالمقاتل في نسبة هذا المقول إليهم وجواب الأمر.

﴿يخل لكم وجه أبيكم﴾ أي يصف ويخلص فيقبل عليكم ويحبكم حباً كاملاً لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه ﴿وتكونوا من بعده﴾ أي بعد يوسف والمراد بعد الفراغ من قتله أو طرحه وقيل من بعد الذنب الذي اقترتموه في يوسف ﴿قوماً صالحين﴾ في أمور دينكم وطاعة أبيكم أو صالحين في أمور دنياكم بذهاب ما كان يشغلكم عن ذلك وهو الحسد ليوسف وتكدر خواطركم بتأثيره عليكم هو وأخوه، أو صالحين مع أبيكم بعذر تمهدونه أو المراد بالصالحين التائبون من الذنب في المستقبل.

﴿قال قائل منهم﴾ أي من الإخوة قيل هو يهوذا وقيل روبيل وقيل شمعون والأول أولى قيل وجه الإظهار في ﴿لا تقتلوا يوسف﴾ استجلاب شفقتهم عليه فلم ير هذا القائل القتل ولا طرحه في أرض خالية قفراء بل قال ﴿وألقوه في

غيابة الجب ﴿ أي في بئر يشرب منها الماء فإنه أقرب للخلاصه، فمحصل ذلك أنه اختار خصلة ثالثة هي أرفق بيوسف من تينك الخصلتين.

قرأ جماعة غيابة بالإفراد وغيرهم بالجمع، وأنكر أبو عبيد الجمع لأن الموضع الذي ألقوه فيه واحد، قال النحاس: وهذا تضييق في اللغة والجمع يجوز والغيابة كل شيء غيب عنك شيئاً وقيل للقبر غيابة والمراد بها هنا غور البئر الذي لا يقع عليه البصر أو طاقة فيه.

قال الهروي: الغيابة سد أو طاق في البئر قريب الماء يغيب ما فيه من العيون وقال الكلبي: الغيابة تكون في قعر الجب لأن أسفله واسع ورأسه ضيق فلا يكاد الناظر يرى ما في جوانبه وقال الزمخشري: هي غورة وما غاب منه من عين الناظر وأظلم من أسفله والمعاني متقاربة والجب البئر التي لم تطو ويقال لها قبل الطي ركية فإذا طويت قيل لها بئر وسميت جباً لأنها قطعت في الأرض قطعاً أو لكونه محفوراً في جبوب الأرض أي ما غلظ منها.

وجمع الجب جيب وجباب وأجباب وجمع بين الغيابة والجب مبالغة في أن يلقوه في مكان أسفل من الجب شديد الظلمة حتى لا يدركه نظر الناظرين قيل وهذه البئر بيت المقدس قاله قتادة وقيل ببعض نواحي ايلياء، وقيل بالأردن، قاله وهب وقيل بالشام، وعن ابن زيد قال: بحذاء طبرية بينه وبينها أميال وقال مقاتل: هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب، وجواب الأمر.

﴿يلتقطه بعض السيارة﴾ قرىء بالتحية والفوقية ووجهه أن بعض السيارة سيارة وهي الجمع الذي يسير في الطريق جمع سيار أي المبالغ في السير والالتقاط هو أخذ شيء مشرف على الضياع من الطريق أو من حيث لا يحتسب ومنه اللقطة كأنهم أرادوا أن بعض السيارة إذا التقطه حمله إلى مكان بعيد بحيث يخفى عن أبيه ومن يعرفه ولا يحتاجون إلى الحركة بأنفسهم إلى المكان البعيد فرميا أن

والدهم لا يأذن لهم بذلك وكان هذا الجب معروفاً يرد عليه كثير من المسافرين .

﴿إن كنتم فاعلين﴾ أي عاملين بما أشرت به عليكم في أمره كأنه لم يجزم بالأمر بل وكله إلى ما يجمعون عليه كما يفعله المشير مع من استشاره، وفي هذا دليل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء فإن الأنبياء لا يجوز عليهم التواطؤ على القتل لمسلم ظلماً وبغياً، وقيل كانوا أنبياء وكان ذلك منهم زلة قدم أوقعهم فيها التهاب نار الحسد في صدورهم واضطرام جمرات الغيظ في قلوبهم .

ورد بأن الأنبياء معصومون عن مثل هذه المعصية الكبيرة المتبالغة في الكبر مع ما في ذلك من قطع الرحم وعقوق الوالد واقتراء الكذب، وقلة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له والغدر بالأمانة وترك العهد، وقيل عزموا على قتله وعصمهم الله رحمة بهم، ولو فعلوا ذلك لهلكوا جميعاً، وقيل أنهم لم يكونوا في ذلك الوقت أنبياء بل صاروا أنبياء من بعد وكان كل ذلك قبل أن ينهاهم الله .

ولما أجمع رأيهم على أن يلقوه في غيابات الجب جاءوا إلى أبيهم وخاطبوه بلفظ الأبوة استعطافاً له وتحريكاً للحنو الذي جبلت عليه طبائع الآباء للأبناء وتوسلاً بذلك إلى تمام ما يريدونه من الكيد الذي دبروه واستفهموه استفهام المنكر لأمر ينبغي أن يكون الواقع على خلافه .

﴿قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف﴾ أي أي شيء لك لا تجعلنا أمناً عليه وكأنهم قد كانوا سألوه قبل ذلك أن يخرج معهم يوسف، فأبى قرىء تأمناً بالإظهار وبالإدغام من غير إشمام واتفق الجمهور على الإخفاء أو الإشمام ﴿وإنا له لناصحون﴾ في حفظه وحيطة عاطفون عليه قائمون بمصلحته حتى نرده إليك .



أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ  
تَذْهَبُوا بِهِ، وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ  
أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ ﴿١٤﴾

﴿أرسله معنا غداً﴾ أي في غد إلى الصحراء التي أرادوا الخروج إليها وغداً ظرف والأصل عند سيويه غدوة وقال النضر بن شميل ما بين الفجر وطلوع الشمس يقال له غدوة وكذا يقال له بكرة والغد اليوم الذي بعد يومك الذي أنت فيه ﴿يرتع﴾ هذا جواب الأمر، قرىء بالنون وإسكان العين وبها وكسر العين إسناداً للكلمة الأولى مأخوذ من قول العرب رتع الانسان أو البعير إذا أكل كيف شاء.

والمعنى يتسع في الخصب، وكل مخصب راتع والرتع التمتع في أكل الفواكه ونحوها والثانية مأخوذة من رعي الغنم وقرىء بالتحنية فيها ورفع يلعب على الاستئناف والضمير ليوسف وقال القتيبي: معنى نرتع نتحارس ونتحافظ ويرعى بعضنا بعضاً من قولهم رعاك الله أي حفظك.

﴿ويلعب﴾ من اللعب قيل لأبي عمرو بن العلاء: كيف قالوا نلعب وهم أنبياء فقال: لم يكونوا يومئذ أنبياء وقيل المراد به اللعب المباح وهو مجرد الانبساط لانسراح الصدر وقيل هو اللعب الذي يتعلمون به الحرب ويتقنون به عليه، وكان اللعب بالاستباق والانتضال تمريناً لقتال الأعداء كما في قولهم إنا ذهبنا نستبق لا اللعب المحظور الذي هو ضد الحق، وسماه لعباً لشبهه به، ولذلك لم ينكر عليهم يعقوب لما قالوا ونلعب، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لجابر: «فهلا بكرأ تلاعبها وتلاعبك»<sup>(١)</sup> وقال ابن عباس: نرتع ونلعب نسعى وننشط ونلهو ﴿والحال﴾ إنا له لحافظون ﴿من أن يناله مكروه﴾.

(١) مسلم ٧١٥ - البخاري ٢٩٢.

﴿ قال ﴾ أي فأجابهم يعقوب بقوله ﴿إني ليحزني أن تذهبوا به﴾ أي ذهابكم به واللام لام الابتداء للتأكيد ولتخصيص المضارع بالحال أخبرهم بأنه يحزن لغيبة يوسف عنه لفرط محبته له وحنوه عليه والحزن هنا ألم القلب بفراق المحبوب ﴿و﴾ مع ذلك ﴿أخاف أن يأكله الذئب﴾ قال هذا يعقوب تخوفاً عليه منهم فكفى عن ذلك بالذئب وقيل إنه خاف أن يأكله الذئب حقيقة لأن ذلك المكان كان كثير الذئاب . ولو خاف منهم أن يقتلوه لأرسل معهم من يحفظه .

قال ثعلب: الذئب مأخوذ من تذابت الريح إذا هاجت من كل وجه، قال: والذئب مهموز لأنه يجيء من كل وجه ﴿وأنتم عنه غافلون﴾ لاشتغالكم بالرتع واللعب أو لكونكم غير مهتمين بحفظه .

أخرج أبو الشيخ وابن مردويه والسلفي عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تلقوا الناس فيكذبون فإن بني يعقوب لم يعلموا أن الذئب يأكل الناس، فلما لقنهم أبوهم كذبوا فقالوا أكله الذئب» .

﴿قالوا﴾ جواباً عن عذره الثاني وهو قوله أخاف أن يأكله الذئب، وأما عذره الأول وهو قوله إني ليحزني فلم يجيبوا عنه إما لكون الحزن زمنه قصيراً لانقضائه برجوعهم، وإما لأنه ليس غرضهم إزالة الحزن عنه بل إيقاعه فيه والثاني هو المتعين ﴿لئن أكله الذئب﴾ اللام هي الموطئة للقسم والمعنى والله لئن أكله الذئب ﴿و﴾ الحال إنا ﴿نحن عصابة﴾ جماعة كثيرة عشرة رجال .

﴿إنا إذأ﴾ أي في ذلك الوقت وهو أكل الذئب له ﴿لخاسرون﴾ لهالكون ضعفاً وعجزاً أو مستحقون للهلاك لعدم الاعتداد بنا وانتفاء القدرة عن أيسر شيء وأقله أو مستحقون لأن يدعى علينا بالخسار والدمار، وقيل معناه لجاهلون حقه وهذه الجملة جواب القسم المقدر في الجملة التي قبلها .

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ  
هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءً يَبْتُكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا  
نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكُلْهُ الذِّبْ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ  
كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾

﴿فلما ذهبوا به﴾ من عند يعقوب ﴿وأجمعوا﴾ أمرهم أي عزموا لأن أصل معنى الإجماع العزم المصمم ﴿أن يجعلوه في غيابة الجب﴾ قد تقدم تفسيرهما قريباً وجواب لما محذوف لظهوره ودلالة المقام عليه أي فعلوا به ما فعلوا من الأذى وقيل جوابه ﴿قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق﴾ وقيل الجواب المقدر جعلوه فيها وقيل الجواب أوحينا والواو مقحمة ومثله قوله تعالى ﴿فلما أسلما وتله للجبين وناديناه﴾ أي ناديناه، قال ابن عباس: كان يوسف في الجب ثلاثة أيام.

﴿وأوحينا إليه﴾ أي إلى يوسف تبشيراً له وتأنيساً لوحشته مع كونه صغيراً اجتمع على انزال الضرر به عشرة رجال من اخوته بقلوب غليظة قد نزعت عنها الرحمة، وسلبت منها الرأفة فإن الطبع البشري دع عنك الدين يتجاوز عن ذنب الصغير ويغفره لضعفه عن الدفع وعجزه عن أيسر شيء يراد منه، فكيف بصغير لا ذنب له بل كيف بصغير هو أخ وله وهم أب مثل يعقوب.

فلقد أبعد من قال إنهم كانوا أنبياء في ذلك الوقت، فما هكذا عمل الأنبياء ولا فعل الصالحين، وفي هذا دليل على أنه يجوز أن يوحى الله إلى من كان صغيراً ويعطيه النبوة حيثئذ كما وقع في عيسى ويحيى بن زكريا وقيل معنى الوحي هنا الإلهام كقوله تعالى ﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾ ﴿وأوحينا إلى أم موسى﴾ والأول أولى، وقد قيل أنه كان في ذلك الوقت قد بلغ مبلغ الرجال وهو بعيد جداً، فإن من كان قد بلغ مبلغهم لا يخاف عليه أن يأكله الذئب.

﴿لتنبئهم﴾ أي لتخبرن أخوتك ﴿بأمرهم هذا﴾ الذي فعلوه معك بعد

خلوصك مما أرادوه بك من الكيد وأنزلوه عليك من الضرر ﴿و﴾ الحال أن ﴿هم لا يشعرون﴾ بأنك أخوهم يوسف لا اعتقادهم هلاكك بإلقائهم لك في غيابة الجب ولبعد عهدهم بك ولكونك قد صرت عند ذلك في حال غير ما كنت عليه وخلاف ما عهدوه منك وسيأتي ما قاله لهم عند دخولهم عليه بعد أن صار إليه ملك مصر .

وقال مجاهد: وهم لا يشعرون بذلك الوحي ، وقال قتادة فهون ذلك الوحي عليه ما صنع به وعن ابن عباس قال : وهم لم يعملوا بوحي الله إليه .

﴿وجاءوا أباهم عشاء يبكون﴾ وهو آخر النهار وقيل في الليل ليكونوا في الظلمة أجراً على الاعتذار بالكذب أي جاءوا بأكين أو متباكين لأنهم لم ييكونوا حقيقة ، بل فعلوا فعل من يبكي ترويحاً لكذبهم وتنفيقاً لمكرهم وغدرهم فلما وصلوا إلى أبيهم ﴿قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق﴾ أي تسابق في العدو أو في الرمي ، وقيل نتضل بالسهام ، ويؤيده قراءة ابن مسعود نتضل ، قال الزجاج : وهو نوع من المسابقة ، وقال الأزهري : النضال في السهام والرهان في الخيل والمسابقة تجمعهما .

قال القشيري : نستبق أي في الرمي أو على الفرس أو على الأقدام والغرض من المسابقة التدريب بذلك في القتال ، وقال السدي : يعني نشد ونعدو وقال مقاتل : نتصيد أي نستبق إلى الصيد ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا﴾ أي ثيابنا ليحرسها ﴿فأكله الذئب﴾ الفاء للتعقيب أي أكله عقب ذلك وقد اعتذروا إليه بما خافه سابقاً عليه ورب كلمة تقول لصاحبها دعني .

﴿وما أنت بمؤمن﴾ أي بمصدق ﴿لنا﴾ في هذا العذر الذي أبدينا والكلمة التي قلناها ، وفي هذا الكلام منهم فتح باب اتهامهم كما لا يخفى على صاحب الذوق ﴿ولو كنا﴾ عندك أو في الواقع ﴿صادقين﴾ لما قد علق بقلبك من التهمة لنا في ذلك مع شدة محبتك له ، قال الزجاج : والمعنى ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقتنا في هذه القصة لشدة محبتك ليوسف وكذا ذكره ابن جرير وغيره .

وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ  
 الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٦﴾ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ  
 يَبْشُرِي هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

﴿وجاءوا على﴾ فوق ﴿قميصه بدم كذب﴾ وصف الدم بأنه كذب مبالغة كما هو المعروف في وصف اسم العين باسم المعنى فكانه نفسه صار كذباً أو قيل المعنى بدم ذي كذب أو بدم مكذوب فيه، قال ابن عباس ومجاهد: كان دم سخلة، وقرأ الحسن وعائشة: بدم كذب بالدال المهملة أي بدم طرى يقال للدم الطري كذب، وقال الشعبي: أنه المتغير والكذب أيضاً البياض الذي يخرج في اظفار الأحداث فيجوز أن يكون شبه الدم في القميص بالبياض الذي يخرج في الظفر من جهة اللونين.

وقدر استدل يعقوب على كذبهم بصحة القميص وقال لهم متى كان هذا الذئب حكياً يأكل يوسف ولا يخرق القميص.

ثم ذكر الله سبحانه ما أجاب به يعقوب عليه السلام فقال ﴿قال بل سولت﴾ أي زينت وسهلت وأمرت ﴿لكم أنفسكم أمراً﴾ قال النيسابوري: التسويل تقرير معنى في النفس مع الطمع في اتمامه وهو تفعيل من السول وهو الأمانة قال الأزهري: وأصله مهموز غير أن العرب استقلوا فيه الهمزة وفي الشهاب من السول بفتحين وهو استرخاء العصب ونحوه فكان السول بذله فيما حرص عليه.

﴿فصبر جميل﴾ قال الزجاج: أي فشأني أو الذي اعتقده صبر جميل وقال قطرب: أي فصبري صبر جميل وقيل فصبر جميل أولى بي قيل الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه لأحد غير الله وعنه عليه السلام قال: «لا شكوى فيه من بث لم يصبر» أخرجه ابن جرير وهو مرسل وقال مجاهد: ليس فيه جزع وقرىء فصبراً جميلاً وكذا في

مصحف أنس. قال المبرد: بالرفع أولى من النصب لأن المعنى رب عندي صبر جميل وإنما النصب على المصدر أي فلأصبرن صبراً جميلاً.

﴿والله المستعان﴾ أي المطلوب منه العون والجملة انشائية دعائية لا اخبار منه ﴿على﴾ أي على إظهار حال أو احتمال ﴿ما تصفون﴾ أي تذكرون من أمر يوسف عليه السلام، وقال قتادة على ما تكذبون.

﴿وجاءت سيارة فأرسلوا﴾ ذكر على المعنى مكان أرسلت ﴿واردهم﴾ هذا شروع في حكاية خلاص يوسف وما كان بعد ذلك من خبره، وقد تقدم تفسير السيارة أي جماعة مسافرون سموها سيارة لسيرهم في الأرض، والمراد بها هنا رفقة مارة تسير من الشام أو من مدين إلى مصر فأخطأوا الطريق وهاموا حتى نزلوا قريباً من الجب، وكان في قفرة بعيدة من العمران ترده المارة والرعاة وكان ماؤه ملحاً والوارد الذي يرد الماء ليستقي للقوم وكان اسمه فيما ذكر المفسرون مالك ابن ذعر الخزاعي من العرب العارية.

﴿فأدلى دلوه﴾ يقال أدلى دلوه إذا أرسلها ليملاها ودلاها إذا أخرجها قال الأصمعي والدلو مؤنث وقد يذكر والدلو الذي يستقى بها فتعلق يوسف بالحبل فلما خرج الدلو من البئر أبصره الوارد ﴿قال يا بشرى﴾ ومعنى مناداته للبشرى أنه أراد حضورها في ذلك الوقت فكأنه قال هذا وقت مجيئك وأوان حضورك.

وقيل أنه نادى رجلاً اسمه بشرى وهذا على ما فيه من البعد لا يتم إلا على قراءة من قرأ يا بشرى وقد قرىء يا بشراي وعليه أهل المدينة وأهل البصرة وأهل الشام قرأوا بإضافة البشرى إلى الضمير فالأول أولى، قال النحاس: والمعنى من نداء البشرى التبشير لمن حضر وهو أوكد من قولك بشرته كما تقول يا عجباً أي يا عجب هذا من أيامك فاحضر قال: وهذا مذهب سيويه.

﴿هذا غلام﴾ وكان يوسف أحسن ما يكون من الغلمان، وقد أعطى شطر الحسن وقيل ورثه من جدته سارة وكانت قد أعطيت سدس الحسن، فكان حسن الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوي الخلق أبيض اللون غليظ الساعدين والعضدين والساقين خميص البطن صغير السرة وكان إذا تبسم ظهر النور من

ضواحهه وإذا تكلم ظهر من ثناياه ولا يستطيع أحد وصفه .

قال الضحاك : فاستبشروا بأنهم أصابوا غلاماً لا يعلمون علمه ولا منزلته من ربه وقال قتادة : تابشروا به حين استخرجوه من البئر وهي بيت المقدس معلوم مكانها .

﴿وأسروه﴾ أي أسر الوارد وأصحابه الذين كانوا معه يوسف عن بقية الرفقة فلم يظهروه لهم وقيل انهم لم يخفوه ولكن اخفوا وجدانهم له في الجب وزعموا أنه دفعه إليهم أهل الماء لبيعه لهم بمصر . وقال مجاهد : أسره التجار بعضهم من بعض وقيل ضمير الفاعل في أسروه لآخوة يوسف وضمير المفعول ليوسف وذلك أنه كان يأتيه أخوه يهوذا كل يوم بطعام فأتاه يوم خروجه من البئر فلم يجده فأخبر إخوته فأتوا الرفقة وقالوا هذا غلام أبى منا فاشتروه منهم وسكت يوسف مخافة ان يأخذوه فيقتلوه .

وعن ابن عباس : يعني إخوة يوسف أسروا شأنه وكتبوا أن يكون أخاهم وكتب يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته ، واختار البيهقي فباعه إخوته بثمن بخس والأول أولى .

﴿بضاعة﴾ أي أخفوه حال كونه بضاعة أي متاعاً للتجارة والبضاعة ما يبضع من المال أي يقطع منه لأنها قطعة من المال الذي يتجر به قيل قاله لهم الوارد وأصحابه أنه بضاعة استبضعناها من الشام مخافة أن يشاركوهم فيه .

﴿والله عليم بما يعملون﴾ أي بما يترتب على عملهم القبيح بحسب الظاهر من الأسرار والفوائد المنطوية تحت باطنه ، فإن هذا البلاء الذي فعلوه به كان سبباً لوصله الى مصر ، وتنقله في أطوار حتى صار ملكها ، فرحم الله به العباد والبلاد خصوصاً في سني القحط الذي وقع بها كما سيأتي ، قيل وفيه وعيد شديد لمن كان فعله سبباً لما وقع فيه يوسف من المحن وما صار فيه من الابتذال يجري البيع والشراء فيه وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم في وصفه بذلك .

## وَشُرُوهُ بِشَمَنِ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾

﴿وشروه﴾ يقال شراء بمعنى اشتراه وشراه بمعنى باعه والمراد هنا الثاني أي باعه الوارد وأصحابه أو اشتراه السيارة من إخوته ﴿بشمن بخرس﴾ ناقص أو زيف وقيل ظلم وقيل حرام لأن ثمن الحر حرام والحرام يسمى بخرساً لأنه مبخومس البركة أي منقوصها فلم يحل لهم بيعه ولا أكل ثمنه قاله ابن عباس وقيل قليل ﴿دراهم﴾ بدل من ثمن أي لا دنانير ﴿معدودة﴾ قيل باعوه بعشرين درهماً ، وقيل بأربعين درهماً وفيه إشارة إلى أنها قليلة تعد ولا توزن لأنهم كانوا لا يزنون ما دون أوقية وهي أربعون درهماً.

أخرج الطبراني والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: إنما اشترى يوسف بعشرين درهماً وكان أهله حين أرسل إليهم بمصر ثلثمائة وتسعين إنساناً رجالهم أنبياء ونساؤهم صديقات والله ما خرجوا مع موسى حتى كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً<sup>(١)</sup>. وقد روي في مقدار ثمن يوسف غير هذا المقدار مما لا حاجة إلى التطويل بذكره.

﴿وكانوا﴾ الضمير يرجع إلى ما قبله على حسب اختلاف الأقوال ﴿فيه﴾ أي في يوسف ﴿من الزاهدين﴾ أصل الزهد قلة الرغبة يقال زهدت وزهدت بفتح الهاء وكسرهما، قال سيويه والكسائي: قال أهل اللغة: زهد فيه أي رغب عنه وزهد عنه أي رغب فيه، والمعنى أنهم كانوا فيه من الراغبين عنه الذين لا يباليون به فلذلك باعوه بذلك الثمن البخرس لأن غرضهم إبعاده عنهم لا تحصيل ثمنه، وقيل ذلك لأنهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به، ولما دخلوا مصر وعرضوه للبيع ترفع الناس في ثمنه.

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب الإسراء وفرض الصلوات رقم ١٦٢ من حديث طويل فيه: «فلذا أنا يوسف (ص). إذا هو قد اعطى شطر الحسن. وأخرجه الإمام أحمد ١٤٨/٣، ٢٨٦.»



وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِأَمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

﴿وقال الذي اشتراه من مصر﴾ هو العزيز الذي كان على خزائن مصر وكان وزيراً لملك مصر وهو الريان بن الوليد من العمالقة وقيل أن الملك هو فرعون موسى، وقال ابن عباس: كان اسم المشتري قظفير وعن محمد بن اسحاق أظفير بن روح وكان اسم امرأته راعيل بنت رعايل، واسم الذي باعه من العزيز مالك بن ذعر قيل اشتراه بعشرين ديناراً، وقيل تزايدوا في ثمنه فبلغ أضعاف وزنه مسكاً وعنبراً وحريراً وورقاً وذهباً ولآلئاً وجواهر. وكان وزنه أربعمئة رطل.

روي انه اشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة ولبث في منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره الريان وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله الحكمة والعلم وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة.

فلما اشتراه العزيز قال ﴿لامراته﴾ عن شعيب الجبائي أن اسم امرأة العزيز زليخا بفتح الزاي وكسر اللام والمد كما في القاموس أو بضم الزاء وفتح اللام على هيئة المصغر كما قال الشهاب وقيل اسمها راعيل بوزن هابيل وقيل أحدهما لقبها والأخر اسمها ﴿أكرمي مثواه﴾ أي منزله الذي يثوي فيه بالطعام الطيب واللباس الحسن يعني أحسني تعهده حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا وساكنة في كنفنا، ويقال للرجل كيف أبو مثواك وأم مثواك لمن ينزل به من رجل أو امرأة يراد هل تطيب نفسه بثواك عنده وهل يراعي حق نزولك.

وقال ابن عباس وقتادة: أكرمي منزلته والمشوى محل الشوى وهو الإقامة

وإكرام مثواه كناية عن إكرامه على أبلغ وجه وأتمه لأن من أكرم المحل باحسان الأسرة واتخاذ الفرائش ونحوه فقد أكرم ضيفه بسائر ما يكرم به أو المقام مقحم كما يقال المجلس العالي والمقام السامي ومنه قول آزاد:

قلبي الذي يهواك طال نواه آت إليك فأكرمي مثواه

وعن ابن مسعود قال: أفرس الناس ثلاثة العزيز حين تفرس في يوسف فقال لامرأته ﴿أكرمي مثواه﴾ الآية والمرأة التي أتت موسى فقالت لأبيها ﴿يا أبت استأجره﴾ وأبو بكر رضي الله تعالى عنه حين استخلف عمر.

﴿عسى أن ينفعنا﴾ أي يكفيننا بعض المهمات مما نحتاج فيه الى مثله أو إن أردنا بيعه بعناه بريح ﴿أو نتخذه ولدًا﴾ أي نتبناه فنجعله ولدًا لنا قيل كان العزيز حصوراً لا يأتي النساء أو كان عقيماً لا يولد له كما جرى عليه القاضي والاصفهانى تبعاً للكشاف وقد كان تفرس فيه أنه ينوب عنه فيسا إليه من أمر المملكة.

﴿وكذلك﴾ إشارة الى ما تقدم من إنجائه من إخوته وإخراجه من الحب وعطف قلب العزيز عليه أي مثل ذلك التمكين البديع ﴿مكننا ليوسف﴾ يقال مكنه فيه أي أثبت فيه ومكن له فيه أي جعل له فيه مكاناً ولتقارب المعنيين يستعمل كل واحد منهما مكان الآخر يعني أعطيناه مكانة ورتبة عالية ﴿في الأرض﴾ أي في أرض مصر حتى صار متمكناً من الأمر والنهي وبلغ ما بلغ من السلطنة.

﴿ولنعلمه﴾ هو علة معلل محذوف كأنه قيل فعلنا ذلك التمكين لنعلمه أو كان ذلك الإنجاء هذه العلة أو معطوف على مقدر وهو أن يقال مكننا ليوسف ليترتب على ذلك ما يترتب مما جرى بينه وبين امرأة العزيز ولنعلمه ﴿من تأويل

الأحاديث ﴿أي عبارة الرؤيا وتفسيرها قاله مجاهد والتأويل قيل فهم أسرار الكتب الإلهية وسنن من قبله من الأنبياء ولا مانع من حمل ذلك على الجميع .

﴿والله غالب على أمره﴾ أي على أمر نفسه لا يمتنع منه شيء ولا يغالبه عليه غيره من مخلوقاته إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد لا دافع لأمره ولا راد لقضائه ومن جملة ما يدخل تحت هذا العام كما يفيد ذلك إضافة اسم الجنس إلى الضمير ما يتعلق بيوسف من الأمور التي أرادها الله سبحانه في شأنه وقيل المعنى إنه كان من أمر يعقوب أن لا يقص رؤياه على إخوته فغلب أمر الله سبحانه حتى قصت عليهم حتى وقع منهم ما وقع وهذا بعيد جداً .

﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي لا يطلعون على غيب الله وما في طيه من الأسرار العظيمة والحكم النافعة وقيل المراد بالأكثر الجميع لأنه لا يعلم الغيب إلا الله وقيل أن الله سبحانه قد يطلع بعض عبده على بعض غيبه كما في قوله ﴿فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول﴾ وقيل المعنى لا يعلمون أن الله غالب على أمره وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقدر وقيل ما هو صانع بيوسف وما يريد منه .

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نُبَخِّرُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ  
 فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ۖ وَعَلَّقَتِ الْأَثْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۗ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ  
 رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾

﴿ولما بلغ أشده﴾ قال سيويه: الأشد جمع واحده شدة نحو نعمة وأنعم  
 وقال الكسائي: واحده شد بزنة قفل وقال أبو عبيد: أنه جمع لا واحد له من  
 لفظه عند العرب وخالفه الناس في ذلك وهو من الشد وهو الربط على الشيء  
 والعقد عليه والأشد هو وقت استكمال القوة ثم يكون بعده النقصان قيل هو  
 ثلاث وثلاثون سنة قاله ابن عباس وقيل ثمانين سنة قاله سعيد بن جبير  
 وقيل خمس وعشرون سنة قاله عكرمة وقيل أربعون سنة قاله الحسن وقيل ثلاثون  
 سنة قاله السدي وقيل بلوغ الحلم وبه قال ربيعة والشعبي وقيل عشرون سنة قاله  
 الضحاك وقيل غير ذلك مما قد قدمنا في النساء والأنعام.

قال الراغب: وفيه تنبيه على أن الإنسان إذا بلغ هذا القدر يتقوى خلقه  
 الذي هو عليه فلا يكاد يزياله ولم يقل هنا واستوى كما قال في شأن موسى في  
 سورة القصص لأن موسى كان قد بلغ أربعين سنة وهي مدة النبوة فقد استوى  
 وتبياً لحمل أعباء الرسالة وأسرار النبوة وأما يوسف فلم يكن إذ ذاك بلغ هذا  
 السن.

﴿آتيناه حكماً﴾ هو ما كان يقع منه من الأحكام في سلطان ملك مصر  
 ﴿وعلياً﴾ هو العلم بالحكم الذي كان يحكمه وقيل العقل والفهم والنبوة والفقہ  
 قاله مجاهد وقيل الحكم هو النبوة والعلم هو العلم بالدين وقيل علم الرؤيا ومن  
 قال أنه أوتي النبوة صبيّاً قال المراد بهذا الحكم والعلم اللذين آتاها الله هو الزيادة  
 فيها.

﴿وكذلك﴾ أي مثل ذلك الجزاء العجيب ﴿نجزي المحسنين﴾ فكل من أحسن في عمله أحسن الله جزاءه وجعل عاقبته الخير من جملة ما يجزيه به، وهذا عام يدخل تحته جزاء يوسف على صبره الحسن دخولاً أولاً.

قال الطبري: هذا وإن كان مخرجه ظاهراً على كل محسن فالمراد به محمد صلى الله عليه وآله وسلم يقول الله كما فعل هذا بيوسف ثم أعطيته ما أعطيته كذلك أنجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة وأمكن لك في الأرض والأولى ما ذكرناه من حمل العموم على ظاهره فيدخل تحته ما ذكره ابن جرير الطبري، وقيل معنى المحسنين المؤمنين، وقيل الصابرين على النوائب قاله الضحاك وقيل المهتدين.

﴿وراودته﴾ أي حين بلغ مبلغ الرجال قاله ابن زيد وهذا رجوع الى شرح ما جرى عليه في منزل العزيز بعد ما أمر امرأته بإكرام مثواه وقوله ﴿وكذلك مكنا ليوسف﴾ إلى هنا اعتراض جيء به اغتوجاً للقصة ليعلم السامع من أول الأمر أن ما لقيه يوسف من الفتن التي متحكى بتفاصيلها له غاية جميلة وعاقبة حميدة وأنه محسن في جميع أحواله، لم يصدر عنه في حالتي السراء والضراء ما يخل بنزاهته، ولا يخفى أن مدار حسن التخلص الى هذا الاعتراض قبل تمام الآية الكريمة إنما هو التمكين البالغ المفهوم من كلام العزيز.

والمرادة الارادة والطلب برفق ولين، وقيل هي مأخوذة من الرود أي الرفق والتأني يقال أرودني أي أمهلني وقيل مأخوذة من راد يرود إذا جاء وذهب لطلب شيء كأن المعنى أنها فعلت في مراودتها له فعل المخادع ومنه الرائد لمن يطلب الماء والكلأ وقد يخص بمحاولة الوقاع فيقال راود فلان جاريتته عن نفسها وراودته هي عن نفسه إذا حاول كل واحد منهما الوطاء والجماع وهي عبارة عن التمثل في مواقعه إياها، وهي مفاعلة من واحد نحو مطالبة الدائن ومماثلة

المديون ومداداة الطيب ونظائرها مما يكون من أحد الجانبين الفعل، ومن الآخر سببه.

وهذا باب لطيف المسلك مبني على اعتبار دقيق تحقيقه أن سبب الشيء يقام مقامه ويطلق عليه اسمه كما في قولهم كما تدين تدان أي كما تجزي تجزي، فإن فعل البادىء وإن لم يكن جزءاً أطلق عليه اسمه لكونه سبباً للجزاء، وهذه قاعدة مطردة مستمرة فكأن يوسف عليه السلام لما كان ما أعطيه من كمال الخلق والزيادة في الحسن والجمال سبباً لمرأودة امرأة العزيز له مراداً والمراد بالمفاعلة مجرد المبالغة وقيل الصيغة على بابها بمعنى أنها طلبت منه الفعل وهو طلب منها الترك.

وإنما قال ﴿التي هو في بيتها عن نفسه﴾ ولم يقل امرأة العزيز أو زليخا قصداً إلى زيادة التقرير، فإن كونه في بيتها عما يدعو إلى ذلك، قيل لواحدة ما حملك على ما أنت عليه مما لا خير فيه: قالت قرب الوساد وطول السواد، ولإظهار كمال نزاهته عليه الصلاة والسلام فإن عدم ميله إليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها واستعصائه عليها مع كونه تحت ملكها ينادى بكونه في أعلى معارج العفة والنزاهة، والعدول عن اسمها للمحافظة على السر أو للاستهجان بذكرها قال قتادة: هي امرأة العزيز.

﴿وغلقت الأبواب﴾ أي أطبقها قيل في هذه الصيغة ما يدل على التكثير لتعدد المحال وهي الأبواب فيقال غلقت الأبواب ولا يقال غلق الباب بل يقال أغلق الباب وقد يقال أغلق الأبواب قيل وكانت الأبواب سبعة كما في البيضاوي وغيره وأنها أغلقتها لشدة خوفها.

﴿وقالت هيت لك﴾ قرأ أبو عمر وعاصم والأعمش والكسائي بفتح الهاء وسكون الياء وفتح التاء وبها قرأ ابن عباس وابن جبير والحسن ومجاهد وعكرمة

ككيف وليت قال ابن مسعود: لا تنظعوا في القراءة فإنما هو مثل قول أحدكم هلم وتعال.

وقرأ ابو اسحق النحوي بكسر التاء وقرأ ابن كثير وغيره بضم التاء مع فتح الهاء وقرأ أبو جعفر ونافع بكسر الهاء وفتح التاء بوزن قيل وغيض وهذه القراءات سبعة وقرأ علي وابن عباس بكسر الهاء وبعدها همزة ساكنة وضم التاء وقرأ ابن عامر وأهل الشام بكسر الهاء وبالهزمة وفتح التاء وهذه كلها لغات في هذه الكلمة وهي في كلها اسم فعل بمعنى هلم وتعال أي اقبل إلا في قراءة كسر الهاء بعدها همزة وتاء مضمومة فإنها بمعنى تهيأت لك وأنكرها ابو عمرو وقال: باطل جعلها بمعنى تهيأت اذهب فاستعرض العرب حتى تنتهي الى اليمن هل تعرف أحداً يقول هكذا، وانكرها أيضاً الكسائي.

وقال النحاس: هي جيدة عند البصريين لأنه يقال هاء الرجل وهيء هيئة ورجع الزجاج القراءة الأولى وتكون اللام في لك، على القراءة الأولى التي هي فيها بمعنى اسم الفعل للبيان أي لك أقول هذا كما في هلم لك قال النحويون: هيت جاء بالحركات الثلاث فالفتح للرخفة والكسر لالتقاء الساكنين والضم تشبيهاً بحيث، وإذا بين باللام نحو هيت لك فهو صوت قائم مقام المصدر كأف له أي لك، أقول هذا وإن لم يبين باللام فهو صوت قائم مقام مصدر الفعل فيكون اسم فعل إما خبر أي تهيأت وإما أمر أي اقبل.

وقال في الصحاح: يقال هوت به وهيت به إذا صاح به ودعاه، وقد روي عن ابن عباس والحسن: أنها كلمة سريانية معناها أنها تدعوه الى نفسها وقال الكسائي: هي لغة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز معناها تعال قال أبو عبيدة: فسألت شيخاً عالماً من حوران فذكر أنها لغتهم وعن ابن عباس معناه: هلم لك بالقبطية.

وقال الحسن: أي عليك بالسريانية وقيل هي بالعبرانية ومن قال أنها بغير

لغة العرب يقول أن العرب وافقت أصحاب هذه اللغة فتكلمت بها على وفق لغات غيرهم كما وافقت لغة العرب الروم في القسطاس ولغة العرب الفرس في التنوير ولغة العرب الترك في العساق ولغة العرب الحبشة في ناشئة الليل وبالجملة فإن العرب إذا تكلمت بكلمة صارت لغة لها وعن مجاهد أنها لغة عربية تدعوه بها إلى نفسها.

﴿قال معاذ الله﴾ أي أعوذ بالله معاذاً مما دعوتني إليه يقال عاذي عواذاً ومعاذاً وعواذاً مصدر بمعنى الفعل ﴿إنه﴾ أي الذي اشتراكي ﴿ربي﴾ تعليل للإمتناع الكائن منه ببعض الأسباب التي هي أقرب إلى فهم امرأة العزيز وقيل الضمير للشأن فكأنه قيل أن الشأن الخطير هذا وهو ربي أي سيدي الذي رباني العزيز ﴿أحسن مثواي﴾ حيث أمرك بقوله أكرمي مثواه فكيف أخونه في أهله وأجيبك إلى ما تريد من ذلك وقال الزجاج : إن الضمير لله سبحانه أي إن الله ربي تولاني بلطفه فلا أركب ما حرمه.

قال مجاهد والسدي وابن اسحق : يبعد جداً أن يطلق نبي كريم على مخلوق أنه ربه ولو بمعنى السيد لأنه ليس مملوكاً في الحقيقة والأول فيه إرشادها إلى رعاية حق العزيز بالطف وجه ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ تعليل آخر للإمتناع منه عن إجابتها، والفلاح الظفر والمعنى أنه لا يظفر الظالمون بمطالبهم ومن جملة الظالمين الواقعون في مثل هذه المعصية التي تطلبها امرأة العزيز من يوسف وقيل معناه أنه لا يسعد الزناة.



وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ  
السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخَلَّصِينَ ﴿٢٤﴾

﴿ولقد﴾ لام قسم ﴿همت به وهم بها﴾ يقال هم بالأمر إذا قصده وعزم عليه والمعنى أنه هم بمخالطتها كما همت بمخالطته ومال كل واحد منهما إلى الآخر بمقتضى الطبيعة البشرية والجبلة الخلقية ولم يكن من يوسف عليه الصلاة والسلام القصد إلى ذلك اختياراً كما يفيد ما تقدم من استعاذته بالله وإن ذلك نوع من الظلم بل قصد من غير رضا ولا عزم ولا تصميم، والقصد على هذا الوجه لا مؤاخذه فيه فلا خلاف في أن يوسف لم يأت بفاحشة وإنما الخلاف في وقوع الهم.

ولما كان الأنبياء معصومين عن الهم بالمعصية والقصد إليها أيضاً تكلم أهل العلم في تفسير هذه الآية بما فيه نوع تكلف فمن ذلك ما قاله أبو حاتم قال: كنت أقرأ على أبي عبيدة غريب القرآن فلما أتيت على قوله: ﴿ولقد همت به وهم بها﴾ قال: هذا على التقديم والتأخير كأنه قال ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها، وقال أحمد بن يحيى ثعلب: أي همت زليخاً بالمعصية وكانت مصرّة وهم يوسف ولم يوقع ما هم به فبين الهمين فرق ومن هذا قول الشاعر:

هممت بهم من ثنية لؤلؤ شفت غليلات الهوى من فؤاديا

فهذا إنما هو حديث نفس من غير عزم، وقيل هم بها أي هم بضربها وقيل هم بمعنى تمنى أن يتزوجها وقد ذهب جمهور المفسرين من السلف والخلف إلى ما قدمنا من حمل اللفظ على معناه اللغوي.

ويدل على هذا قوله الآتي ﴿ذلك ليعلم أي لم أخنه بالغيب﴾ وقوله: ﴿وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء﴾ ومجرد الهم لا ينافي العصمة فإنها قد وقعت العصمة عن الوقوع في المعصية وذلك المطلوب.

قال الشهاب: قال الإمام: المراد بالهم في الآية خطور الشيء بالبال أو ميل الطبع كالصائم في الصيف يرى الماء البارد فتحمله نفسه على الميل إليه وطلب شربه ولكن يمنعه دينه عنه وكالمراة الفائقة حسناً وجمالاً تنهياً للشباب النامي القوي فتقع بين الشهوة والعفة وبين النفس والعقل مجاذبة ومنازعة، فالهم هنا عبارة عن جواذب الطبيعة ورؤية البرهان جواذب الحكمة وهذا لا يدل على حصول الذنب بل كلما كان هذه الحال أشد كانت القوة على لوازم العبودية أكمل انتهى.

ويؤيده ما في البيضاوي المراد بهمه عليه الصلاة والسلام ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختياري وذلك مما لا يدخل تحت التكليف بل الحقيقي بالمدح والأجر الجزيل من الله تعالى من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم أو مشاركة الهم كقولك قتلته لو لم أخف الله انتهى. وقيل انه هم بالفاحشة وأق ببعض مقدماتها وقد أفرط الزمخشري في التشنيع عليه والصحيح نزاهته عن الهم المحرم أيضاً وقد أطب الرازي في هذا المقام فليراجعه وقيل معنى الهم أنها اشتتهه واشتهاها قال الخفاجي: وأنه أحسن الوجوه.

وجواب لو في ﴿لولا أن رأى برهان ربه﴾ محذوف أي لفعل ما هم به واختلف في هذا البرهان الذي رآه ما هو؟ فقيل أن زليخا قامت عند أن همت به وهم بها الى صنم لها في زاوية البيت فسترته بثوب فقال ما تصنعين قالت استحي من إلهي هذا أن يراني على هذه الصورة فقال يوسف أنا أولى ان استحي من الله تعالى، روي معنى هذا عن علي بن أبي طالب وفي رواية عن علي بن الحسين، وقيل أنه رأى في سقف البيت مكتوباً ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة، وقيل رأى كفاً مكتوباً عليها وان عليكم لحافظين كراماً كاتبين، وقيل ان البرهان هو تذكرة عهد الله وميثاقه وما أخذه على عباده.

وقيل نودي يا يوسف أنت مكتوب في الأنبياء وتعمل عمل السفهاء، وقيل

رأى صورة يعقوب على الجدار عاضاً على أظفاله يتوعده، وبه قال قتادة وأكثر المفسرين والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك، وقيل رأى جبريل في صورة يعقوب قاله ابن عباس وقيل مثل له يعقوب فضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله، وقيل رأى جبريل قاله البيضاوي .

قال الخفاجي : هذا مع ما في القصص ونحوه مما لا يليق ذكره وتركه أحسن منه كله مما لا أصل له والنص ناطق بخلافه والبرهان ما عنده من العلم الدال على تحريم ما همت به وإنه لا يمكن الهم فضلاً عن الوقوع فيه هذا هو الذي يجب اعتقاده والحمل عليه اهـ .

وعلى الجملة إن كل ذلك إلا خرافات وأباطيل تمجها الأذان وتردها العقول والأذهان ويل لمن لاكها ولفقها أو سمعها وصدقها، والحاصل أنه رأى شيئاً حال بينه وبين ما هم به والله أعلم بما هو وقد أطال المفسرون في تعيين البرهان الذي رآه بلا دليل يدل عليه من السنة المطهرة واختلفت أقوالهم في ذلك اختلافاً كثيراً .

﴿كذلك﴾ إشارة إلى الآراء المدلول عليها بقوله رأى برهان ربه أو إلى التثبيت المفهوم من ذلك أي مثل تلك الآراء أريناه أو مثل ذلك التثبيت ثبناه ﴿لنصرف عنه سوء﴾ أي كل ما يسوؤه ﴿والفحشاء﴾ هو كل أمر مفرط القبح وقيل سوء الخيانة للعزیز في أهله والفحشاء الزنا وقيل سوء الشهوة والفحشاء المباشرة وقيل سوء الثناء القبيح والأولى الحمل على العموم فيدخل فيه ما يدل عليه السياق دخولاً أولاً قال أبو السعود: وفيه آية بينة وحجة قاطعة على أنه عليه الصلاة والسلام لم يقع منه هم بالمعصية ولا توجه إليها قط وإلا لقل لنصرفه عن سوء والفحشاء وإنما توجه إليه ذلك من خارج فصرفه الله تعالى عنه بما فيه من موجبات العفة والعصمة فتأمل .

﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾ تعليل لما قبله قرىء بكسر اللام وفتحها وهي

سبعية والمعنى على الأولى أن يوسف كان ممن أخلص طاعته لله وعلى الثانية أنه كان ممن استخلصه الله للرسالة وقد بان عليه السلام مخلصاً مستخلصاً وعلى كلا المعنيين فهو منتظم في سلوكهم داخل في زميرتهم من أول أمره بقضية الجملة الأسمية لا أن ذلك حدث له بعد أن لم يكن كذلك فانحسم مادة احتمال صدور الهم بالسوء منه عليه السلام بالكلية .

قال الخفاجي : قيل فيه إن كل من له دخل في هذه القصة شهد ببراءته فشهد الله بقوله لنصرف الخ وشهد هو على نفسه بقوله هي راودتني ونحوه وشهدت زليخاً بقولها ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، وسيدها بقوله إنك كنت من الخاطئين وإبليس بقوله لاغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين فتضمن إخباره بأنه لم يفوه ومع هذا كله لم يبرئه أهل القصص كما قيل :

وكننت فتى من جنس إبليس فارتقى بي الحال حتى صار إبليس من جندي

وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾

﴿واستبقا الباب﴾ أي تسابقا إليه وهذا كلام متصل بقوله ﴿ولقد همت به وهم بها﴾ الآية وما بينهما اعتراض جيء به بين المعطوفين تقريراً لنزاهته عليه السلام ووجه تسابقهما أن يوسف يريد الفرار والخروج من الباب وامرأة العزيز تريد أن تسبقه إليه لتمنعه عن الفتح والخروج ووجد الباب هنا وجمعه فيها تقدم لأن تسابقهما كان إلى الباب البراني الذي يخلص منه إلى خارج الدار قال السيوطي: بادرا إليه يوسف للفرار وهي للتشبيث به فأمكن ثوبه.

﴿وقدَّت﴾ أي جذبت ﴿قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ من ورائه فانشق إلى أسفله والقد القطع وأكثر ما يستعمل فيها كان طولاً والقط بالطاء يستعمل فيها كان عرضاً قال الشهاب في الريحانة: القد والقط متقاربان معنى وهما نوعان من القطع وفيه لطيفة اتفاقية لأن القد قطع الشيء من نصفه أو قطعه نصفين والقط قطع الطرف كما في الشمع والقلم فكأنه لكونه قليلاً من القطع نقص منه للعين انتهى.

وإسناد القد إليها خاصة مع أن لقوة يوسف أيضاً دخلاً فيه إما لأنها الجزء الأخير للعلة التامة وإما للايذان بمبالغتها في منعه عن الخروج وبذل مجهودها في ذلك لفوت المحبوب أو لخوف الاقتضاح.

﴿وألفيا سيدهما لدى الباب﴾ أي وجدا العزيز هنالك وعني بالسيد الزوج لأن القبط يسمون الزوج سيدياً وإنما لم يقل سيدهما لأن ملكه ليوسف لم يكن صحيحاً فلم يكن سيدياً له.

﴿قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً﴾ من الزنا ونحوه والجملة مستأنفة كأنه قيل فما كان منها عند أن ألفيا سيدها لدى الباب قالت هذه المقالة طلباً منها للحملة وللستر على نفسها فنسبت ما كان منها إلى يوسف أي أيُّ جزاء يستحقه من فعل مثل فعل هذا ثم أجابت عن استفهامها بقولها ﴿إلا أن يسجن﴾ أي ما جزاؤه إلا أن يسجن، ويحتمل أن تكون ما نافية أي ليس جزاؤه إلا السجن وإنما بدأت بذكر السجن لأن المحب لا يشتهي إيلاء المحبوب، وإنما أرادت أن يسجن عندها يوماً أو يومين ولم ترد السجن الطويل.

قال الخازن: وهذه لطيفة فافهمها، وقال ابن الخطيب: وأما الحبس الدائم فإنه لا يعبر عنه بهذه العبارة بل يقال يجب ان يجعل من المسجونين كما قال فرعون لأجعلنك من المسجونين ذكره الكرخي ﴿أو عذاب أليم﴾ قيل هو الضرب بالسياط والظاهر أنه ما يصدق عليه العذاب الأليم من ضرب أو غيره وفي الإبهام للعذاب زيادة تهويل لشأن الجزاء المذكور بكونه قانوناً مطرداً في حق كل أحد كائناً من كان.

وفي ذكر نفسها بعنوان أهلية العزيز اعظام للخطب وإغراء له على تحقيق ما توخاه بحكم الغضب والحمية قاله أبو السعود، ولم تقل أن يوسف يجب أن يقابل بأحد هذين الأمرين بل ذكرت ذلك ذكراً كلياً صوتاً للمحجوب عن الذكر الشر.

فلما سمع يوسف مقالها أراد أن يبرهن عن نفسه ﴿قال هي راودتني عن نفسي﴾ يعني طلبت مني الفحشاء فأبيت وفررت، والجملة مستأنفة كالجملة الأولى وقد تقدم بيان معنى المرادة أي هي التي طلبت مني ذلك ولم أرد بها سوءاً، ولم يقل هذه ولا تلك لفرط استحيائه وهو أدب حسن حيث أن بلفظ الغيبة دون الحضور، ولم يكن يريد أن يذكر هذا القول ولا يهتك سترها ولكن لما قالت هي ما قالت ولطخت عرضه احتاج إلى إزالة هذه التهمة عن نفسه فقال ما قال.

﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ أي من قرابتها وسمي الحكم بينهما شهادة لما يحتاج فيه من الثبوت والتأمل، قيل لما التبس الأمر على العزيز احتاج الى حاكم يحكم بينهما ليتبين له الصادق من الكاذب قيل كان ابن عم لها واقفاً مع العزيز في الباب، وقيل ابن خال لها وقيل أنه الطفل في المهد تكلم قال السهيلي: وهو الصحيح للحديث الوارد في ذلك عن النبي ﷺ في ذكر من تكلم في المهد وذكر من جملتهم شاهد يوسف.

وقيل إنه رجل حكيم كان العزيز يستشيره في أموره وكان من قرابة المرأة قال ابن عباس: ظبي أنطقه الله كان في الدار وعنه قال: كان رجل ذا لحية من خاصة الملك وعن الحسن قال: هو رجل له فهم وعلم وعن مجاهد قال: إنه ليس بإنسى ولا جنى هو خلق من خلق الله، قلت ولعله لم يحضر قوله تعالى من أهلها وإنما كان الشاهد من أهل المرأة وقرابتها ليكون أقوى في نفي التهمة عن يوسف مع ما وجد من كثرة العلامات الدالة على صدقه.

﴿إن كان قميصه قد من قبل﴾ أي من قدام فقال الشاهد هذه المقالة مستدلاً على بيان صدق الصادق ومنها وكذب الكاذب بأن قميص يوسف إن كان مقطوعاً من قبل أي من جهة القبيل ﴿فصدقت﴾ أي فقد صدقت بأنه أراد بها سؤا ﴿وهو من الكاذبين﴾ في قوله أنها راودته عن نفسه وقرىء من قبل بضم اللام وكذا من دبر قال الزجاج جعلها غايتين.

﴿وإن كان قميصه قد من دبر﴾ أي من ورائه ﴿فكذبت﴾ في دعواها عليه ﴿وهو من الصادقين﴾ في دعواه عليها ولا يخفى أن هاتين الجملتين الشرطيتين لا تلازم بين مقدميهما وتاليهما لا عقلاً ولا عادة وليستا من الشهادة في شيء وإنما ذكرنا توسيعاً للدائرة وإرخاء للعنان الى جانب المرأة باجراء ما عسى أن يحتمله الحال في الجملة مجرى الظاهر الغالب الوقوع فليس ههنا إلا مجرد إمارة غير مطردة إذ من الجائز ان يجذبه اليها وهو مقبل عليها فينقد القميص من دبر وأن تجذبه وهو مدبر عنها فينقد القميص من قبل.

فَلَمَّا رَأَىٰ أَقْمِيصَهُ قُدِّمَ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾  
يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾  
﴿٣٠﴾ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا  
إِنَّا لَنَرَيْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾

﴿فلما رأى﴾ العزيز ﴿قميصه﴾ أي قميص يوسف ﴿قد من دبر﴾ كأنه لم يكن رأى ذلك أو قد لم يتدبره فلما تنبه له وعلم حقيقة الحال وعرف خيانة امرأته وبرائة يوسف عليه السلام ﴿قال﴾ أي العزيز وقيل هذا من قول الشاهد والأول أولى ﴿إنه﴾ أي الأمر الذي وقع فيه الاختلاف بينكما أو أن قولك ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ﴿من﴾ جنس ﴿كيدكن﴾ ومكركن وحيلكن يا معشر النساء ﴿إن كيدكن عظيم﴾ مخاطب الجنس لأن الحيل والمكايد لا تختص بها، وإنما وصف الكيد بالعظيم لأن كيدهن أعظم من كيد جميع البشر في اتمام مرادهن لا يقدر عليه الرجال في هذا الباب فانه أطف وأعلق بالقلب وأشد تأثيراً في النفس.

وعن بعض العلماء اني أخاف من النساء ما لا أخاف من الشيطان فانه تعالى يقول ﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾ وقال للنساء ﴿ان كيدكن عظيم﴾ ولأن الشيطان يوسوس مسارقة وهن يواجهن به الرجال.

وفي حاشية الحفاجي : وقيل عليه ان ضعف كيد الشيطان في مقابلة كيد الله وعظم كيدهن بالنسبة للرجال وهو ليس بشيء لأنه استدل بظاهر اطلاقها ومثله مما تنقبض له النفس وتنبسط يكفي فيه ذلك القدر انتهى .

قال الحفناوي : هذا فيما يتعلق بأمر الجماع والشهوة لا عظيم على الاطلاق إذ الرجال أعظم منهن في الحيل والمكايد في غير ما يتعلق بالشهوة .

ثم مخاطب العزيز يوسف عليه السلام بقوله ﴿يوسف أعرض عن هذا﴾



الأمر الذي جرى واكتمه ولا تتحدث به حتى لا يفشو ويشيع بين الناس وقيل معناه لا تكثرث به ولا تهتم به فقد بان عذرك ثم أقبل عليها بالخطاب فقال ﴿واستغفري﴾ يا زليخا ﴿لذنبك﴾ الذي وقع منك، قال الكرخي: كان العزيز قليل الغيرة، بل قال في البحر إن قرية تربة إقليم قطفير مصر تقتضي هذا، ولهذا لا ينشأ فيها الأسد ولو دخل فيها لا يبقى.

﴿إنك كنت﴾ بسبب ذلك ﴿من الخاطئين﴾ أي من جنسهم برمي يوسف بالخطيئة، والجملة تعليل لما قبلها من الأمر بالاستغفار ولم يقل من الخاطئات تغليياً للمذكر على المؤنث كما في قوله ﴿كانت من القانتين﴾ ومعنى من الخاطئين من المتعمدين يقال خطأ إذا أذنب متعمداً وقيل التقدير من القوم الخاطئين وقيل ان القائل ليوسف ولامرأة العزيز هذه المقالة هو الشاهد الذي حكم بينهما.

﴿وقال نسوة﴾ قرىء نسوة بضم النون قاله أبو البقاء وبكسرهما والمراد جماعة من النساء ويجوز التذكير في الفعل المسند إليهن كما يجوز التأنيث ولا واحد له من لفظه بل من معناه وهو امرأة والنساء جمع كثرة أيضاً ولا واحد له من لفظه قيل وكن خمساً وهن امرأة ساقى العزيز وامرأة خبازه وامرأة صاحب دوابه وامرأة صاحب سجنه وامرأة حاجبه ﴿في المدينة﴾ هي مصر وقيل مدينة الشمس.

﴿امرأة العزيز﴾ يعني زليخا ﴿تراود فتاها﴾ الفتى في كلام العرب الشاب الحديث السن والفتاة الشابة والمراد هنا غلامها يقال فتاي وفتاتي أي غلامي وجاريتي وجيء بالمضارع تنبيهاً على أن المرادة صارت مهنة لها وديدناً دون الماضي فلم يقلن راودت ﴿عن نفسه﴾ وهو يمتنع منها ﴿قد شغفها حباً﴾ أي غلبها حبه وقيل دخل حبه في شغافها قال أبو عبيدة: شغاف القلب غلافه وهو جلدة عليه، وقيل هو وسط القلب.

وعلى هذا يكون المعنى دخل حبه إلى شغافها فغلب عليه وقرىء شغفها

بالعين المهملة قال ابن الاعرابي: معناه أجرى حبه عليها قال الجوهري: شغفه الحب أحرق قلبه وقال أبو زيد: أمرضه وقال النحاس: معناه عند أكثر أهل اللغة قد ذهب بها كل مذهب لأن شغاف الجبال أعاليها وقد شغف بذلك شغفاً باسكان الغين المعجمة إذا ولع به.

وقرأ الحسن: قد شغفها بضم الغين وحكى بكسرهما قال النحاس: ولا يعرف ذلك في كلام العرب إلا شغفاً بفتح الغين، ويقال إن الشغاف الجلدة اللاصقة بالكبد التي لا ترى وهي الجلدة البيضاء فكأنه لصق حبه بقلبها كلسوق الجلدة بالكبد وقيل المعنى أن حبه دخل الجلدة حتى أصاب القلب وقيل أن حبه قد أحاط بقلبها كإحاطة الشغاف بالقلب. قال الكلبي: حجب حبه قلبها حتى صارت لا تتعقل شيئاً سواه.

وقال السمين: خرق شغاف قلبها أي حجاب القلب وهو جلدة رقيقة وقيل سويداء القلب، وقيل داء يصل إلى القلب من أجل الحب وقيل جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب ليس محيطة به. والمعنى خرق حجابها وأصابه فأحرقه بحرارة الحب، يقال شغف الهوى قلبه شغفاً وشغفه المال زين له فأحبه فهو مشغوف به.

وعن ابن عباس: شغفها غلبها وقال قتلها حب يوسف وقال قد علقها قال آزاد في سبحة المرجان: ولا استبعاد في إظهار العشق من جانب المرأة أما ترى في القرآن الكريم غرام امرأة العزيز بيوسف عليه السلام، والأهاند يذكرون العشق في تغزلاتهم من جانب المرأة بالنسبة إلى الرجل خلاف العرب، وسببه إن المرأة في دينهم لا تنكح إلا زوجاً واحداً فحظ عيشتها منوط بحياة الزوج وإذا مات تحرق نفسها معه، والعشق بين الرجل والمرأة وضع إلهي فتارة يكون من الطرفين وتارة يكون من أحدهما وإذا لوحظ الوضع الإلهي فالمرأة معشوقة عاشقة والرجل عاشق معشوق.

وأهل الهند<sup>(١)</sup> وافقوا العرب في التغزل بالنساء بخلاف الفرس والترك فان تغزلهم بالأمارد فقط، ولا ذكر من المرأة في غزلهم، ولعمر المحبة أنهم لظالمون حيث يضعون الشيء في غير موضعه كما قال سبحانه وتعالى في قوم لوط ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد﴾ .

والعرب في التغزل بالأمارد مقلدون لهم والأصل فيهم التغزل بالنساء ومعناه التحدث بهن، وأما الأماند فلا يعرفون التغزل بالأمارد قطعاً انتهى . هذا وقد عقد رحمه الله الفصل الرابع من كتابه المذكور في بيان أقسام المعشوقات والعشاق وأورد لكل قسم منها أشعاراً عجيبة وأبياتاً غريبة . باعتبار الجهات المتنوعة والحديث المتلونة إن رآها السالي تذوب طبيعته الجامدة أو العاذل تشعل ناره الخاملة .

﴿إنا لنراها﴾ جملة مقررة لمضمون ما قبلها أي نعلمها في فعلها هذا وهو المرادة لفتاها ﴿في ضلال﴾ عن طريق الرشيد والصواب ﴿مبين﴾ واضح لا يلتبس على من نظر فيه حيث تركت ما يجب على أمثالها من العفاف والستر

(١) هذا الكلام ينبغي أن تُنزه كتب التفسير منه وقد تركناه للمحافظة على أسلوب المفسر وعباراته،  
أ. هـ مصححه .

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَاوِءًا أَنتَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا  
وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيَّيْنِ فَلَمَّا رَأَتْهُ أَاكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ  
هَذَا إِلَّا الْمَلَكُ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾

﴿فلما سمعت﴾ امرأة العزيز ﴿بمكرهن﴾ أي بغيتهن اياها سميت الغيبة مكرأ  
لاشتراكها في الاخفاء وقيل أردن أن يتوسلن بذلك الى رؤية يوسف فلهذا سمي  
قولهن مكرأ، وقيل أنها أسرت إليهن فافشين سرها فسمي ذلك مكرأ، عن  
سفيان قال: أي بعملهن ، وكل مكر في القرآن فهو العمل .

﴿أرسلت إليهن﴾ أي تدعوهن إليها لتقيم عذرها عندهن ولينظرن الى  
يوسف حتى يقعن فيما وقعت فيه قيل دعت أربعين امرأة من أشرف مدينتها  
فيهن هؤلاء اللاتي عيرنها ﴿وأعدت لهن متكأ﴾ أي أعدت وأحضرت وهيأت  
لهن مجالس يتكئن عليها من غمارق ومسائيد وأعدت من الاعتداد، وهو كل ما  
جعلته عدة لشيء وقرىء متكأ مخففاً غير مهموز والمتك هو الاترنج بلغة القبط،  
قاله مجاهد، وعن عكرمة قال: هو كل شيء يقطع بالسكين وعن الضحاك مثله  
وقيل ان ذلك هو لغة أزد شنوأة وقيل حكى ذلك عن الأخفش قال الفراء: إنه  
ماء الورد .

وقرأ الجمهور متكأ بالهمز والتشديد وأصح ما قيل فيه انه المجلس وقيل هو  
الطعام وبه قال ابن جبير والحسن وقتادة: وسمي متكأ على الاستعارة قاله الخازن  
أي للاتكاء عنده على عادة المتكبرين في أكل الفواكه فهو مجاز مرسل وعلاقته  
المجاورة ، وقيل المتكأ كل ما اتكىء عليه عند طعام أو شراب أو حديث،  
وحكى القتيبي أنه يقال اتكأنا عند فلان أي أكلنا .

ويؤيد هذا قوله ﴿وأتت كل واحدة منهن سكيناً﴾ فإن ذلك إنما يكون  
لشيء يأكله بعد أن يقطعنه والسكين تذكر وتؤنث قاله الكسائي والفراء قال  
الجوهري: والغالب عليه التذكير والمراد من إعطائها لكل واحدة سكيناً أن

يقطعن ما يحتاج إلى التقطيع من الأطعمة قيل وكان من عاداتهن أن يأكلن اللحم والفواكه بالسكين وكانت تلك السكاكين خناجر ويمكن أنها أرادت بذلك ما سيقع منهن من تقطيع أيديهن .

﴿وقالت﴾ ليوسف ﴿أخرج عليهن﴾ أي في تلك الحالة التي هن عليها من الاتكاء والأكل وتقطيع ما يحتاج إلى التقطيع من الطعام ﴿فلما رأينه أكبرنه﴾ أي أعظمه قال مجاهد: واحترمه وهبته ودهش عند رؤيته من شدة جماله، وقيل أمين وقيل أمدين ومنه قول الشاعر:

إذا ما رأين الفحل من فوق قلة      صهلن وأكبرن المني المقطرا  
وقال الأزهري : أكبرن بمعنى حضن ، والهاء للسكت يقال أكبرت المرأة أي دخلت في الكبر بالحيض وقال ابن عباس : حضن من الفرح ووقع منهن ذلك دهشاً وفزعاً لما شاهدنه من جماله الفائق وحسنه الرائق ، وأنكر ذلك أبو عبيدة وغيره ، وقالوا ليس ذلك في كلام العرب ، قال الزجاج : يقال أكبرنه ولا يقال حضنه فليس الاكبار بمعنى الحيض وأجاب الأزهري فقال : يجوز أن يكون هاء الوقف لا هاء الكناية .

وقد زيف هذا بأن هاء الوقف تسقط في الوصل ، قاله ابن الأنباري : أن الهاء كناية عن مصدر الفعل أي أكبرن إكباراً بمعنى حضن حيضاً وسمي الحيض إكباراً لكون البلوغ يعرف به كأنه يدخلهم سن الكبر فيكون في الأصل كناية أو مجازاً ، وهذا منقول عن قتادة والسدي .

قال الرازي : وعندي أنه يحتمل وجهاً آخر هو أنهم إنما أكبرنه لأنهن رأين عليه نور النبوة وسيا الرسالة وشاهدن فيه مهابة ملكية ، وهي عدم الالتفات الى المطعوم والمنكوح وعدم الاعتداد بهن فتعجبين من تلك الحالة فلا جرم أكبرنه وأعظمه ، وحمل الآية على هذا أولى اهـ .

﴿وقطعن أيديهن﴾ أي جرحنها حتى سال الدم وليس المراد به القطع الذي تبين من اليد بل المراد به الخدش والحز وذلك معروف في اللغة كما قال النحاس :

يقال قطع يد صاحبه إذا خدشها وقيل المراد بالأيدي هنا أناملهن وقيل أكماملهن والمعنى أنه لما خرج يوسف عليهن أعظمته ودهشن وراعهن حسنه حتى اضطربت أيديهن فوق القطع عليها وهن في شغل عن ذلك بما دهمهن مما تطيش عنده الأحلام وتضطرب له الأبدان وتزول العقول، قال مجاهد: فما أحسن إلا بالدم وقال قتادة: ابن أيديهن حتى ألقينها والأصح أنه كان قطعاً من غير إبانة وعن منبه عن أبيه قال: مات من النسوة اللاتي قطعن أيديهن تسع عشرة امرأة كمداً.

﴿وقلن حاش الله﴾ قرىء بإثبات الألف وبحذفها وبإسكان الشين حاش لله وقرىء حاش الإله وحاشا الله، قلت إثبات الألف وحذفها قراءتان سبعيتان وهذا بالنظر للنطق وأما رسم المصحف فلا تكتب فيه ألف بعد الشين وان نطق بها قال الزجاج: أصل الكلمة من الحاشية بمعنى الناحية يقال كنت في حاشية فلان أي في ناحيته فقولك حاشا لزيد من هذا أي تباعد منه وقال أبو علي: هو من المحاشاة وقيل ان حاش حرف وحاشا فعل.

وكلام أهل النحو في هذه الكلمة معروف ومعناها هنا التنزيه كما تقول آسى القوم حاشا زيدا فمعنى حاشا لله براءة لله وتنزيه له أي صفة العجز عن خلق هذا وأمثاله قال مجاهد: حاشا لله معاذ الله.

﴿ما هذا بشراً﴾ اعمال «ما» عمل «ليس» هي في لغة أهل الحجاز وبهذا نزل القرآن كهذه وكقوله سبحانه ﴿ما هن أمهاتهم﴾ وأما بنو تميم فلا يعملونها عمل ليس وقال الكوفيون: أصله ما هذا يبشر فلما حذف الباء انتصب قال أحمد ابن يحيى ثعلب: اذا قلت ما زيد بمنطلق فموضع الباء موضع نصب وهكذا سائر حروف الخفض.

وأما الخليل وسيبويه وجهور النحويين فقد عملوها عمل ليس وبه قال البصريون والبحث مقرر في كتب النحو بشواهد و حججه وقرأ الحسن وما هذا بشراً على أن الباء حرف جر والشين مكسورة أي ما هذا بعبد يشترى وهذه قراءة ضعيفة لا تناسب ما بعدها من قوله إن هذا إلا ملك كريم.

قال الخفاجي : ورد بأنها صحيحة رواية ودراية أما الأول فلأنها رواها في المبهج عن عبد الوارث بسند صحيح ، وأما الثاني فلأن من قرأ بهذه قرأ ملك بكسر اللام فتصح المقابلة أي ما هذا عبد لثيم بملك بل سيد كريم مالك انتهى

وإنما نفين عنه البشرية لما شاهدن فيه من الجمال العبقري ولأنه قد برز في صورة قد لبست من الحسن البديع ما لم يعهد على أحد من البشر ولا أبصر المبصرون ما يقاربه في جميع النسمة البشرية ثم لما نفين عنه البشرية لهذه العلة أثبتن له الملكية وإن كن لا يعرفن الملائكة وقلن :

﴿إن هذا إلا ملك كريم﴾ على الله لأنه قد تقرر في الطباع وركز في النفوس أنهم على شكل فوق شكل البشر في الذوات والصفات وأن لا شيء أحسن من الملك وأنهم فائقون في كل شيء كما تقرر فيها أن الشياطين على العكس من ذلك ولا أقبح منهم والمقصود من هذا إثبات الحسن العظيم المفرط ليوسف .

واعلم أنه لا يلزم من قول النسوة هذا أن الملائكة صورهم أحسن من صور بني آدم فإنهم لم يقلنه للدليل بل حكمن على الغيب بمجرد الاعتقاد المرتكز في طباعهن وذلك ممنوع ، فإن الله سبحانه يقول ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ وظاهر هذا أنه لم يكن شيء مثله من أنواع المخلوقات في حسن تقويمه وكمال صورته فما قاله صاحب الكشاف في هذا المقام هو من جملة تعصباته لما رسخ في عقله من أقوال المعتزلة .

على أن هذه المسألة أعني مسألة المفاضلة بين الملائكة والبشر ليست من مسائل الدين في ورد ولا صدر فيما أغنى عباد الله عنها وأحوجهم إلى غيرها من مسائل التكليف قال قتادة : قلن ملك من الملائكة من حسنه وغرابة جماله ، وأخرج أحمد وغيره عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : أعطى يوسف وأمه شطر الحسن<sup>(١)</sup> وقد وردت روايات عن جماعة من السلف في وصف

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء وفرض الصلوات، رقم ١٦٢ من حديث طويل فيه : «فإذا أنا بيوسف (ص) إذا هو قد أعطى شطر الحسن . وأخرجه الإمام أحمد ٣/١٤٨ ، ٢٨٦ .

قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودَنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ ۖ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا  
 ءَامُرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي  
 إِلَيْهِ وَإِنِّي لَأَتَّصِرُ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾

حسن يوسف والمبالغة في ذلك ففي بعضها أنه أعطى نصف الحسن وفي بعضها  
 ثلثه وفي بعضها ثلثيه .

﴿قالت فذلكن الذي لمتني فيه﴾ الإشارة الى يوسف والخطاب للنسوة أي  
 غيرتني فيه قالت لمن هذا لما رأت افتتانهن بيوسف إظهاراً لعذر نفسها ومعنى فيه  
 في حبه وقيل الإشارة إلى الحب فالضمير له والمعنى فذلك الحب الذي لمتني فيه  
 هو ذلك الحب والأول أولى ورجحه ابن جرير .

ويجوز أن يكون إشارة إلى المعنى بقولهن عشقت عبدها الكنعاني تقول هو  
 ذاك العبد الذي صورتن في أنفسكن ثم لمتني فيه ، قال الزمخشري : قالت فذلكن  
 ولم تقل هذا وهو حاضر رفعاً لمنزله في الحسن واستحقاق أن يحب ويفتن به فلام  
 البعد هنا لتعظيم رتبته أو لبعده رتبته وحالته عن رتبة البشر وأصل اللوم الوصف  
 بالقبیح وما أحسن اقتباس السيد غلام علي آ زاد رحمه الله تعالى من هذه الآية في  
 قوله :

أي صواحب أكباد مقطعة فذلكن الذي لمتني فيه

ثم لما أظهرت عذر نفسها عند النسوة بما شاهدته مما وقعن فيه عند ظهوره لمن  
 ضاق صدرها عن كتم ما تجده في قلبها من حبه فأقرت بذلك وصرحت بما وقع  
 منها من المرادة له فقالت .

﴿ولقد﴾ اللام لام قسم ﴿راودته عن نفسه فاستعصم﴾ أي استعف وامتنع  
 واستعصى مما أريده طالباً لعصمة نفسه عن ذلك وإنما صرحت بذلك لأنها علمت  
 أنه لا ملامة عليها منهن وأنهن قد أصابهن ما أصابها عند رؤيته ثم توعدته إن لم



يفعل ما تريده منه كاشفة لجلباب الحياء هاتكة لستر العفاف فقالت .

﴿ولئن﴾ لأم قسم ﴿لم يفعل ما أمره﴾ أي ما قد أمرته فيها تقدم ذكره عند أن أغلقت الأبواب وقالت هيت لك ﴿ليسجنن﴾ أي ليعتقل في السجن ﴿وليكوناً من الصاغرين﴾ من صغر بكر الغين يصغر صغراً وصغاراً والصغير من صغر بالضم صغراً أي من الأذلاء لما يتاله من الإهانة ويسلب عنه النعمة والعزة في زعمها فلما سمع يوسف مقالتها هذه عرف أنها عزمة منها مع ما قد علمه من نفاذ قولها عند زوجها العزيز.

﴿قال﴾ مناجياً لربه سبحانه يا ﴿رب السجن﴾ أي دخوله الذي أوعدتني به هذه وقرأ عثمان السجن بفتح السين وهو مصدر سجنه مجناً ﴿أحب إلي﴾ أي أثر عندي لأنه مشقة قليلة نافذة أثرها راحت جليلة أبدية ﴿مما يدعونني إليه﴾ من مؤاناتها التي تؤدي إلى الشقاء والوقوع في المعصية العظيمة التي تذهب بخيري الدنيا والآخرة.

وهذا الكلام منه عليه السلام مبني على ما مر من انكشاف الحقائق لديه وبروز كل منها بصورتها اللائقة بها فصيغة التفضيل ليست على بابها إذ ليس له شائبة محبة لما دعته إليه وإنما هو والسجن شران أهونها وأقربهما إلى الإيثار السجن وإن كان في أحدهما مشقة وفي الآخر لذة.

قال بعضهم: لو لم يقل هذا لم يبتل به فالأولى للعبد أن يسأل الله العافية ولذلك ردرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على من كان يسأل الصبر، والتعبير عن الإيثار بالمحبة لحسم مادة طمعها عن المساعدة خوفاً من الحبس والاقتصار على ذكر السجن من حيث أن الصغار من فروعهم ومستبعاته وإسناد الدعوة إليهن جميعاً لأن النسوة رغبته في مطاوعتها وخوفته من مخالفتها.

وقيل أنهم جميعاً دعونه إلى أنفسهن أو لأنه كان بحضرتهم والأول أولى ثم جرى على هذا في نسبة الكيد إليهن جميعاً فقال:

﴿وإن لا تصرف عني كيدهن﴾ في تحييب ذلك اليّ وتحسينه لديّ بأن تثبتي على ما أنا عليه من العصمة والعفة، وأما الكيد من امرأة العزيز فما قد قصه الله سبحانه في هذه السورة وأما كيد سائر النسوة فهو ما تقدم من الترغيب له في المطاوعة والتخريف من المخالفة وقيل أنها كانت كل واحدة تخلو به وحدها وتقول له يا يوسف اقض لي حاجتي فأنا خير لك من امرأة العزيز.

وقيل أنه خاطب امرأة العزيز بما يصلح لخطاب جماعة النساء تعظيماً لها أو عدولاً عن التصريح إلى التعريض، والكيد الاحتيال وجزم ﴿أصب إليهن﴾ على أنه جواب الشرط أي أمل إليهن وأتبعهن وأطاوعهن من صبا يصبو إذا مال واشتاق ومنه قول الشاعر؛

إلى هند صبا قلبي وهند حبا يصبي

والصبوة الميل إلى الهوى ومنه ربح الصبا لأن النفس تستطيها وتميل إليها لطيب نسيمها وروحها.

﴿وأكن من الجاهلين﴾ أي ممن يجهل ما يحرم ارتكابه ويقدم عليه أو ممن يعمل عمل الجاهل أو ممن يستحق صفة الذم بالجهل وفيه أن من ارتكب ذنباً إنما يرتكبه عن جهالة قال أبو السعود: وهذا فزع منه عليه السلام والتجاء إلى اللطاف الله جرياً على سنن الأنبياء والصالحين في قصر نيل الخيرات والنجاة عن الشرور على جناب الله عز وجل وسلب القوى والقدر عن أنفسهم مبالغة في استدعاء لطفه في صرف كيدهن بإظهار أن لا طاقة له بالمدافعة كقول المستغيث أدركني وإلا هلكت لا أنه يطلب الإيجار والإجاء إلى العصمة والعفة وفي نفسه داعية تدعوه إلى هواهن.

فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ بَدَأَهُمْ مِنْ  
 بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّ لَهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٢﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ  
 أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرِنِّي أَخَصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرِنِّي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا  
 تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾

﴿فاستجاب له ربه﴾ لما قال وإن لا تصرف عني كيدهن كان ذلك منه تعرضاً للدعاء وكأنه قال اللهم اصرف عني كيدهن فلاستجابة من الله تعالى هي بهذا الاعتبار لأنه لم يتقدم دعاء صريح منه عليه السلام وفي إسناد الاستجابة إلى الرب مضافاً إليه عليه السلام ما لا يخفى من اظهار اللطف.

﴿فصرف عنه كيدهن﴾ حسب دعائه والمعنى أنه لطف به وعصمه عن الوقوع في المعصية لأنه إذا صرف عنه كيدهن لم يقع شيء مما رمنه، ووجه إسناد الكيد قد تقدم ﴿إنه هو السميع العليم﴾ تعليل لما قبلها من صرف الكيد أي أنه هو السميع لدعوات الداعين له العليم بأحوال المتجسسين إليه وفيه أنه لا يقدر أحد على الانصراف عن المعصية إلا بعصمة الله ولطفه به وهو معنى قوله لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

﴿ثم بدأ لهم﴾ أي ظهر للعزير وأصحابه الذين يدبرون الأمر معه ويشيرون عليه في الرأي وأما فاعل بدأ فقال سيويه: هو ليسجنته أي ظهر لهم أن يسجنوه قال المبرد: وهذا غلط لأن الفاعل لا يكون جملة ولكن الفاعل ما دل عليه بدأ وهو المصدر فحذف الفاعل لدلالة الفعل عليه وقيل الفاعل المحذوف هو رأي أي وظهر لهم رأي لم يكونوا يعرفونه من قبل وهذا الفاعل حذف لدلالة ليسجنته عليه.

﴿من بعد ما رأوا الآيات﴾ قيل هي القميص وشهادة الشاهد وقطع

الأيدي وقيل هي البركات التي فتحتها الله عليهم بعد وصول يوسف إليهم ولم يجد ذلك فيهم بل كانت امرأته هي الغالبة على رأيه الفاعلة لما يطابق هواها في يوسف، وانفاذ ما تقدم منها من الوعيد له بقولها ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين قال ابن عباس: الآيات قد القميص وأثرها في جسده وأثر السكين وقالت امرأة العزيز إن أنت لم تسجنه ليصدقته الناس.

وعن ابن زيد قال: من الآيات كلام الصبي وقال قتادة: والآيات حزنه أيديهم وقد القميص، وأقول: إن كان المراد بالآيات الآيات الدالة على براءته فلا يصح عد قطع أيدي النسوة منها لأنه وقع منهن ذلك لما حصل لهن من الدهشة عند ظهوره لهن ما ألبسه الله سبحانه من الجمال الذي ينقطع عند مشاهدته عرى الصبر ويضعف عند رؤيته قوى التجلد وإن كان المراد الآيات الدالة على أنه قد أعطى من الحسن ما يسلب عقول المبصرين ويذهب بإدراك الناظرين فنعم يصح عد قطع الأيدي من جملة الآيات ولكن ليس هذه الآيات هي المرادة هنا.

﴿ليسجننه﴾ اللام جواب قسم محذوف على تقدير القول أي قائلين والله ليسجننه وقرئ بالفوقية على الخطاب إما للعزيز ومن معه أو له وحده على طريق التعظيم وفي الخطط للمقرئ قال القاضي سجن يوسف ببو صير من عمل الجيزة أجمع أهل المعرفة من أهل مصر على صحة هذا المكان وفيه أثر نبين أحدهما يوسف سجن به المدة التي ذكر أن مبلغها سبع سنين والآخر موسى وقد بني على أثره بمسجد يعرف بمسجد موسى انتهى.

ثم أطال بيان حال ذلك السجن وموضعه وما يصنع هناك قيل وسبب ظهور هذا الرأي لهم في سجن يوسف أنهم أرادوا ستر القالة وكنتم ما شاع في الناس من قصة امرأة العزيز معه، وقيل إن العزيز قصد بسجنه الحيلولة بينه وبين امرأته لما علم أنها قد صارت بمكان من حبه لا تبالي معه تحمل نفسها

عليه على أي صفة كانت ﴿حتى حين﴾ أي إلى مدة غير معلومة كما قاله أكثر المفسرين وقيل إلى انقطاع ما شاع في المدينة.

وقال سعيد بن جبير: إلى سبع سنين وقيل إلى خمس وقيل إلى ستة أشهر وقد تقدم في البقرة الكلام في تفسير الحين وحتى بمعنى إلى، قال السدي: جعل الله ذلك الحبس تطهيراً ليوسف من همه بالمرأة وعن ابن عباس قال: عوقب يوسف ثلاث مرات: أما أول مرة فبالحبس لما كان من همه بها والثانية لقوله ﴿أذكرني عند ربك فلبث في السجن بضع سنين﴾ عوقب بطول الحبس، والثالثة حيث قال ﴿أيتها العير إنكم لسارقون﴾ فاستقبل في وجهه ﴿إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾

﴿ودخل معه السجن فتيان﴾ التقدير فسجنوه ودخل معه، ومع للمصاحبة وفتيان تشية فتى وذلك يدل على أنها عبدان له ومحتمل أن يكون الفتى اسماً للخادم وإن لم يكن مملوكاً قال ابن عباس: أحدهما خازن الملك على طعامه والآخر ساقيه وقد كانا وضعا للملك سباً لما ضمن لها أهل مصر مالاً في مقابلة ذلك ثم إن الساقى رجع من ذلك وقال للملك لا تأكل الطعام فإنه مسموم وقال الخباز: لا تشرب فإن الشراب مسموم فقال الملك للساقى: إشرِب فشرِب فلم يضره وقال للخباز: كل فأب فجرب الطعام على حيوان فهلك مكانه فحبسها وكان دخولها السجن مع دخول يوسف وقيل قبله وقيل بعده قال ابن جرير: إنها سألا يوسف عن علمه فقال: إني أعبر الرؤيا فسألاه عن رؤيائهما كما قص الله سبحانه.

﴿قال أحدهما إني أراي أعصر خمراً﴾ أي رأيتي والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة والمعنى إني أراي أعصر عنباً فسماه باسم ما يؤول إليه لكونه المقصود من العصر وقراءة ابن مسعود وإني أعصر عنباً لا تدل على الترادف، قال الأصمعي: أخبرني المعتمر بن سليمان أنه لقي أعرابياً ومعه عنب فقال له

ما معك قال خمر وقيل معناه أعصر عنب خمر فهو على حذف مضاف وقيل الخمر هو العنب حقيقة بلغة غسان وعمان وهذا الذي رأى هذه الرؤيا هو الساقبي وكان بين دخوله السجن وبين الرؤيا خمس سنين وهذه الجملة مستأنفة بتقدير سؤال وكذلك الجملة التي بعدها وهي :

﴿وقال الآخر﴾ أي الخباز ﴿إني أراي أحمل فوق رأسي خبزاً﴾ ثم وصف الخبز هذا بقوله ﴿تأكل﴾ أي تنهش ﴿الطير منه﴾ ثم قالاً لـيوسف جميعاً بعد أن قصا رؤياهما عليه ﴿نبئنا بتأويله﴾ أي بتأويل ما قصصناه عليك من مجموع المرثيين أو بتأويل المذكور لك من كلامنا وقيل إن كل واحد منها قال له عقب قص رؤياه عليه فيكون الضمير راجعاً إلى ما رآه كل واحد منها وقيل إن الضمير في تأويله موضوع موضع اسم الإشارة بطريق الاستعارة فإن الإشارة يشار به إلى متعدد والتقدير بتأويل ذلك

﴿إنا نراك من المحسنين﴾ أي من الذين يحسنون عبارة الرؤيا وكذا قال الفراء: ان معناه من العالمين الذين أحسنوا العلم وقال ابن اسحاق من المحسنين إلينا إن فسرت ذلك أو من المحسنين إلى أهل السجن قد روي أنه كان كذلك قال قتادة: وكان يعزي حزنهم ويداوي مرضاهم ورأوا منه عبادة واجتهاداً فأحبوه وعن الضحاك قال: كان إحسانه إذا مرض إنسان في السجن قام عليه وإذا ضاق عليه المكان أوسع له وإذا احتاج جمع له وعن ابن عباس قال: دعا يوسف لأهل السجن فقال اللهم لا تعم عليهم الأخبار وهون عليهم مر الأيام.

قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَاتِكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا  
 عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾  
 وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ  
 شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾  
 يَصْصَحِي السِّجْنَءَ أَزْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾

﴿قال لا يأتیکما طعام ترزقانه﴾ من جهة الله أو الملك والجملة صفة  
 لطعام ﴿إلا نباتکما بتأويله قبل أن يأتیکما﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ومعنى  
 ذلك أنه يعلم شيئاً من الغيب بإلهام الله تعالى وأنه لا يأتیهما إلى السجن طعام  
 في اليقظة إلا أخبرهما بماهيته قبل أن يأتیهما وقيل أراد به في النوم والأول هو  
 الأظهر وهذا ليس من جواب سؤالها تعبير ما قصاه عليه بل جعل عليه السلام  
 مقدمة قبل تعبيره لرؤياهما بياناً لعلو مرتبته في العلم وأنه ليس من المعبرين  
 الذين يعبرون الرؤيا عن ظن وتحمين فهو كقول عيسى عليه السلام وأنبئکم بما  
 تأکلون وما تدخرون في بيوتکم.

وإنما قال يوسف لها بهذا ليحصل الانقياد له منها فيما يدعوها إليه بعد  
 ذلك من الإيمان بالله والخروج من الكفر والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أي  
 لا يأتیکما في حال من الأحوال إلا حال ما نباتکما أي بينت لکما ماهيته وكيفيته  
 وسماه تأويلاً بطريق المشاكلة لأن الكلام في الرؤيا أو المعنى إلا نباتکما بما يؤول  
 إليه الكلام من مطابقة ما أخبرکما به للواقع.

﴿ذلكما﴾ أي التأويل والخطاب للسائلين له عن تعبير رؤياهما ﴿عما علمني  
 ربِّي﴾ بما أوحاه إليّ وألهمني إياه لا من قبيل الكهانة والتنجيم ونحو ذلك بما  
 يكثر فيه الخطأ، ثم بين لها أن ذلك الذي ناله من هذه الرتبة العلية والعلوم

الجمعة هو سبب ترك الملة التي لا يؤمن أهلها بالله ولا بالآخرة واتباعه ملة الأنبياء من آبائه فقال.

﴿إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله﴾ وهو كلام مستأنف يتضمن التعليل لما قبله والمراد بالترك هو عدم التلبس بذلك من الأصل وعدم الالتفات إليه بالكلية لا أنه قد كان تلبس به ثم تركه كما يدل عليه قوله ما كان لنا أن نشرك بالله ثم وصف هؤلاء القوم بما يدل على تصلبهم في الكفر وتهالكهم عليه فقال ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ أي هم يختصون بذلك دون غيرهم لإفراطهم في الكفر بالله.

﴿واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحاق ويعقوب﴾ وسماهم آباء جميعاً لأن الأجداد آباء وقدم الجد الأعلى ثم الجد الأقرب ثم الأب لكون ابراهيم هو أصل هذه الملة التي كان عليها أولاده ثم تلقاها عنه اسحاق ثم يعقوب وإنما قاله عليه السلام ترغيباً لصاحبيه في الإيمان وتنقيحاً لهما عما كانا عليه من الشرك والضلال وقدم ذكر تركه لملتهم على ذكر اتباعه ملة آبائه لأن التولية متقدمة على التحلية.

﴿ما كان﴾ أي ما صح وما استقام فضلاً عن الوقوع ﴿لنا﴾ معاشر الأنبياء لقوة نفوسنا ووفور علومنا ﴿أن نشرك بالله من شيء﴾ أي شيء كان من ملك أو جني أو انسي فضلاً أن نشرك به صنماً لا يسمع ولا يبصر قال الواحدي: لفظة من زائدة مؤكدة كقولك ما جاءني من أحد.

﴿ذلك﴾ أي الإيمان والتوحيد وعدم الاشرار والعلم الذي رزقنا ﴿من فضل الله﴾ أي ناشيء من تفضلاته ﴿علينا﴾ ولطفه بنا بما جعله لنا من النبوة المتضمنة للعصمة عن معاصيه ﴿و﴾ من فضل الله ﴿على الناس﴾ كافة ببعثه الأنبياء إليهم وهدايتهم إلى ربهم وتبين طرائق الحق لهم ﴿ولكن أكثر الناس﴾



وهم الكفار ﴿لا يشكرون﴾ الله سبحانه على نعمه التي أنعم بها عليهم فيؤمنون به ويوحدون ويعملون بما شرعه لهم أو لا يستدلون بما نصب لهم من الدلائل وإنزال الآيات فيلغونها كمن يكفر النعمة ولا يشكرها أو لا يصرفون تلك القوى والمشاعر إلى ما خلقت هي له ولا يستعملونها فيما ذكر من أدلة التوحيد الأفاقية والأنفسية والعقلية والنقلية.

قال قتادة: إن المؤمن ليشكر ما به من نعمة الله ويشكر ما بالناس من نعمة، ذكر لنا أن أبا الدرداء كان يقول يا ربُّ شاكراً نعمة غير منعم عليه لا يدري ويا رب حامل فقه غير فقيه ثم دعاهم إلى الإسلام صريحاً فقال:

﴿يا صاحبي السجن﴾ جعلها مصاحبين للسجن لطول مقامهما فيه وقيل المراد يا صاحبي في السجن لأن السجن ليس بمصحوب بل مصحوب فيه وأن ذلك من باب يا سارق الليلة وعلى الأول يكون من باب الإضافة إلى الشبيه بالمفعول به والمعنى يا ساكني السجن كقوله أصحاب الجنة وأصحاب النار قال قتادة: لما عرف يوسف أن أحدهما مقتول دعاهما إلى حظهما من ربهما وإلى نصيبهما من آخرتهما فقال:

﴿أرباب متفرقون﴾ الاستفهام للإنكار مع التوبيخ والتفريع ومعنى التفرق هنا هو التفرق في الذوات والصفات والعدد أي هل الأرباب المتفرقون في ذواتهم المختلفون في صفاتهم المتنافون في عددهم ﴿خير﴾ لكما يا صاحبي السجن ﴿أم الله الواحد﴾ أي المعبود بحق المتفرد في ذاته وصفاته الذي لا ضد له ولا ند ولا شريك ﴿القهار﴾ الذي لا يغالبه مغالب ولا يعانده معاند وقيل استفهام تقرير أي طلب الإقرار بجواب الاستفهام أي أقرؤا واعلموا أن الله هو الخير والأول أولى.

مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا  
 مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ  
 أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَصْحَبِي السَّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَيسْقَى رَبَّهُ  
 خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلَّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ  
 تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾

أورد يوسف عليهما هذه الحجة القاهرة على طريق الاستفهام لأنها كانا  
 ممن يعبد الأصنام وقد قيل أنه كان بين أيديهما أصنام يعبدونها عند أن خاطبهما  
 بهذا الخطاب ولهذا قال لهما ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء﴾ فارغة لامسميات  
 لها وإن كنتم تزعمون أن لها مسميات وهي الآلهة التي تعبدونها لكنها لما كانت  
 لا تستحق التسمية بذلك صارت الأسماء كأنها لامسميات لها.

وقيل المعنى ما تعبدون من دون الله إلامسمياته أسماء وقيل خطاب لأهل  
 السجن جميعاً لا لخصوص الصاحبين، وهذا هو الأظهر وكذلك ما بعده من  
 الضمائر لأنه قصد خطاب صاحبي السجن ومن كان على دينهم.

﴿سميتموها أنتم وآباؤكم﴾ من تلقائكم بمحض جهلكم وضلالكم  
 وليس لها من الإلهية شيء إلا مجرد الأسماء لكونها جمادات لا تسمع ولا تبصر  
 ولا تنفع ولا تضر والتقدير سميتموها آلهة من عند أنفسكم ﴿ما أنزل الله بها﴾  
 أي بتلك التسمية المستتعبة للعبادة ﴿من سلطان﴾ من حجة تدل على صحتها  
 ﴿إن﴾ أي ما ﴿الحكم﴾ في أمر العبادة المتفرعة على تلك التسمية ﴿إلا الله﴾ عز  
 سلطانه لأنه المستحق لها بالذات إذ هو الذي خلقكم وخلق هذه الأصنام التي  
 جعلتموها معبودة بدون حجة ولا برهان ﴿أمر أن لا﴾ أي بأن لا ﴿تعبدوا إلا  
 إياه﴾ حسياً تقضي به قضية العقل أيضاً والجملة مستأنفة أو حالية والأول هو  
 الظاهر.

والمعنى انه امركم بتخصيصه بالعبادة دون غيره عما تزعمون انه معبود، ثم بين لهم ان عبادته وحده دون غيره هي دين الله الذي لا دين غيره فقال:

﴿ذلك﴾ أي تخصيصه تعالى بالعبادة ﴿الدين القيم﴾ أي المستقيم الثابت العدل الذي تعاضدت عليه البراهين عقلاً ونقلاً ﴿ولكن اكثر الناس لا يعلمون﴾ ان ذلك هو دينه القويم وصراطه المستقيم لجهلهم وبعدهم عن الحقائق أو لا يعلمون ما يصيرون اليه من العذاب فيشركون وهذا يدل على ان العقوبة تلزم العبد وان جهل اذا أمكن له العلم بطريقه.

ثم بعد تحقيق الحق ودعوتها إليه وبيانه لهما مقداره الرفيع ومرتبة علمه الواسع شرع في تفسير ما استفسراه ولكونه بحثاً مغايراً لما سبق فصله عنه بتكرير الخطاب فقال.

﴿يا صاحبي السجن أما أحدكما﴾ أي الساقى وانما أيهما لكونه مفهوماً أو لكراهة التصريح للخباز بانه الذي سيصلب ﴿فيسقي ربه﴾ أي مالكة ﴿خمرأ﴾ وهي عهدته التي كان قائماً بها في خدمة الملك فكانه قال أما أنت أيها الساقى فستعود بعد ثلاث سن الايام الى ما كنت عليه ويدعوك الملك ويطلقك من الحبس.

﴿وأما الآخر﴾ وهو الخباز فيخرج بعد ثلاث ﴿فيصلب فتأكل الطير من رأسه﴾ تعبيراً لما رآه من أنه حمل فوق رأسه خبزاً فتأكل الطير منه ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ وهو ما رأياه وقصاه عليه يقال استفتاه إذا طلب منه بيان حكم شيء سأله عنه مما أشكل عليه وهما قد سألاه تعبيراً ما أشكل عليهما من الرؤيا والمراد بالأمر ما يؤول إليه أمرهما ولذلك وحده قاله البيضاوي.

وقال الزمخشري: المراد بالأمر ما اتبها به من سم الملك وما سجنا من

أجله عن ابن مسعود قال: ما رأى صاحباً يوسف شيئاً إنما تحالماً ليحرباً علمه فلما  
 أول رؤياهما قالاً إنما كنا نلعب ولم نر شيئاً فقال قضي الأمر، الآية يعني وقعت  
 العبارة فصار الأمر على ما عبر يوسف وقال قوم بل كانا قد رأيا رؤيا حقيقة  
 وعن أبي مجلز قال: كان أحد اللذين قصا على يوسف الرؤيا كاذباً وكان هذا  
 التعبير بالوحي كما ينهى عنه قوله قضي الأمر وقيل هو بالاجتهاد.

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ  
ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَيْسَ فِي السِّجْنِ يَضَعُ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ  
بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ  
يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾

﴿وقال للذي ظن انه ناج منها﴾ أي قال يوسف عليه السلام والظان هو  
أيضاً يوسف عليه السلام والمراد بالظن العلم لأنه قد علم من الرؤيا نجاته  
الشرابي وهلاك الخباز ، هكذا قال جمهور المفسرين .

وقيل الظاهر انه على معناه لأن عابر الرؤيا إنما يظن ظناً ، والأول أولى  
وأنسب بحال الأنبياء ، ولا سيما وقد أخبر عن نفسه عليه السلام بأنه قد  
أطلعه الله على شيء من علم الغيب كما تقدم .

﴿اذكري عند ربك﴾ هي معقول القول ، أمره بأن يذكره عند سيده  
ويقول له إن في السجن غلاماً محبوباً ظلماً منذ خمس سنين ويصفه بما شاهده  
منه من جودة التعبير والاطلاع على شيء من علم الغيب فخرج .

﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾ وكانت هذه المقالة منه صادرة عن ذهول  
ونسيان عن ذكر الله بسبب الشيطان ، فيكون ضمير المفعول في أنساه عائداً الى  
يوسف عليه السلام ، هكذا قال أكثر المفسرين ، ويكون المراد بربه في قوله  
ذكر ربه هو الله سبحانه ، أي أنسى الشيطان يوسف عليه السلام ذكر الله  
تعالى في تلك الحال . فقال للذي ظن أنه ناج منها يذكره عند سيده ليكون  
ذلك سبباً لانتباهه على ما أوقعه من الظلم اليين عليه بسجنه بعد أن رأى من  
الآيات ما يدل على براءته ، وذلك غفلة عرضت له عليه السلام فإن الاستعانة

بالمخلوق في دفع الضرر وان كانت جائزة إلا أنه لما كان مقام يوسف عليه السلام أعلى المقامات ورتبته أعلى الرتب وهي منصب النبوة والرسالة لاجرم صار مؤاخذاً بهذا القدر ، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين .

وذهب جماعة من المفسرين إلى أن الذي أنساه الشيطان ذكر ربه وهو الذي نجا من الغلامين وهو الشراي ، والمعنى أنسى الشراي الشيطان ذكر سيده ، أي ذكره لسيده فلم يبلغ اليه ما أوصاه به يوسف عليه السلام من ذكره عند سيده ، ويكون المعنى فأنساه الشيطان ذكر إخساره بما أمره به يوسف عليه السلام مع خلوصه من السجن ورجوعه الى ما كان عليه من القيام بسقي الملك .

وقد رجح هذا بكون الشيطان لا سبيل له على الأنبياء . وأجيب بأن النسيان وقع من يوسف عليه السلام ونسبته الى الشيطان على طريق المجاز ، والأنبياء غير معصومين عن النسيان إلا فيما يخبرون به عن الله سبحانه .

وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني<sup>(١)</sup> . ورجح أيضاً بأن النسيان ليس بذنب ، فلو كان الذي أنساه الشيطان ذكر ربه هو يوسف عليه السلام لم يستحق العقوبة على ذلك بلبثه في السجن بضع سنين ، وأجيب بأن النسيان بمعنى الترك وانه عوقب بسبب استعانته بغير الله سبحانه ، ويؤيد رجوع الضمير الى يوسف عليه السلام ما بعده من قوله ﴿فلبث في السجن بضع سنين﴾ ويؤيد رجوعه الى الذي نجا من الغلامين قوله فيما سيأتي ﴿الذي نجا منها وأذكر بعد أمة﴾ .

﴿فلبث﴾ يوسف عليه السلام ﴿في السجن﴾ بسبب ذلك القول الذي قاله للذي نجا من الغلامين أو بسبب ذلك الإنساء ، أخرج ابن الدنيا وابن جرير والطبراني عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو لم يقل يوسف عليه السلام الكلمة التي قال ما لبث في السجن طول ما لبث حيث يتنغي الفرج من عند غير الله<sup>(٢)</sup> . وعن عكرمة مرفوعاً نحوه وهو مرسل ﴿بضع سنين﴾ البضع ما بين الثلاث الى التسع كما حكاه الهروي عن العرب وبه قال قتادة .

وحكى عن أبي عبيدة أن البضع ما دون نصف العقد ، يعني ما بين واحد الى أربعة ، وقيل ما بين ثلاث الى سبع قاله مجاهد ، وقيل هو ما دون العشرة . وحكى الزجاج انه ما بين الثلاث الى الخمس ، وقد اختلف السلف في تعيين قدر المدة التي لبث فيها يوسف عليه السلام في السجن ، فقيل سبع سنين ، قاله ابن جريج وقاتادة ووهب بن منبه ، وقيل اثنتي عشرة سنة ، قاله ابن عباس ، وقيل أربع عشرة سنة قاله الضحاك ، وقيل خمس سنين .

وعن أنس قال : أوحى الى يوسف عليه السلام من استنقذك من القتل حين هم اخوتك أن يقتلونك ؟ قال : أنت يارب ، قال : فمن استنقذك من الجب إذ ألقوك فيه ؟ قال : أنت يارب ، قال : فمن استنقذك من المرأة إذ همت بك ؟ قال : أنت يارب ، قال : فمالك نسيته وذكرت آدمياً ؟ قال : جزعاً وكلمة تكلم بها لساني ، قال : فوعزتي لأخلدك في السجن بضع سنين ، فلبث فيه سبع سنين ، اخرجه ابن أبي شيبة وعبدالله بن أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، فالبضع مدة العقوبة لا مدة الحبس كله .

﴿و﴾ لما دنا فرج يوسف عليه السلام ﴿قال الملك﴾ أي الملك الأكبر وهو الريان ابن الوليد الذي كان العزيز وزيراً له ﴿إني أرى﴾ أي رأيت في منامي ﴿سبع بقرات سمان﴾ خرجن من نهر يابس ﴿ياكلهن سبع عجاف﴾ أي مهازيل في غاية الضعف ، والتعبير في الموضعين بالمضارع لاستحضار الصورة والسمان جمع سمين وسمينة ، يقال رجال سمان كما يقال نساء كرام ، والعجاف جمع عجفاء سماعي وقياس جمعه عجف لأن فعله وافعل لا تجمع على فعال ولكنه عدل عن القياس حملاً على السمان لأنه نقيضه .

﴿و﴾ رأيت ﴿سبع سنبلات خضر﴾ قد انعقد حبها ﴿و﴾ رأيت سبعاً ﴿أخر يابسات﴾ وهي التي قد بلغت حد الحصاد ، وإنما حذف اسم العدد لأن التقسيم في البقرات يقتضي التقسيم في السنبلات وكان قد رأى ان السبع السنبلات اليابسات قد أدركت الخضر وألتوت عليها حتى غلبتها ولم يبق من خضرتها شيء ولعل عدم التعرض لذكر هذا في النظم القرآني للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات ، ولما شاهد الناقص الضعيف قد استولى على القوي الكامل حتى غلبه وقهره أراد أن يعرف ذلك فقال :

﴿يا أيها الملا أفتوني في رؤياي﴾ الخطاب للأشراف من قومه ، وقيل هم السحرة والكهنة والمعبرون للرؤيا ، والمعنى أخبروني بحكم هذه الرؤيا ﴿إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾ أي تعلمون عبارة الرؤيا وهي الانتقال من الصور الخيالية الى المعاني النفسانية التي هي مثالها ، وأصل العبارة مشتقة من عبور النهر وهو المجاوزة ، فمعنى عبرت النهر بلغت شاطئه ، فعابر الرؤيا يخبر بما يؤول اليه أمرها .

قال الزجاج : اللام في للرؤيا للبيان ، وقيل هو لتقوية العامل وتأخير الفعل العامل فيه لرعاية الفواصل .



قَالُوا أَضْغَثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا  
وَأَذَكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أَنْتُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي  
سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ  
يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًا فَمَا  
حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ  
يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾

﴿قالوا﴾ هذه ﴿أضغاث أحلام﴾ أي تخاليطها وهي جمع ضغث وهو في الأصل كل مختلط من أخلاط من بقل أو حشيش أو غيرها فاستعير للرؤيا الكاذبة ، والأحلام جمع حلم وهي الرؤيا الكاذبة التي لا حقيقة لها كما يكون من حديث النفس ووسواس الشيطان ، والاضافة بمعنى من أي هي اضغاث من أحلام أخرجوها من جنس الرؤيا التي لها عاقبة تؤول إليها ويعتني بأمرها وجمعوها وهي رؤيا واحدة مبالغة في وصفها بالبطلان كما في قولهم فلان يركب الخيل ويلبس العمائم لمن لا يملك إلا فرساً واحداً وعمامة فردة ، أو لتضمنها أشياء مختلفة من البقرات السبع السمان والسبع العجاف ، والسنبال السبع الخضر والآخر اليابسات .

فتأمل حسن موقع الأضغاث مع السنبال ، فلهذا در شأن التنزيل ، ويجوز ان يكون رأى مع هذه الرؤيا غيرها مما لم يقصه الله علينا . قال ابن عباس : أضغاث أحلام يقول مشتبهة ، وعنه قال الكاذبة ؛ وعن الضحاك مثله .

﴿وما نحن بتأويل الأحلام﴾ المختلطة ﴿بعالمين﴾ يريدون بالأحلام المنامات الباطلة خاصة ، أي ليس لها تأويل عندنا وإنما التأويل للمنامات

الصادقة كأنه مقدمة ثانية للعدر لجهلهم بتأويله ؛ نفوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له لا مطلق العلم بالتأويل .

وقيل إنهم نفوا عن أنفسهم علم التأويل مطلقاً ولم يدعوا انه لا تعبير لهذه الرؤيا ، وقيل إنهم قصدوا معوها من صدر الملك حتى لا يشتغل بها ولم يكن ما ذكروه من نفي العلم حقيقة .

﴿وقال الذي نجا منها﴾ أي من الغلامين ، وهو الساقى الذي قال له يوسف عليه السلام : اذكرني عند ربك ﴿وادكر﴾ بالبدال المهملة على قراءة الجمهور وهي الفصيحة ، وقرئ بالمعجمة أي تذكر الساقى يوسف عليه السلام وما شاهده منه من العلم بتعبير الرؤيا ﴿بعد أمة﴾ مدة طويلة وحين بعيد ، ومنه الى أمة معدودة الى وقت قال ابن درستويه : والأمة لا تكون على الحين إلا على حذف مضاف وإقامة المضاف اليه مقامه ، كأنه قال : والله أعلم وادكر بعد حين أمة او بعد زمن أمة .

قيل وسمى الحين من الزمان أمة لأنه جماعة أيام ، والأمة الجماعة الكثيرة من الناس . قال الأخفش : هو في اللفظ واحد وفي المعنى جمع ، وكل جنس من الحيوان أمة ، وقرئ بعد أمة أي بعد نسيان ، وإمة بكسر الهمزة أي بعد نعمة ، وهي نعمة النجاة . وعن الحسن : بعد أمة من الناس . وقال ابن عباس : بعد سبع سنين وقيل تسع سنين وقيل سنتين .

﴿أنا انبئكم بتأويله﴾ أي أخبركم به بسؤالي عنه من له علم بتأويله ، وهو يوسف عليه السلام او أدلكم عليه او أخبركم بمن عنده تأويله ﴿فأرسلون﴾ خاطب الملك بلفظ الجمع للتعظيم ، او مخاطبه ومن كان معه من الملأ ، طلب منهم أن يرسلوه الى يوسف عليه السلام ليقص عليه رؤيا الملك حتى يخبره بتأويلها فيعود بذلك الى الملك او إلى السجن .

فأتى السجن فقال يا ﴿يوسف أيها الصديق﴾ إنما سماه صديقاً لأنه لم يجرب عليه كذباً قط والصديق الكثير الصدق والذي لم يكذب قط ، وقيل لأنه صدق في تعبير رؤياه التي رآها في السجن ، وجملة مجيء الرسول ليوسف عليه السلام في السجن أربع مرات هذه أولها .

﴿أفتنا﴾ أي اخبرنا وبين لنا ﴿في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات﴾ وترك ذكر الرؤيا اكتفاء بما هو واثق به من فهم يوسف عليه السلام بأن ذلك رؤيا وان المطلوب منه تعبيرها .

ولما عاين علو رتبته عليه السلام في الفضل عبر عن ذلك بالافتاء ولم يقل كما قال هو وصاحبه أولاً نبئنا بتأويله ، وفي قوله أفتنا مع انه المستفتى وحده إشعار بأن الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له ملائسة بأمور العامة ، وانه في ذلك معبر وسفير كما أذن بذلك حيث قال ﴿لعلي أرجع الى الناس﴾ أي الى الملك ومن عنده من الملائم بتأويل هذه الرؤيا او الى أهل البلد إذ قيل إن السجن لم يكن فيه .

﴿لعلمهم يعلمون﴾ ما تأتي به من تأويل هذه الرؤيا او يعلمون فضلك ومنزلتك ومعرفتك لفن الرؤيا ، وانما لم يبيت الكلام فيها لأنه لم يكن جازماً بالرجوع فربما احترمه المنية دونه ولا يعلمهم .

﴿قال تزرعون﴾ مستأنفة كغيرها مما يرد هذا المورد ﴿سبع سنين دأباً﴾ أي متوالية متتابعة ، قرىء بفتح الهمزة وسكونها وهما لغتان في مصدر دأب في العمل إذا جد فيه وتعب ، قال الفراء : حرك لأن فيه حرفاً من حروف الحلق ، وكذلك كل حرف فتح أوله وسكن ثانيه فتثقله جائز في كلمات معروفة .

وأصل معنى الدأب التعب ويكنى به عن العادة المستمرة لأنها تنشأ عن

مداومة العمل اللازم له التعب وانتصابه بفعل مقدر أي تدأبون دأباً ، قاله سيويه ، او على أنه مصدر واقع موقع الحال فيكون فيه الأوجه المعروفة إما المبالغة وإما وقوعه موقع الصفة وإما على حذف مضاف أي دائبين او ذوي دأب ، او جعلهم نفس الدأب مبالغة ، فعبر يوسف عليه السلام السبع البقرات السمان والسنبلات الخضر بسبع سنين فيها خصب ، والعجاف واليابسات بسبع سنين فيها جدب وأول ابتلاع العجاف السمان بأكل ما جمع في السنين المخصبة في السنين المجذبة ، واستدل بالسبع الخضر على ما ذكره في التعبير من قوله :

﴿فما حصدتم﴾ في كل سنة من السنين المخصبة ﴿فذروه﴾ أي ذلك المحصود ﴿في سنبلة﴾ وقصبه ليكون القصب علفا للدواب ولا تفصلوه عنها لئلا يأكله السوس كما هو شأن غلال مصر ونواحيها ، قيل وهذه نصيحة منهم لهم خارجة عن التعبير وما شرطية او موصولة وسنبل ففعل بضم الفاء والعين الواحدة سنبلة ، يقال سنبل الزرع أي أخرج سنبله .

﴿إلا قليلاً مما تأكلون﴾ في هذه السنين المخصبة فإنه لا بد لكم من فصله عن سنبله واخراجه عنها ، واقتصر على استثناء الأكل دون ما يحتاجون اليه من البذر الذي يبذرونه في أمواهم لأنه قد علم من قوله تزرعون .

﴿ثم يأتي من بعد ذلك﴾ السبع السنين المخصبة ﴿سبع شداد﴾ أي سبع سنين مجدبة محملة شديدة يصعب أمرها على الناس وهي تأويل السبع العجاف والسبع اليابسات .

﴿يأكلن ما قدمت لهن﴾ من تلك الحبوب المتروكة في سنايلها في السنين المخصبات ، واستناد الأكل الى السنين مجازي تطبيقاً بين المعبر والمعبر به كما في نهاره صائم .

وفيه تلويح بأنه تأويل الأكل العجاف السمان واللام في هن ترشيح لذلك فكان ما ادخر في السنابل من الحبوب شيء قد هيء وقدم هن كالذي يقدم للنازل وإلا فهو في الحقيقة مقدم للناس فيهن والمعنى يأكل الناس فيهن أو يأكل أهلهن ما قدمتم أي ما أدخرتم هن ﴿إلا قليلا مما تحصنون﴾ أي مما تحبسون من الحب لتزرعوا به لأن في استيفاء البذر تحصين الأقوات .

وقال أبو عبيدة : معناه تحرزون وقيل تدخرون وقيل تخزنون والمعنى واحد والاحصان الاحراز وهو ابقاء الشيء في الحصن بحيث يحفظ ولا يضيع ، أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لقد عجبت من يوسف عليه السلام وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى اشترط عليهم أن يخرجوني ولقد عجبت من يوسف عليه السلام وصبره وكرمه والله يغفر له حين أتاه الرسول ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب ولكنه أراد أن يكون له العذر»<sup>(١)</sup>

(١) وهو حديث مرسل وقد أورده ابن كثير في تفسيره ٤٨١/٢ .

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصُرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤَنِّئُ بِهِ  
فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ  
إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِنَّ زَوْدَنِي يُوسُفَ عَنِ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ  
لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْكُنْ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ  
نَفْسِي وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ  
الْخَائِبِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبْرِي نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي  
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾

﴿ثم يأتي من بعد ذلك﴾ السنين المجذبات ﴿عام﴾ سنة وهذه بشارة منه لهم زائدة على تعبير الرؤيا ولعله علم ذلك بالوحي او بأن انتهاء الجذب بالخصب على العادة الإلهية حيث يوسع على عباده بعد تضييقه عليهم ﴿فيه يغاث الناس﴾ من الإغاثاة او الغوث وهو الفرج وزوال الهم والكرب والغيث المطر وقد غاث الغيث الأرض أي أصابها وغاز الله البلاد يغيثها غوثاً امطرها فمعنى يغاث الناس يمطرون .

﴿وفيه يعصرون﴾ الاشياء التي تعصر كالعنب والسَّمْسَمِ وَالزَّيْتُونَ ، وقيل أراد حلب الألبان ، وقيل معناه ينجون مأخوذ من العصرة وهي المنجاة ، قال ابو عبيدة : والعصر بالتحريك الملجأ والمنجى واعتصرت بفلان التجأت به وقرئ بقاء الخطاب ويعصرون بضم الياء وفتح الصاد ومعناه يمطرون ومنه قوله تعالى ﴿وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً﴾ قال ابن عباس : يصيبهم فيه غيث يعصرون فيه العنب والزبيب ومن كل الثمرات ويحتلبون وعنه قال : اخبرهم بشيء لم يسألوه عنه كان الله قد علمه إياه وفيه يعصرون السَّمْسَمِ دهنًا والعنب خمراً والزيتون زيتاً والمراد كثرة الخير والنعم على الناس وكثرة الخصب في الزرع والثمار .

﴿وقال الملك﴾ في الكلام حذف قبل هذا والتقدير فذهب الرسول الى الملك فأخبره بما أخبره به يوسف عليه السلام من تعبير الرؤيا وقال الملك لمن بحضرتة ﴿أتوني به﴾ أي بيوسف عليه السلام رغب الى رؤيته ومعرفة حاله بعد ان علم بفضل ما علمه من وصف الرسول له ومن تعبيره لرؤياه ﴿فلما جاءه﴾ أي إلى يوسف عليه السلام ﴿الرسول﴾ واستدعاه الى حضرة الملك وأمره بالخروج من السجن وهذه هي المرة الثانية من مجيء الرسول اليه في السجن .

﴿قال﴾ يوسف عليه السلام للرسول قاصداً اظهار براءته ﴿ارجع الى ربك﴾ أي سيدك ﴿فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾ أمره بأن يسأل الملك عن ذلك وتوقف عن الخروج من السجن ولم يسارع الى إجابة الملك ليظهر للناس براءة ساحته ونزاهة جانبه وانه ظلم بكيد امرأة العزيز ظلماً بيناً . قال ابن عباس : أراد يوسف عليه السلام العذر قبل ان يخرج من السجن ولقد أعطى عليه السلام من الحلم والصبر والاناة ما تضيق الأذهان عن تصويره .

ولهذا ثبت في الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم : (ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف عليه السلام لاجبت الداعي)<sup>(١)</sup> يعني الرسول الذي جاء يدعوه إلى الملك ، قال ابن عطية : كان هذا الفعل من يوسف عليه السلام أناة وصبراً وطلباً لبراءة ساحته وذلك انه خشي ان يخرج وينال من الملك مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه فيراه الناس بتلك العين يقولون هذا الذي راود امرأة العزيز .

وفيه دليل على ان الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها وإنما قال فاسأله ما بال النسوة وسكت عن امرأة العزيز رعاية لذمام الملك العزيز او خوفاً منه من كيدها وعظم شرها وذكر السؤال عن تقطيع الأيدي ولم يذكر مراودتهن له تنزيهاً منه عن نسبة ذلك اليهن ولذلك لم ينسب

المراودة فيما تقدم الى امرأة العزيز إلا بعد ان رمته بدائها وانسلت وقد اكتفى هنا بالإشارة الاجمالية بقوله :

﴿ان ربي بكيدهن عليم﴾ فجعل علم الله سبحانه بما وقع عليه من الكيد منهن مغنياً عن التصريح وقيل المراد بالرب هنا الملك وجعله رباً لنفسه لكونه مريباً له والأول أولى وفيه تعظيم كيدهن والوعيد لهن على كيدهن .

﴿قال ما خطبكن إذ روادتن يوسف عن نفسه﴾ مستأنفة كأنه قيل فماذا قال الملك بعد أن أبلغه الرسول ما قال يوسف عليه السلام والخطب الشأن العظيم الذي يحق له ان يخاطب فيه صاحبه خاصة وإنما يخاطب في الأمور العظام قال الأزهري : تقول هذا خطب جليل وخطب يسير والمعنى ما شأنكن وكانت النسوة أربعين كما تقدم وقد تقدم معنى المراودة وإنما نسب إليهن المراودة لأن كل واحدة منهن وقع منها ذلك كما تقدم .

ومن جملة من شمله خطاب الملك امرأة العزيز او أراد بنسبة ذلك إليهن وقوعه منهن في الجملة كما كان من امرأة العزيز تحاشياً عن التصريح منه بنسبة ذلك اليها لكونها امرأة وزيه وهو العزيز فأجيب عليه بقولهن ﴿قلن حاش لله﴾ أي معاذ الله تنزيهاً له عن ان يتصف بالعجز عن خلق بشر عفيف مثل هذا .

﴿ما علمنا عليه من سوء﴾ أي من أمر سيء ينسب اليه من خيانة في شيء من الأشياء وغير ذلك ولما علمت زليخا ان هذه المناظرات والتفحصات إنما هي بسببها فعند ذلك كشفت الغطاء وصرحت بما هو الواقع .

﴿قالت امرأة العزيز﴾ منزهة بجانبه مقرة على نفسه بالمراودة له ﴿الآن حصحص الحق﴾ أي تبين وظهر بعد خفائه وأصله حص حص فليل حصحص كما قيل في كبوا كبكبوا قاله الزجاج ، وأصل الحص استئصال الشيء يقال حص



شعره اذا استأصله والمعنى انه انقطع الحق عن الباطل بظهوره وبيانه ، وقيل هو مشتق من الحصاة والمعنى بان حصة الباطل .

قال الخليل : معناه ظهر الحق بعد خفائه ، وقال ابن عباس : تبين ، وعن مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد والسدي مثله .

ثم لما علمت ان يوسف عليه السلام راعى جانبها حيث قال : ما بال النسوة ولم يذكرها مع ان الفتن كلها إنما نشأت من جهتها ، كافأته على ذلك باعترافها بأن الذنب منها واوضحت ذلك بقولها ﴿أنا روادته عن نفسه﴾ ولم تقع منه المرادة لي أصلاً ﴿وإنه لمن الصادقين﴾ فيما قاله من تنزيه نفسه ونسبة المرادة اليها وأرادت بالآن زمان تكلمها بهذا الكلام فأخبر الرسول يوسف عليه السلام بجواب النسوة المذكورة فقال ﴿ذلك﴾ أي الحادثة الواقعة منه وهي تثبته وتأييه ، ذهب اكثر المفسرين الى أن هذا الكلام من كلام يوسف عليه السلام .

قال الفراء : ولا يبعد وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر إذا دلت القرينة الصارفة لكل منهما الى ما يليق به . وهذه هي المرة الثالثة من مرات مجيء الرسول ليوسف عليه السلام في السجن ، والمعنى فعلت ذلك ﴿ليعلم﴾ العزيز ﴿أني لم أخنه﴾ في أهله ﴿بالغيب﴾ والمعنى بظهر الغيب ، أي وهو غائب عني أو وأنا غائب عنه . قال الزمخشري : أي مكان الغيب وهو الخفاء والاستتار وراء الأبواب السبعة المغلقة .

قيل انه قال ذلك وهو في السجن بعد ان أخبره الرسول بما قالته النسوة وما قالته امرأة العزيز ، وقيل انه قال ذلك وقد صار عند الملك والأول أولى . وذهب الأقلون من المفسرين الى ان هذا كلام امرأة العزيز ، والمعنى ذلك القول الذي قلته في تنزيهه والاقرار على نفسي بالمرادة ليعلم يوسف عليه السلام اني لم أخنه فأنسب اليه ما لم يكن منه وهو غائب عني أو أنا غائبة عنه .

﴿وان الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ أي لا يشته ولا ينفذه ولا يمضيه ولا يسدده ، أو لا يهديهم في كيدهم حتى يوقعوه على وجه يكون له ما يثبت به ويدوم وإذا كان من قول يوسف عليه السلام ففيه تعريض بامرأة العزيز حيث وقع منه الكيد له والخيانة لزوجها ، وتعريض بالعزيز حيث ساعدها على حبسه بعد ان علم براءته ونزاهته ، ولعل المراد منه اني لو كنت خائناً لما خلصني الله من هذه الورطة ، وحيث خلصني منها ظهر اني كنت بريئاً مما نسبوني اليه ، ثم تواضع لله تعالى وتبارك فقال :

﴿وما أبرئ نفسي﴾ وهذا ان كان من كلام يوسف عليه السلام فهو من باب الهضم للنفس وعدم التزكية لها مع انه قد علم هو وغيره من الناس انه بريء وظهر ذلك ظهور الشمس وأقرت به المرأة التي ادعت عليه الباطل ، ونزته النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، وان كان من كلام امرأة العزيز فهو واقع على الحقيقة لأنها قد أقرت بالذنب واعترفت بالمرادة وبالافتراء على يوسف عليه السلام .

وقد قيل إن هذا من قول العزيز وهو بعيد جداً ، ومعناه وما أبرئ نفسي من سوء الظن بيوسف عليه السلام والمساعدة على حبسه بعد ان علمت براءته .

﴿إن النفس لأماراة بالسوء﴾ أي إن هذا الجنس من الأنفس البشرية شأنه الأمر بالسوء لميله الى الشهوات وتأثيرها بالطبع وصعوبة قهرها وكفها عن ذلك ﴿إلا ما رحم ربي﴾ أي إلا من رحم من النفوس فعصمها عن أن تكون أماراة بالسوء أو إلا وقت رحمة ربي وعصمته لها .

وقيل الاستثناء منقطع والمعنى لكن رحمة ربي هي التي تكفها عن أن تكون أماراة بالسوء ﴿إن ربي غفور رحيم﴾ تعليل لما قبلها . أي إن من شأنه كثرة المغفرة لعباده والرحمة لهم .

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتُونِي بِهِ <sup>٥٤</sup> أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ أَهْلَ مَنَّا حَيْثُ يَشَاءُ نُنِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُؤْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾

﴿وقال الملك اتوني به استخلصه لنفسي﴾ الملك هو الريان بن الوليد لا العزيز كما تقدم ، والمعنى أجعله خالصاً لي دون غيري وقد كان قبل ذلك خالصاً للعزيز ، والاستخلاص طلب خلوص الشيء من شوائب الشركه . قال ذلك لما كان يوسف عليه السلام نفيماً ، وعادة الملوك أن يجعلوا الاشياء النفيسة خالصة لهم دون غيرهم .

قال ابن عباس : فأتاه الرسول فقال : ألق عنك ثياب السجن والبس ثياباً جديداً وقم الى الملك ، فدعا له أهل السجن ودعا لهم وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة ، فلما أتاه رآه غلاماً حدثاً فقال : أيعلم هذا رؤيائي ولم يعلمها السحرة والكهنة ، واقعده قدامه وقال : لا تخف ، وألبسه طوقاً من ذهب وثياب حرير ، واعطاه دابة مسروجة مزينة كدابة الملك وضرب الطبل بمصر ان يوسف عليه السلام خليفة الملك .

وعنه قال : قال الملك ليوسف عليه السلام اني أحب ان تخالطني في كل شيء إلا في أهلي وأنا أنف ان تأكل معي ، فغضب يوسف عليه السلام فقال : أنا أحق أن أنف أنا ابن ابراهيم خليل الله وأنا ابن اسحاق ذبيح الله وأنا ابن يعقوب نبي الله ، وهذه هي المرة الرابعة من مجيء الرسول ليوسف عليه السلام في السجن .

﴿فلما كلمه﴾ في الكلام حذف وتقديره فأتوه به فلما كلمه أي الملك يوسف عليه السلام ويحتمل ان يكون المعنى فلما كلم يوسف عليه السلام الملك ، قيل والأول أولى لأن مجالس الملوك لا يتكلم فيها ابتداء إلا هم دون من يدخل عليهم ، وقيل الثاني الأولى لقول الملك ﴿قال إنك اليوم لدينا مكين أمين﴾ فإن هذا يفيد انه لما تكلم يوسف عليه السلام في الملك جاء بما حبه الى الملك وقربه من قلبه فقال له هذه المقالة ، ومعنى مكين أمين ذو مكانة وأمانة بحيث يتمكن مما يريد من الملك يأمنه الملك على ما يطلع عليه من أمره او على ما يكله اليه من ذلك .

وقيل المكانة المنزلة والجاه ، والمعنى قد عرفنا أمانتك ومنزلتك وصدقك وبرائك مما نُسب اليك ، ومكين كلمة جامعة لكل ما يحتاج اليه من الفضائل والمناقب في أمر الدين والدنيا واليوم ليس بمعيار لمدة المكانة والأمانة بل هو أن التكلم ، والمراد تحديد مبدئها احترازاً عن احتمال كونها بعد حين .

قيل انه لما وصل الى الملك أجلسه على سريره وقال له : إني أحب أن أسمع تأويل رؤياي منك ، فعبرها له بأكمل بيان وأتم عبارة ، فلما سمع الملك منه ذلك قال له : انك اليوم لدينا مكين أمين .

فلما سمع يوسف عليه السلام منه ذلك ﴿قال اجعلني على خزائن الأرض﴾ أي ولني أمر الأرض التي أمرها اليك ، وهي أرض مصر ، أو اجعلني على حفظ خزائن الأرض وهي الأمكنة التي تخزن فيها الأموال والطعام ، جمع خزينة وهي اسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء ، طلب يوسف عليه السلام منه ذلك ليتوصل به الى نشر العدل ، ورفع الظلم ويتوصل به الى دعاء أهل مصر الى الايمان بالله وترك عبادة الاوثان .

وفيه دليل على انه يجوز لمن وثق من نفسه اذا دخل في أمر من أمور السلطان ان يرفع منار الحق ويهدم ما أمكنه من الباطل ان يطلب ذلك

لنفسه ، ويمجوز له ان يصف نفسه بالأوصاف التي لها ترغيباً فيما يرومه وتنشيطاً لمن يخاطبه من الملوك بإلقاء مقاليد الأمور اليه وجعلها منوطة به .

ولكنه يعارض هذا الجواز ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من النهي عن طلب الولاية والمنع من توليه من طلبه أو حرص عليها ، وكان يوسف عليه السلام طلبه ابتغاء لوجه الله لا لحب الملك والدنيا وبهذا يجمع بينهما .

﴿اني حفيظ﴾ وهو الذي يحفظ الشيء أي اني حفيظ لما جعلته الي من حفظ الاموال لا أخرجها في غير مخرجها ولا أصرفها في غير مصارفها ﴿عليم﴾ بوجوه جمعها وتفريقها ومدخلها ومخرجها ومصالحها .

عن شيبه بن نعامه الضبي قال : يقول اجعلني على جميع الطعام اني حفيظ لما استودعني عليم بسنين المجاعة . وقيل حفيظ لما استودعني عليم لما وليتني ، وقيل حفيظ للحساب عليم أعلم لغة من يأتيني .

﴿وكذلك﴾ أي مثل ذلك التمكين العجيب ﴿مكننا ليوسف﴾ أي جعلنا له مكاناً ﴿في الأرض﴾ أي أرض مصر . روي انها كانت اربعين فرسخاً في اربعين والتمكين عبارة عن كمال قدرته ونفوذ أمره ونهيه حتى لا ينازعه منازع فيما يراه ويختاره وصار الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه في كل ما رأى وكان في حكم التابع وصار الناس يعملون على أمره ونهيه .

﴿يتبأ منها حيث يشاء﴾ أي ينزل منها حيث أراد بعد الضيق والحبس ويتخذه مباءة وهو عبارة عن كمال قدرته كما تقدم وكأنه يتصرف في الأرض التي أمرها الى سلطان مصر كما يتصرف الرجل في منزله ، وفي القصة ان الملك تَوَجَّه وختمه وولاه مكان العزيز وعزله فمات بعد ، فزوجه امرأته فوجدتها عذراء وولدت له ولدين وأقام العدل بمصر ودانت له الرقاب . قاله السيوطي .

وعن ابن زيد ان يوسف عليه السلام تزوج امرأة العزيز فوجدها بكرأ ، وكان زوجها عيناً ، وقد استدل بهذه الآية على انه يجوز تولي الأعمال من جهة السلطان الجائر بل الكافر لمن وثق من نفسه بالقيام بالحق ، وقد قدمنا الكلام مستوفى على هذا في قوله سبحانه ﴿ولا تركنوا الى الذين ظلموا﴾ قال مجاهد : ولم يزل يوسف عليه السلام يدعو الملك الى الاسلام ويتلطف به حتى اسلم الملك وكثير من الناس فذلك قوله ﴿وكذلك مكنا﴾ الخ .

﴿نصيب برحمتنا من نشاء﴾ من العباد فرحه في الدنيا بالإحسان اليه والانعام عليه وفي الآخرة بإدخاله الجنة وانجائه من النار ﴿ولا نضيع أجر المحسنين﴾ في أعمالهم الحسنة التي هي مطلوبنا منهم ، أي لا نضيع ثوابهم فيها ومجازاتهم عليها .

﴿ولا أجر الآخرة﴾ أي أجرهم في الآخرة ، وأضيف الأجر الى الآخرة للملابسة واللام للقسم وأجرهم هو الجزاء الذي يجازيهم الله به فيها وهو الجنة التي لا ينفذ نعيمها ولا تنقضي مدتها .

﴿خير للذين آمنوا﴾ بالله ﴿وكانوا يتقون﴾ الوقوع فيما حرمه عليهم ، والمراد بهم المحسنون الذين تقدم ذكرهم ، وفيه تنبيه على ان الاحسان المعتد به هو الإيمان والتقوى ، وفي الكلام إظهار في مقام الإضمار للتوصل الى وصفهم بالإيمان والتقوى بعد وصفهم بالإحسان .

﴿وجاء إخوة يوسف﴾ أي جاءوا الى مصر من أرض كنعان ليبتاعوا لما أصابهم القحط وكانوا عشرة ، وكان مسكنهم بالعربيات من أرض فلسطين ، والعربيات ثغور الشام وكانوا أهل بادية وشياه .

﴿فدخلوا عليه﴾ أي على يوسف عليه السلام وهو في مجلس ولايته ﴿فعرّفهم﴾ لقوة

فهمه وعدم مباينة أحوالهم السابقة لحالهم يومئذ لأنه فارقهم رجلاً قبيل بأول نظرة نظر اليهم عرفهم ، وقيل لم يعرفهم حتى تعرفوا اليه . قاله الحسن والأول أولى وهو ظاهر النظم القرآني ، وبه قال ابن عباس ومجاهد .

﴿وهم له منكرون﴾ لم يعرفوه لأنهم فارقوه صبيّاً يباع بالدرهم في أيدي السيارة بعد ان اخرجوه من الحب ، ودخلوا عليه الان وهو رجل عليه أبهة الملك ورونق الرياسة وعنده الخدم والحشم ، وقيل انهم أنكروه لكونه في تلك الحال على هيئة ملك مصر ولبس تاجه وتطوق بطوقه ، وقيل كانوا يعيدي العهد منه فلم يعرفوه .

قيل كان بين ان قذفوه بالحب وبين دخولهم عليه مدة اربعين سنة ؛ فلذلك أنكروه ، وقيل غير ذلك ، وكل واحد من هذه الأسباب مانع من حصول المعرفة فكيف وقد اجتمعت فيه ، ولما كان إنكارهم له مستمراً في حالتي المحضر والمغيب اخبر عنه بالجملة الاسمية بخلاف عرفانه عليه السلام .

﴿ولما جهزهم بجهازهم﴾ المراد به هنا أنه أعطاهم ما طلبوه من الميرة وما يصلحون به سفرهم من العدة التي يحتاجها المسافر ، يقال جهزت القوم تجهيزاً اذا تكلفت لهم جهاز السفر قال الازهري : القراء كلهم على فتح الجيم والكسر لغة جيدة . وقيل بالعكس .

وفي الآية تضمين ضمن جهاز معنى أكرم ، أي ولما أكرمهم بجهازهم أي بتحصيله لهم ، قيل حمل لكل واحد منهم بغيراً من الطعام وأكرمهم في النزول واحسن ضيافتهم ، وجميع ما فعله يوسف عليه السلام معهم في هذه القصة كان بالوحي كما قاله بعض المفسرين .

﴿قال اثتوني بأخ لكم من أبيكم﴾ يعني أخاه بنيامين الذي تقدم ذكره ،

وهو أخو يوسف لأبيه وأمه ، ولم يقل بأخيكم بالاضافة مبالغة في عدم تعرفه بهم ، ولذلك فرقوا بين مررت بغلامك وبغلام لك ، فإن الأول يقتضي عرفانك بالغلام وان بينك وبين مخاطبك نوع عهد ، والثاني لا يقتضي ذلك قاله الكرخي ، أو أقي باللام لانه كان أخاهم لأبيهم لا لأهم وهذا أحسن من الأول .

ولعله عليه السلام إنما قاله لما قيل من انهم سألوه عليه السلام حملاً زائداً على المعتاد لبنيامين فأعطاهم ذلك وشرطهم ان يأتوا به ، لا لما قيل من انه لما رأوه وكلموه بالعبرية .

قال لهم : من أنتم فيني أنكركم ؟

فقالوا له : نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار .

فقال لهم : لعلكم جئتم عيوناً .

فقالوا : معاذ الله نحن اخوة بنو أب واحد وهو شيخ كبير صديق نبي من الأنبياء اسمه يعقوب .

قال : كم انتم ؟

قالوا : كنا اثني عشر فذهب أخ لنا الى البرية فهلك وكان أحبنا الى أبينا .

فقال : كم أنتم ههنا ؟

قالوا : عشرة .

قال : فأين الحادي عشر ؟

قالوا : هو عند أبيه يتسلى به عن الهالك .



قال : فمن يشهد لكم أنكم لست عيوناً وان ما تقولون حق ؟

قالوا : نحن ببلاذ لا يعرفنا فيها أحد فيشهد لنا .

قال : فدعوا بعضكم عندي رهينا وأتوني بأخيكم من أبيكم وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى اصدقكم ، فاقترعوا فأصاب القرعة شمعون فخلفوه عنده إذ لا يساعده ورود الأمر بالإتيان به عند التجهيز ولا الحث عليه بإيفاء الكيل ولا الإحسان في الانزال ولا الاقتصار على منع الكيل على تقدير عدم الإتيان به ولا جعل بضاعتهم في رحالهم لأجل رجوعهم ولا عدتهم بالإتيان به بطريق المراودة ولا تعليلمهم عند أبيهم ارسال اخيهم بمنع الكيل من غير ذكر الرسالة ، على ان استبقاء شمعون لو وقع لكان ذلك طامة ينسى عندها كل قيل وقال .

ثم قال لهم ﴿ألا ترون أني أوف الكيل﴾ أي أتممه وجاء بصيغة الاستقبال مع كونه قال لهم هذه المقالة بعد تجهيزهم للدلالة على ان ذلك عادته المستمرة وغرضه ترغيبهم في العود اليه مرة أخرى ، ثم أخبرهم بما يزيدهم وثوقاً به وتصديقاً لقوله فقال :

﴿وأنا خير المنزلين﴾ أي والحال أنا خير لمن نزل بي كما فعلته بكم من حسن الضيافة وحسن الإنزال، قال الزجاج: قال يوسف عليه السلام ذلك حين انزلهم واحسن ضيافتهم، وقال ابن عباس: أنا خير من يضيف بمصر، قال الرازي: وهذا الكلام يضعف قول من يقول من المفسرين انه اتهمهم ونسبهم الى أنهم جواسيس ومن يشافههم بهذا الكلام فلا يليق به أن يقول لهم ألا ترون الخ ، وايضاً يبعد من يوسف عليه السلام مع كونه صديقاً أن يقول لهم ذلك مع أنه يعرف براءتهم من هذه التهمة لأن البهتان لا يليق بالصديق .

فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ، فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦١﴾ قَالُوا سُرُودٌ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِيلِيْنِهِ أَجْعَلُوا بِيضَعْنَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا بَنَاتَنَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَّكَتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾

ثم توعدهم إذا لم يأتوه به فقال ﴿فإن لم تأتوني﴾ إذا عدتم مرة أخرى ﴿به﴾ أي بأخيكم الذي من أبيكم ﴿فلا كيل لكم عندي﴾ أي فلا ابيعكم شيئاً فيما بعد فضلاً عن ايفائه ، واما في الحال فقد أوفاهم كيلهم ، وهذا نهاية التخويف لانهم كانوا محتاجين الى تحصيل الطعام ولا يمكن إلا من عنده فإذا منعهم من العود فقد ضيق عليهم .

﴿ولا تقربون﴾ أي لا تدخلوا بلادي فضلاً أن أحسن اليكم ، وقيل معناه لا انزلكم عندي كما أنزلتكم هذه المرة ولم يرد أنهم لا يقربون بلاده والمعنى لا تدنوا مني ولا تقربون مجزوماً على أن لا ناهية أو على انها نافية وهو معطوف على محل الجزاء داخل في حكمه كأنه قال فإن لم تأتوني به تحرموا ولا تقربوا ، فلما سمعوا منه ذلك وعدوه بما طلبه منهم .

﴿قالوا سُرود عنه أباه﴾ أي سنطلبه منه ونجتهد في ذلك ، بما نقدر عليه ، وقيل معنى المرادة هنا المخادعة منهم لأبيهم والاحتيال عليه حتى ينتزعه منه ﴿وإنا لفاعلون﴾ هذه المرادة غير مقصرين فيها ، وقيل معناه وانا لقادرون على ذلك لا نتعاني به ولا نتعاطمه .

﴿وقال﴾ يوسف ﴿لفتيته﴾ أي لغلمانه واتباعه ، قرأ به أهل المدينة وابو

عمرو وعاصم من رواية شعبة وابن عامر ، واختار هذه القراءة أبو حاتم والنحاس وغيرهما ، وقرأ سائر الكوفيين لفتيانه ، واختار هذه القراءة أبو عبيدة وبه قرأ ابن مسعود ، قال النحاس لفتيانه مخالف للسواد الاعظم ولا يترك السواد المجمع عليه لهذا الاسناد المنقطع .

وايضا فإن فتية أشبه من فتيان لأن فتية عند العرب لأقل العدد ، وأمر القليل بأن يجعلوا البضاعة في الرحال اشبه ، والجملته مستأنفة جواب سؤال كأنه قيل فما قال يوسف عليه السلام بعد وعدهم له بذلك فأجيب بأنه قال لفتيته .

قال الزجاج : الفتية والفتيان في هذا الموضع المماليك ، وقال الثعلبي : هما لفتان جيدتان مثل الصبية والصبيان .

قال الكرخي : وكلاهما جمع فتى كإخوة وإخوان جمع أخ ، الأول للقلة والثاني للكثرة قال البيضاوي وهم الكيالون .

﴿اجعلوا بضاعتهم﴾ المراد بالبضاعة هنا هي التي وصلوا بها من بلادهم ليشتروا بها الطعام وكانت نعلاً وأدماً ، وقال ابن عباس : اوراقاً .

﴿في رحالهم﴾ وكل لكل رحل واحداً من غلمانهم يدس فيه البضاعة التي اشتروا بها الطعام الذي في هذا الرحل ، والرحال جمع رحل وهي الأوعية التي يحمل فيها الطعام وغيره والمراد به هنا ما يستصحبه الرجل معه من الأثاث .

قال الواحدي : الرحل كل شيء معد للرحيل من وعاء للمتاع ومركب للبعير ومجلس ورسن انتهى . والمراد هنا الأوعية التي يجعلون فيها ما يمتارونه من الطعام .

قال ابن الأنباري : يقال للوعاء رحل وللبيت رحل ، فعل يوسف عليه السلام ذلك تفضلاً عليهم ، وقيل ليستعينوا بها على الرجوع إليه سريعاً لشراء الطعام ، وقيل ليرجعوا إليه مرة أخرى لعلمه أنهم لا يقبلون الطعام إلاّ بثمن قاله الفراء ، وجرى عليه الجلال .

وقيل انه خاف ان لا يكون عند أبيه شيء آخر من المال لأن الزمان كان زمان قحط وشدة وقيل اراد ان يحسن اليهم على وجه لا يلحقهم فيه منة ولا عيب وقيل اراد ان يريهم بزه وكرمه واحسانه اليهم ، وقيل اراد ان يكون ذلك عوناً لأبيه ولأخوته على شدة الزمان ، وقيل غير ذلك ، وقيل انه استقبح ان يأخذ من أبيه وأخوته ثمن الطعام .

ثم علل يوسف عليه السلام ما أمر به من جعل البضاعة في الرحال وهي معرفتهم لها فقال ﴿لعلهم يعرفونها﴾ أي بضاعتهم ﴿إذا انقلبوا﴾ رجعوا ﴿إلى أهلهم﴾ لأنهم لا يعلمون برد البضاعة اليهم الا عند تفريغ الاوعية التي جعلوا فيها الطعام وهم لا يفرغونها الا عند الوصول إلى أهلهم .

ثم علل معرفتهم للبضاعة المردودة اليهم المجعل في رحالهم بقوله ﴿لعلهم يرجعون﴾ الينا فانهم اذا عرفوا ذلك علموا انهم اخذوا الطعام بلا ثمن وان ما دفعوه عوضاً عنه قد رجع اليهم وتفضل به من وصلوا اليه عليهم ، نشطوا إلى العود ولا سيما مع ما هم فيه من الجذب الشديد والحاجة إلى الطعام وعدم وجوده لديهم ، فإن ذلك من أعظم ما يدعوهم إلى الرجوع ؛ وبهذا يظهر يوسف عليه السلام لم يرد البضاعة اليهم الا لهذا المقصود وهو رجوعهم اليه فلا يتم تعليل ردها بغير ذلك .

﴿فلما رجعوا إلى أبيهم﴾ قبل ان يشتغلوا بفتح المتاع ﴿قالوا يا أبانا﴾ قدمنا على خير رجل انزلنا واکرمنا كرامة عظيمة فقال لهم يعقوب إذا رجعتم إلى ملك مصر فاقراءوا عليه مني السلام وقلوا ان أبانا يدعو لك بما أوليتنا فقالوا ﴿منع منا الكيل﴾ وادادوا بهذا ما تقدم من قول يوسف عليه السلام :

﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي﴾ أي منع الكيل في المستقبل بعد هذه المرة وفيه دليل على ان الامتياز مرة بعد مرة معهود فيما بينهم وبينه ولعلمهم قالوا له بهذه المقالة قبل ان يفتحوا متاعهم ويعلموا برد بضاعتهم كما يفيد ذلك قوله فيما بعد ﴿فلما فتحوا متاعهم﴾ الآية .

ثم ذكروا له ما أمرهم به يوسف عليه السلام فقالوا ﴿فأرسل معنا أخانا﴾ بنيامين الى مصر ﴿نكتل﴾ بسبب ارساله معنا ما نريده من الطعام وهو مجزوم في جواب الامر. واصله نكتيل بوزن نغتنم ووزنه الان نقتل ، وبحسب الاصل نقتل قرأ سائر الكوفيين بالتحية ، واختار ابو عبيدة قراءة النون قال : ليكونوا كلهم داخلين فيمن يكتال ، وزعم انه اذا كان بالياء كان للاخ وحده أي يكتال اخونا بنيامين واعترضه النحاس بما حاصله ان استاد الكيل الى الاخ لا ينافي كونه للجميع والمعنى يكتال بنيامين لنا جميعاً ، والقراءتان سبعيتان ، قال الزجاج : أي ان ارسلته اكلتنا والا منعنا الكيل ﴿وإنا له﴾ أي لبنيامين ﴿لحافظون﴾ من ان يصيبه سوء أو مكروه .

﴿قال﴾ يعقوب لما قالوا له هذه المقالة ﴿هل آمنكم عليه إلا كما أمتكم على أخيه من قبل﴾ مستأنفة كما تقدم نظائر ذلك في مواضع كثيرة ، والمعنى أنه لا يأمنهم على بنيامين إلا كما آمنهم على أخيه يوسف عليه السلام وقد قالوا له في يوسف عليه السلام وإنا له لحافظون كما قالوا هنا ثم خانوه في يوسف عليه السلام فهو إن آمنهم في بنيامين خاف ان يخونوه كما خانوه في يوسف عليه السلام .

﴿فالله خير حافظاً﴾ منصوب على الحالية وقرىء حفظاً على التمييز ، ولعل هنا اضماراً والتقدير فتوكل يعقوب على الله ودفعه اليهم وقال فالله خير حافظاً والمعنى ان حفظ الله إياه خير من حفظهم له وانما ارسله معهم لانه لم يشاهد فيما بينهم وبين بنيامين من الحقد والحسد مثل ما شاهد بينهم وبين يوسف عليه السلام ، أو ان شدة القحط وضيق الوقت احوجه الى ذلك .

﴿وهو أرحم الراحمين﴾ فأرجو ان ينعم عليّ بحفظه ولا يجمع عليّ مصيبتين قيل لما وكل يعقوب حفظه الى الله سبحانه حفظه وارجمه اليه ، ولما قال في يوسف عليه السلام ﴿وأخاف ان يأكله الذئب﴾ وقع له من الامتحان ما وقع ، قال كعب : لما قال ذلك قال الله تعالى وعزتي وجلالي لأردن عليك كليهما .

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَنِي آدَمَ مَا نَبِغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفُظُ أَخَانَنَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّاءَ اتَّوهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾

﴿ولما فتحوا﴾ بحضرة ايهم ﴿متاعهم﴾ أي أوعية الطعام او ما هو أعم من ذلك مما يطلق عليه اسم المتاع سواء كان الذي فيه طعاماً او غير طعام ﴿وجدوا بضاعتهم﴾ التي حملوا الى مصر ليبتاروا بها وهي ثمن الطعام وقد تقدم بيانها ﴿ردت إليهم﴾ وجملة ﴿قالوا يا ابانا﴾ مستأنفة كما تقدم ﴿ما نبغي﴾ ما للاستفهام الانكاري ، والمعنى أي شيء نطلب من هذا الملك بعد ان صنع معنا ما صنع من الاحسان برّد البضاعة والاكرام عند القدوم اليه ، وتوفير ما اردناه من الميرة ، وارادوا بهذا الكلام تطيب قلب ايهم .

وقال قتادة : ما نبغي وراء هذا ، وقيل ان ما نافية أي ما نبغي في القول وما نزيد فيها وصفنا لك من احسان الملك الينا واکرامه لنا ، وقرىء بالفوقية خطابا ليعقوب أي أي شيء تطلب وراء هذا الاحسان أو أي شيء تطلب من الدليل على صدقنا .

ثم برهنوا على ما نفوه من التزيد في وصف الملك بقولهم ﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا﴾ فإن من تفضل عليهم برد ذلك حقيق بالثناء عليه منهم ، مستحق لما وصفوه به وهي جملة مقررة لما دل عليه الاستفهام من الانكار لطلب شيء مع كونها قد ردت اليهم .

﴿وغير أهلنا﴾ نجلب اليهم الميرة وهي الطعام يقال مار أهله يميرهم إذا حمل لهم الطعام وجلبه من بلد آخر اليهم ، والمائر الذي يأتي بالطعام ، وقرأ السلمي بضم النون ﴿ونحفظ أخانا﴾ بنيامين مما تخافه عليه ﴿ونزداد﴾ بسبب

إرساله معنا ﴿كَيْلٌ﴾ حمل ﴿بَعِيرٌ﴾ زائد على ما جئنا به هذه المرة لأنه كان يقال لكل رجل ومَرَّ بَعِيرٌ قال مجاهد حمل حمار وهي لغة، قال أبو عبيدة: يعني أن الحمار يقال له في بعض اللغات بَعِيرٌ.

﴿ذَلِكَ﴾ أي زيادة كيل بَعِيرٍ لِأَخِينَا ﴿كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ يسهل على الملك ولا يمتنع علينا من زيادته له لكونه يسيراً لا يتعاضمه ولا يضايقنا فيه ، وقيل ان المعنى ذلك المكيل لأجلنا قليل نريد ان ينضاف اليه حمل بَعِيرٍ لِأَخِينَا ، واختار الزجاج الاول ، وقيل ان هذا من كلام يعقوب جواباً على ما نزله أولاده ﴿وَنَزَادَ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ يعني ان حمل بَعِيرٍ شيء يسير لا يخاطر لأجله بالولد وهو ضعيف لأن جواب يعقوب هو :

﴿قَالَ لَنْ أَرْسَلَ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِي﴾ أي تعطوني ﴿مَوْثِقًا﴾ ما أثق به وأركن اليه ﴿مِنْ﴾ جهة ﴿اللَّهِ﴾ سبحانه وهو الحلف به والموثق العهد المؤكد باليمين ، وقيل هو المؤكد بإشهاد الله عليه ، واللام في ﴿لَتَأْتِنِي بِهِ﴾ جواب القسم أي تحلفوا بالله لتردن بنيامين أي لتأتني به ، والاستثناء بقوله ﴿إِلَّا أَنْ يَحَاطَ بِكُمْ﴾ مفرغ من أعم الأحوال لأن لتأتني به وان كان كلاماً مثبتاً فهو في معنى النفي فكأنه قال : لا تمنعون من إتياني به على حال إلا حال الاحاطة بكم أو من أعم العلل أي لعله من العلل إلا لعله الاحاطة بكم ، والاحاطة مأخوذة من أحاطه العدو ومن أحاط به العدو فقد غلب أو هلك .

تقول العرب : احيط بفلان اذا هلك او قارب هلاكه ، فأخذ يعقوب عليهم العهد بأن يأتوه ببنيامين الا ان يغلبوا عليه او يهلكوا دونه جميعاً فيكون ذلك عذراً لهم عنده .

﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أي أعطوه ما طلبه منهم من اليمين والعهد ﴿قَالَ﴾ : الله على ما نقول وكيل ﴿أَي﴾ قال يعقوب : الله على ما قلناه من طلبي الموثق منكم واعطائكم لي ما طلبته منكم مطلع رقيب لا يخفى عليه منه خافية فهو المعاقب لمن خاس في عهده وفجر في الحلف به ، أو موكل اليه القيام بما شهد عليه منا .

وَقَالَ يَبْنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ  
 مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أُلْحَمْتُمْ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾  
 وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا  
 حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَدُوْعٌ عَلِيمٌ لَمَّا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ  
 النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَأْوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي  
 أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

﴿وقال يابني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ لما تجهز أولاد يعقوب للسير الى مصر خاف عليهم أبوهم ان تصيبهم العين لكونهم كانوا ذوي جمال ظاهر ، وثياب حسنة مع كونهم أولاد رجل واحد ، فنهاهم ان يدخلوا مجتمعين من باب واحد ، لان في ذلك مظنة لإصابة العين لهم والعين حق فأمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة ، وكان لمدينة مصر يومئذ أربعة أبواب ، وقال السدي ؛ أراد الطرق لا الأبواب ولم يأمرهم بالتفرق في الكرة الاولى لأنهم كانوا مجهولين في الكرة الاولى .

ولم يكتف بقوله ﴿لا تدخلوا من باب واحد﴾ من قوله ﴿وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ لأنهم لو دخلوا من باين مثلاً كانوا قد امثلوا النهي عن الدخول من باب واحد ، ولكنه لما كان في الدخول من باين مثلاً نوع اجتماع يخشى معه ان تصيبهم العين ، أمرهم ان يدخلوا من أبواب متفرقة .

قال النخعي : أحب يعقوب أن يلقي أخاه في خلوة ، قيل وكان قد علم أن ملك مصر هو ولده يوسف عليه السلام إلا أن الله لم يأذن له في اظهاره ذلك ، فلما بعث أبناءه اليه قال لهم ذلك القول ، والاول أولى ، أعني أنه خاف عليهم العين ، وبه قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وجهور المفسرين .



وقد أنكر بعض المعتزلة كأي علي الجبائي واتباعه ان للعين تأثيراً انكاراً بليغاً ولم يذكروا في انكاره شبهة فضلاً عن حجة ، وليس هذا بمستنكر من هؤلاء فقد صار دفع أدلة الكتاب والسنة بمجرد الاستبعادات العقلية دأبهم وديندهم ، وأي مانع من اصابة العين بتقدير الله سبحانه لذلك .

وقد وردت الأحاديث الصحيحة بأن العين حق واصيب بها جماعة في عصر النبوة منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واعجب من انكار هؤلاء لما وردت به نصوص هذه الشريعة ما يقع من بعضهم من الإزراء على من يعمل بالدليل المخالف لمجرد الاستبعاد العقلي ، والتنطع في العبارات كالزغخشري في تفسيره ، فإنه في كثير من المواطن لا يقف على دفع دليل الشرع بالاستبعاد الذي يدعيه على العقل حتى يضم الى ذلك الوقاحة في العبارة على وجه يقع المقصرين في الاقوال الباطلة والمذاهب الزائفة .

وبالجملة فقول هؤلاء مدفوع بالأدلة المتكاثرة واجماع من يعتد به من هذه الأمة سلفاً وخلفاً ، وبما هو مشاهد في الوجود ، فكم من شخص من هذا النوع الانساني وغيره من أنواع الحيوان هلك بهذا السبب ، وقد اختلف العلماء فيمن عرف بالاصابة بالعين ، فقال قوم يمنع من الاتصال بالناس دفعاً لضرره بحبس أو غيره من لزوم بيته ، وقيل ينفى ، وأبعد من قال انه يقتل إلا اذا كان يتعمد ذلك ويتوقف اصابته على اختياره وقصده ولم ينزجر عن ذلك فإنه اذا قتل كان له حكم القاتل .

ثم قال يعقوب لأولاده ﴿وما أغنى عنكم من الله من شيء﴾ أي لا أدفع عنكم ضرراً ولا أجلب اليكم نفعاً بتدبيرى هذا بل ما قضاه الله عليكم فهو واقع لا محالة قال الزجاج وابن الأنباري : لو سبق في علم الله أن العين تهلكهم مع الاجتماع لكان تفرقهم كاجتماعهم .

وقال آخرون : ما كان يعني عنهم يعقوب شيئاً قط حيث أصابهم ما أصابهم مع تفرقهم من اضافة السرقة اليهم ، قال ابو السعود : ولم يرد عليه السلام الغاء الحذر بالمرّة ، كيف لا وقد قال تعالى ﴿ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة﴾ وقال تعالى ﴿خذوا حذرکم﴾ بل أراد بيان أن ما وصاهم به ليس مما يستوجب المراد لا محالة بل هو تدبير في الجملة ، وانما التأثير وترتب المنفعة عليه من العزيز القدير ، وان ذلك ليس بمدافعة للقدر بل هو استعانة بالله وهرب منه اليه . ثم صرح يعقوب بأنه لا حكم إلا لله سبحانه فقال ﴿إن الحكم إلا لله﴾ وحده لا لغيره ولا يشاركه فيه مشارك ﴿عليه﴾ لا على غيره ﴿توكلت﴾ أي اعتمدت ووثقت في كل ايراد واصدار ﴿وعليه﴾ لا على غيره ﴿فليتوكل المتوكلون﴾ على العموم ويدخل فيه أولاده دخولاً أولياً .

﴿ولما دخلوا﴾ المدينة ﴿من حيث أمرهم أبوهم﴾ أي من الابواب المتفرقة ولم يجتمعوا داخلين من باب واحد ، وجواب لما ﴿ما كان يعني عنهم﴾ ذلك الدخول أو رأي يعقوب واتباعهم له ﴿من الله﴾ أي من جهته ﴿من شيء﴾ من الاشياء مما قدره الله عليهم ، أي الذي اراد وقوعه فقد نسبوا للسرقة واخذ منهم بنيامين ، وتضاعفت المصيبة على يعقوب لأن الحذر لا يدفع القدر .

والاستثناء بقوله ﴿الا حاجة في نفس يعقوب قضاها﴾ منقطع ، والمعنى ولكن حاجة كانت في نفسه وهي شفقتة عليهم ومحبة لسلامتهم أظهرها يعقوب لهم ووصاهم بها غير معتقد ان للتدبير الذي دبره لهم تأثيراً في دفع ما قضاها الله عليهم ، وقيل أنه خطر ببال يعقوب أن الملك اذا رآهم مجتمعين مع ما يظهر فيهم من كمال الخلقة وسيما الشجاعة أوقع بهم حسداً وحقدأً وخوفاً منهم فأمرهم بالتفرق لهذه العلة .

وقد اختار هذا النحاس وقال لا معنى للمعين هنا ؛ وفيه ان هذا لو كان السبب لأمرهم بالتفرق لم يخص النبي عن ذلك بالاجتماع عند الدخول من

باب واحد لأن هذا الحسد أو الخوف يحصل باجتماعهم داخل المدينة كما يحصل باجتماعهم عند الدخول من باب واحد ، وقيل إن الفاعل في قضاها ضمير يعود الى الدخول لا الى يعقوب ؛ والمعنى ما كان الدخول يغني عنهم من جهة الله شيئاً ولكنه قضى ذلك الدخول حاجة في نفس يعقوب لوقوعه حسب ارادته .

﴿وانه﴾ أي وان يعقوب ﴿لذو علم﴾ جليل ﴿لما علمناه﴾ أي لتعليمنا بالوحي ونصب الأدلة حيث لم يعتقد ان الحذر يدفع القدر وان التدبير له حظ من التأثير حتى يتبين الخلل في رأيه عند تخلف الأثر ، وعلم أن ما قضاه الله سبحانه فهو كائن لا محالة وقيل غير ذلك ، وهذا أولى ، وفي تأكيد الجملة بأن واللام وتنكير العلم وتعليقه بالتعليم المسند الى ذاته سبحانه من الدلالة على جلالة شأن يعقوب عليه السلام وعلو مرتبة علمه وفخامته ما لا يخفى ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ بذلك كما ينبغي ، وقيل لا يعلمون ان الحذر مندوب اليه وإن كان لا يغني من القدر شيئاً والسياق يدفعه ، وقيل المراد بأكثر الناس المشركون .

﴿ولما دخلوا على يوسف﴾ أي في محل حكمه ﴿آوى﴾ ضم ﴿اليه أخاه﴾ بنيامين ، قيل أنه أمر بإنزال كل اثنين في منزل ، فبقي أخوه منفرداً فضمه اليه ﴿وقال اني أنا اخوك﴾ يوسف قال له ذلك سراً من دون أن يطلع عليه إخوته .

﴿فلا تبئس﴾ أي فلا تحزن ، والابتئاس اجتلاب الحزن والبؤس والضر والشدة ﴿بما كانوا يعملون﴾ إخوتك من الاعمال الماضية التي عملوها ، وقيل انه لم يخبره بأنه يوسف عليه السلام بل قال له اني أنا اخوك مكان أخيك يوسف عليه السلام فلا تحزن بما كنت تلقاه منهم من الجفاء حسداً وبغياً .

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ  
 إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧٢﴾ قَالُوا لَسَرِقُونَ  
 الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٣﴾ قَالُوا تَأَلَّه لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا  
 جِئْنَا بِالنَّفْسِ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ  
 كَاذِبِينَ ﴿٧٥﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي  
 الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾

وقيل أنه أخبره بما سيدبره معهم من جعل السقاية في رحله فقال لا أبالي  
 فدرس الصاع في رحله وهو المراد بالسقاية في قوله ﴿فلما جهزهم بجهازهم  
 جعل السقاية﴾ وأصلها المشربة التي كان الملك يشرب بها جعلت صاعاً يكال  
 به . وقيل كانت تسقى بها الدواب ويكال بها الحب ، وقيل كانت من فضة ،  
 وقيل من ذهب ، وقيل من زبرجد ، وقيل مرصعة بالجواهر ؛ وقيل غير ذلك ،  
 وقد تقدم تفسير الجهاز والرحل .

وعبر بالفاء هنا إشارة الى طلب سرعة سيرهم وذهابهم لبلادهم لأن  
 الغرض منه قد حصل ، وقد عرفت حالهم بخلاف المرة الأولى كان المطلوب  
 طول مدة اقامتهم ليتعرف الملك حالهم .

والمعنى انه جعل السقاية التي هي الصواع ﴿في رحل أخيه﴾ الذي هو  
 الوعاء الذي يجعل فيه ما يشتريه من الطعام من مصر ﴿ثم﴾ بعد ذلك  
 ﴿أذن﴾ نادى ﴿مؤذن﴾ منادٍ وأعلم معلم ، والأذان في اللغة الاعلام ، وكان  
 ذلك النداء مع رفع الصوت مراراً كثيرة بدليل التفعيل بعد انفصالهم عن  
 مجلس يوسف عليه السلام حتى انطلقوا وخرجوا من العمارة ، ثم ارسل  
 خلفهم من استوقفهم وحبسهم كما يشير له التعبير بضم التي للتراخي بل قيل  
 انهم وصلوا الى بليس وردوا من عندها .

﴿أيتها العير﴾ قال الزجاج : معناه يا أصحاب العير ، أي الإبل فهو مجاز مرسل علاقته المجاورة كما قاله السمين ، وفي المصباح العير بالكسر اسم للإبل التي تحمل الميرة في الأصل ثم غلب على كل قافلة ، انتهى .

وكل ما أمتير عليه من الإبل والحمير والبغال فهو عير ، قاله الهيثم ، وقيل قافلة الحمير . وقال أبو عبيدة : العير الإبل المرحولة المركوبة ، ثم كثرت ذلك في الاستعمال حتى قيل لكل قافلة عير لأنه يعير أي يذهب ويحيى .

﴿إنكم لسارقون﴾ نسبة السرقة اليهم على حقيقتها لأن المنادي غير عالم بما دبره يوسف عليه السلام . وقيل أن المعنى أن حالكم حال السارقين من كون الصواع صار لديكم من غير رضا من الملك ، وليس في القرآن ما يدل على أنهم قالوا ذلك بأمر يوسف عليه السلام ، وهو الأقرب الى ظاهر الحال ؛ لأنهم طلبوا السقاية فلم يجدوها ولم يكن هناك أحد غيرهم ، وغلب على ظنهم أنهم هم الذين أخذوها فقالوا ذلك بناء على غلبة ظنهم ؛ وقيل غير ذلك وهذا أولى .

﴿قالوا﴾ أي إخوة يوسف عليه السلام ﴿وأقبلوا عليهم﴾ أي حال كونهم مقبلين على من نادى منهم المنادي من أصحاب الملك ، أي التفتوا اليهم وخاطبواهم بقوله ﴿ماذا تفقدون﴾ أي ما الذي فقدتموه ، والفقْد غيبة الشيء عن الحس بحيث لا يعرف مكانه ، يقال فقدت الشيء اذا عدمته بضياح او نحوه ، فكأنهم قالوا ماذا ضاع عليكم وما استفهامية وصيغة المستقبل لاستحضار الصورة .

﴿قالوا﴾ في جوابهم ﴿نفقد صواع الملك﴾ وقرئ بالغين المعجمة وقرئ صوع وصياح وصاع ، وقال الزجاج : الصواع الصاع بعينه وهو يذكر ويؤنث وهو السقاية ، قال ابن عباس : كل شيء شربت منه فهو صواع وقيل الصواع

الذي يكال به وجمعه أصوع والصواع لغة فيه وجمعه صيعان وفيه قرآت كثيرة وهي ثمانية كلها لغات في هذا الحرف ، والمراد هنا آلة الكيل سماها تارة كذا وتارة كذا وإنما اتخذ هذا الإناء مكيالاً لعزة ما يكال به في ذلك الوقت .

﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾ من الطعام جعلاً له لا على نية تحقيق الوعد لجزمهم بامتناع ﴿وجود﴾ الشرط وعزمهم على ما لا يخفى من أخذ من وجد في رحله ، وهذا قول المؤذن وحده فهو الذي كفر وضمن والبعير الجمل ، وفي لغة بعض العرب أنه الحمار ؛ والمراد بالحمل ههنا ما يحمله البعير من الطعام .

ثم قال المنادي ﴿وأنا به﴾ أي بحمل البعير الذي جعل لمن جاء بالصواع قبل التفتيش للأوعية ﴿زعيم﴾ كفيل ، قاله ابن عباس أي بلسان أهل اليمن .

وعن سعيد بن جبير ومجاهد وقتادة والضحاك مثله ، ولعل القائل يفقد صواع الملك هو المنادي ، وإنما نسب القول الى الجماعة لكونه واحداً منهم ، ثم رجع الكلام الى نسبة القول الى المنادي وحده لأنه القائل بالحقيقة وهذه الآية تدل على أن الكفالة كانت صحيحة في شرعهم في ذلك الزمان .

﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض﴾ التاء بدل من واو القسم عند الجمهور، وقيل من الباء وقيل أصل بنفسها وأياً ما كان ففيه التعجب، ولا تدخل إلا على هذا الاسم الشريف دون سائر اسمائه سبحانه وقد دخلت نادراً على الرب وعلى الرحمن، والكلام على هذا مستوفى في علم الاعراب .

وجعلوا المقسم عليه هو علم يوسف واصحابه بنزاهة جانبهم وطهارة ذيلهم عن التلوث بقدر الفساد في الأرض الذي من أعظم أنواعه السرقة لأنهم قد شاهدوا منهم في قدومهم عليه المرة الأولى وهذه المرة من التعفف والزهد عما هو دون السرقة بمراحل ما يستفاد منه العلم الجازم بأنهم ليسوا ممن يتجارى على هذا النوع العظيم من أنواع الفساد ، ولو لم يكن من ذلك الا ردهم

لبضاعتهم التي وجدوها في رسلهم لكفى ، والمراد بالأرض هنا أرض مصر .  
ثم أكدوا هذه الجملة التي اقموا بالله عليها بقولهم : ﴿وما كنا سارقين﴾ لزيادة التبري مما قذفوهم به والتتزه عن هذه النقيصة الخسيسة الرذيلة الشنعاء .

﴿قالوا فما جزاؤه﴾ هذه جملة مستأنفة كما تقدم غير مرة في نظائرها ، والقائلون هم أصحاب يوسف عليه السلام او المنادي منهم وحده كما مر ، والضمير في جزاؤه للصواع على حذف مضاف أي فما جزاء سرقة الصواع عندكم او الضمير للسارق .

﴿إن كنتم كاذبين﴾ فيما تدعونه لأنفسكم من البراءة عن السرقة ؛ وذلك بأن يوجد الصواع معكم .

فأجاب إخوة يوسف عليه السلام ﴿قالوا جزاؤه﴾ أي جزاء سرقة الصواع أو جزاء سارق الصواع والتقدير جزاء السرقة للصواع أخذ ﴿من وجد في رحله﴾ واسترقاقه ، وتكون جملة ﴿فهو جزاؤه﴾ لتأكيد الجملة الأولى وتقريرها .

قال الزجاج : هو زيادة في البيان أي جزاؤه أخذ السارق فهو جزاؤه لا غير .

قال المفسرون : وكان حكم السارق في آل يعقوب أن يسترق سنة ثم يخل سبيله فلذلك استفتوهم في جزائه .

﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك الجزاء الكامل ﴿نجزي الظالمين﴾ لغيرهم من الناس بسرقة أمتعتهم ، وهذه الجملة مؤكدة لما قبلها إذا كانت من كلام اخوة يوسف عليه السلام ، ويجوز أن تكون من كلام أصحاب يوسف أي كذلك نحن نجزي الظالمين بالسرقة .

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَدِّهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا ظَلَمْنَا لَنَا إِذَا ظَلَمْنَا لَنَا

ثم لما ذكروا جزاء السارق ارادوا ان يفتشوا امتعتهم حتى يتبين الامر فاقبل يوسف عليه السلام على ذلك ﴿فبدأ بأوعيتهم﴾ يعني بتفتيش أوعية إخوته العشرة وقيل إن المنادي وأصحابه هم الذين تولوا تفتيشهم وهم الذين استخرجوا الصواع من رحل بنيامين ﴿قبل﴾ تفتيش ﴿وعاء أخيه﴾ بنيامين دفعا للتهمة ورفعاً لما دبره من الحيلة .

﴿ثم استخرجها﴾ أي السقاية أو الصواع لأنه يذكر ويؤنث ﴿من وعاء أخيه﴾ فنكس إخوة يوسف عليه السلام رؤوسهم من الحياء ولاموا بنيامين فأخذوه وردوه الى يوسف عليه السلام .

﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك الكيد العجيب ﴿كدنا﴾ أي دبرنا قاله القتيبي أو أردنا قاله ابن الأنباري ﴿ليوسف﴾ يعني علمناه إياه وأوحينا اليه واللام زائدة واليه نحا السيوطي .

وفي أبي السعود : ما يقتضي ان اللام للتعليل أي صنعنا له ودبرنا لأجل تحصيل غرضه من المقدمات التي رتبها من دس الصواع وما يتلوه والكيد مبدؤه



السعي في الحيلة والخديعة ونهايته إلقاء المخدوع من حيث لا يشعر في أمر مكروه لا سبيل الى دفعه ، وهو محمول في حق الله سبحانه على النهاية لا على البداية .

وقال ابن الأعرابي : الكيد التدبير بالباطل وبالحق ، وقيل الكيد هنا جزاء الكيد يعني كما فعلوا بيوسف عليه السلام في الابتداء فعلنا بهم وقيل غير ذلك والأول أولى ، وفي الآية دليل على جواز التوصل الى الأغراض الصحيحة بما صورته صورة الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف ذلك شرعاً ثابتاً .

﴿ما كان﴾ يوسف عليه اللام ﴿ليأخذ أخاه﴾ بنيامين ﴿في دين الملك﴾ أي ملك مصر وفي شريعته التي كان عليها بل كان دينه وقضاؤه أن يضرب السارق ويفرم ضعف ما سرقه دون الاستعباد سنة كما هو دين يعقوب وشريعته ؛ وحاصله أن يوسف ما كان يتمكن من اجراء حكم يعقوب على أخيه مع كونه مخالفاً لدين الملك وشريعته لولا ما كاد الله له ودبره وأراده حتى وجد السبيل إليه، وهو ما اجراه على ألسن اخوته من قولهم أن جزاء السارق الاسترقاق ، فكان قولهم هذا هو بمشيئة الله وتدبيره .

وهذه الجملة تعليل لما صنعه الله من الكيد ليوسف عليه السلام او تفسير له يعني ان ذلك الأمر كله كان الهاماً من أمر الله ليوسف عليه السلام واخوته حتى جرى الأمر على وفق المراد وهو معنى قوله ﴿إلا أن يشاء الله﴾ أي إلا حال مشيئته واذنه بذلك وإرادته له والاستثناء منقطع ، إذ الأخذ بدين الملك لا يشمل المراد به ، فالمعنى ولكن أخذه بشريعة يعقوب .

﴿ترفع درجات من نشاء﴾ بضروب العلوم والمعارف والعطايا والكرامات كما رفعنا درجة يوسف عليه السلام بذلك ؛ والآية على أن العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات لأن الله تعالى مدح يوسف عليه السلام ورفع درجته

على أخوته بالعلم ، وقرىء درجات بالاضافة والتنوين وهما سبعيتان .

﴿وفوق كل ذي علم﴾ ممن رفعه الله بالعلم من المخلوقين ﴿عليم﴾ أرفع رتبة منه وأعلى درجة لا يبلغون مداه ولا يرتقون شأوه ، وقيل معنى ذلك أن فوق كل أهل العلم عليم الى ان ينتهي العلم الى الله وهو سبحانه فوق كل عالم .

عن سعيد بن جبير قال : كنا عند ابن عباس فحدث بحديث ؛ فقال رجل عنده وفوق كل ذي علم عليم ، فقال ابن عباس : بش ما قلت ؛ الله العليم الخبير وهو فوق كل عالم .

وعن محمد بن كعب : سأل رجل علياً كرم الله وجهه عن مسألة فقال فيها ، فقال الرجل : ليس هكذا ولكن كذا وكذا ، فقال عليّ : أصبت واخطأت وفوق كل ذي علم عليم .

وعن عكرمة قال : علم الله فوق كل عالم ، قال ابن الأنباري : يجب أن يتهم العالم نفسه ويستشعر التواضع لمواهب ربه ولا يطمع نفسه بالغلبة لأنه لا يخلو عالم عن عالم فوقه ، وفي الآية دليل على أن اخوة يوسف عليه السلام كانوا علماء . وكان يوسف عليه السلام أعلم منهم .

﴿قالوا إن يسرق﴾ أي بنيامين الصواع ﴿فقد سرق أخ له من قبل﴾ يعنون يوسف عليه السلام وكان غرضهم من هذا الكلام إنا لسنا على طريقته ولا على سيرته ، بل هذا واخوه كانا على هذه الطريقة لانهما من أم أخرى غير أمنا ، وقال الخفاجي : أتوا بكلمة إن لعدم تحققهم له بمجرد خروج السقاية من رحله ، وأما قولهم إن ابنك سرق فبناء على الظاهر ، ويسرق للحكاية الحال الماضية .

والمعنى ان كان سرق فليس يبدع لسبق مثله من أخيه ، والعرق نزاع ،  
وقيل انهم جزموا بذلك وان لمجرد الشرط انتهى .

وقد اختلف المفسرون في هذه السرقة التي نسبوها الى يوسف عليه  
السلام ، ما هي فقيل انه كان ليوسف عليه السلام عمه هي أكبر من يعقوب وكانت عندها  
منطقة اسحاق لكونها أسن أولاده وكانوا يتوارثونها فيأخذها الأكبر سنأ  
من ذكر أو أنثى ، وكانت قد حضنت يوسف عليه السلام وأحبهت حباً شديداً ،  
فلما ترعرع قال لها يعقوب سلمي يوسف اليّ فأشفقت من فراقه واحتالت في  
بقائه لديها فجعلت المنطقة تحت ثيابه وحزمتها بها ، ثم قالت قد سرقت منطقة  
اسحق فانظروا من سرقها ، فبحثوا عنها فوجدوها مع يوسف عليه السلام  
فأخذته عندها كما هو شرع الأنبياء في ذلك الوقت من آل ابراهيم . ذكره  
محمد بن اسحاق ، وقد سبق بيان شريعتهم في السرقة .

وقيل ان يوسف أخذ صنماً كان لجدته أبي أمه فكسره ، وألقاه على الطريق  
تغيباً للمنكر فعيره بذلك اخوته ، وقد روى معناه عن ابن عباس مرفوعاً .  
وعن سعيد بن جبير وقتادة مثله غير مرفوع ، وقد روي نحوه عن جماعة من  
التابعين ، وحكى عن الزجاج انه كان صنماً من ذهب ، وقيل من فضة ، وقال  
عطية سرق في صباه ميلين من ذهب .

وعن ابن عباس سرق مكحلة لخالته ، وقيل كان في المنزل دجاجة  
فأعطاهم لسائل ، قاله سفيان بن عيينة ، وقيل كان يجبأ الطعام من المائدة  
للفقراء . قال ابن الأنباري : وليس في هذه الافعال كلها ما يوجب السرقة  
ولكنها تشبهها فعيره بها عند الغضب .

وحكى الواحدي عن الزجاج قال : الله أعلم أسرق أخ له أم لا ،  
وحكى القرطبي في تفسيره عنه انه قال ؛ كذبوا عليه فيما نسبوه اليه .

قلت وهذا أولى فما هذه الكذبة بأول كذباتهم ، وقد قدمنا ما يدفع قول من قال أنهم قد كانوا أنبياء عند صدور هذه الأمور منهم ، وفي البحر لابن المنير أن ما ذكر في تفسير الرقة تكلف لا يسوغ نسبة مثله الى بيت النبوة ولا الى أحد من الأشراف فالواجب تركه ، واليه ذهب مكِّي وفره بعضهم بأن يسرق فقد سرق مثله من بني آدم ، وذكر له نظائر في الحديث ، قال الخفاجي وهو كلام حقيق بالقبول .

قال الزجاج وغيره الضمير في ﴿فأسرها﴾ يعود الى الكلمة او الجملة كأنه قيل فأسر الجملة ﴿يوسف في نفسه ولم ييدها لهم﴾ ثم فرها بقوله ﴿قال أنتم شر مكاناً﴾ وقد رد أبو علي الفارسي هذا فقال : إن هذا النوع من الإضمار على شريطة التفسير غير مستعمل ؛ وعلى هذا يكون في الكلام رجوع الضمير على متأخر لفظاً ورتبة . وفيه أيضاً اطلاق الكلمة على الكلام ، والاول سائغ في مقام التفسير كما هنا . والثاني سائغ في اللغة .

وقيل الضمير عائد الى الاجابة أي أسر يوسف عليه السلام اجابتهم في ذلك الوقت الى وقت آخر . وقيل أسر في نفسه قولهم إن يسرق الخ . وهذا هو الاولى ويكون معنى ولم ييدها لهم انه لم ييد لهم هذه المقالة التي أسرها في نفسه بأن يذكر لهم صحتها وبطلانها .

وجملة : قال أنتم شر مكاناً مفسرة على القول الاول ومستأنفة على القولين الأخيرين كأنه قيل فماذا قال يوسف عليه السلام لما قالوا هذه المقالة ، أي انتم شر موضعاً ومنزلاً ممن نسبتموه الى الرقة ورميتموه بها وهو بريء فإنكم قد فعلتم ما فعلتم من إلقاء يوسف عليه السلام في الجب والكذب على أبيكم وغير ذلك من افاعيلكم ، ولم يكن من يوسف عليه السلام سرقة حقيقية .

ثم قال ﴿والله أعلم بما تصفون﴾ من الباطل بنسبة الرقة الى يوسف

عليه السلام وانه لا حقيقة لذلك . ثم أرادوا أن يستعطفوه ليطلق لهم أخاه بنيامين ويكون معهم ويرجعون به الى أبيهم لما تقدم من أخذه الميثاق عليهم بأن يردوه اليه ﴿قالوا يا أيها العزيز إن له﴾ أي لبنيامين هذا ﴿أباً﴾ متصفاً بكونه ﴿شيخاً كبيراً﴾ في السن لا يستطيع فراقه ولا يصبر عنه ولا يقدر على الوصول اليه ، وقيل كبيراً في القدر لأنه نبي من أولاد الأنبياء وفيه بعد ظاهر ، والأول أولى ﴿فخذ أحدنا مكانه﴾ يبقى لديك فإن له منزلة في قلب أبيه ليست لواحد منا ، فلا يتضرر بفراق أحدنا كما يتضرر بفراق بنيامين .

ثم عللوا ذلك بقولهم ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ الى الناس كافة، وإلينا خاصة فاتم إحسانك إلينا بإجابتنا الى هذا المطلب ، فأجاب عليهم يوسف و ﴿قال معاذ الله﴾ أي نعوذ بالله معاذاً فهو مصدر ، والمستعيز بالله هو المستعصم به ﴿أن﴾ أي من أن ﴿نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده﴾ وهو بنيامين لأنه الذي وجد الصواع في رحله فقد حل لنا استعباده بفتواكم التي أفتيتمونا بقولكم ﴿جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه﴾ ولم يقل « من سرق » تحمراً عن الكذب لأنه يعلم أن أخاه ليس بسارق .

وفيه جواز التوصل الى الأغراض بالحيل اذا لم تخالف شريعة ولا هدمت أصلاً ، ولعل الله أمر يوسف عليه السلام بذلك تشديداً للمحنة على يعقوب ، ونهاه عن العفو والصفح وأخذ البديل كما أمر صاحب موسى بقتل من لو بقي لطفى وكفر ، قاله ابن عادل في اللباب في علوم الكتاب . وجزم صاحب الكشاف بأن هذه الواقعة كانت بوحى كما مر مراراً ﴿إنا إذا﴾ أي إذا أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده ﴿لظالمون﴾ في دينكم وما تقتضيه فتواكم .

فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ  
 أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ  
 حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيُّكُمْ فَقُولُوا  
 يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ  
 حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَأَلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا  
 لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ  
 يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

﴿فلما استيسسوا منه﴾ أي يتسوا من يوسف وإجابته إياهم وإسعافهم منه  
 الى مطلبهم الذي طلبوه ، والسين والتاء للمبالغة ، قاله الزمخشري والبيضاوي .  
 قال ابن اسحاق أي أسوا منه ورأوا شدته في أمره .

قال أبو عبيدة : استيسسوا أي استيقنوا أن الأخ لا يرد عليهم ، وقيل  
 أسوا من أخيهم أن يرد اليهم ، والأول أولى .

﴿خلصوا نجياً﴾ أي انفردوا عن الناس واعتزلوا مجلسه وانحازوا على  
 حدة حال كونهم متاجين متحدثين فيما بينهم ليس فيهم غيرهم في التشاور في  
 أمر هذه القضية وهو مصدر يقع على الواحد والجمع كقوله ﴿وقربناه نجياً﴾ .

قال الزجاج : معناه انفردوا وليس معهم اخوهم متاجين فيما يعملون به  
 في ذهابهم الى أبيهم من غير أخيهم ، وقال قتادة وحدهم .

﴿قال كبيرهم﴾ قيل هو روبيل لأنه الأسن وهو الذي كان نهاهم عن  
 قتله وكان أكبر القوم في الميلاد قاله قتادة ، وقيل كبيرهم في العقل والعلم لا  
 في السن وقيل يهوذا لأنه الأوفر عقلاً .

وقيل شمعون لأنه رئيسهم ﴿الم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً﴾

أي عهدا ﴿من الله﴾ في حفظ ابنه ورده اليه ، ومعنى كونه من الله انه ياذنه ذكره النحاس وغيره .

﴿ومن قبل ما فرطتم في يوسف﴾ أي وألم تعلموا أن تفريطكم في أمر يوسف عليه السلام كائن من قبل تفريطكم في بنيامين أو من قبل أخذكم العهد في شأنه ، على ان ما مصدرية ، ويجوز ان تكون زائدة والأول أولى ، والمعنى قصرتم في شأنه ولم تحفظوا عهد أبيكم فيه .

﴿فلن أبرح الأرض﴾ يقال برح براحاً وبروحاً أي زال فإذا دخله النفي صار مثبتاً أي لن أبرح من أرض مصر بل ألزمها ولا أفارقها ولا أزال مقياً فيها على أن أبرح هنا تامة ﴿حتى يأذن لي أبي﴾ في مفارقتها والخروج منها بالعود اليه وإنما قال ذلك لأنه يستحي من أبيه أن يأتي اليه بغير ولده الذي أخذ عليهم الميثاق بإرجاعه اليه إلا أن يحاط بهم كما تقدم .

﴿أو يحكم الله لي﴾ بمفارقتها والخروج منها ، وقيل المعنى أو يحكم الله لي بخلص أخي من الأسر حتى يعود الى أبي وأعود معه ، وقيل المعنى أو يحكم الله لي بالنصر على من أخذ أخي فأجازيه وأخذ أخي منه أو أعجز فأنصرف بعد ذلك قال مجاهد : أقاتل بسيفي حتى أقتل ، وعن أبي صالح نحوه ﴿وهو خير الحاكمين﴾ لأن احكامه لا تجري إلا على ما يوافق الحق ويطابق الصواب ومراده بهذا الكلام الالتجاء الى الله في اقامة عذره الى والده يعقوب .

ثم قال كبيرهم مخاطباً لهم ﴿ارجعوا الى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق﴾ على البناء للفاعل وذلك لأنهم قد شاهدوا استخراج الصواع من وعائه ؛ وقرئ على البناء للمفعول .

قال الزجاج : ان سرق يحتمل معنيين أحدهما علم منه السرقة والآخر اتهم بالسرقة أمرهم بهذه المقالة مبالغة في ازالة التهمة عن أنفسهم عند أبيهم لأنهم كانوا متهمين عنده بسبب وقعة يوسف عليه السلام .

﴿وما شهدنا إلا بما علمنا﴾ من استخراج الصواع من وعائه ، وقيل

المعنى ما شهدنا عند يوسف عليه السلام بأن السارق يسترق إلا بما علمنا من شريعتك وشريعة آبائك ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ حتى يتضح لنا هل الأمر على ما شاهدناه أو على خلافه فإن الغيب لا يعلمه إلا الله فلعل الصواع دس في رحله ونحن لا نعلم بذلك .

وقيل المعنى ما كنا وقت أخذنا له منك ليخرج معنا إلى مصر للغيب حافظين بأنه سيقع منه السرقة الذي افتضحنا به ، وقيل الغيب هو الليل ومرادهم أنه سرقة وهم نيام وقيل مرادهم أنه فعل ذلك وهو غائب عنهم فخفى عليهم فعله . قال عكرمة : ما كنا نعلم أن ابنك يُسرق وعن قتادة نحوه ، وقال ابن عباس : ما كنا لليلة ونهاره ومجيئه وذهابه حافظين .

﴿واسأل﴾ أهل ﴿القرية التي كنا فيها﴾ أي قولوا لأبيكم أسأل القرية أي مصر ، قاله قتادة وابن عباس ، وقيل هي قرية من قرى مصر نزلوا فيها وامتاروا منها وجرى فيها حديث السرقة والتفتيش ، قال المفسرون : المراد أهلها ، وقيل المعنى وأسأل القرية نفسها ، وإن كانت جراداً فانك نبي الله والله سبحانه سينطقها فتجيبك .

وما يؤيد هذا أنه قال سيويه : لا يجوز كلم هنداً وانت تريد غلام هند ؛ قيل والأول أولى لأن مثل هذا النوع من المجاز مشهور في كلام العرب ، وتعقبه الحافظ ابن القيم في البدائع وقال إنما يضم المضاف حيث يتعين ولا يصح الكلام إلا بتقديره للضرورة كما إذا قيل أكلت الشاة فإن المفهوم من ذلك أكلت لحمها فحذف المضاف لا يلبس ونظائره كثيرة وليس منه قوله تعالى ﴿واسأل القرية﴾ وإن كان أكثر الأصوليين يمثلون به فإن القرية اسم للسكان في مسكن مجتمع فإنما تطلق القرية باعتبار الأمرين كالكأس لما فيه الشراب ، والذنوب للدلو الملائن ماء والخوان للمائدة إذا كان عليها طعام ونظائره .

ثم لكثرة استعمالهم هذه اللفظة ودورانها في كلامهم أطلقوها على السكان تارة وعلى المسكن تارة بحسب سياق الكلام وسباقه ، وإنما يفعلون



هذا حيث لا لبس ، فلا اضمار في ذلك ولا حذف فتأمل هذا الموضع الذي خفي على القوم مع وضوحه انتهى .

﴿والعير التي أقبلنا فيها﴾ أي أصحابها وكانوا قوماً معروفين من جيران يعقوب بمن كنعان ، حمل العير هنا إلى الدواب نفسها وهذا هو المعنى الحقيقي لها فاحتاج إلى تقدير المضاف وفيما سبق على المعنى المجازي وهو نفس أصحابها فاستغنى عن تقدير المضاف .

﴿وإنا لصادقون﴾ فيما قلنا ، جاءوا بهذه الجملة مؤكدة هذا التأكيد لأن ما قد تقدم منهم مع أبيهم يعقوب يوجب كمال الريبة في خبرهم هذا عند السامع ، وهذا آخر الكلام الذي علمه لهم أخوهم الكبير .

فلما قالوا هذا ليعقوب ﴿قال بل سولت﴾ زينت او خيلت ﴿لكم أنفسكم أمراً﴾ لا أصل له ، والأمر هنا قولهم ﴿إن ابنك سرق﴾ وما سرق في الحقيقة وقيل المراد بالأمر اخراجهم بنيامين والمضي به إلى مصر طلباً للمنفعة فعاد ذلك بالمضرة ، وقيل هذا الأمر فتياهم بأن السارق يؤخذ بسرقة ، والإضراب هنا هو باعتبار ما اثبتوه من البراءة لأنفسهم لا باعتبار أصل الكلام فإنه صحيح والجملة مستأنفة مبنية على سؤال مقدر كغيرها .

﴿فصبر جميل﴾ أي فأمرني صبر أو فصبر جميل أجمل بي وأولى لي ، والصبر الجميل هو الذي لا يبوح صاحبه بالشكوى بل يفوض أمره الى الله ويسترجع ، وقد ورد أن الصبر عند أول الصدمة .

﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً﴾ أي بيوسف عليه السلام واخيه بنيامين ، والأخ الثالث الباقي بمصر وهو كبيرهم كما تقدم ، وإنما قال هكذا على سبيل حسن الظن بالله عز وجل لأنه قد كان عنده أن يوسف عليه السلام لم يميت وانه باق على الحياة وإن غاب عنه خبره ، واذا اشتد البلاء وعظم كان أسرع الى الفرج قال تعالى ﴿سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ ﴿انه هو العليم﴾ بحالي ﴿الحكيم﴾ فيما يقضي به .

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُونُسَ مَا أَدْرَأْتَهُمْ وَيَبَيْضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ  
 كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُونَ تَدْكُرُوا يُونُسَ مَا حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ  
 مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِيَّ وَحُزِنِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مِنَ  
 اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَبْنِي أَدْهَبُوا فَتَحَسَبُوا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتَسُوا  
 مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾

﴿وتولى﴾ أي أعرض ﴿عنهم﴾ وقطع الكلام معهم حين بلغوه خبر  
 بنيامين ﴿و﴾ لما ساء حزنه واشتد بلاؤه وبلغ جهده وهاج غمه ﴿قال يا أسفا  
 على يوسف﴾ قال الزجاج الأصل يا أسفي فأبدل من الياء ألفا لخفة الفتحة ،  
 والأسف شدة الجزع ، وقيل شدة الحزن .

عن ابن عباس أي يا حزناً ، وعن قتادة مثله ، وعن مجاهد يا جزعاً .

قال يعقوب هذه المقالة لما بلغ منه الحزن غاية مبالغة بسبب فراقه  
 ليوسف عليه السلام وانضمام فراقه لأخيه بنيامين وبلوغ ما بلغه من كونه  
 أسيراً عند ملك مصر ، فتضاعفت احزانه وهاج عليه الوجد القديم بما أثاره  
 من الخبر الأخير .

وقد روي عن سعيد بن جبير أن يعقوب لم يكن عنده ما ثبت في  
 شريعتنا من الاسترجاع والصبر على المصائب ، ولو كان عنده ذلك لما قال يا  
 أسفاً على يوسف عليه السلام يعني ان الاسترجاع خاص بهذه الأمة ، ومعنى  
 المناداة للأسف طلب حضوره كأنه قال تعال يا أسفي وأقبل عليّ وفيه شكوى  
 إلى الله لا منه .

﴿وابيضت عيناه من الحزن﴾ أي انقلب سواد عينه بياضاً من كثرة

البكاء قيل أنه زال ادراكه بحاسة البصر بالمرّة ، قال مقاتل : لم يبصر شيئاً ست سنين ، والتزمه بعضهم بناء على جواز مثل هذا على الأنبياء بعد التبليغ .

وقيل كان يدرك ادراكاً ضعيفاً ، قال بعض أهل اللغة الحزن بالضم والسكون البكاء ويفتحين ضد الفرح ، وقال أكثر أهل اللغة هما لغتان بمعنى ، والبكاء بالمد رفع الصوت وبالقصر نزول الدمع من غير صوت وهو المناسب هنا وهو أحد قولين والذي جرى عليه المصباح والقاموس انه لا فرق بينهما في أن كُلاً يستعمل في كليهما .

وقد قيل في توجيه ما وقع من يعقوب عليه السلام من هذا الحزن العظيم المفضي إلى ذهاب بصره كُلاً او بعضاً أنه إنما وقع منه ذلك لأنه علم أن يوسف عليه السلام حيّ فخاف على دينه مع كونه بأرض مصر وأهلها حينئذ كفار ، وقيل ان مجرد الحزن ليس بمحرم وإنما المحرم ما يفضي منه الى الوله وشق الثياب والتكلم بما لا ينبغي .

قال ابو السعود : وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند النوائب فإن الكف من ذلك مما لا يدخل تحت التكليف فإنه قل من يملك نفسه عند الشدائد ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده ابراهيم وقال : تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب وإنا عليك يا ابراهيم لمحزونون انتهى .

ويؤيد هذا قوله ﴿فهو كظيم﴾ أي مكظوم فإن معناه أنه مملوء من الحزن ممسك له لا يثته ومنه كظم الغيظ وهو اخفاؤه فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه من كظم السقاء اذا سده على ما فيه والكظم بالفتح مخرج النفس ، يقال أخذ بأكظامه ، وقيل الكظيم بمعنى الكاظم أي المشتمل على حزنه المسك له ومنه والكاظمين الغيظ .

وقال الزجاج : معنى كظيم محزون ، وعن ابن عباس قال : كظيم حزين ، وعن قتادة قال ؛ كظم على الحزن وحزته في جوفه فلم يقل إلا خيراً ، وعن عطاء الخراساني ، قال مكروب ، وعن عكرمة مثله ، وعن الضحاك الكظيم الكمد ، وعن مجاهد نحوه .

قال الحسن : كان بين خروج يوسف عليه السلام من حجر أبيه الى يوم التقيا ثمانون سنة ولم تجف فيها عينا يعقوب ، وما على وجه الارض يومئذ أكرم على الله منه والله أعلم .

﴿قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف﴾ أي لا تفتؤ فحذف حرف النفي لعدم اللبس قال الفراء : أن لا مضمرة ، قال النحاس : والذي قاله صحيح ، وعن الخليل وسيبويه مثل قول الفراء ، قال الكسائي : فتأت وفتيت أفعل كذا أي ما زلت ، وعن ابن عباس تفتأ أي لا تزال تذكر يوسف عليه السلام ولا تفتّر عن حبه .

﴿حتى تكون حرصاً﴾ أي دنفاً من المرض ، قاله ابن عباس ، وقال قتادة : هرماً ، والحرص مصدر يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث والصفة المشبهة حرص بكسر الراء كدنتف ودفن ، وأصل الحرص الفساد في الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهرم ، حكى ذلك عن أبي عبيدة وغيره ، وقيل الحرص ما دون الموت ، وقيل الحارص البالي الدائر ، وقال الفراء : الحارص الفامد الجسم والعقل وكذا الحرص .

وقال المؤرج : هو الذائب من الهم ، ويقال رجل محرض ، قال النحاس : وحكى اهل اللغة أحرصه الهم إذا أسقمه ، ورجل حارص أي أحق ، وقال الأنخفش الحارص الذاهب ، وقال ابن الأنباري : هو الهالك ، وفي المصباح حرص حرصاً من باب تعب أشرف على الهلاك .

والأولى تفسير الحرض هنا بغير الموت والهلاك من هذه المعاني المذكورة لقوله ﴿أو تكون من الهالكين﴾ أي من الميتين ، قاله مجاهد ، وغرضهم منع يعقوب من البكاء والحزن والأسف شفقة عليه وإن كانوا هم سبب أحزانه ومنشأ همومه وغمومه .

﴿قال إنما أشكو بثي وحزني﴾ بضم الحاء وسكون الزاي وقرئ بفتحها ﴿إلى الله﴾ هذه الجملة مستأنفة كأنه قيل فما قال يعقوب لما قالوا له ما قالوا ، والبث ما يرد على الانسان من الأشياء التي تعظم حزن صاحبها حتى لا يقدر على اخفائها كذا قال أهل اللغة وهو مأخوذ من بثته أي فرقته ، فسميت المصيبة بثاً مجازاً . قال ابن قتيبة البث أشد الحزن .

وقد ذكر المفسرون أن الإنسان اذا قدر على كتم ما نزل به من المصائب كان ذلك حزناً وهماً ، وإن لم يقدر على كتمه وذكره لغيره كان ذلك بثاً ، فالبث على هذا أعظم الحزن وأصعبه ، وقيل البث الهم وقيل الحاجة وعلى هذا يكون عطف الحزن على البث واضح المعنى ، وأما على تفسير البث بالحزن العظيم فكأنه قال : إنما أشكو حزني العظيم وما دونه من الحزن القليل إلى الله لا إلى غيره من الناس ولا إليكم .

وعن مسلم بن يسار يرفعه قال : من بث لم يصبر ، ثم قرأ هذه الآية .  
اخرجه ابن جرير وعبدالرزاق . قال ابن عباس : بثي همي .

﴿وأعلم من الله﴾ أي من لطفه واحسانه وثوابه على المصيبة ﴿ما لا تعلمون﴾ انتم وانه يأتي بالفرج من حيث لا احتسب ، وقيل أراد علمه بأن يوسف عليه السلام حي لكنه لم يعرف أين هو ، وقيل أراد علمه بأن رؤياه صادقة وأب لأسجد له ، قاله ابن عباس ، وقيل أعلم من اجابة المضطرين الى الله ما لا تعلمون .

﴿يا بني اذهبوا فتحسبوا﴾ التحسب بمهمات طلب الشيء بالخواس مأخوذ من الحس أو من الاحساس ، أي اذهبوا فتعرفوا ﴿من﴾ خبر ﴿يوسف وأخيه﴾ بالحاسة كالبصر والسمع وتطلبوه ، وقرئ بالجيم وهو أيضاً التطلب وقيل بالخاء في الخير وبالجيم في الشر ومنه الجاسوس ، ومن هنا بمعنى عن لانه لا يقال تحسست من فلان بل عن فلان أو هي للتبعيض أي تحسبوا خبراً من أخبارهما ولم يقل أخويه لانه كان يعلم أن الثالث مقيم بمصر فليس حاله مجهولاً عنده بخلافها .

﴿ولا تيأسوا من روح الله﴾ أي لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه ورحمته .

قال الأصمعي : الروح ما يجده الانسان من نسيم الهواء فيسكن اليه ، والتركيب يدل على الحركة والهزة ، فكل ما يهتز الانسان بوجوده ويلتذ به فهو روح .

وحكى الواحدي عنه ايضاً الروح الاستراحة من غم القلب .

وقال أبو عمرو : الروح الفرج . وعن ابن زيد قال : من فرج الله يفرج عنكم الغم الذي أنتم فيه .

وقال ابن عباس : الروح الرحمة ، يعني انه استعير الروح للرحمة ، وقيل انه مصدر بمعنى الرحمة .

﴿إنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرين﴾ لكونهم لا يعلمون بقدرة الله سبحانه وعظيم صنعه وخفي أطفاه ، والمؤمن يصبر عند البلاء وينتظر الفرج والرحمة فينال به خيراً ويحمد الله عند الرخاء ، والكافر بضد ذلك .

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُرْجَلَةٍ  
 فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ  
 مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ  
 قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ  
 اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا  
 وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومٌ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ  
 وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾

﴿فلما دخلوا عليه﴾ أي على يوسف عليه السلام والتقدير فذهبوا كما أمرهم أبوهام إلى مصر ليتحسوا من يوسف عليه السلام وأخيه، فلما دخلوا على يوسف عليه السلام ﴿قالوا يا أيها العزيز﴾ أي الملك الممتنع القادر، وكان العزيز لقب ملك مصر يومئذ ﴿مسنا وأهلنا الضر﴾ أي الجوع والحاجة .

قال قتادة : الضر في المعيشة وعدلوا إلى الشكوى لأن المتحسر يتوصل إلى مطلوبه بجميع الطرق ، والاعتراف بالعجز وضيق اليد وشدة الحاجة مما يرقق القلب ، فقالوا نخبره بهذه الأمور فإن رقق قلبه لنا ذكرنا المقصود، والا شكونا . وفيه دليل على أنه يجوز الشكوى عند الضرورة إذا خاف من إصابته على نفسه، كما يجوز للعليل أن يشكو إلى الطبيب ما يجده من العلة .

وعبارة ابن السعود وإنما لم يبدءوا بما أمروا به استجلاباً للرفقة والشفقة ليعثوا بما قدموا من رقة الحال رقة القلب والحنو انتهى . وهذه المرة التي دخلوا فيها مصر هي المرة الثالثة كما يفيد ما تقدم من سياق الكتاب العزيز .

﴿وجئنا ببضاعة مزجاة﴾ البضاعة هي القطعة من المال يقصد بها شراء

شيء يقال أبضعت الشيء واستبضعته اذا جعلته بضاعة ، وفي المثل كمستبضع التمر إلى هجر ، والإجزاء السوق بدفع .

وقال الواحد في الإجزاء في اللغة السوق والدفع قليلاً قليلاً ، ومنه قوله تعالى ﴿ ألم تر أن الله يزوجي سبحاناً ﴾ والمعنى أنها بضاعة تدفع ولا يقبلها التجار .

قال ثعلب : البضاعة المزجاة الناقصة غير التامة . قال ابو عبيد : إنما قيل للدراهم الرديئة مزجاة لأنها مردودة مدفوعة غير مقبولة .

قال ابن عباس : دراهم مزجاة أي كاسدة ، وعنه أيضاً مزجاة رثة المتاع خلقة الحبل والغرارة والشيء ، وإيضاً الورق الزبوف التي لا تنفق حتى يوضع منها .

وفي القاموس زجاء ساقه ودفعه ومزجاة قليلة أو لا يتم صلاحها ، وفي المصباح زجيته بالثقل دفعته برفق .

واختلف في هذه البضاعة ما هي ، فقيل كانت قديداً وحيساً ، وقيل صوف وسمن ؛ وقيل الحبة الخضراء والسنوبر ، وقيل دراهم رديئة زبوف ، وقيل النعال والأدم ، ثم طلبوا منه بعد أن أخبروه بالبضاعة التي معهم أن يوفي لهم الكيل أي يجعله تاماً لا نقص فيه وأن يتصدق عليهم فقالوا :

﴿ فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ﴾ إما بزيادة يزيدا لهم على ما يقابل بضاعتهم أو بالاعراض عن رداءة البضاعة التي جاءوا بها وان يجعلها كالبضاعة الجيدة في إيفاء الكيل لهم بها ، وبهذا قال أكثر المفسرين ، وقد قيل كيف يطلبون التصدق عليهم وهم أنبياء والصدقة محرمة عليهم . وأجيب باختصاص ذلك بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن جريج : معنى قولهم أردد علينا أخانا . وبه قال الضحاك . وقال ابن الأنباري وكان الذي يسألونه من المسألة يشبه الصدقة لا نفس الصدقة .



﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ بما يجعله لهم من الثواب الأخروي أو التوسيع عليهم في الدنيا قال الضحاك : ولم يقولوا أن الله يجزيك لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن ولما قالوا ذلك لم يتمالك يوسف عليه السلام أن عرفهم نفسه حيث ﴿قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع ، وقد كانوا عاملين بذلك ولكنه أراد ما ذكرناه ويستفاد منه تعظيم الواقعة لكونه في قوة ما أعظم الأمر الذي ارتكبتم من يوسف عليه السلام واخيه ، وما أقبح ما أقدمتم عليه ، كما يقال للمذنب هل تدري من عصيت ، والذي فعلوه بيوسف عليه السلام هو ما تقدم مما قصه الله سبحانه علينا في هذه السورة .

وأما ما فعلوا بأخيه فقال جماعة من المفسرين هو ما أدخلوه عليه من الغم بفراق أخيه يوسف عليه السلام وما كان يناله منهم من الاحتقار والإهانة ولم يستفهم عما فعلوا بأبيهم يعقوب مع أنه قد ناله منهم ما قصه الله فيما سبق من صنوف الأذى .

قال الواحدي ؛ ولم يذكر أباه يعقوب مع عظم ما دخل عليه من الغم بفراقه تعظيماً له ورفعاً من قدره ، وعلمنا بأن ذلك كان بلاء له من الله عز وجل ليزيد في درجته عنده تعالى .

﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ نفى عنهم العلم وأثبت لهم صفة الجهل لأنهم لم يعملوا بما يقتضيه العلم ، وقيل انه أثبت لهم صفة الجهل لقصد الاعتذار عنهم وتخفيف الأمر عليهم ، فكأنه قال إنما أقدمتم على ذلك الفعل القبيح المنكر وقت عدم علمكم بما فيه من الإثم وقصور معارفكم عن عاقبته وما يترتب عليه ، أو أراد أنهم عند ذلك في أوان الصبا وزمان الصغر اعتذاراً لهم ودفعاً لما يدهمهم من الخجل والحيرة مع علمه وعلمهم بأنهم كانوا في ذلك الوقت كباراً ، وهذا الآية تصديق لقوله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ .

﴿قالوا أأنك لأنت يوسف﴾ قرىء بالاستفهام التقريري وبدونه ، وكان

ذلك منهم على طريق التعجب والاستغراب .

وقيل سبب معرفتهم له بمجرد قوله ﴿ ما فعلتم بيوسف وأخيه ﴾ أنهم لما قال لهم ذلك تنبهوا وفهموا أنه لا يخاطبهم بمثل هذا إلا هو ، وقيل إنه لما قال لهم هذه المقالة وضع التاج عن رأسه فعرفوه ، وقيل إنه تبسم فعرفوا ثناياه .

﴿ قال أنا يوسف ﴾ أجابهم بالاعتراف بما سألوه عنه ، قال ابن الأنباري : أظهر الاسم فقال أنا يوسف ولم يقل أنا هو تعظيماً لما وقع له من ظلم إخوته ، كأنه قال أنا المظلوم المستحل منه المحرم المراد قتله ، فاكتفى باظهار الاسم عن هذه المعاني وقال ﴿ وهذا أخي ﴾ مع كونهم يعرفونه ولا ينكرونه لأن قصده وهذا أخي المظلوم كظلمي ﴿ قد منَّ الله علينا ﴾ بالخلاص عما ابتلينا به ، وقيل منَّ الله علينا بكل خير في الدنيا والآخرة وقيل بالجمع بينا بعد التفرق وقيل بالسلامة في ديننا ودنيانا ولا مانع من إرادة جميع ذلك .

﴿ إنه من يتق ويصبر ﴾ قرىء بالجزم على أن من شرطية وقرىء بإثبات الياء في يتقي وقيل من موصولة لا شرطية وهو بعيد والمعنى من يفعل التقوى أو يفعل ما يتقيه من الذنوب ويصبر على المصائب ، وقيل يتقي الزنا ويصبر على العزوبة ، وقيل يتقي المعصية ويصبر على السجن ، وقيل يتقي الله بأداء فرائضه ويصبر عما حرم الله ، وقيل يتقي الفحشاء ويصبر على الطاعة والعموم أولى ، ولا وجه لتخصيص نوع دون نوع .

﴿ فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ على العموم فيدخل فيه ما يفيد السياق دخولاً أولياً وجاء بالظاهر وكان المقام مقام المضمرة أي أجرهم للدلالة على أن الموصوفين بالتقوى موصوفون بصفة الاحسان .

﴿ قالوا تالله لقد آثرك ﴾ اختارك وفضلك ﴿ الله علينا ﴾ بما خصك به من صفات الكمال أو بالعلم والعقل أو بالملك قاله الضحاك أو بالصبر قاله أبو صالح أو بالحلم والصفح أو بالحسن ، وقيل بالنبوة وقيل بسائر الفضائل التي أعطها الله له دون إخوته ، واللفظ أوسع من ذلك ويدخل فيه ما ذكر دخولاً

أولياً، وهذا اعتراف منهم بفضله وعظيم قدره قيل ولا يلزم من ذلك أن لا يكونوا أنبياء، فإن درجة الأنبياء متفاوتة قال الله تعالى ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾ ويستعار أثر للفضل والإيثار للفضل .

﴿وإن كنا لخطئين﴾ أي وإن الشأن كذلك ، قال ابو عبيدة : خطأ واخطأ واحداً ، وقال الازهري : المخطيء من اراد الصواب فصار الى غيره . ومنه قولهم المجتهد يخطيء ويصيب والخطاىء من تعمد ما لا ينبغي ، قالوا هذه المقالة المتضمنة للاعتراف بالخطأ والذنب استجلاباً لعفوه واستجداباً لصفحته ، وقيل أثر لفظ خاطئين على مخطئين موافقة لرؤوس الأي .

﴿قال لا تثريب﴾ التثريب التعبير والتوبيخ أي لا لوم ﴿عليكم اليوم﴾ قال الاصمعي : تثربت عليه قبحت عليه فعله ، وقال الزجاج : المعنى لا افساد لما بيني وبينكم من الحرمة وحق الاخوة ولكم عندي الصفح والعفو ، وأصل التثريب الإفساد وهي لغة أهل الحجاز ، وقال ابن الأنباري : معناه قد انقطع عنكم توبيخي عند اعترافكم بالذنب .

قال ثعلب : ثرب فلان على فلان إذا عدد عليه ذنوبه وأصل التثريب من الثرب وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش ، ومعناه إزالة التثريب كما أن التجليد والتقرع إزالة الجلد والقرع أي لا تثريب مستقر أو ثابت عليكم .

وقد جوز الأخفش الوقف على ﴿عليكم﴾ فيكون اليوم متعلقاً بالفعل الذي بعده وقد ذكر مثل هذا ابن الأنباري عن عكرمة قال لا تثريب لا تعبير ، واخرج أبو الشيخ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة التفت إلى الناس فقال ماذا تقولون وماذا تظنون فقالوا : ابن عم كريم فقال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم<sup>(١)</sup> .

ثم دعا لهم بقوله ﴿يغفر الله لكم﴾ على تقدير الوقف على اليوم وهو بمنزلة التعليل أو أخبرهم بأن الله قد غفر لهم ذلك اليوم على تقدير الوقف على

(١) أنظر كامل القصة في سيرة ابن هشام ٤/٥٤، ٥٥؛ طبعة مصطفى الباي الحلبي بمصر

عليكم ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ يرحم عباده رحمة لا يتراحمون بها فيما بينهم فيجازي محسنهم ويغفر لمسيئهم .

قال عطاء الخراساني : طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منها عند الشيوخ ألم تر إلى قول يوسف عليه السلام ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾ وقال يعقوب ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾ .

أقول وفي هذا الكلام نظر فإنهم طلبوا من يوسف عليه السلام أن يعفو عنهم لقولهم ﴿لقد آثرك الله علينا﴾ فقال ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾ لأن مقصودهم صدور العفو منه عنهم وطلبوا من أبيهم يعقوب أن يستغفر الله لهم وهو لا يكون إلا بطلب ذلك منه إلى الله عز وجل وبين المقامين فرق ، فلم يكن وعد يعقوب لهم بخلاً عليهم بسؤال الله لهم ولا سيما إذا صح ما تقدم من أنه أخر ذلك إلى وقت الإجابة فإنه لو طلبه لهم في الحال لم يحصل له علم بالقبول .

واخرج الحكيم الترمذي وأبو الشيخ عن وهب بن منبه قال : لما كان من أمر إخوة يوسف عليه السلام ما كان كتب يعقوب إلى يوسف عليه السلام وهو لا يعلم أنه يوسف عليه السلام بسم الله الرحمن الرحيم من يعقوب بن اسحاق ابن ابراهيم إلى عزيز آل فرعون سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو : أما بعد فإننا أهل بيت مولع بنا أسباب البلاء كان جدي ابراهيم خليل الله ألقى في النار في طاعة ربه فجعلها الله عليه برداً وسلاماً ، وأمر الله جدي أن يذبح له أبي<sup>(١)</sup> ففداه الله بما فداه، وكان لي ابن وكان أحب الناس إليّ ففقدته فأذهب حزني عليه نور بصري وكان له أخ من أمه كنت إذا ذكرته ضممته إلى صدري فأذهب على بعض وجدي وهو المحبوس عندك في السرقة وإني أخبرك لم أسرق، ولم ألد سارقاً، فلما قرأ يوسف عليه السلام الكتاب بكى وصاح وقال :

(١) الصحيح والقول الراجح أن الذبيح هو نبي الله إسماعيل وهو الابن الأكبر للخليل صلى الله عليه وسلم .

أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَنُوفٍ بِأَهْلِكُمْ  
 أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ  
 يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَفْنَدُونَ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَأَلَّهَ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

﴿اذهبوا بقميصي﴾ الباء للتعدية او اذهبوا معكم قميصي و ﴿هذا﴾ نعت له او بيان او بدل قيل هو القميص الذي ألبسه الله ابراهيم لما ألقى في النار وكساه ابراهيم اسحاق وكساه اسحاق يعقوب ، وكان يعقوب أدرج هذا القميص في قصب وعلقه في عنق يوسف عليه السلام لما كان يخاف عليه من العين ، فأخبر جبريل يوسف أن يرسل به إلى يعقوب ليعود عليه بصره لأن فيه ريح الجنة لا يقع على سقيم إلا شفي ، ولا مُبْتَلَىٰ إلا عوفي .

قال ابن عباس : ولو علم إخوته إذ ألقوه في الحب لأخذوه فلما أراد الله أن يرد يوسف عليه السلام على يعقوب وكان بين رؤياه وتعبيره أربعون سنة أمر البشير أن يبشره من ثمان مراحل فوجد يعقوب ريحه ، وليس يقع شيء من الجنة على عاهة من عاهات الدنيا إلا أبرأها بإذن الله .

﴿فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً﴾ المعنى يصير بصيراً على أن يأت هي التي من أخوات كان ، قال الفراء : يرجع بصيراً ، وقال السدي : يعود بصيراً ويشهد له ﴿فارتد بصيراً﴾ قيل كان ذلك بوحي الله وقيل بعث اليه قميصه ليزول بكاؤه وينشرح صدره ، قال يهوذا أنا أحمل قميص الشفاء كما ذهبت بقميص الجفاء قيل حمله وهو حاف حامر من مصر إلى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخاً وقيل معناه يأت إلى مصر وهو بصير قد ذهب عنه العمى .

ويؤيده قوله ﴿وأنوفٍ بأهلكم أجمعين﴾ أي جميع من شمله لفظ الأهل

من النساء والذراري ، قيل كانوا نحو سبعين وقيل ثلاثة وتسعين .

﴿ولما فصلت العير﴾ أي خرجت منطلقاً من عريش مصر أو من مصر الى الشام ، يقال فصل فصولاً وفصلته فصلاً لازم ومتعد . ويقال فصل من البلد فصولاً اذا انفصل عنه وخرج منه وجاوز حيطانه .

﴿قال أبوهم﴾ يعقوب لمن عنده في أرض كنعان من أهله ﴿اني لأجد ريح يوسف﴾ أي أدركها بحاسة الشم أي أشمها أي ريح الجنة من قميص يوسف عليه السلام ، فالإضافة لأدنى ملابس .

قيل إنها هاجت ريح فصفقت القميص ففاحت روائح الجنة في الدنيا فحملت ريح القميص إلى يعقوب مع طول المسافة فأخبرهم بما وجد . قال ابن عباس : وجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام ، وقيل من مسيرة عشرة أيام ؛ وقيل من مسيرة ثمانين فرسخاً .

ثم قال ﴿لولا أن تفندون﴾ أي لولا أن تنسبوني الى الفند وهو ذهاب العقل من الهرم ، يقال أفند الرجل اذا خرف وتغير عقله قاله مجاهد ، وقال ابو عبيدة : لولا أن تسفهون فجعل الفند السفه .

وقال الزجاج وابن عباس : لولا أن تجهلون فجعل الفند الجهل ، وقال ابو عمرو الشيباني : التفنيد التقيح ، وقيل هو الكذب ، قاله ابن عباس ، وقال ابن الاعرابي : لولا أن تضعفوا رأيي . وروى مثله عن ابي عبيدة ، وقال الأخفش : التفنيد اللوم وضعف الرأي .

وكل هذه المعاني راجع الى التعجيز وتضعيف الرأي ، يقال فنده تفنيداً إذا اعجزه التعجيز وافند إذا تكلم بالخطأ ، والفند الخطأ من الكلام . وعن الربيع

قال: لولا أن تحمقون، أخبرهم يعقوب بأن الصبا قد حملت إليه ريح حبيبه وأنه لولا ما يخشاه من التفنيد لما شك في ذلك:

فإن الصبا ريح اذا ما تنفت	على نفس مهموم تجلت همومها
اذا قلت هذا حين أسلو يهيجني	نسيم الصبا من حيث ما يطلع الفجر
ولقد تهب لي الصبا من أرضها	فيلد مس هبونها ويطيب

قيل إن ريح الصبا استأذنت ربها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف عليه السلام قبل ان يأتيه البشير .

قال أهل المعاني : إن الله أوصل اليه ريح يوسف عليه السلام عند انقضاء مدة المحنة من المكان البعيد ، ومنع من وصول خبره اليه مع قرب إحدى البلدين من الأخرى في مدة ثمانين سنة ، وذلك يدل على أن كل سهل فهو في مدة المحنة صعب ، وكل صعب فهو في زمان الاقبال سهل .

﴿قالوا﴾ أي قال الحاضرون عنده من أهله ﴿تالله إنك﴾ يا يعقوب ﴿لفي ضلالك﴾ ذهابك ﴿القديم﴾ عن طريق الصواب الذي كنت عليه قديماً من إفراط حبك ليوسف عليه السلام ورجاء لقائه على بعد العهد لا تنساه ولا تفتر عنه ، ولسان حال يعقوب يقول لهم :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده	ولا الصباة إلا من يعانيتها
لا تعذل المشتاق في أشواقه	حتى تكون حشاك في أحشائه

وقيل الضلال الجنون قاله سعيد بن جبير، وقيل أنك في محبتك القديمة ، قاله مجاهد ، وقال ابن عباس : في خطتك القديم ، قالوا له ذلك لأنه لم يكن قد بلغهم قدوم البشير وكان عندهم أن يوسف قد مات وهلك .

فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي  
 أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا بَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾  
 قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى  
 يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ  
 أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ  
 جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن  
 بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ  
 الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

﴿فلما أن جاء البشير﴾ بين يدي العير قال ابن عباس : البشير البريد ،  
 وعن الضحاك مثله ، قال المفسرون البشير هو يهوذا بن يعقوب قال لأخيه أنا  
 جئت بالقميص ملطخاً بالدم فأعطني اليوم قميصك لأخبره أنك حي فأفرحه كما  
 أحزنته وبه قال سفيان .

﴿ألقاه على وجهه﴾ أي ألقى البشير قميص يوسف عليه السلام على  
 وجه يعقوب أو ألقاه يعقوب على وجه نفسه ﴿فارتد﴾ الارتداد انقلاب الشيء  
 إلى حال قد كان عليها ، والمعنى عاد ﴿بصيراً﴾ ورجع إلى حالته الأولى من  
 صحة بصره وقوته وسروره . وعن الحسن قال : لما أن جاء البشير إلى يعقوب  
 فألقى عليه القميص قال على أي دين خلقت يوسف ؟ قال على الإسلام ، قال  
 الآن تمت النعمة .

﴿قال﴾ يعقوب لمن كان عنده من أهله الذين قال لهم إني لأجد ريح  
 يوسف عليه السلام ﴿ألم أقل لكم﴾ هذا القول فقلتم ما قلتم ، ويكون قوله  
 ﴿إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ كلاماً مبتدأ لا يتعلق بالقول ، ويجوز أن



تكون الجملة مقول القول ويريد بذلك إخبارهم بما قاله لهم سابقاً إنما أشكر  
بشي وحزني إلى الله ، والمعنى أعلم من الله ما لا تعلمون من حياة يوسف عليه  
السلام وأن الله يجمع بيننا .

﴿قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين﴾ طلبوا منه أن يستغفر  
لهم واعترفوا بالذنب ؛ وفي الكلام حذف والتقدير لما رجعوا من مصر ووصلوا  
إلى أبيهم ، قالوا هذا القول اعتذاراً عما حصل منهم فوعدهم بما طلبوه منه و  
﴿قال سوف استغفر لكم ربي﴾ قال الزجاج أراد يعقوب أن يستغفر لهم في  
وقت السحر لأنه أخلق بإجابة الدعاء لا أنه بخل عليهم بالاستغفار . قاله ابن  
مسعود .

وقال ابن عباس : أخرهم إلى السحر ، وكان يصلي لأن دعاء السحر  
مستجاب . واخرج ابن جرير وابو الشيخ عنه ايضاً قال : قال النبي صلى الله  
عليه وسلم في قصة «هو قول أخي يعقوب لبنيه سوف استغفر لكم ربي» ،  
يقول حتى تأتي ليلة الجمعة<sup>(١)</sup> .

قيل أخره إلى ليلة الجمعة لأنها اشرف الأوقات ، وقيل أخره إلى أن  
يستحل لهم من يوسف عليه السلام ولم يعلم انه قد عفا عنهم أو ليعرف حالهم  
في صدق التوبة ، وجملة ﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾ تعليل لما قبلها .

﴿فلما دخلوا على يوسف﴾ لعل في الكلام محذوفاً مقدراً وهو فرحل  
يعقوب وأولاده وأهله إلى مصر فلما دخلوا على يوسف عليه السلام وهم يومئذ  
اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة .

وقال مسروق : كانوا ثلاثة وسبعين ، قيل وكان دخولهم يوم عاشوراء ،

(١) ابن كثير ٢/٤٩٠ .

وكانوا حين خرجوا من مصر مع موسى ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعين رجلاً سوى الذرية والهرمي ، وكانت الذرية ألف ألف ومائتي ألف ، قاله القرطبي ، فقد بورك فيهم كثيراً حتى بلغوا هذا العدد في مدة موسى مع أن بينه وبين يوسف عليه السلام أربعمائة سنة كما في التحبير .

قال أبو هريرة : دخل يعقوب مصر في ملك يوسف عليه السلام وهو ابن مائة وثلاثين سنة وعاش في ملكه ثلاثين سنة ومات يوسف عليه السلام وهو ابن مائة وعشرين سنة ، قال أبو هريرة : وبلغني أنه كان عمر إبراهيم خليل الله مائة وخمسة وتسعين سنة .

﴿آوى إليه أبويه﴾ أي ضمهما وأنزلهما عنده ، قال المفسرون المراد بالأبوين هنا يعقوب وزوجته خالة يوسف عليه السلام لأن أمه قد ماتت في ولادتها لأخيه بنيامين ، وقيل أحى الله له أمه تحقيقاً للرؤيا حتى سجدت له ، وبه قال قتادة وسفيان بن عيينة .

قال الخازن : والأول هو المعتمد وهذا مبني على أنه تزوج راحيل في حياة اختها ليا ، قال الحفناوي وهذا قول ضعيف وأن الراجح أن ليا ماتت قبل أن يتزوج راحيل ، وعلى هذا فلعله كانت لهما اخت ثالثة تزوجها يعقوب بعدها وأدركت هذه القضية انتهى ، وقيل كانت أمه باقية فلا حاجة إلى التأويل وهو الأولى بظاهر النظم القرآني .

﴿وقال ادخلوا مصر﴾ أي للإقامة بها ﴿إن شاء الله آمين﴾ على أنفسكم وأهلكم مما تكرهونه من القحط وأصناف المكاره ، وقد كانوا فيما مضى يخافون ملوك مصر ولا يدخلونها إلا بجوار منهم ، وقيل والتقييد بالمشيئة عائد إلى الدخول مع الأمن ولا مانع من عوده إلى الجميع لأن دخولهم لا يكون إلا بمشيئة الله سبحانه كما أنهم لا يكونون آمين إلا بمشيئته .

وقيل إن التقيد بالمشيئة راجع إلى قوله عليه السلام: سوف استغفر لكم ربي، وهو بعيد جداً وظاهر النظم القرآني أن يوسف عليه السلام قال لهم هذه المقالة أعني ادخلوا مصر قبل دخولهم، وقد قيل في توجيه ذلك أنه تلقاهم إلى خارج مصر فوقف منتظراً لهم في مكان أو خيمة فدخلوا عليه فأوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر، فلما دخلوا مصر دخلوا عليه دخولاً آخر في المكان الذي له بمصر فهذا الدخول غير الأول.

ولمصر فضائل كثيرة ذكرها المقرئ في الخطط منها أن الله عز وجل ذكرها في كتابه العزيز بضعاً وعشرين مرة تارة بصريح الذكر وتارة إيماء وقال ابن عباس سميت مصر بالأرض كلها في عشرة مواضع من القرآن وقد جاء في فضل مصر أحاديث أوردها المقرئ في تاريخه، ومن أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر إلى مثلها في الدنيا فليتنظر إلى أرض مصر حين يخضر زرعها وتنور ثمارها ومن شاء أن يطلع على مواقع مصر ومجرباتها فعليه أن ينظر في الخطط وفي حسن المحاضرة للسيوطي.

﴿ورفع أبويه على العرش﴾ أي أجلسهما معه على السرير الذي يجلس عليه كما هي عادة الملوك قال ابن عباس: العرش السرير والرفع النقل إلى العلو ﴿وخروا﴾ أي الأبوان والاختوة ﴿له﴾ أي ليوسف عليه السلام ﴿سجداً﴾ وكان ذلك جائزاً في شريعتهم منزلاً منزل التحية، وقيل لم يكن ذلك سجوداً بل هو مجرد إيماء وانحناء وكانت تلك تحيتهم وهو يخالف معنى خروا له سجداً فإن الخرور في اللغة المقيد بالسجود لا يكون إلا بوضع الوجه على الأرض.

وقيل الضمير في له راجع إلى الله سبحانه أي وخروا لله سجداً وهو بعيد جداً وقيل إن الضمير ليوسف عليه السلام واللام للتعليل أي وخروا لأجله وفيه أيضاً بعد، قال عدي بن حاتم في الآية كانت السجدة تحية من كان قبلكم فأعطاكم الله السلام مكانها، وعن قتادة نحوه، وعن ابن زيد قال ذلك سجود تشرفه كما

سجدت الملائكة تشرفاً لأدم وليس سجود عبادة وكان ذلك بأمر الله لتحقيق رؤياه .

﴿وقال﴾ يوسف عليه السلام ﴿يا أبت هذا تأويل رؤياي﴾ التي تقدم ذكرها ﴿من قبل﴾ أي من قبل هذا الوقت في حال الصغر ﴿قد جعلها ربي حقاً﴾ أي صدقاً بوقوع تأويلها في اليقظة على ما دلت عليه قيل وكان بين الرؤيا والتأويل اربعون سنة أو ثمانون أو ست وثلاثون أو اثنتان وعشرون ، وقيل خمس وثلاثون ، وقيل سبعون حكى هذه الأقوال كلها ابن الجوزي والله أعلم كم كان بينها .

﴿وقد أحسن بي﴾ الأصل أن يتعدى فعل الإحسان بإلى وقد يتعدى بالباء كما في قوله وبالوالدين إحساناً ويقال بي وإلي بمعنى واحد ، وقيل انه ضمن احسن معنى لطف أي لطف بي محسناً ﴿اذ أخرجني من السجن﴾ بعدما ابتليت به ، ولم يذكر اخراجه من الجب ، لأن في ذكره نوع من تثريب وتخجيل للاخوة وقد قال ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾ وقد تقدم سبب سجنه ومدة بقائه فيه .

وقد قيل إن وجه عدم ذكر اخراجه من الجب أن المنة كانت في اخراجه من السجن أكبر من المنة في اخراجه من الجب لأن دخوله الجب كان بحسد اخوته ودخوله السجن بسبب تهمة المرأة فأخراجه من السجن كان لزوال التهمة عنه ، وكان ذلك من أعظم نعمه سبحانه عليه وفيه بعد وضعف ، وقيل لأن اخراجه من السجن كان سبباً لوصله الى الملك ، أو لأن مصيبة السجن عنده كانت أعظم لطول مدتها ولصاحبة الأوباش واعداء الدين فيه بخلاف مصيبة الجب لقصر مدتها ولكون المؤنس له فيها جبريل عليه السلام وغيره من الملائكة .

﴿وجاء بكم من البدو﴾ أي البادية أي ارض كنعان بالشام وكانوا أهل

مواشي وبرية فسكنوا البادية ، وقيل أن يعقوب عليه السلام تحول إلى البادية بعد النبوة لأن الله لم يبعث نبياً من البادية وأن المكان الذي كان فيه يعقوب يقال له بدا وفيه نظر والبدو هو البسيط من الأرض والبدو خلاف الحضرة والبادية خلاف الحاضرة ، قال الخفاجي البادية والبدو بمعنى ، قيل سميت به لأن ماقبها يبدو للناظر لعدم ما يواريه .

﴿من بعد أن نزع الشيطان بيني وبين اخوتي﴾ أي بعد أن أفسد بيننا وحمل بعضنا على بعض يقال نزع إذا نخسه وأصله من نخس الدابة ليقوى مشيها وأحال يوسف ذنب اخوته على الشيطان تكراً منه وتأديباً ﴿إن ربي لطيف﴾ قال الازهري : هو من أساء الله تعالى معناه الرفيق بعباده يقال لطف فلان بفلان إذا لطف إذا رفق به .

وقال عمرو بن أبي عمرو : اللطيف الذي يوصل اليك أَرْبَكَ<sup>(١)</sup> في لطف ، قال الخطابي ؛ اللطيف هو البر بعباده الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون ، وقيل اللطيف العالم بدقائق الأمور ، قال قتادة : لطف يوسف عليه السلام وصنع له حين أخرجه من السجن وجاء بأهله من البدو ونزع من قلبه نزع الشيطان وتحريشه على اخوته .

﴿لما يشاء﴾ أي لأجل ما يشاء حتى يجيء على وجه الصواب ﴿إنه هو العليم﴾ بأموره ﴿الحكيم﴾ في أفعاله .

(١) الإزْبَةُ، والأَرْبُ: الحاجة (بجمل اللغة لابن فارس / ٩٣؛ تحقيق زهير عبد المحسن سلطان، طبعة مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦ م.)

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (١٠١)  
 ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾  
 وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ  
 إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
 يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ  
 مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾

ولما أتم الله نعمته على يوسف عليه السلام بما خلصه من المحن العظيمة، وبما خوله من الملك وعلمه من العلم، تاقت نفسه إلى الخير الأخروي الدائم الذي لا ينقطع فقال ﴿رب قد آتيتني من الملك﴾ من للتبعض أي بعض الملك لأنه لم يؤت كل الملك، إنما أوتي ملكاً خاصاً وهو ملك مصر في زمن خاص، وقيل زائدة، وقيل لبيان الجنس، والملك عبارة عن الاتساع في الشيء المقدور لمن له السياسة والتدبير ولم يملك جميع أقطار الأرض إلا أربعة: اثنان مسلمان اسكندر وسليمان، واثنان كافران بختنصر وشداد بن عاد.

قلت وسيملك خامس وهو عيسى بن مريم حين ينزل من السماء إلى الأرض كما وردت به الأحاديث الصحيحة.

﴿وعلمتني من تأويل الأحاديث﴾ أي بعضها لأنه لم يعط جميع علم التأويل سواء أريد به مطلق العلم والفهم أو مجرد تأويل الرؤيا، وقيل من للجنس كما في قوله تعالى فاجتنبوا الرجس من الأوثان وقيل زائدة كما تقدم.

﴿فاطر السموات والأرض﴾ أي يا فاطرها أو منتصب بإضمار أعني أو على أنه صفة لرب أو بدل أو بيان، والفاطر الخالق والمنشئ والمخترع والمبدع

﴿أنت وليي﴾ أي ناصري ومتولي أموري ﴿في الدنيا والآخرة﴾ تتولاني فيهما .  
 ﴿توفني مسلماً﴾ أي على الاسلام لا يفارقني حتى أموت ، قيل إنه دعا  
 بذلك مع علمه بأن كل نبي لا يموت إلا مسلماً إظهاراً للعبودية والافتقار وشدة  
 الرغبة في طلب سعادة الخاتمة وتعليماً لغيره ، وهذه حالة زائدة على الاسلام  
 الذي هو ضد الكفر ؛ والمطلوب ههنا هو الاسلام بهذا المعنى ، قاله الرازي  
 والخطيب والكرخي .

قال ابن عباس : ما سأل نبي الوفاة غير يوسف عليه السلام اشتاق إلى لقاء  
 الله واحب أن يلحق به وبآبائه ، فدعا الله أن يتوفاه ﴿و﴾ قال ﴿الحقني  
 بال صالحين﴾ من النبيين من آبائي وغيرهم فأظفر بثوابهم منك ودرجاتهم  
 عندك ، قال الضحاك : يعني إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب ، وقال  
 عكرمة : يعني أهل الجنة .

قيل إنه لما دعا بهذا الدعاء توفاه الله عز وجل ولم يأت عليه اسبوع بعد  
 هذا الدعاء ، قيل كان عمره عند أن ألقى في الحب سبع عشرة سنة ، وكان  
 في العبودية والسجن والملك ثمانين سنة إلى قدوم ابيه يعقوب ، ثم عاش بعد  
 اجتماع شملهم حتى كمل عمره المقدار الذي سيأتي وتوفاه الله .

وليس في اللفظ ما يدل أنه طلب الوفاة في الحال ولهذا ذهب الجمهور  
 الى أنه لم يتمن الموت بهذا الدعاء في الحال وإنما دعا ربه أن يتوفاه على دين  
 الاسلام ويلحقه بال صالحين من عباده عند حضور أجله .

وقد عاش بعد ذلك سنين كثيرة وولد له من امرأة العزيز ثلاثة أولاد  
 إفرائيم وميشا ورحمة امرأة ايوب ، ولما مات دفنوه في أعلى النيل في صندوق من  
 رخام وقيل من حجارة المرمر لتعم البركة جانبيه ، فسبحان من لا انقضاء  
 ملكه ، فبقي اربعمائة سنة إلى أن أخرجه موسى وحمله معه حتى دفنه بقرب  
 آبائه بالشام في الأرض المقدسة فهو الآن هناك .

﴿ذلك﴾ المذكور من أمر يوسف أي قصته وما جرى له مع اخوته وما

صار اليه من الملك بعد الرق ﴿من أنباء الغيب﴾ أخباره ﴿نوحيه إليك﴾ خبر ثان ، قال الزجاج : ويجوز ان يكون ﴿ذلك﴾ بمعنى الذي أي الذي من أنباء الغيب نوحيه اليك والمعنى الاخبار من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن هذا الذي قصه عليه من أمر يوسف واخوته من الاخبار التي كانت غائبة عنه فأوحاه الله اليه واعلمه به ، ولم يكن عنده قبل الوحي شيء من ذلك .

وفيه تعريض ساطع بكفار قريش لأنهم كانوا مكذبين له صلى الله عليه وسلم بما جاء به جحوداً وعناداً وحسداً مع كونهم يعلمون حقيقة الحال، ودليل قاطع على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم لأنه كان أمياً بحتاً لم يقرأ الكتب ولم يلق العلماء ولم يسافر إلى غير بلده الذي نشأ فيه ، ومع ذلك أتى بهذه القصة الطويلة على أحسن تركيب وأفصح عبارة فعلم ان اتيانه بها بوحي من الله سبحانه وتعالى .

﴿وما كنت لديهم﴾ أي لدى إخوة يوسف وهو تعليل لكل من الخبرين ﴿إذ أجمعوا أمرهم﴾ إجماع الأمر العزم عليه أي إذ عزموا جميعاً على إلقائه في الجب ﴿وهم﴾ أي بنو يعقوب في تلك الحالة ﴿يمكرون﴾ بيوسف عليه السلام في هذا الفعل الذي فعلوه به ويبغونه الغوائل أو يمكرون يعقوب حين جاءوه بقميص ملطخاً بالدم وقالوا أكله الذئب .

وإذا لم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لديهم عند أن فعلوا ذلك انتفى علمه بذلك مشاهدة ولم يكن بين قوم لهم علم بأحوال الأمم السالفة ، ولا خالطهم ولا خالطوه ، فانتفى علمه بذلك بطريق الرواية عن الغير ، فلم يبق بعلمه بذلك طريق إلا مجرد الوحي من الله سبحانه فهذا يستلزم الايمان بما جاء به .

فلما لم يؤمن بذلك من عاصره من الكفار قال الله سبحانه ذاكراً لهذا ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت﴾ على هدايتهم وبالغت في ذلك ﴿بمؤمنين﴾ بالله لتصميمهم على الكفر الذي هو دين آبائهم ، يقال حرص يحرص مثل ضرب



يضرب وفي لغة ضعيفة مثل حمد بحمد ، والحرص طلب الشيء باجتهاد والاسم الحرص بكسر وحرص حرصاً من باب تعب لغة إذا رغب رغبة مذمومة .

وقال الزجاج : معناه ما أكثر الناس بمؤمنين ولو حرصت على ان تهديهم ، لأنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ، قال ابن الأنباري : ان قريشاً واليهود سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف واخوته فشرحها شرحاً شافياً وأتى بها على وفق ما عندهم في التوراة ، وهو يأمل أن يكون ذلك سبباً لإسلامهم ، فخالقوا ظنه ولم يسلموا فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك فعزاه الله بقوله وما أكثر الناس . الآية .

﴿وما تسألهم عليه﴾ أي على القرآن وما تتلوه عليهم منه أو على الإيمان وحرصك على وقوعه منهم أو على ما تحدثهم به من هذا الحديث ﴿من أجر﴾ من مال يعطونك إياه ويجعلونه لك كما يفعله أجهارهم ﴿إن هو﴾ أي القرآن أو الحديث الذي حدثهم به ﴿إلا ذكر للعالمين﴾ كافة قاطبة لا يختص بهم وحدهم وهذا كالتعليل لما قبله لان الوعظ العام ينافي أخذ الأجر من البعض .

﴿وكأين من آية﴾ قال الخليل وسيبويه ان كآين أصلها (أي) دخل عليها كاف التشبيه لكنه انمحق عن الحرفين المعنى الافرادي وصار المجموع باسم واحد بمعنى كم الخبرية التكثرية والأكثر ادخال من في عميزة وهو تمييز عن الكاف لا عن أي كما في مثلك رجلاً .

والمعنى كم من آية كائنة ﴿في السموات﴾ من كونها منصوبة بغير عمد مزينة بالكواكب النيرة السيارة والثوابت ﴿والأرض﴾ من جبالها وقفارها وبحارها ونباتها وحيواناتها تدلهم على توحيد الله سبحانه ، وأنه الخالق لذلك والرازق له المحيي المميت .

قال الضحاك : كم من آية في السماء ، يعني شمسها وقمرها ، ونجومها وسحابها ، وفي الأرض ما فيها من الخلق والأنهار والجبال والمدائن والقصور

ولكن أكثر الناس ﴿يمرون عليها﴾ أي على هذه الآيات غير متأملين لها ولا متفكرين فيها ولا ملتفتين إلى ما تدل عليه من وجود خالقها وأنه المتفرد بالالوهية مع كونهم مشاهدين لها ، وفي مصحف عبد الله يمشون عليها ، والمراد ما يرون فيها من آثار الأمم الهالكة وغير ذلك من الآثار والعبر .

﴿وهم عنها معرضون﴾ وان نظروا إليها بأعيانهم فقد أعرضوا عما هو الثمرة للنظر بالحدقة وهي التفكير والاعتبار والاستدلال .

﴿وما يؤمن﴾ أي ما يصدق ﴿أكثرهم﴾ أي أكثر الناس ﴿بالله﴾ من كونه الخالق الرازق المحيي المميت ﴿إلا وهم مشركون﴾ بالله يعبدون معه غيره .

أقول إن إيضاح ما تضمنه هذه الآية يتوقف على إيضاح ما ذكره أهل التفاسير المعتمدة وينحصر ذلك في وجوه اثني عشر ، وينضم إلى ذلك ما ذكرته أنا فيكون الوجوه ثلاثة عشر .

الوجه الأول: ان أهل الجاهلية كانوا يقرون بأن الله سبحانه خالقهم ورازقهم ويعبدون غيره من أصنامهم وطواغيتهم ، قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ، ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾ لكنهم كانوا يشبّون له شركاء فيعبدونهم ليقربوهم إلى الله كما قالوا ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ ومثل هؤلاء الذين اتخذوا أجبارهم أرباباً من دون الله . والمعتقدون في الأموات بأنهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه كما يفعله كثير من عباد القبور .

فهذا الاقرار الصادر منهم بأن الله عز وجل خالقهم ورازقهم هو يصدق عليه انه ايمان بالمعنى الاعم أي تصديق لا بالمعنى الاخص أعني ايمان المؤمنين ، فهذا الايمان الصادر منهم واقع في حال الشرك فقد آمنوا حال كونهم مشركين ، وإلى هذا الوجه ذهب جمهور المفسرين ، ولكنهم لم يذكرُوا ما ذكرناه

ههنا من تقريره بكونه ايماناً بالمعنى الأعم ولا بد من ذلك حتى يستقيم الكلام ويصدق عليه مسمى الإيمان .

الوجه الثاني : ان المراد بالآية المنافقون لأنهم كانوا يظهرون الايمان ويبطنون الشرك فما كانوا يؤمنون ظاهراً الا وهم مشركون باطناً . وروي هذا عن الحسن البصري .

الوجه الثالث : انهم أهل الكتاب يؤمنون بكتابتهم ويقلدون علماءهم في الكفر بغيره ويقولون المسيح ابن الله وعزير ابن الله ، فهم يؤمنون بما أنزل الله على أنبيائهم حال كونهم مشركين .

الوجه الرابع : ان المقصود بذلك ما كان يقع في تلبية العرب من قولهم ليك لا شريك لك الا شريكاً هو لك ، فقد كانوا في هذه التلبية يؤمنون بالله وهم مشركون . روي نحو ذلك عن ابن عباس .

الوجه الخامس : ان المراد بهذه الآية المراءون من هذه الأمة لان الرياء هو الشرك المشار اليه بقوله صلى الله عليه وسلم : «الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل»<sup>(١)</sup> فللمراءون آمنوا بالله حال كونهم مشركين بالرياء . وأخرج أحمد في المسند من حديث محمود بن لبيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «أن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال الرياء»<sup>(٢)</sup> ، يقول الله يوم القيامة : اذا جزى الناس بأعمالهم اذهبوا الى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء» .

الوجه السادس : ان المراد بالآية من نسي ربه في الرخاء وذكره عند الشدائد روى ذلك عن عطاء ، وفيه انه لا يصدق على ذلك انه آمن بالله حال كونه مشركاً الا أن يجعل مجرد نسيان الذكر والدعاء عند الرخاء شركاً مجازاً كأنه بنسيانه وتركه للدعاء قد عبد إلهاً آخر وهو بعيد، على انه لا يمكن

(١) صحيح الجامع الصغير / ٣٦٢٤ .

(٢) أحمد بن حنبل / ٥ - ٤٢٨ - ٤٢٩ .

اجتماع الأمرين لأنه حال الذكر والدعاء غير متصف بالنسيان وترك الذكر ، وقد تقرر أن الحال قيد في عاملها الا أن يعتبر بما كان عليه الشيء فإن ذلك أحد العلاقات المصححة للتجوز ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون﴾ .

الوجه السابع : أن المراد من أسلم من المشركين فإنه كان مشركاً قبل إيمانه حكم بذلك الحاكم في تفسيره وتقريره انه ما يؤمن أحدهم بالله الا وقد كان مشركاً قبل ايمانه والكلام فيه كالكلام في الوجه الذي قبله ، والجواب الجواب .

الوجه الثامن : ان المراد بالشرك ههنا ما يعرض من الخواطر والأحوال حال الايمان ، قاله الواسطي كما حكاه عنه البقاعي ، وفيه أن هذه الخواطر والأحوال ان كانت مما يصدق عليه الشرك الأكبر أو الأصغر فذاك وان كانت خارجة عن ذلك فهو فاسد .

الوجه التاسع : انهم الذين يشبهون الله بخلقه ، رواه الكشاف عن ابن عباس وتقريره انهم آمنوا بالله حال تشبيههم له بما يكون شركاً أو يؤول الى الشرك .

الوجه العاشر : هو ما تقوله القدرية من اثبات القدرة للعبد حكاه النسفي في مدارك التنزيل . وتقريره انهم آمنوا بالله حال اثباتهم ما هو مختص به لغيره وهو شرك أو منزل منزلة الشرك .

الوجه الحادي عشر : ما قاله محيي الدين بن عربي في تفسيره أن أكثر الناس انما يؤمنون بغير الله ويكفرون بالله دائماً ، ففي بعض الأحيان يشركون الله سبحانه مع ذلك الإله الذي هم مؤمنون به فلا يؤمن أكثرهم بالله الا حال كونه مشركاً ، وفيه أن ظاهر النظم القرآني ان الايمان بالله والشرك بتشريك غيره معه لا يكون الا بتشريكه مع غيره وبين المعنيين فرق .

الوجه الثاني عشر : ذكره ابن كثير في تفسيره ، وهو أن ثمة شركاً خفياً

لا يشعر به غالب الناس ممن يفعله ، كما روى عن حذيفة انه دخل على مريض يزوره فرأى في عضده سيراً فقطعه وانتزعه ثم قال : «وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون» وفي الحديث الذي رواه الترمذي وحسنه عن ابن عمر مرفوعاً «من حلف بغير الله فقد أشرك»<sup>(١)</sup> .

وأخرج أحمد وأبو داود من حديث ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ان الرقى والتمايم والتولة شرك»<sup>(٢)</sup> وفي لفظ لهما : الطيرة شرك وما منا الا . ولكن الله يذهبه بالتوكل .

وروى أحمد في المسند عن عدي بن عبد الرحمن قال دخلت على عبد الله ابن حكيم وهو مريض فقيل له لو تعلقت فقال أتعلق شيئاً ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من تعلق شيئاً وكل إليه»<sup>(٣)</sup> ، ورواه النسائي عن أبي هريرة .

وفي المسند عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من علق تيمة فقد أشرك»<sup>(٤)</sup> وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله (أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه)<sup>(٥)</sup> .

وروى أحمد وغيره من حديث غيره ؛ وفي المسند أيضاً من رده الطيرة من حاجة فقد أشرك قالوا يا رسول الله ما كفارة ذلك قال ان يقول أحدهم : «اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك»<sup>(٦)</sup> .

وأخرج أحمد من حديث أبي موسى قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه

(١) صحيح الجامع الصغير / ٦٠٨٠ .

(٢) صحيح الجامع الصغير / ١٦٢٨ .

(٣) ابن كثير ٤٩٤/٢ .

(٤) صحيح الجامع الصغير ٦٢٧٠ .

(٥) مسلم ٢٩٨٥ .

(٦) صحيح الجامع الصغير ٦١٤٠ .

وسلم ذات يوم فقال يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من ديب النمل ، ثم قالوا له كيف نجتنبه وهو أخفى من ديب النمل ؟ قال قولوا: «اللهم انا نعوذ بك ان نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه» وقد روي من حديث غيره<sup>(١)</sup> .

إذا عرفت ما تضمنته كتب التفسير من الوجوه التي ذكرناها وعرفت تقريرها على الوجه الذي قررناه فاعلم ان هذه الأقوال إنما هي اختلاف في سبب النزول وأما النظم القرآني فهو صالح لحملة على كل ما يصدق عليه مسمى الايمان مع وجود مسمى الشرك ، والاعتبار بما يفيد اللفظ لا بخصوص السبب كما هو مقرر في مواضعه .

فيقال مثلاً في أهل الشرك انه ما يؤمن أكثرهم بأن الله هو الخالق الرازق الا وهو مشرك بالله بما يعبد من الأصنام ، ويقال فيمن كان واقعاً في شرك من الشرك الخفي وهو من المسلمين انه ما يؤمن بالله إلا وهو مشرك بذلك الشرك الخفي ، ويقال مثلاً في سائر الوجوه بنحو هذا على التقرير الذي قررناه سابقاً ، وهذا يصلح ان يكون وجهاً مستقلاً وهو أوجهها وأرجحها فيما أحسب وان لم يذكره أحد من المفسرين .

فما قيل من انه يشكل وجود اتصافهم بالإيمان في حال تلبسهم بالشرك استشكال واقع موقعه ، وسؤال حال محله ، وجوابه قد ظهر مما سبق فإنه يقال مثلاً ان أهل الجاهلية كان ايمانهم المجامع للشرك هو مجرد الاقرار بأن الله هو الخالق الرازق وهو لا ينافي ما هم عليه من الشرك .

وكذلك يقال ان أهل الاسلام كان شرك من وقع منهم في شيء من الشرك الخفي الأصغر غير مناف لوجود الايمان منهم لأن الشرك الأصغر لا يخرج به فاعله عن مسمى الايمان ولهذا كانت كفارته ان يتعوذ بالله من ان يشرك وان يقول في الطيرة اللهم لا طير إلا طيرك ولا إله غيرك .

(١) احمد بن حنبل ٤٠٢/٤ .

أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَتَىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١٧﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْشَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢٠﴾

فقد صح بهذا انه اجتمع الايمان الحقيقي والشرك الخفي في بعض المؤمنين ، واجتمع الايمان بالمعنى الأعم والشرك الحقيقي في أهل الجاهلية ، وكذا يقال في أهل الكتاب انه اجتمع فيهم الإيمان بما أنزل الله على أنبيائهم والاشراك بجعل بعض المخلوقين أبناء لله عز وجل وهكذا في بقية الوجوه .

﴿أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله﴾ الاستفهام للانكار والغاشية ما يغشاهم ويغمرهم من العذاب كقوله يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم وقيل هي الساعة ، وقيل الصواعق والقوارع ، وقيل وقية تغشاهم ، قاله قتادة ، وقيل نعمة تشملهم ولا مانع من الحمل على العموم .

﴿أو تأتيهم الساعة بغتة﴾ أي فجأة من غير سابقه علامة والنصب على الحال قال المبرد جاء عن العرب حال بعد نكرة وهو قولهم وقع أمر بغتة يقال بغتهم الأمر بغتاً وبغتة إذا فاجأهم .

﴿وهم لا يشعرون﴾ باتيانها قيل تهيج الصيحة بالناس وهم في أسواقهم غير مستعدين لها .

﴿قل﴾ يا محمد للمشركين ﴿هذه﴾ الدعوة التي أدعو اليها والطريقة

التي أنا عليها ﴿سبيلي﴾ طريقتي وستي وفسر ذلك بقوله : ﴿أدعو إلى الله على بصيرة﴾ أي على حجة واضحة والبصيرة المعرفة التي يتميز بها الحق من الباطل ﴿أنا ومن اتبعني﴾ أي ويدعو إليها من اتبعني واهتدى بهديي ، قال الفراء : والمعنى ومن اتبعني يدعو إلى الله كما أدعو.

وفي هذا دليل على ان كل متبع لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حق عليه ان يقتدي به في الدعاء إلى الله أي الدعاء إلى الإيمان به وتوحيده والعمل بما شرعه لعباده ، قال ابن الأنباري : ويجوز ان يتم الكلام عند قوله أدعو إلى الله ، ثم ابتداء فقال على بصيرة أنا ومن اتبعني ، قال قتادة على بصيرة أي على هدى .

﴿و﴾ أسبح ﴿سبحان الله﴾ أي وأنزله تنزيهاً له عما لا يليق بجلاله من جميع النقائص والشركاء والاضداد والانداد ﴿وما أنا من المشركين﴾ بالله الذين يتخذون من دونه أنداداً .

﴿وما أرسلنا من قبلك﴾ هذا رد على من قال لولا أنزل عليه ملك أي لم نبعث من الأنبياء إلى من قبلهم ﴿إلا رجالاً﴾ لا ملائكة أي ليسوا من أهل السماء كما قلتم ، قاله ابن عباس ، فكيف ينكرون إرسالنا إياك ، وتدل الآية على ان الله سبحانه لم يبعث نبياً من السماء ولا من الجن ، وهذا يرد على من قال ان في النساء أربع نبيات حواء وآسية وأم موسى ومريم .

وقد كان بعثة الأنبياء من الرجال دون النساء أمراً معروفاً عند العرب حتى ، قال قيس بن عاصم في سجاح المنبثة :

أضحت نبيتنا اثني فطيف بها وأصبحت أنبياء الله ذكرانا  
فلعنة الله والأقوام كلهم على سجاح ومن باللوم أغرانا

﴿نوحى إليهم﴾ كما نوحى إليك، وقرىء بالياء مبنياً للمفعول ﴿من أهل القرى﴾ أي المدائن والأمصار دون أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على البدو



ولكون أهل الأمصار أتم عقلاً وأكمل حليماً وأحسن علماً وأجل فضلاً .

قال قتادة : ما نعلم ان الله أرسل رسولاً قط إلا من أهل القرى لأنهم كانوا أعلم وأحلم من أهل المعمور ، وقال الحسن : لم يبعث نبي من بدو ولا من الجن ولا من النساء .

﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾  
أفلم يسيروا هؤلاء المشركون المنكرون لنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فينظروا إلى مصارع الأمم الماضية فيعتبروا بهم وما حل بهم من عذاب الله حتى ينزعوا عما هم فيه من التكذيب . قال الحسن : أي كيف عذب الله قوم نوح وقوم لوط وقوم صالح والأمم التي عذبها .

﴿ولدار﴾ الساعة ﴿الآخرة﴾ أو الحالة الآخرة أو الحياة الآخرة على حذف الموصوف . وقال الفراء : إن الدار هي الآخرة ، وأضيف الشيء إلى نفسه لاختلاف اللفظ كيوم الجمعة وصلاة الأولى ومسجد الجامع ، والكلام في ذلك مبين في كتب الإعراب ، والمراد بهذه الدار الجنة ، وقرئ للدار الآخرة ﴿خير﴾ من دار الدنيا ﴿للذين اتقوا أفلا تعقلون﴾ على الخطاب ، وقرئ بالتحية أي يتفكرون ويعتبرون بهم فيؤمنوا .

﴿حتى﴾ غاية لمحذوف دل عليه الكلام ، وتقديره وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلا رجالاً ولم نعجلهم الذين لم يؤمنوا بما جاءوا به بالعقوبة حتى ﴿إذا استياس الرسل﴾ عن النصر بعقوبة قومهم ، أو حتى إذا استياسوا من إيمان قومهم لانهماكهم في الكفر ، وقدره القرطبي إلا رجالاً ثم لم نعاقب أمتهم حتى إذا ، وقدره ابن الجوزي إلا رجالاً فدعوا قومهم فكذبوهم وطال دعائهم وتكذيب قومهم حتى إذا ، وقدره الزمخشري إلا رجالاً فتراخى نصرهم حتى ؛ وأحسنها ما قدمته . وقال الواحدي : حتى هنا من حروف الابتداء يستأنف بعدها .

﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ قرأ جماعة من الصحابة وتابعيهم والكسايني والفراء بالتخفيف مبنياً للمفعول ، أي ظن القوم أن الرسل قد كذبوهم فيما أخبروا به من العذاب ولم يصدقوا .

وقيل المعنى ظن القوم أن الرسل قد كذبوا فيما ادعوا من النصر ، وقيل المعنى وظن الرسل أنها قد كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون عليهم أو كذبهم رجاؤهم النصر ، وقرأ الباقون كذبوا بالتشديد .

والمعنى عليها واضح ، أي ظن الرسل بأن قومهم قد كذبوهم فيما وعدوهم به من العذاب ، ويجوز في هذا أن يكون فاعل ظن القوم المرسل إليهم على معنى أنهم ظنوا أن الرسل قد كذبوا فيما جاءوا به من الوعد والوعيد ، وقرأ مجاهد وحيد قد كذبوا بالتخفيف معروفاً على معنى وظن قوم الرسل أن الرسل قد كذبوا . وقد قيل إن الظن في هذه الآية بمعنى اليقين لأن الرسل قد تيقنوا أن قومهم كذبوهم ، وليس ذلك مجرد ظن منهم ، والذي ينبغي أن يفسر الظن باليقين في مثل هذه الصورة ، ويفسر بمعناه الأصلي فيما يحصل فيه مجرد ظن فقط من الصور السابقة ، وقد أطال الخازن والخفاجي في بيان معنى هذه الآية بما ليس في ذكره كثير فائدة وفيها ذكرناه مقنع وبلاغ .

﴿جاءهم نصرنا﴾ أي فجاء الرسل نصر الله سبحانه فجأة أو جاء قوم الرسل الذين كذبوهم نصر الله لرسله بإيقاع العذاب على المكذبين .

وأخرج البخاري وغيره من طريق عروة أنه سأل عائشة عن قول الله سبحانه حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا قال : قلت أكذبوا أم كذبوا يعني هل هذه الكلمة مخففة أو مشددة؟ فقالت بل كذبوا تعني بالتشديد ، قلت والله لقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم فما هو بالظن ، قالت أجل لعمرى لقد استيقنوا بذلك فقلت لعلها وظنوا أنهم قد كذبوا مخففة ، قالت معاذ الله لم

تكن الرسل لتظن ذلك بربها قلت فما هذه الآية قالت هم أتباع الرسل الذين آمنوا بهم وصدقوهم وطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر حتى اذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك .

وقال ابن عباس : كذبوا مخففة يقول اخلفوا وكانوا بشراً حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ، قال عروة : عن عائشة أنها خالفت ذلك وأبته وقالت : والله ما وعد الله رسوله من شيء إلا علم انه سيكون قبل أن يموت ، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كذبوهم ، وكانت تقرأها مثقلة .

وعن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ مخففة أخرجها ابن مردويه من طريق عكرمة ، وعن ابن عباس ايضاً أنه كان يقرأ قد كذبوا مخففة وقال : يش الرسل من قومهم أن يستجيبيوا لهم وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم بما جاؤهم به جاؤوهم نصرنا أي الرسل ، وبها قرأ ابن مسعود قال : استيأس الرسل من ايمان قومهم أن يؤمنوا بهم وظن قومهم حين ابطاء النصر أنهم قد كذبوا ، وقال حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سورة يوسف أنهم قد كذبوا مخففة ، وللسلف في هذا كلام يرجع إلى ما ذكرناه من الخلاف عن الصحابة .

﴿فنجى من نساء﴾ من عبادنا عند نزول العذاب بالكافرين والذين نجاهم الله هم الرسل ومن آمن معهم وهلك المكذبون ﴿ولا يرد بأسنا﴾ أي عذابنا عند نزوله ﴿عن القوم المجرمين﴾ المشركين . قال ابن عباس : وذلك أن الله بعث الرسل يدعون قومهم فأخبروهم أن من أطاع الله نجا ، ومن أعرض عُذب وغوى ، وفيه بيان من يشاء الله نجاته من العذاب وهم من عدا هؤلاء المجرمين .

لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى  
وَلَكِنْ تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً  
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

﴿لقد كان في قصصهم﴾ أي قصص الرسل ومن بعثوا إليهم من الأمم  
أو في قصص يوسف عليه السلام وإخوته وأبيه قاله مجاهد ﴿عبرة﴾ هي الفكرة  
والبصيرة المخلصة من الجهل والحيرة ، وقيل هي نوع من الاعتبار وهي العبور  
من الطرف المعلوم إلى الطرف المجهول ﴿لأولي الألباب﴾ هم ذوو العقول  
السليمة الذين يعتبرون بعقولهم فيدرون ما فيه مصالح دينهم .

وإنما كان هذا القصص عبرة لما اشتمل عليه من الاخبارات المطابقة  
للواقع مع بعد المدة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين الرسل الذين قص  
حديثهم ومنهم يوسف عليه السلام وإخوته وأبوه مع كونه لم يطلع على  
أخبارهم ولا اتصل بأخبارهم ، وعبارة الكرخي وجه الاعتبار بقصصهم أنه  
قال في أول السورة ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ ثم قال وهنا لقد  
كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب وذلك تنبيه على أن حسن هذه القصة إنما  
هو لأجل حصول العبرة منها ومعرفة الحكمة والقدرة .

﴿ما كان﴾ هذا المقصوص الذي يدل عليه ذكر القصص أو القرآن  
المشتمل على ذلك المتقدم ذكره في قوله إنا أنزلناه قرآناً عربياً ﴿حديثاً يفترى﴾  
قال قتادة : القرية الكذب ﴿ولكن تصديق الذي بين يديه﴾ من الكتب المنزلة  
كالتوراة والانجيل والزبور ، وقيل هو تصديق ذلك كله ويشهد عليه أن جميعه  
حق من عند الله .

﴿وتفصيل كل شيء﴾ من الشرائع المجملة المحتاجة إلى تفصيلها لأن الله

سبحانه لم يفرط في الكتاب من شيء من الاحكام والحدود والقصص والمواعظ والأمثال وغير ذلك .

وقيل تفصيل كل شيء من قصة يوسف عليه السلام مع اخوته وأبيه وقيل وليس المراد به ما يقتضيه من العموم بل المراد به الأصول والقوانين وما يؤول اليها ، قال قتادة : فصل الله بين حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته ، وقيل ما من شيء من أمر ديني إلا وله مستند في القرآن بواسطة أو بغير واسطة .

﴿وهدى﴾ في الدنيا يهتدي به كل من أراد الله هدايته ﴿ورحمة﴾ في الآخرة يرحم الله بها عباده العاملين بما فيه بشرط الايمان الصحيح ولهذا قال ﴿لقوم يؤمنون﴾ اي يصدقون به وبما تضمنه من الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائعه وقدره ، وأما من عداهم فلا يتفجع به ولا يهتدي بما اشتمل عليه من الهدى فلا يستحق ما يستحقونه .



خاتمة الجزء السادس.

تم بعون الله الجزء السادس من فتح البيان في  
مقاصد القرآن ويليه الجزء السابع وأوله  
تفسير سورة الرعد.

الْمَرَّةَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ  
مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾





## فهرس الجزء السادس

- ٩ ..... ( سورة يونس )  
 قوله عز وجل : الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى  
 على العرش ..... ١١  
 قوله عز وجل : ما من شفيع الا من بعد إذنه ..... ١٣  
 قوله عز وجل : جعل الشمس ضياء والقمر نوراً .. لتعلموا عدد السنين  
 والحساب ..... ١٤  
 قوله عز وجل : ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ..... ٢٠  
 قوله عز وجل : واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً ..... ٢٤  
 قوله عز وجل : ثم جعلناكم خلائف في الأرض ..... ٢٨  
 قوله عز وجل : إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ..... ٣٠  
 قوله عز وجل : فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ..... ٣٢  
 قوله عز وجل : وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلقوا ولولا كلمة سبقت  
 من ربك ..... ٣٤  
 قوله عز وجل : وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا هم مكر  
 في آياتنا قل الله أسرع مكرأ ..... ٣٦  
 قوله عز وجل : حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة ..... ٣٧  
 قوله عز وجل : لئن أنجيتنا من هذه ل نكونن من الشاكرين ..... ٤٠  
 قوله عز وجل : متاع الحياة الدنيا ثم إنا مرجعكم فننبئكم بما كنتم

تعملون ..... ٤١

قوله عز وجل : إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط بنبات

الأرض ..... ٤٤

قوله عز وجل : أتاها أمرنا كأن لم تغن بالأمس ..... ٤٥

قوله عز وجل : للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ..... ٤٩

قوله عز وجل : ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ..... ٥٠

قوله عز وجل : ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم .. ٥١

قوله عز وجل : فكفى بالله شهيداً ..... ٥٤

قوله عز وجل : قل من يرزقكم من السماء والأرض أَمْنُ يملك السمع

والأبصار ..... ٥٦

قوله عز وجل : كذلك حققت كلمت ربك على الذين فسقوا أنهم لا

يؤمنون ..... ٥٨

قوله عز وجل : وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن

تصديق الذي بين يديه ..... ٦٢

قوله عز وجل : قل فاءتوا بسورة مثله ..... ٦٣

قوله عز وجل : بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ..... ٦٥

قوله عز وجل : وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أأنتم بريئون مما

أعمل ..... ٦٧

قوله عز وجل : إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ٦٩

قوله عز وجل : وإما نُزِّيْنُكَ بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ٧١

قوله عز وجل : قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً ، والعجب ممن

يعكفون على القبور ..... ٧٣

قوله عز وجل : قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بيئاً ..... ٧٦

قوله عز وجل : ويستنبئونك أحق هو ، قل إي وربي ..... ٧٨

قوله عز وجل : قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً

وحلالاً ..... ٨٢

- قوله عز وجل : الزجر عن التجري على الفتوى بالتقليد ..... ٨٥
- قوله عز وجل : وما تكون في شأن وما تلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك ..... ٨٦
- قوله عز وجل : ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، من هو الولي ..... ٨٩
- قوله عز وجل : وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ، إن يتبعون إلا الظن وان هم إلا يخرصون ..... ٩٤
- قوله عز وجل : هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً .. ٩٦
- قوله عز وجل : واتل عليهم نبأ نوح اذ قال لقومه يا قوم إن كان كبير عليكم مقامي ؛ فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثم افضوا إليّ ولا تنظرون ..... ٩٨
- قوله عز وجل : قالوا أجبثنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ، وبيان ان هذه الجملة لا زالت عند المقلدين ..... ١٠٤
- قوله عز وجل : فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيطله ..... ١٠٧
- قوله عز وجل : وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوأ لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة ..... ١١٠
- قوله عز وجل : ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم ..... ١١٠
- قوله عز وجل : قال آمنت أنه لا إله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل .. ١١٤
- قوله عز وجل : آلآن وقد عصيت قبل ..... ١١٤
- قوله عز وجل : فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ..... ١١٩
- قوله عز وجل : ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ..... ١٢٤
- قوله عز وجل : فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها الا قوم يونس ... ١٢٤
- قوله عز وجل : ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم ..... ١٢٦
- قوله عز وجل : وما كان لنفس أن تؤمن الا بإذن الله ..... ١٢٨
- قوله عز وجل : قل يا أيها الناس ان كنتم في شك في ديني فلا أعبد

- الذين تعبدون من دون الله ..... ١٣٠
- قوله عز وجل : ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ..... ١٣١
- قوله عز وجل : وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ..... ١٣٢
- (سورة هود) ..... ١٣٥
- قوله عز وجل : ألا انهم يشنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين  
يستغشون ثيابهم ..... ١٤٠
- قوله عز وجل : ويعلم مستقرها ومستودعها ..... ١٤٢
- قوله عز وجل : وكان عرشه على الماء ..... ١٤٤
- قوله عز وجل : ولكن أخرنا عنهم العذاب الى أمة معدودة ..... ١٤٦
- قوله عز وجل : فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك ، انما أنت نذير ... ١٤٩
- قوله عز وجل : من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم  
فيها ، وحبط ما صنعوا فيها ..... ١٥١
- قوله عز وجل : أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ..... ١٥٧
- قوله عز وجل : وما كان لهم من دون الله من أولياء ..... ١٦٢
- قوله عز وجل : ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربهم ،  
مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ... ١٦٤
- قوله عز وجل : ولقد أرسلنا نوحاً فقال الملائكة الذين كفروا من قومه ما  
نراك إلا بشراً سئلاً وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا  
بادي الرأي ..... ١٦٦
- قوله عز وجل : قول نوح لقومه : ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا  
أعلم الغيب ولا أقول اني ملك ولا أقول للذين تزدري  
أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً ..... ١٧١
- قوله عز وجل : واصنع الفلك بأعيننا ..... ١٧٤
- قوله عز وجل : حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور ..... ١٧٩
- قوله عز وجل : ونادى نوح ابنه وكان في معزل ..... ١٨٤
- قوله عز وجل : يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء

- واستوت على الجودي ، هل الطوفان عم جميع  
الأرض ؟ ..... ١٨٧
- قوله عز وجل : ونادى نوح ربه فقال رب ان ابني من أهلي ، قال يا نوح  
انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح ..... ١٨٧
- قوله عز وجل : فلا تسألن ما ليس لك به علم اني أعظك أن تكون من  
الجاهلين ..... ١٩٣
- قوله عز وجل : قال رب اني أعوذ بك أن أسأل ما ليس لي به علم والا  
تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين ، قيل يا نوح اهبط  
بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم  
سنمتعهم ..... ١٩٥
- قوله عز وجل : تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت  
ولا قومك ..... ١٩٨
- قوله عز وجل : وإلى عاد أخاهم هوداً ..... ١٩٨
- قوله عز وجل : يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الذي  
فطرني ..... ١٩٩
- قوله عز وجل : ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ..... ٢٠٢
- قوله عز وجل : وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم ..... ٢٠٢
- قوله عز وجل : والى ثمود أخاهم صالحاً ..... ٢٠٤
- قوله عز وجل : هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ..... ٢٠٥
- قوله عز وجل : ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فاعقروها فقال تمتعوا في  
داركم ثلاثة أيام ..... ٢٠٧
- قوله عز وجل : وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين  
كأن لم يغنوا فيها ..... ٢٠٨
- قوله عز وجل : ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى .. فما لبث أن جاء  
بعجل حنيذ ..... ٢٠٩
- قوله عز وجل : وامرأته قائمة فضحكت ..... ٢١٢

- قوله عز وجل : فلما ذهب عن ابراهيم الروح ..... ٢١٦
- قوله عز وجل : ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً ..... ٢١٧
- قوله عز وجل : وجاءه قومه يهرعون اليه .. قال يا قوم هؤلاء بناتي ... ٢١٩
- قوله عز وجل : انا رسل ربك لن يصلوا اليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ..... ٢٢٢
- قوله عز وجل : ولا يلتفت منكم أحد الا امرأتك انه مصيبها ما أصابهم ..... ٢٢٣
- قوله عز وجل : وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك ..... ٢٢٤
- قوله عز وجل : والى مدين أخاهم شعيباً ..... ٢٢٧
- قوله عز وجل : ولا تعثوا في الارض مفسدين ، بقية الله خير لكم ..... ٢٢٩
- قوله عز وجل : وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ، ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الا بالله ..... ٢٣٢
- قوله عز وجل : ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح ..... ٢٣٢
- قوله عز وجل : ولولا رهطك لرجمناك ..... ٢٣٤
- قوله عز وجل : ويا قوم اعملوا على مكانتكم ..... ٢٣٧
- قوله عز وجل : ولقد أرسلنا موسى بآياتنا .. الى فرعون وملكه ..... ٢٣٩
- قوله عز وجل : يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود ..... ٢٣٩
- قوله عز وجل : وبئس الرفد المرفود ذلك من أبناء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد ..... ٢٤١
- قوله عز وجل : فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله ..... ٢٤١
- قوله عز وجل : وما تؤخره الا لأجل معدود ، يوم يأت لا تكلم نفس الا بإذنه ..... ٢٤٤
- قوله عز وجل : فمنهم شقي وسعيد ، فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق ..... ٢٤٤
- قوله عز وجل : خالدين فيها ما دامت السموات والأرض الا ما شاء ، وفيه بحث في دوام أو عدم دوام النار ..... ٢٤٦

- قوله عز وجل : وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت  
 ٢٥٦ ..... السموات والأرض إلا ما شاء ربك
- قوله عز وجل : ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت  
 ٢٥٩ ..... من ربك لفضي بينهم
- قوله عز وجل : ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ، ومعنى الركون ويحث في  
 ٢٦٢ ..... طاعة السلاطين
- قوله عز وجل : وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل ..... ٢٦٧
- قوله عز وجل : فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن  
 ٢٦٧ ..... الفساد
- قوله عز وجل : واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه ..... ٢٦٨
- قوله عز وجل : ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين  
 ٢٧٣
- قوله عز وجل : الا من رحم ربك ولذلك خلقهم ..... ٢٧٤
- قوله عز وجل : وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس ..... ٢٧٤
- قوله عز وجل : وظيفة الرسل الأساسية وكونهم بشر ..... ٢٨٠
- قوله عز وجل : (سورة يوسف) ..... ٢٨٢
- قوله عز وجل : بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن  
 ٢٨٥ ..... الغافلين
- قوله عز وجل : يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً ..... ٢٨٧
- قوله عز وجل : قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك ..... ٢٨٨
- قوله عز وجل : وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث - لقد  
 ٢٩٠ ..... كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين
- قوله عز وجل : حسد إخوة يوسف ليوسف وقولهم اقتلوا يوسف ..... ٢٩٤
- قوله عز وجل : لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض  
 ٢٩٤ ..... السيارة
- قوله عز وجل : وأوحينا اليه لتبئتهم بأمرهم هذا ..... ٢٩٩
- قوله عز وجل : فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ..... ٣٠٠
- قوله عز وجل : وجاءوا على قميصه بدم كذب ..... ٣٠١

- قوله عز وجل : وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا  
 ٣٠٢ ..... غلام
- قوله عز وجل : وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ..... ٣٠٤
- قوله عز وجل : وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل  
 الأحاديث والله غالب على أمره ..... ٣٠٥
- قوله عز وجل : وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب  
 وقالت هيت لك ..... ٣٠٨
- قوله عز وجل : ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ..... ٣١٣
- قوله عز وجل : وقذت قميصه من دبر وألقيا سيدها لدى الباب ..... ٣١٧
- قوله عز وجل : قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد ..... ٣١٨
- قوله عز وجل : وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه  
 قد شغفها حباً ..... ٣٢٠
- قوله عز وجل : أرسلت اليهن وأعدت لهن متكأً ..... ٣٢٤
- قوله عز وجل : ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ..... ٣٢٨
- قوله عز وجل : ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه ..... ٣٣١
- قوله عز وجل : ودخل معه السجن فتيان وطلبا من يوسف تفسيرا رؤياهما ..... ٣٣٣
- قوله عز وجل : دعوة يوسف لأهل السجن الى التوحيد ..... ٣٣٥
- قوله عز وجل : تفسير يوسف لرؤياهما ..... ٣٣٨
- قوله عز وجل : وقال للذي ظن أنه ناج منها اذكرني عند ربك ..... ٣٤١
- قوله عز وجل : قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ..... ٣٤٥
- قوله عز وجل : وقال الملك أئتوني به استخلصه لنفسي ..... ٣٥٥
- قوله عز وجل : وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم ..... ٣٦٢
- قوله عز وجل : وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد ..... ٣٦٨
- قوله عز وجل : فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ..... ٣٧٢
- قوله عز وجل : قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ..... ٣٧٦
- قوله عز وجل : وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف ..... ٣٨٦



- قوله عز وجل : فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر . . ٣٩١
- قوله عز وجل : اذهبوا بقميصي هذا وألقوه على وجه أبي . . . . . ٣٩٧
- قوله عز وجل : ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً . . . . . ٤٠٠
- قوله عز وجل : ذلك من أنباء الغيب توحيه إليك . . . . . ٤٠٦
- قوله عز وجل : وما يؤمن أكثرهم بالله - من كونه الخالق الرازق . . ٤١٠
- قوله عز وجل : قل هذه سبيلي ادعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ٤١٥

تمّ الفهرس والحمد لله رب العالمين